زاد المسير في علم التفسير

الجزء الثالث

الطبعة الثالثة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

فصل في نزولها

روى مجاهد عن ابن عباس : أن (الأنعام) مما نزل بمكة . وهذا قول الحسن ، وقتادة ، وجابر بن زيد .

وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة (الأنعام) جملةً ليلاً بمكة ، وحولها سبعون ألفَ مَلَك [1] .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هي مكية ، نزلت جملة واحدة ، ونزلت ليلاً ؛ وكتبوها من ليلتهم ، غير ست آيات وهي (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . .) إلى آخر الثلاث آيات [الأنعام : ١٥١ - ١٥٣] وقوله : (وما قدروا الله حق قدره . . .) الآية [الانعام : ٩١] . وقوله : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أُوحي إليّ) إلى آخر الآيتين [الانعام : ٩٣ ، ٩٤] . وذكر مقاتل نحو هذا . وزاد آيتين : قوله : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنزّل من ربك بالحق) [الانعام : ١١٤] ، وقوله : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ...) [الانعام : ٢١] .

---

(١) ذكره ابن كثير ٢/١٢٢ عن الطبراني في « الكبير » وفيه علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف ضعفه ابن سعد ، والامام أحمد ، وابن معين وغيرهم . وزاد السيوطي في « الدر المنثور » ٣/٢ نسبته لأبي عبيد ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، وابن مردويه .

وروي عن ابن عباس ، وقتادة قالا : هي مكية ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة ؛ قوله : (وما قدروا الله حق قدره . . .) الآية [الانعام : ٩١] . وقوله : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغيرَ معروشات) [الانعام : ١٤١] . وذكر أبو الفتح ابن شيطا : أنها مكية ، غير آيتين نزلتا بالمدينة (قل تعالوا . . .) والتي بعدها [الانعام : ١٥١ ، ١٥٢] .

﴿ اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

فأما التفسير ، فقال كعب : فاتحة (الكهف) فاتحة (الأنعام) ، وخاتمتها خاتمة (هود) ؛ وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المخلوقات . والمراد « بالجَعل » : الخلق . وقيل : إنَّ « جَعَلَ » ههنا : صلة ؛ والمعنى : والظلمات. وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال . أحدها : الكفر والإيمان ، قاله الحسن . والثاني : الليل والنهار ، قاله السدي . والثالث : جميع الظلمات والأنوار .

قال قتادة : خلق الله السموات ِ قبل الأرض، والظلمات ِ قبل النور، والجنةَ قبل النار .

قوله تعالى : (ثم الذين كفروا) يعني : المشركين بعد هذا البيان (بربهم يعدلون) ، أي : يجعلون له عَدِيلاً ، فيعبدون الحجارة المواتَ ، مع إقرارهم بأنه الخالق لِما وُصِف . يقال : عدلت هذا بهذا : إذا ساويته به . قال أبو عبيدة : هو مقدَّم ومؤخَّر ، تقديره : يعدلون بربهم . وقال النَّضْر بن شُميل : الباء : بمعنى « عن » .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من طين) يعني : آدم ، وذلك أنه لما شك

المشركون في البعث ، وقالوا : من يحيي هذه العظام ؟ أعلمهم أنه خلقهم من طين ، فهو قادر على إعادة خلقهم .

قوله تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) فيه ستة أقوال .

أحدها : أن الأجل الأول : أجل الحياة إلى الموت ، والثاني : أجل الموت إلى البعث ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، وابن المسيب ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أن الأجل الأول : النوم الذي تُقبَضُ فيه الروح ، ثم ترجع في حال اليقظة ؛ والأجل المسمى عنده : أجل موت الإنسان . رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن الأجل الأول : أجل الآخرة متى يأتي ، والأجل الثاني : أجل الدنيا ، قاله مجاهد في رواية .

والرابع : أن الأول : خلق الأشياء في ستة أيام ، والثاني : ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : أن الأول : قضاه حين أخذ الميثاق على خلقه ، والثاني : الحياة في الدنيا ، قاله ابن زيد ، كأنه يشير إلى أجل الذرية حين أحياهم وخاطبهم .

والسادس : أن الأول : أجل من قد مات من قبل ، والثاني : أجل من يموت بعد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ثم أنتم) أي بعد هذا البيان (تمترون) وفيه قولان .

أحدهما : تشكّون ، قاله قتادة ، والسدي . وفيما شكوا فيه قولان . أحدهما : الوحدانية ، والثاني : البعث .

والثاني : يختلفون : مأخوذ من المراء ، ذكره الماوردي .

﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الله في السموات وفي الأرض) فيه أربعة أقوال .

أحدها : هو المعبود في السموات وفي الأرض ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : وهو المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض ، قاله الزجاج .

والثالث : وهو الله في السموات ، ويعلم سركم وجهركم في الأرض ، قاله ابن جرير .

والرابع : أنه مقدَّم ومؤخَّر . والمعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات والأرض ، ذكره بعض المفسّرين .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾

قوله تعالى : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) نزلت في كفار قريش . وفي الآية قولان . أحدهما : أنها الآية من القرآن ، والثاني : المعجزة ، مثل انشقاق القمر .

والمراد بالحق : القرآن . والأنباء : الأخبار . والمعنى : سيعلمون عاقبة استهزائهم .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) القرن : اسم أهل كل عصر .

وسمّوا بذلك ، لاقترانهم في الوجود . وللمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقوال .

أحدها : أنه أربعون سنة ، ذكره ابن سيرين عن النبي ﷺ .

والثاني : ثمانون سنة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : مائة سنة ، قاله عبد الله بن بشر المازني ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

والرابع : مائة وعشرون سنة ، قاله زُرارة بن أوفى ، وإياس بن معاوية .

والخامس : عشرون سنة ، حكاه الحسن البصري .

والسادس : سبعون سنة ، ذكره الفراء .

والسابع : أن القرن : أهل كل مدة كان فيها نبيٌ ، أو طبقة من العلماء ، قلّتِ السِّنون ، أو كثرت ؛ بدليل قوله ﷺ : « خيركم قرني » يعني : أصحابي « ثم الذين يلونهم » يعني : التابعين « ثم الذين يلونهم »[1] يعني : الذين أخذوا عن التابعين . فالقرن : مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان ، فهو في كل قوم على مقدار أعمارهم ؛ واشتقاق القرن : من الاقتران . وفي معنى ذلك الاقتران قولان .

أحدهما : أنه سمي قرناً ، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم . هذا اختيار الزجاج .

---

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري في « صحيحه » (٥/١٩٠) بشرح « الفتح » عن عمران ابن حصين رضي الله عنه ، وتمامه ، قال عمران : لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة ، قال النبي ﷺ : « إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » ورواه البخاري ٥/١٩١ ومسلم ٤/١٩٦٣ في « صحيحيهما » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » ورواه مسلم ٤/١٩٦٢ بلفظ « خير أمتي قرني . . . » وانظر الكلام على هذا الحديث في « فتح الباري » ٧/٥ .

والثاني : أنه سمي قرناً ، لأنه يَقْرِنُ زماناً بزمانٍ ، وأُمَّةً بأُمَّةٍ ، قاله ابن الأنباري . وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال : يرون أن أقل ما بين القرنين : ثلاثون سنة .

قوله تعالى : (مكناهم في الأرض) قال ابن عباس : أعطيناهم ما لم نُعطِكم . يقال: مكَّنتُه ومكَّنتُ له : إذا أقدرته على الشيء باعطاء ما يصح به الفعل من العدة . وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب .

فأما السماء : فالمراد بها المطر . ومعنى « أرسلنا » : أنزلنا . و« المدرار » : مفعال ، من درَّ ، يَدِرُّ ؛ والمعنى : نرسلها كثيرة الدَّرِّ .

ومِفعال : من أسماء المبالغة ، كقولهم : امرأة مذكار : إذا كانت كثيرة الولادة للذكور ، وكذلك مئناث

فان قيل : السماء مؤنثة ، فلم ذكَّر مدراراً ؟!

فالجواب : أن حكم ما انعدل من النعوت عن منهاج الفعل وبنائه ، أن يلزم التذكير في كلِّ حال ، سواء كان وصفاً لمذكر أو مؤنث ؛ كقولهم : امرأة مذكار ، ومعطار ؛ وامرأة مذكر ، ومؤنث ؛ وهي كفور ، وشكور . ولو بُنيتْ هذه الأوصاف على الفعل ، لقيل : كافرة ، وشاكرة ، ومُذْكِرَة ؛ فلما عدل عن بناء الفعل ، جرى مجرى ما يستغني بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة ؛ كقولهم : النعلَ لبستُها ، والفأسَ كسرتُها ، وكان إيثارهم التذكير للفرق بين المبني على الفعل ، والمعدول عن مثلِ الأفاعيل . والمراد بالمدرار : المبالغة في اتصال المطر ودوامه ؛ يعني : أنها تَدِرُّ وقت الحاجة إليها ؛ لا أنها تدوم ليلاً ونهاراً ، فتفسد ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس) سبب نزولها : أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون أنه من عند الله ، وأنك رسوله ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . قال ابن قتيبة : والقرطاس : الصحيفة ، يقال للرامي إذا أصاب الصحيفة : قَرْطَسَ [١] . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : القرطاس قد تكلموا به قديماً . ويقال : إن أصله غير عربي . والجمهور على كسر قافه ، وضمها أبو رزين ، وعكرمة ، وطلحة ، ويحيى بن يعمر .

فأما قوله تعالى : (فلمسوه بأيديهم) فهو توكيد لنزوله ، وقيل : إنما علّقه باللمس باليد إبعاداً له عن السحر ، لأن السحر يُتَخَيَّلُ في المرئيات ، دون الملموسات. ومعنى الآية : إنهم يدفعون الصحيح .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾

---

(١) اختصر المؤلف رحمه الله كلام ابن قتيبة ، وإليك نصه بتمامه من « غريب القرآن » ١٥٠ : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) أي : صحيفة ، وكذلك قوله : (تجعلونه قراطيس) أي : صحفاً . قال المرار .

عَفَتِ المنازِلُ غير مثل الأنقسِ ... بعد الزَّمانِ عرفتُهُ بالقِرْطَسِ
فوقفتَ تعترف الصَّحيفةَ بعدما ... عمس الكتاب وقد يُرى لم يَعْمَسِ

والأنقس : جمع نقس ، مثل قدح وأقدح وأقداح . أراد غير مثل النقس عرفته بالقرطاس ، ثم قال : « فوقفت تعترف الصحيفة » فأعلمك أن القرطاس هو الصحيفة ، ومنه يقال للرامي إذا أصاب : قرطس ، انما يراد أصاب الصحيفة .

قوله تعالى : (وقالوا لولا أُنزِلَ عليه مَلَكٌ) قال مقاتل : نزلت في النضر ابن الحارث ، وعبد الله بن أبي أُمية ، ونوفل بن خُويلد ؛ و « لولا » بمعنى « هلاّ » (أُنزل عليه ملك) نصدقه ؛ (ولو أنزلنا ملكاً) فعاينوه ولم يؤمنوا ، (لقضي الأمر) ؛ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : لماتوا ، ولم يؤخروا طرفة عين لتوبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : لقامت الساعة ، قاله عكرمة ، ومجاهد .

والثالث : لعجل لهم العذاب ، قاله قتادة .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو جعلناه) أي : ولو جعلنا الرسول إليهم مَلَكاً ، لجعلناه في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون رؤية المَلَك على صورته ، (وللَبَسْنا عليهم) أي : لشبَّهنا عليهم . يقال : ألبست الأمر على القوم ، ألبِسه ؛ أي : شبهته عليهم ، وأشكلته . والمعنى : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكّوا ، فلا يدرون أمَلَكٌ هو ، أم آدميٌ ؛ فأضللناهم بما به ضلّوا ، قبل أن يُبعث المَلَك . وقال الزجاج : كانوا يلبّسون على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ ، فيقولون : إنما هذا بشر مثلكم ؛ فقال تعالى : لو رأوا المَلَك رجلاً ، لكان يلحقهم فيه من الّلبْس مثلُ مالحق ضعفتهم منه . وقرأ الزهري ، ومعاذ القارئ ، وأبو رجاء : « وللبّسنا » ، بالتشديد ، « عليهم ما يلبّسون » ، مشددة أيضاً .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

قوله تعالى : (فحاق بالذين سخروا) أي : أحاط . قال الزجاج : الحيق في اللغة : ما اشتمل على الإنسان من مكروه فعله ، ومنه : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) [فاطر : ٤٣] ؛ أي : لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم . قال السدي : وقع بهم العذاب الذي استهزؤوا به .

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لمن ما في السموات والأرض) المعنى : فان أجابوك، وإلا فـ (قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة) قال ابن عباس : قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين . قال الزجاج : ومعنى كتب : أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً ، وجائز أن يكون كتب في اللوح المحفوظ ؛ وإنما خُوطِبَ الخلقُ بما يعقلون ، فهم يعقلون أن توكيد الشيء المؤخَّر أن يحفظ بالكتاب . وقال غيره : رحمته عامة ؛ فمنها تأخير العذاب عن مستحقه ، وقبول توبة العاصي .

قوله تعالى : (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام : لام القسم . كأنه قال :والله ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه . وذهب قوم إلى أن « إلى » بمعنى : « في » . ثم اختلفوا ، فقال قوم : في يوم القيامة . وقال آخرون : في قبوركم إلى يوم القيامة.

قوله تعالى : (الذين خسروا أنفسهم) أي : بالشرك ،(فهم لا يؤمنون)، لما سبق فيهم من القضاء . وقال ابن قتيبة : قوله : (الذين خسروا أنفسهم) مردود إلى قوله : (كيف كان عاقبة المكذبين) الذين خسروا

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وله ما سكن في الليل والنهار) سبب نزولها أن كفار مكة

قالوا للنبي ﷺ : قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعونا إليه الحاجة ؛ فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون من أغنانا رجلاً ، وترجع عما أنت عليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وفي معنى « سكن » قولان .

أحدهما : أنه من السكنى . قال ابن الأعرابي : « سكن » بمعنى حلّ .

والثاني : أنه من السكون الذي يضاد الحركة . قال مقاتل : من المخلوقات ما يستقر بالنهار ، وينتشر بالليل ؛ ومنها ما يستقر بالليل ، وينتشر بالنهار .

فإن قيل : لم خص السكون بالذكر دون الحركة ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن السكون أعم وجوداً من الحركة .

والثاني : أن كل متحرك قد يسكن ، وليس كل ساكن يتحرك .

والثالث : أن في الآية إضماراً ؛ والمعنى : وله ما سكن وتحرك ؛ كقوله (تقيكم الحر) [النحل : ٨٢] أراد : والبرد ؛ فاختصر .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل أغير الله أتخذ ولياً) ذكر مقاتل أن سبب نزولها ، أن كفّار قريش قالوا : يا محمد ، ألا ترجع إلى دين آبائك ؟ فنزلت هذه الآية . وهذا الاستفهام معناه الإنكار ؛ أي : لا أتخذ ولياً غير الله أتولاه ، وأعبده ، وأستعينه .

قوله تعالى : (فاطر السموات والأرض) الجمهور على كسر راء « فاطر » . وقرأ ابن أبي عبلة برفعها . قال أبو عبيدة : الفاطر ، معناه : الخالق . وقال ابن

قتيبة : المبتدىء . ومنه « كل مولود يولد على الفطرة »[1] أي : على ابتداء الخلقة، وهو الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم . وقال ابن عباس : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ؛ فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : أنا ابتدأتها . قال الزجاج : إن قيل : كيف يكون الفطر بمعنى الخلق ؟ والانفطار : الانشقاق في قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) [الانفطار : ١] فالجواب : إنما يرجعان إلى شيء واحد ، لأن معنى « فطرهما » : خلقها خلقاً قاطعاً . والانفطار ، والفطور : تقطُّعٌ وتشقُّقٌ .

قوله تعالى : (وهو يُطْعِمُ ولا يُطعَمُ) قرأ الجمهور بضم الياء من الثاني ؛ ومعناه : وهو يَرزق ولا يُرزق ، لأن بعض العبيد يرزق مولاه . وقرأ عكرمة والأعمش « ولا يَطعم » بفتح الياء . قال الزجاج : وهذا الاختيار عند البصراء بالعربية، ومعناه : وهو يَرزق ويُطْعِمُ ولا يأكل .

قوله تعالى : (إني أُمرت أن أكون أول من أسلم) أي : أول مسلم من هذه الأمة ؛ (ولا تكونن من المشركين) قال الأخفش : معناه : وقيل لي : لا تكونَنَّ ، فصارت : أمرت ، بدلاً من ذلك ؛ لأنه حين قال : أمرت ، قد أخبر أنه قيل له .

---

(١) البخاري (٣/١٩٧) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء » ورواه البخاري أيضاً (٣/١٧٦) ومسلم في « صحيحه » (٤/٢٠٤٧) بلفظ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » ثم يقول أبو هريرة : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ...) الآية . ورواه أحمد في « المسند » عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فاذا عبر عنه لسانه ، إما شاكراً ، وإما كفوراً » وفي رواية لمسلم (٤/٢٠٤٨) « ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة ، حتى يعبر عنه لسانه» وفي رواية له أيضاً « حتى يبين عنه لسانه » .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب ، ثم نسخ ذلك بقوله : (ليغفر لكَ اللهُ ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر) [الفتح : ٣] والصحيح أن الآيتين خبر ، والخبر لا يدخله النسخ ، وإنما هو معلق بشرط ، ومثله : (لئن أشركت ليحبَطن عملك) [الزمر : ٦٦] .

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (من يصرف عنه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم (من يُصرَفْ) بضم الياء وفتح الراء ، يعنون : العذاب . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم (يَصرِف) بفتح الياء وكسر الراء ؛ الضمير قوله : (إن عصيت ربي) ؛ ومما يحسِّنُ هذه القراءة قوله : (فقد رحمه) ، فقد اتفق إسناد الضميرين إلى اسم الله تعالى ، ويعني بقوله : (يصرف) العذاب (يومئذ) ، يعني : يوم القيامة ، (وذلك) يعني : صرف العذاب .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر) الضر : اسم جامع لكل ما يتضرَّرُ به الإنسان ، من فقر ، ومرض ، وغير ذلك ؛ والخير : اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان .

وللمفسرين في الضر والخير قولان .

أحدهما : أن الضر : السقم ؛ والخير : العافية

والثاني : أن الضر : الفقر ، والخير : الغنى .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) القاهر : الغالب ، والقهر : الغلبة . والمعنى : أنه قهر الخلق فصرّفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً ؛ فهو المستعلي عليهم ، وهم تحت التسخير والتذليل .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أيّ شيء أكبر شهادة) سبب نزولها : أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، ما نرى أحداً يصدِّقك بما تقول ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد أنك رسول الله ؛ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية : قل لقريش : أيُّ شيء أعظم شهادة ؟ فان أجابوك ، وإلا فقل : الله ، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول .

وقال الزجاج : أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نُبُوَّته أكبر شهادة ، وأن القرآن الذي أتى به ، يشهد له أنه رسول الله ، وهو قوله : (وأُوحيَ إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به) ففي الإنذار به دليل على نبوته ، لأنه لم يأت أحد بمثله ، ولا يأتي ؛ وفيه خبر ما كان وما يكون ؛ ووعد فيه بأشياء ، فكانت كما قال . وقرأ عكرمة ، وابن السميفع ، والجحدري (وأَوحى إليَّ) بفتح الهمزة والحاء (القرآنَ) بالنصب ؛ فأما « الإنذار » ، فمعناه : التخويف ، ومعنى (ومن بلغ) أي : من بلغ إليه هذا القرآن ، فاني نذير له . قال القرظي : من بلغه القرآن

فكأنما رأى النبي ﷺ، وكلّمه (١) . وقال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية، كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبّار يدعوهم إلى الله عز وجل .

قوله تعالى : (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أُخرى) هذا استفهام معناه الانكار عليهم . قال الفراء : وإنما قال : « أُخرى » ولم يقل : « آخر » لأن الآلهة جمع ؛ والجمع يقع عليه التأنيث، كما قال : (ولله الأسماء الحسنى) [الاعراف : ١٨١] وقال : (فما بال القرون الأولى) [طه : ٥٢] .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب) في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه التوراة والإنجيل ؛ وهذا قول الجمهور .

والثاني : أنه القرآن .

وفي هاء « يعرفونه » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله السدي . وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام : إن الله قد أنزل على نبيه بمكة (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [البقرة : ١٤٧، والانعام : ٢١] فكيف هذه المعرفة ؟ فقال : لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني . فقال عمر : وكيف ذاك ؟ فقال : إني أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء .

---

(١) الطبري : ٢٩١/١١ دون قوله « وكلمه »، وفيه : ثم قرأ (ومن بلغ أئنكم لتشهدون) ونسبه ابن كثير : ١٢٦/٢ إلى ابن أبي حاتم، وقال : زاد أبو خالد — وهو أحد رواة الخبر — و « كلمه » .

والثاني : أنها ترجع إلى الدين والنبي . فالمعنى : يعرفون الإسلام أنه دين الله عز وجل ، وأن محمداً رسول الله ، قاله قتادة .

والثالث : أنها ترجع إلى القرآن . فالمعنى : يعرفون الكتاب الدال على صدقه ؛ ذكره الماوردي .

وفي (الذين خسروا أنفسهم) قولان .

أحدهما : أنهم مشركو مكة .

والثاني : كفار أهل الكتابين .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أي : اختلق على الله الكذب في ادعاء شريك معه . وفي « آياته » قولان .

أحدهما : أنها محمد والقرآن ، قاله ابن السائب . والثاني : القرآن ، قاله مقاتل .

والمراد بالظلم المذكور في هذه الآية : الشرك .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً) انتصب « اليوم » بمحذوف تقديره : واذكر يوم نحشرهم . قال ابن جرير : والمعنى : لا يفلحون اليوم ، ولا يوم نحشرهم . وقرأ يعقوب : (يحشرهم) (ثم يقول) بالياء فيهما .

وفي الذين عنى قولان .

أحدهما : المسلمون والمشركون . والثاني : العابدون والمعبودون .

وقوله : (أين شركاؤكم) سؤال توبيخ . والمراد بشركائهم : الأوثان ؛ وإنما أضافها إليهم لأنهم زعموا أنها شركاء لله .

وفي معنى (يَزْعُمون) قولان . أحدهما : يزعمون أنهم شركاء مع الله . والثاني : يزعمون أنها تشفع لهم .

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « ثم لم تكن » بالتاء ، « فتنتُهم » بالرفع . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تكن » بالتاء أيضاً ، « فتنتَهم » بالنصب ؛ وقد رُويت عن ابن كثير أيضاً . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يكن » بالياء ، « فتنتَهم » بالنصب .

وفي « الفتنة » أربعة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى الكلام والقول . قال ابن عباس ، والضحاك : لم يكن كلامُهُم .

والثاني : أنها المعذرة . قال قتادة ، وابن زيد : لم تكن معذرتهم . قال ابن الأنباري : فالمعنى : اعتذروا بما هو مُهْلِكٌ لهم ، وسبب لفضيحتهم .

والثالث : أنها بمعنى البلية . قال عطاء الخراساني : لم تكن بليتهم . وقال أبو عبيد : لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة ، وزادتهم لائمة .

والرابع : أنها بمعنى الافتتان . والمعنى : لم تكن عاقبة فتنتهم .

قال الزجاج : لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه . ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاوياً ، فاذا وقع في هلَكَةٍ تبرأ منه ؛ فيقول : ماكانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه . قال : وهذا تأويل لطيف ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرُّفَ العربِ في ذلك .

وقال ابن الأنباري: المعنى : أنهم افتتنوا بقولهم هذا ، إذ كذبوا فيه ، ونفَوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا .

قوله تعالى : (إلا أن قالوا واللهِ ربِّنا ما كنا مشركين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « واللهِ ربِّنا » بكسر الباء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بنصب الباء .

وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون . والثاني : المنافقون (١) .

ومتى يحلفون ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً ، قالوا : تعالوا نكابر عن شركنا ، فحلفوا ، قاله ابن عباس (٢) .

والثاني : أنهم إذا دخلوا النار ، ورأوا أهل التوحيد يخرجون ، حلفوا [واعتذروا] ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

---

(١) قال ابن كثير بعد أن نقل هذا القول عن ابن عباس : وفيه نظر ، فان هذه الآية مكية ، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتي نزلت في المنافقين آية [المجادلة : ١٨] (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له) .

(٢) الطبري ١١/٣٠٢ وذكره ابن كثير ٢/١٢٧ عن ابن أبي حاتم وإسناده حسن ، و نصه : عن سعيد بن جبير قال : أتى رجل ابن عباس فقال : سمعت الله يقول : (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال في آية أخرى: (ولا يكتمون الله حديثاً) [النساء : ٤٢] قال ابن عباس : أما قوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) فانه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الاسلام ، قالوا : تعالوا نجحد ، فقالوا : (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثاً) وفي رواية للطبري ٨/٣٧٤ تبين أن السائل هو نافع بن الأزرق ، وكان يأتي ابن عباس ليلقي عليه متشابه القرآن .

والثالث : أنهم إذا سئلوا : أين شركاؤكم ؟ تبرؤوا ، وحلفوا : ما كنا مشركين ، قاله مقاتل .

﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أُنظر كيف كذَبوا على أنفسهم) أي : باعتذارهم بالباطل .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي : ذهب ما كانوا يدّعون ويختلقون من أن الأصنام شركاء لله ، وشفعاؤهم في الآخرة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْؤَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يستمع إليك) سبب نزولها : أن نفراً من المشركين ، منهم عتبة ، وشيبة ، والنضر بن الحارث ، وأُميَّةُ وأُبيّ ابنا خلف ، جلسوا إلى رسول الله ﷺ ، واستمعوا إليه ، ثم قالوا للنضر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بَنِيَّةً ، ما أدري ما يقول ؟ إلا أني أرى تحرُّك شفتيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين ، مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ؛ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأُولى ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

فأما « الأكنّة » ، فقال الزجاج : هي جمع كِنان ، وهو الغطاء ؛ مثل عِنان وأعِنَّة .

وأما : « أن يفقهوه » ، فمنصوب على أنه مفعول له . المعنى : وجعلنا على قلوبهم أكنّة لكراهة أن يفقهوه ، فلما حذفت اللام ، نصبت الكراهة ؛ ولما حذفت الكراهة ، انتقل نصبُها إلى « أنْ » .

« الوقر » : ثِقَلُ السمع ، يقال : في أذنه وَقْر ، وَقد وُقِرَتِ الأذن ، تُوْقَر .

قال الشاعر :

وكلامٌ سيِّئٍ قد وُقِرَتْ أذُني عنه وما بي من صَمَمْ(١)

والوِقر ، بكسر الواو ؛ أن يُحَمَّل البعير وغيره مقدار ما يطيق ، يقال : عليه وَقْر ، ويقال : نخلة موقِر ، وموقِرة ، وإنما فُعل ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم ، وليس المعنى أنهم لم يفهموه ، ولم يسمعوه ؛ ولكنهم لما عدلوا عنه ، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة ، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع . (وإن يروا كل آية) أي : كل علامة تدل على رسالتك ، (لا يؤمنوا بها) .

ثم أعلم الله عز وجل مقدار احتجاجهم وجدلهم ، وأنهم إنما يستعملون في الاحتجاج أن يقولوا : (إنْ هذا) ، أي : ما هذا (إلا أساطير الأولين) وفيها قولان .

أحدها : أنها ما سُطِّر من أخبارهم وأحاديثهم . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : أساطير الأولين : كذبهم ، وأحاديثهم في دهرهم . وقال أبو الحسن الأخفش : يزعم بعضهم أن واحدة الأساطير : أسطورة . وقال بعضهم : أساطيرة ؛ ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد ، نحو عباديد ، ومذاكير ، وأبابيل . وقال ابن قتيبة : أساطير الأولين : أخبارهم وما سطر منها ، أي : ما كتب ، ومنه قوله : (نٓ . والقلم وما يسطرون)[القلم : ١، ٢] أي : يكتبون ، واحدها سطر ،

(١) البيت للمثقب العبدي من قصيدة حكمية جيدة أثبتها صاحب « المفضليات » ٢٩٣ .

ثم أسطار ، ثم أساطير جمع الجمع ، مثل قول ، وأقوال ، وأقاويل [١] .

والقول الثاني : أن معنى أساطير الأولين : التُرَّهات . قال أبو عبيدة : واحد الأساطير : أسطورة ، وإسطارة ، ومجازها مجاز التُرهات . قال ابن الأنباري : الترهات عند العرب : طرق غامضة ، ومسالك مشكلة ، يقول قائلهم : قد أخذنا في تَرهات البسابس ، يعني : قد عدلنا عن الطريق الواضح إلى المشكل ؛ وعما يعرف إلى مالا يعرف . و « البسابس » : الصحاري الواسعة ، والتُرَّهات : طرق تتشعب من الطريق الأعظم ، فتكثر وتُشكِل ، فجُعلت مثلاً لما لا يصح وينكشف .

فان قيل : لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة ، وما لا عيب على قائله ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحي من الله .

والثاني : أنهم عابوه بالإشكال والغموض ، استراحة منهم إلى البهت والباطل. فعلى الجواب الأول تكون « أساطير » من التسطير ، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات، وقد شرحنا معنى التُرَّهات .

قوله تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، ويتباعدُ عمَّا جاء به ، فنزلت فيه هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وهو قول عمرو بن دينار ، وعطاء بن دينار ، والقاسم بن مخيمرة [٢] . وقال مقاتل :

---

(١) « غريب القرآن » : ٣٧ .

(٢) هو أبو عروة القاسم بن مخيمرة الهمداني الكوفي ، نزيل دمشق ، ثقة فاضل مترجم في « التهذيب » .

كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام ، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً ، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم ، فيقتلوه ، فقال : مالي عنه صبر ؛ فقالوا : ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك ؛ فقال أبو طالب : حين تروح الإبل ، فان حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعتُه إليكم ، وقال :

والله لنْ يصلُوا إليْكَ بجَمْعِهِم حَتَّى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفينَا
فاصْدَعْ بأَمْرِكَ ماعَلَيْكَ غَضاضَةٌ وابْشِرْ وقَرَّ بذاكَ مِنْكَ عُيُونا
وعَرَضْتَ دِيناً لا مَحالَةَ أنَّه مِنْ خَيْرِ أدْيانِ البَرِيَّةِ دِينا
لَولا المَلامَةُ أو حَذاري سُبَّةً لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذاكَ مُبِيْنا

فنزلت فيه هذه الآية .

والثاني : أن كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ ، ويتباعدون بأنفسهم عنه ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وبه قال ابن الحنفية ، والضحاك ، والسدّي . فعلى القول الأول ، يكون قوله : « وهم » كنايةً عن واحد ؛ وعلى الثاني : عن جماعة .

وفي هاء « عنه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى النبي ﷺ . ثم فيه قولان . أحدهما : ينهون عن أذاه ؛ والثاني : عن اتّباعه .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . (وينأون) بمعنى يبعدون . وفي هاء « عنه » قولان . أحدهما : أنها راجعة إلى النبي ﷺ . والثاني : إلى القرآن .

قوله تعالى : (وإن يهلكون) أي : وما يهلكون (إلا أنفسهم) بالتباعد عنه (وما يشعرون) أنهم يهلكونها .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار) في معنى « وقفوا » ستة أقوال .

أحدها : حُبِسُوا عليها ، قاله ابن السائب . والثاني : عُرِضُوا عليها ، قاله مقاتل .

والثالث : عاينوها . والرابع : وقفوا عليها وهي تحتهم .

والخامس : دخلوا إليها فعرفوا مقدار عذابها ، تقول : وقفت على ما عند فلان ، أي : فهمته وتبيَّنتُه ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج ، واختار الأخير .

وقال ابن جرير : « على » هاهنا بمعنى « في » .

والسادس : جعلوا عليها وقفاً ، كالوقوف المؤبَّدة على سبلها ، ذكره الماوردي .

والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ ، والوعيد للكفار ، وجواب « لو » محذوف ، ومعناه : لو رأيتهم في تلك الحال ، لرأيت عجباً .

قوله تعالى : (ولا نكذبَ بآيات ربّنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر ، عن عاصم برفع الباء من « نكذبُ » ، والنون من « نكونُ » .

قال الزجاج : والمعنى أنهم تمنَّوا الرد ، وضمنوا أنهم لا يكذِّبون . والمعنى : يا ليتنا نُرَدُّ ، ونحن لا نكذب بآيات ربّنا ، رُدِدْنا أو لم نُردّ ، ونكون من المؤمنين ، لأنا قد عاينا ما لا نُكَذِّب معه أبداً .

قال : ويجوز الرفع على وجه آخر ، على معنى « يا ليتنا نرد » ، يا ليتنا لا نكذب ، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق .

وقال الأخفش : إذا رفعت جملته على مثل اليمين ، كأنهم قالوا : ولا نكذب ـ والله ـ بآياتِ ربِّنا ، ونكون ـ والله ـ من المؤمنين . وقرأ حمزة إلا العجليّ[1] ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب : بنصب الباء من « نكذبَ » ، والنون من « نكونَ » .

قال مكي بن أبي طالب : وهذا النصب على جواب التمني ، وذلك باضمار « أن » ، حملاً على مصدر « نرد » ، فأضمرت « أن » لتكون مع الفعل مصدراً ، فعطف بالواو مصدراً على مصدر . وتقديره : يا ليت لنا رداً ، وانتفاءً من التكذيب ، وكوناً من المؤمنين . وقرأ ابن عامر برفع الباء من « نكذبُ » ، ونصب النون من « نكونَ » ؛ فالرفع قد بيَّنا عانه ، والنصب على جواب التمني .

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

قوله تعالى : (بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبل) « بل » : هاهنا ردّ لكلامهم ، أي : ليس الأمر على ما قالوا من أنهم لو ردُّوا لآمنوا .

وقال الزجاج : « بل » استدراك وإيجاب بعد نفي ؛ تقول : ما جاء زيد ، بل عمرو وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : بدا ما كان يخفيه بعضهم عن بعض ، قاله الحسن .

والثاني : بدا بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بألسنتهم ، قاله مقاتل .

والثالث : بدا لهم جزاء ماكانوا يخفونه ، قاله المبرد .

---

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن صالح بن مسلم بن صالح العجلي الكوفي نزيل بغداد ، مقرىء مشهور ثقة ، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة الزيات ، وعن سليم عن حمزة أيضاً ، مات في حدود العشرين ومائتين .

والرابع : بدا للأتباع ماكان يُخفيه الرؤساء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه) قال ابن عباس : لعادوا إلى ما نُهوا عنه من الشرك ، وإنهم لكاذبون في قولهم : (ولا نكذبَ بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين) .

قال ابن الأنباري : كذّبهم الله في إخبارهم عن أنفسهم ، أنهم إن رُدّوا ، آمنوا ولم يكذبوا ، ولم يكذِّبْهم في التمني .

قوله تعالى : (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا) هذا إخبار عن منكري البعث . قال مقاتل : لما أخبر النبي ﷺ كفار مكة بالبعث ، قالوا هذا . وكان عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يقول : هذا حكاية قولهم ، لو ردوا لقالوه .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) قال مقاتل : عُرِضُوا على ربهم (قال : أليس هذا) العذاب (بالحق) . وقال غيره : أليس هذا البعث حقاً ؟ فعلى قول مقاتل : (بما كنتم تكفرون) بالعذاب ، وعلى قول غيره : (تكفرون) بالبعث .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله) إنما وُصِفُوا بالخسران ، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم .

والمراد بلقاء الله : البعث والجزاء ؛ والساعة : القيامة ؛ والبغتة : الفجأة .

قال الزجاج : كلُّ ما أتى فجأة فقد بغت ، يقال : قد بغته الأمر يَبْغَتُه بَغْتاً وبغتةً : إذا أتاه فجأة . قال الشاعر :

وَلَكِنَّهم بانُوا وَلَمْ أخْشَ بَغْتَةً وَأَفْظَعُ شَيءٍ حِينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ[1]

قوله تعالى : (يا حسرتنا) الحسرة : التلهف على الشيء الفائت ، وأهل التفسير يقولون : يا ندامتنا .

فان قيل : ما معنى دعاء الحسرة ، وهي لا تعقِلُ ؟

فالجواب : أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه ، جعلته نداءً ، فَتُدْخِلُ عليه « يا » للتنبيه ، والمراد تنبيه الناس ، لا تنبيه المنادى. ومثله قولهم : لا أرينَّك هاهنا ، لفظه لفظ الناهي لنفسه ، والمعنى للمنهي ؛ ومن هذا قولهم : ياخَيْلَ الله اركبي ، يراد : يافرسان خيل الله . وقال سيبويه : إذا قلتَ : ياعجباه ، فكأنك قلت : احضر وتعال ياعَجَبُ ، فهذا زمانك . فأما التفريط فهو : التضييع .

وقال الزجاج : التفريط في اللغة : تقدمة العجز[2] . وفي المكني عنه بقوله : « فيها » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الدنيا ، فالمعنى : على ما ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة ، قاله مقاتل .

---

(١) « مجاز القرآن » : ١/١٩٣ ، و « الكامل » : ٨٧٨ ، و « اللسان » : بغت ، وهو ليزيد ابن ضبة مولى لثقيف ، واسم أبيه مقسم ، وضبة أمه ، غلبت على نسبه ، لأن أباه مات وخلفه صغيراً . وهو شاعر إسلامي .

(٢) في « اللسان » وقال الزجاج : (وكان أمره فرطاً) ، أي : كان أمره التفريط ، وهو تقديم العجز .

والثاني : أنها الصَّفقة ، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة ، وتَرْك ذكرها اكتفاءً بذكر الخسران ؛ قاله ابن جرير .

والثالث : أنها الطاعة ، ذكره بعض المفسرين .

فأما الأوزار ، فقال ابن قتيبة : هي الآثام ، وأصل الوزر : الحمل على الظهر .

وقال ابن فارس : الوزر : الثقل . وهل هذا الحمل حقيقة ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه على حقيقته . قال عمير بن هانئ : يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح ، كلَّما كان هَوْلٌ عظَّمه عليه ، وزاده خوفاً ، فيقول : بئس الجليس أنت ، مالي ولك ؟ فيقول : أنا عملك ، طالما ركبتني في الدنيا ، فلأركبنك اليوم حتى أُخزيَك على رؤوس الناس ، فيركبُه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه ، فذلك قوله : (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) وهذا قول السدي، وعمرو بن قيس الملائي [1] ، ومقاتل .

والثاني : أنه مثل ، والمعنى : يحملون ثقل ذنوبهم ، قاله الزجاج . قال : فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقلِ ما يُتحمَّل ، ومعنى (ألا ساء ما يزرون) : بئس الشيء شيئاً يزرونه ، أي يحملونه .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ) فيه ثلاثة أقوال .

---

(١) هو أبو عبد الله عمرو بن قيس ، الملائي الكوفي ، ثقة فاضل متعبد ، مترجم في « التهذيب » وغيره . وقد خرج الطبري أثره ١١/٣٢٧ ، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » ٣/٩ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وإسناد ابن أبي حاتم فيما رواه ابن كثير : ٢/١٢٩ : حدثنا أبو سعيد الأشج ، قال : حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي مرزوق .

أحدها : وما الحياة الدنيا في سرعة انقطاعها، وقصر عمرها، إلا كالشيء يلعب به .

والثاني : وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو ، فأما فعل الخير ، فهو من عمل الآخرة ، لا من الدنيا .

والثالث : وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو ، لاشتغالهم عما أُمروا به . واللعب : ما لا يُجدي نفعاً .

قوله تعالى : (وللدار الآخرة خير) اللام : لام القسم ، والدار الآخرة : الجنة (أفلا يعقلون) فيعملون لها . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي، « يعقلون » بالياء ، في (الأنعام) و (الأعراف) و (يوسف) و (يس) ، وقرؤوا في (القصص) بالتاء . وقرأ نافع كل ذلك بالياء ، وروى حفص ، عن عاصم كل ذلك بالتاء ، إلا في (يس) (في الخلق أفلا يعقلون) [يس : ٦٧] ، بالياء . وقرأ ابن عامر الذي في (يس) بالياء ، والباقي بالتاء .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) .

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن رجلاً من قريش يقال له : الحارث بن عامر ، قال : والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ، ولكنا إن نتبعك نُتَخَطَّفْ من أرضنا ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل : كان الحارث بن عامر يكذِّب النبي في العلانية ، فاذا خلا مع أهل بيته ، قال : ما محمد من أهل الكذب ، فنزلت فيه هذه الآية .

والثاني : أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي ﷺ ، قالوا فيما بينهم : إنه لنبي ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح .

والثالث : أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ، ولكن نُكذب الذي جئت به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ناجية بن كعب [١] .

وقال أبو يزيد المدني : لقي رسولُ ﷺ أبا جهل ، فصافحه أبو جهل ، فقيل له : أتصافح هذا الصابىء ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه نبي ، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف ؟ فأنزل الله هذه الآية .

والرابع : أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل ، فقال الأخنس : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد أصادق هو ، أم كاذب ؟ فليس هاهنا من يسمع كلامك غيري . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء ، والسقاية ، والحِجابة ، والنُّبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله السدي [٢] . فأما الذي يقولون ، فهو التكذيب للنبي ﷺ ، والكفر بالله . وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهون به .

قوله تعالى : (فإنهم لا يكذبونك) قرأ نافع ، والكسائي : « يُكْذِبُونَك » بالتخفيف وتسكين الكاف . وفي معناها قولان .

---

(١) الطبري : ١١/٣٣٤ ، مرسلاً عن ناجية بن كعب الأسدي ، ورواه الترمذي ٤/١٠٣ عن علي ، ثم رواه مرسلاً من رواية ناجية بن كعب دون ذكر علي ، وقال : وهذا أصح ، ورواه الحاكم في «المستدرك» ٢/٣١٥ موصولاً بإسناد آخر غير إسناد الترمذي ، وصححه على شرط الشيخين ، قال الشيخ أحمد شاكر في « عمدة التفسير » (٥/٢٥) : فالوصل زيادة من ثقتين ، فهي مقبولة على اليقين ، وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه « على شرط الشيخين » بأنهما لم يخرجا لناجية شيئاً . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب الاسدي شيئاً ، ولكنه تابعي ثقة ، فالحديث صحيح ، وإن لم يكن على شرطهما .

(٢) الطبري : ١١/٣٣٢ .

أحدهما : لا يُلْفُونَك كاذباً ؛ قاله ابن قتيبة .

والثاني : لا يكذِّبون الشيء الذي جئت به ، إنما يجحدون آياتِ الله ، ويتعرَّضون لعقوباته . قال ابن الأنباري : وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة بأن العرب تقول : كذبْتُ الرجل : إذا نسبْتَه إلى الكذبِ وصنعة الأباطيل من القول ؛ وأكذبتُه : إذا أخبرتَ أن الذي يحدِّث به كذب ، ليس هو الصانع له . قال : وقال غير الكسائي : يقال : أكذبتُ الرجل : إذا أدخلتَه في جملة الكذّابين ، ونسبتَه إلى صفتهم ، كما يقال : أبخلتُ الرجل : إذا نسبتَه إلى البخل ، وأجبنتُه : إذا وجدتَه جباناً .

قال الشاعر :

فَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرُونِي بِحُبِّكُمْ   وَطَائِفَةٌ قالوا مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ[1]

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، وابن عامر : « يكَذِّبونك » بالتشديد وفتح الكاف ؛ وفي معناها خمسة أقوال .

أحدها : لا يكذِّبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب عِناد وبَهْتٍ ، قاله قتادة ، والسدي .

والثاني : لا يقولون لك : إنك كاذب ، لعلمهم بصدقك ، ولكن يكذِّبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب .

والثالث : لا يكذِّبونك في السر ، ولكن يكذِّبونك في العلانية ، عداوةً لك ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم : كذبت .

والخامس : لا يكذِّبونك بقلوبهم ، لأنهم يعلمون أنك صادق ، ذكر القولين الزجاج .

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي من قصيدته الرائية في مدح آل البيت .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلفت اللفظتان ، إلا أن « فعّلتُ » : إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من « أفعلتُ » . ويؤكد أنّ القراءتين بمعنىً ، ما حكاه سيبويه أنهم قالوا : قلّلتُ ، وأقللت ، وكثّرتُ ، وأكثرت بمعنىً .

قال أبو علي : ومعنى «لا يكذّبونك» : لا يقدرون أن ينسبوك إلى الكذب فيما أخبرتَ به مما جاء في كتبهم ، ويجوز أن يكون معنى الحقيقة : لا يصادفونك كاذباً ، كما يقال : أحمدتُ الرجل : إذا أصبتَه محموداً ، لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بألسنتهم ما يعلمونه يقيناً ، لعنادهم .

وفي « آيات الله » هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها محمد ﷺ ، قاله السدي .

والثاني : محمد والقرآن ، قاله ابن السائب .

والثالث : القرآن ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد كُذبت رسل من قبلك) هذه تعزية له على ما يلقى منهم . قال ابن عباس : (فصبروا على ما كُذّبوا) رجاء ثوابي ، (وأُوذوا) حتى نُشروا بالمناشير ، وحُرقوا بالنار (حتى أتاهم نصرنا) بتعذيب من كذبهم[1] .

(١) روى البخاري في « صحيحه » (٦/٤٥٦) و (٧/١٢٦) و (١٢/٢٨١) عن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصرلنا ؟ ألا تدعولنا ؟ فقال : « كان من قبلكم يؤخذ الرجل —

قوله تعالى : (ولا مبدل لكلمات الله) فيه خمسة أقوال .

أحدها : لا خُلْفَ لمواعيده ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا مبدِّل لما أخبر به وما أمر به ، قاله الزجاج .

والثالث : لا مبدل لحكوماته ، وأقضيته النافذة في عباده ، فعبَّرت الكلمات عن هذا المعنى ، كقوله : (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) [الزمر : ٧١] أي : وجب ما قضي عليهم . فعلى هذا القول ، والذي قبله ، يكون المعنى : لا مبدل لحكم كلمات الله ، ولا ناقض لما حكم به ، وقد حكم بنصر أنبيائه بقوله : (لأغلبن أنا ورسلي) [المجادلة : ٢١] .

والرابع : أن معنى الكلام معنى النهي ، وإن كان ظاهره الإخبار ؛ فالمعنى : لا يُبدِّلَن أحد كلمات الله ، فهو كقوله : (لا ريب فيه) [البقرة : ٢] .

والخامس : أن المعنى : لا يقدر أحد على تبديل كلام الله ، وإن زخرف واجتهد ، لأن الله تعالى صانه برصين اللفظ ، وقويم الحكم ، أن يختلط بألفاظ أهل الزيغ ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ولقد جاءك من نبأِ المرسلين) أي : فيما صبروا عليه من الأذى فنُصروا . وقيل إن : « مِن » : صلة .

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

ـــ فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

قوله تعالى : (وإن كان كبر عليك إعراضهم) سبب نزولها : أن الحارث ابن عامر أتى النبي ﷺ في نفر من قريش فقال : يامحمد ، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات ، فان فعلت آمنا بك ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . و « كبر » : بمعنى « عظم » . وفي إعراضهم قولان .

أحدهما : عن استماع القرآن . والثاني : عن اتباع النبي ﷺ .

فأما « النفق » ، فقال ابن قتيبة : النفق في الأرض : المدخل ، وهو السَّرب . والسُّلَّم في السماء : المصعد . وقال الزجاج : النفق : الطريق النافذ في الأرض . والنافقاء ، ممدود : أحد جِحرة اليربوع يَخرِقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض ، فاذا بلغ الجلدة أرقَّها ، حتى إنْ رابه ريب ، دفع برأسه ذلك المكان وخرج ، ومنه سمي المنافق ، لأنه أبطن غير ما أظهر ، كالنافقاء الذي ظاهره غير بين ، وباطنه حفر في الأرض .

و « السلّم » مشتق من السلامة ، وهو الشيء الذي يسلّمك إلى مصعدك .

والمعنى : فان استطعت هذا فافعل ، وحذف « فافعل » ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقال أبو عبيدة : السلّم : السبب والمرقاة ، تقول : اتخذتني سُلَّماً لحاجتك ، أي : سبباً .

وفي قوله : (فتأتيهم بآية) قولان .

أحدهما : بآية قد سألوك إياها ، وذلك أنهم سألوا نزول ملك ، ومثل آيات الأنبياء ، كعصا موسى ، وناقة صالح .

والثاني : بآية هي أفضل من آيتك .

قوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لو شاء أن يطبعهم على الهدى لطبعهم .

والثاني : لو شاء لأنزل ملائكة تضطرهم إلى الإيمان ، ذكرهما الزجاج .

والثالث : لو شاء لآمنوا كلهم ، فأخبر أنما تركوا الإيمان بمشيئته ، ونافذ قضائه .

قوله تعالى : (فلا تكونن من الجاهلين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى .

والثاني : لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم ، ويكفر بعضهم .

والثالث : لا تكونن ممن لا صبر له ، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون) أي : إنما يجيبك من يسمع ، والمراد به سماع قبول .

وفي المراد بالموتى قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، فيكون المعنى : إنما يستجيب المؤمنون ؛ فأما الكفار ، فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله ، ثم يحشرهم كفاراً ، فيجيبون اضطراراً [1] .

---

(١) قال الطبري ٣٤١/١١ (والموتى يبعثهم الله) يقول : والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم ، تعالى ذكره ، في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ، ولا يعتبرون آياته ، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رسول الله وخلافهم .

والثاني : أنهم الموتى حقيقة ، ضربهم الله مثلاً ؛ والمعنى : أن الموتى لايستجيبون حتى يبعثهم الله ، فكذلك الذين لا يسمعون .

قوله تعالى : (ثم إليه يرجعون) يعني : المؤمنين والكافرين ، فيجازي الكل .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا لولا نُزِّل عليه آية من ربه) قال ابن عباس : نزلت في رؤساء قريش . و « لولا » : بمعنى « هلاّ » ؛ وقد شرحناها في سورة (النساء) . وقال مقاتل : أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء . وقال غيره : أرادوا نزول ملك يشهد له بالنبوّة .

وفي قوله تعالى : (ولكن أكثرهم لايعلمون) ثلاثة أقوال .

أحدها : لايعلمون بأن الله قادر على إنزال الآية .

والثاني : لايعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها ، لأنهم إن لم يؤمنوا بها ، زاد عذابهم .

والثالث : لايعلمون المصلحة في نزول الآية .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما من دابّة في الأرض) قال ابن عباس : يريد كل ما دبّ على الأرض . قال الزجاج : وذكر الجناحين توكيد ، وجميع ما خُلق لايخلو إما أن يدبّ ، وإما أن يطير .

قوله تعالى : (إلا أمم أمثالكم) قال مجاهد : أصناف مصنفة .

وقال أبو عبيدة : أجناس يعرفون الله ويعبدونه .

وفي معنى « أمثالكم » أربعة أقوال .

أحدها : أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في معرفة الله ، قاله عطاء .

والثالث : أمثالكم في الخلق والموت والبعث ، قاله الزجاج .

والرابع : أمثالكم في كونها تطلب الغذاء ، وتبتغي الرزق ، وتتوقّى المهالك ، قاله ابن قتيبة . قال ابن الأنباري : وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى ركّب في المشركين عقولاً ، وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبّروا أمر النبي ﷺ ويتمسكوا بطاعته ، كما جعل للطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض ، وهدى الذّكَرَ منها لإتيان الأُنثى ، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركّب ذلك فيها .

قوله تعالى : (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ . روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب ، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة ، وابن زيد .

والثاني : أنه القرآن . روى عطاء عن ابن عباس : ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم . فعلى هذا يكون من العام الذي أُريد به الخاص ، فيكون المعنى : ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب ، إما نصاً ، وإما مجملاً ، وإما دلالة ، كقوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) [النحل : ٨٩] أي : لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين .

قوله تعالى : (ثم إلى ربهم يحشرون) فيه قولان .

أحدهما : أنه الجمع يوم القيامة . روى أبو ذر قال : انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال : يا أبا ذر ، أتدري فيما انتطحتا ؟ قلت : لا . قال : لكنّ الله يدري ، وسيقضي بينهما [١] . وقال أبو هريرة : يحشر الله الخلق يوم القيامة ، البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجمّاء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً ، فيقول الكافر : ياليتني كنت تراباً [٢] .

والثاني : أن معنى حشرها : موتها ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (والذين كذّبوا بآياتنا) يعني ما جاء به محمد ﷺ (صمّ) عن القرآن لا يسمعونه ، (وبُكْم) عنه لا ينطقون به ، (في الظلمات) أي : في الشرك والضلالة. (من يشأ الله يضلله) فيموت على الكفر ، (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) ، وهو الإسلام .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرأيتكم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة : « أرأيتم » و « أرأيتكم » و « أرأيت » بالألف في كل القرآن

---

(١) « المسند » ٥ /١٦٢ و ١٧٣ ، والطبري ٣٤٨/١١ .

(٢) الطبري ٣٤٧/١١ ، والحاكم ٣١٦/٢ وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وأورده ابن كثير في « تفسيره » ١٣١/٢ ثم قال : وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور ، وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » ١١/٣ وزاد نسبته لأبي عبيد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وروى مسلم في « صحيحه » ١٩٩٧/٤ عن أبي هريرة مرفوعاً « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » . والجلحاء : الشاة إذا لم تكن ذات قرن ، والقرناء : الشاة الكبيرة القرن .

مهموزاً ؛ وليّن الهمزة نافع في الكل . وقرأ الكسائي بغير همز ولا ألف . قال الفراء : العرب تقول : أرأيتك ، وهم يريدون : أخبرني .

فأما عذاب الله ، ففي المراد به هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية ، قاله مقاتل .

فأما الساعة ، فهي القيامة . قال الزجاج : وهو اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد ، وللوقت الذي يبعثون فيه .

قوله تعالى : (أغير الله تدعون) أي : أتدعون صنماً أو حجراً لكشف مابكم ؟! فاحتج عليهم بما لا يدفعونه ، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله .

وقوله تعالى : (إن كنتم صادقين) جواب لقوله : « أرأيتكم » ، لأنه بمعنى أخبروا ، كأنه قيل لهم : إن كنتم صادقين ، فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم ؟

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (بل إياه تدعون) قال الزجاج : أعلمهم أنهم لايدعون في الشدائد إلا إياه ؛ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم ، لأنهم عبدوا الأصنام .

(فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) المعنى : فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم ، وهذا على اتساع الكلام مثل قوله : (واسأل القرية) [يوسف : ٨٢] ، أي : أهل القرية .

(وتنسون) : يجوز أن يكون بمعنى « تتركون » ؛ ويجوز أن يكون المعنى : إنكم في تركـكم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك) في الآية محذوف ، تقديره : ولقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك رسلاً فخالفوهم ، فأخذناهم بالبأساء ؛ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الزمانة والخوف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها البؤس ، وهو الفقر ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أنها الجوع ، ذكره الزجاج .

وفي الضرّاء ثلاثة أقوال .

أحدها : البلاء ، والجوع ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : النقص في الأموال والأنفس ، ذكره الزجاج .

والثالث : الأسقام والأمراض ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (لعلهم يتضرعون) أي : لكي يتضرعوا . والتضرع : التذلل والاستكانة . وفي الكلام محذوف تقديره : فلم يتضرعوا .

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلولا) معناه : « فهلاَّ » . والبأس : العذاب . ومقصود الآية : أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من القسوة أنهم أُخِذوا بالشدائد ، فلم يخضعوا ، وأقاموا على كفرهم ، وزين لهم الشيطان ضلالتهم فأصروا عليها .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكِّروا به) قال ابن عباس : تركوا ما وعظوا به . (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) يريد رخاء الدنيا وسرورها . وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر : « فتَّحنا » بالتشديد هنا وفي (الأعراف) ، وفي (الأنبياء) : « فُتِّحت » ، وفي (القمر) : « فتّحنا » ، والجمهور على تخفيفهن . قال الزجاج : أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير ، حتى إذا ظنوا أن ما كان نزل بهم ، لم يكن انتقاماً ، وما فُتح عليهم ، باستحقاقهم ، أخذناهم بغتة ، أي : فاجأهم عذابنا .

وقال ابن الأنباري : إنما أراد بقوله « كل شيء » : التأكيد ، كقول القائل : أكلنا عند فلان كلَّ شيء ، وكنا عنده في كل سرور ، يريد بهذا العموم تكثير ما يصفه والإطناب فيه ، كقوله : (وأُوتيتْ من كل شيء) [النمل : ٢٣] . وقال الحسن : من وُسِّع عليه فلم ير أنه لم يُمكر به ، فلا رأي له ؛ ومن قُتِّر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأي له ، ثم قرأ هذه الآية ، وقال : مُكر بالقوم ورب الكعبة ، أُعطوا حاجاتهم ثم أُخذوا [1] .

قوله تعالى : (فاذا هم مبلسون) في المبلس خمسة أقوال .

أحدها : أنه الآيس من رحمة الله عز وجل ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ وقال في رواية أخرى : الآيس من كل خير . وقال الفراء : المبلس : اليائس

---

(١) في « تفسير المنار » ٤١٤/٧ : والآية تفيد أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنعماء ، مما يتربى ويتهذب به الموفقون من الناس ، وإلا كانت النعم أشد وبالاً عليهم من النقم ، وهذا ثابت بالاختبار ، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد ، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن ، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعاً في « صحيح مسلم » « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

المنقطع رجاؤه ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ، فلا يكون عنده جواب : قد أبلس . قال العجّاج :

يا صاحِ هَلْ تعرِفُ رَسْماً مُكْرَساً قالَ نعَمْ ! أعرِفُه ! وأبْلَسا ! [١]

أي : لم يَحِرْ جواباً . وقيل : المكرس : الذي قد بعرت فيه الإبل ، وبوّلت ، فيركب بعضه بعضاً .

والثاني : أنه المفتضح . قال مجاهد : الإبلاس : الفضيحة .

والثالث : أنه المهْلك، قاله السدي .

والرابع : أنه المجهود المكروب الذي قد نزل به من الشر مالا يستطيعه ، قاله ابن زيد .

والخامس : أنه الحزين النادم ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لرؤبة :

وحَضَرتْ يوم الخميس الأخماس وفي الوجوه صُفرةٌ وإبلاس [٢]

أي : اكتئاب ، وكسوف ، وحزن .

وقال الزجاج : هو الشديد الحسرة، الحزين، اليائس . وقال في موضع آخر : المبلس : الساكت المتحير .

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) قال ابن السائب : دابرهم :

---

(١) « مجاز القرآن » ١٩٣/١ ، و « معاني القرآن » للفراء : ٣٣٥ ، و«الطبري»: ٣٦٣/١١ ، و « الكامل » : ٥٣٩ ، و « اللسان » و « التاج » : بلس .

(٢) ديوانه : ٦٧ ، و « مجاز القرآن » : ١٩٢/١ ، و « اللسان » : بلس ، ورواية ديوانه « وعرفت يوم الخميس » .

الذي يتخلف في آخرهم . والمعنى : أنهم استؤصلوا . وقال أبو عبيدة : دابرهم : آخرهم الذي يدبرهم . قال ابن قتيبة : هو كما يقال : اجتُثَّ أصلهم .

قال المفسرون : وإنما حمد نفسه على قطع دابرهم ، لأن ذلك إنعام على رسلهم الذين كذبوهم ، وعلّم الحمد على كفايته شر الظالمين .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) أي : أذهبها ، (وختم على قلوبكم) حتى لا تعرفون شيئاً (مَن إِلَه غيرُ الله يأتيكم به) ؟ في هاء « به » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تعود على الفعل ، والمعنى : يأتيكم بما أخذ الله منكم ، قاله الزجاج . وقال الفراء : إذا كنيت عن الأفاعيل ، وإن كثرتْ ، وحّدتَ الكناية ، كقولك للرجل : إقبالك وإدبارك يؤذيني .

والثاني : أنها تعود إلى الهدى ، ذكره الفراء . فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور ، ولكن المعنى يشتمل عليه ، لأن من أُخذ سمعه وبصره وخُتم على قلبه لم يهتد .

والثالث : أنها تعود على السمع ، ويكون ما عُطف عليه داخلاً معه في القصة ، لأنه معطوف عليه ، ذكره الزجاج . والجمهور يقرؤون : (مَن إِلَه غير الله يأتيكم بهِ انظُر) بكسر هاء « به » . وروى المسيّبي[1] عن نافع : « بهُ انظر » :

(١) هو اسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب المدني ، إمام جليل ، عالم بالحديث ، قيم في قراءة نافع ، ضابط لها ، محقق ، فقيه . انظر « طبقات القراء » ١/١٥٧ .

بالضم . قال أبو علي : من كسر ، حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو : بهي عيب ؛ ومن ضم ، فعلى قول من قال : فخسفنا بهو وبدارهو الأرض ، فحذف الواو .

قوله تعالى : (أنظر كيف نصرف الآيات) قال مقاتل : يعني تكون العلامات في أمور شتى ، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب ، وبما صُنع بالأمم الخالية (ثم هم يصدفون) ، أي : يعرضون فلا يعتبرون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة) قال الزجاج : البغتة : المفاجأة ؛ والجهرة : أن يأتيهم وهم يرونه . (هل يهلك إلا القوم الظالمون) أي : هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ، لأنكم كفرتم معاندين ، فقد علمتم أنكم ظالمون .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) أي : بالثواب ؛ ومنذرين بالعقاب ، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحونه من الآيات . ثم ذكر ثواب من صدق ، وعقاب من كذب في تمام الآية والتي بعدها . وقال ابن عباس : يفسقون : بمعنى يكفرون .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) سبب نزولها : أن أهل مكة قالوا : يامحمد ، لو أنزل الله عليك كنزاً فتستغني به ، فانك فقير محتاج ، أو تكون لك جنة تأكل منها ، فانك تجوع ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قال الزجاج : وهذه الآية متصلة بقوله : (لولا أنزل عليه آية من ربه) ، فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي ، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلا بوحي ، ولا يقول : إنه مَلَكٌ ، لأن المَلَكَ يشاهد من أمور الله تعالى مالا يشاهده البشر . وقرأ ابن مسعود ، وابن جبير ، وعكرمة ، والجحدري : « إني ملك » بكسر اللام . وفي الأعمى والبصير قولان .

أحدهما : أن الأعمى : الكافر ، والبصير : المؤمن ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : الأعمى : الضال ، والبصير : المهتدي ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

وفي قوله تعالى : (أفلا تتفكرون) قولان .

أحدهما : فيما بُيِّن لكم من الآيات الدالة على وحدانيته ، وصدق رسوله .

والثاني : فيما ضُرب لكم من مثل الأعمى والبصير ، وأنهما لا يستويان .

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأنذر به) قال الزجاج : يعني بالقرآن ، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم ، وإن كان مُنْذِراً لجميع الخلق ، لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر ، لاعترافهم بالمعاد ، فهم أحد رجلين : إما مسلم ، فيُنْذَر ليؤديَ حق الله عليه في إسلامه ، وإما كتابي ، فأهل الكتاب مجمعون على البعث .

وذكر الولي والشفيع ، لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحبّاؤه ، فأعلم عز وجل أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع . وقال غيره : ليس لهم من دونه ولي ، أي : ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع ، لأن شفاعة الشافعين بأمره .

وقال أبو سليمان الدمشقي : هذه الآية متعلقة بقوله : (وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به) [الانعام : ١٩] .

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) روى سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في ستة : فيّ ، وفي ابن مسعود ، وصهيب ، وعمار ، والمقداد ، وبلال . قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء ، فاطردهم عنك . فدخل على رسول الله من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فنزلت هذه الآية [1] .

وقال خباب بن الأرتّ : نزلت فينا ، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ ، يعلّمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا ، فجاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فقالا : إنا من أشراف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم ، فاطردهم إذا جالسناك . قال : « نعم » .

---

(١) رواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢ ومسلم بنحوه مختصراً ١٨٧٨/٤ ورواه بنحوه الطبري ٣٧٨/١١ وأورده ابن كثير في « تفسيره » ١٣٥/٢ بنحوه عن سعد ، وقال : رواه الحاكم في « مستدركه » من طريق سفيان وقال : على شرط الشيخين ، وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » من طريق المقدام بن شريح به .

فقالوا : لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً ، فأُتي بأديم ودواة ، ودعا علياً ليكتب ، فلما أراد ذلك ، ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بقوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) إلى قوله : (فتنّا بعضهم ببعض) ، فرمى بالصحيفة ودعانا ، فأتيناه وهو يقول : (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) . فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته [1] . وقال ابن مسعود : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمّار ، فقالوا : يامحمد ، رضيتَ بهؤلاء ، أتريد أن نكون تبعاً لهم ؟ ! فنزلت : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) [2] . وقال عكرمة : جاء عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل ، في أشراف بني عبد مناف ، إلى أبي طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، فأتاه أبو طالب فحدثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون ، فنزلت هذه الآيات ، فأقبل عمر يعتذر من مقالته [3] . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت في الموالي ، منهم بلال ، وصهيب ، وخبّاب ، وعمّار ، ومِهْجَعُ ، وسلمان ، وعامر ابن فهيرة ، وسالم مولى أبي حذيفة ؛ وأن قوله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) نزلت فيهم أيضاً . وقد روى العوفي عن ابن عباس : أن ناساً من

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » ٣٧٦/١١ بمعناه ، وأورده ابن كثير في « تفسيره » ١٣٤/٢ من رواية ابن أبي حاتم وقال : وهذا حديث غريب ، فان الآية مكية ، والأقرع بن حابس ، وعيينة ، إنما أسلما بعد الهجرة بدهر . ورواه ابن ماجه ١٣٨٣/٢ .

(٢) رواه أحمد في « المسند » رقم (٣٩٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه : اسناده صحيح ، ورواه الطبري ٣٧٤/١١ ، ٣٧٥ .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » ٣٧٩/١١ ، ٣٨٠ بأطول منه .

الأشراف قالوا للنبي ﷺ : نؤمن لك ، وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك ، فليصلوا خلفنا . فعلى هذا ، إنما سألوه تأخيرهم عن الصف ، وعلى الأقوال التي قبله ، سألوه طردهم عن مجلسه .

قوله تعالى : (يدعون ربهم) في هذا الدعاء خمسة أقوال .

أحدها : أنه الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عمر ، وابن عباس . وقال مجاهد : هي الصلوات الخمس ؛ وفي رواية عن مجاهد ، وقتادة قالا : يعني صلاة الصبح والعصر . وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالغداة ، وركعتين بالعشي ؛ ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك .

والثاني : أنه ذكر الله تعالى ، قاله إبراهيم النخعي ، وعنه كالقول الأول .

والثالث : أنه عبادة الله ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه تعلم القرآن غدوة وعشية ، قاله أبو جعفر .

والخامس : أنه دعاء الله بالتوحيد ، والإخلاص له ، وعبادته ، قاله الزجاج . وقرأ الجمهور : « بالغداة » ؛ وقرأ ابن عامر هاهنا وفي (الكهف) أيضاً : (بالغُدْوَةِ) بضم الغين وإسكان الدال وبعدها واو .

قال الفراء : والعرب لا تدخل الألف واللام على « الغدوة » ، لأنها معرفة بغير ألف ولام ، ولا تضيفها العرب ؛ يقولون : أتيتك غداة الخميس ، ولا يقولون : غُدوة الخميس ، فهذا دليل على أنها معرفة .

وقال أبو علي : الوجه : الغداة ، لأنها تستعمل نكرة ، وتتعرف باللام ؛ وأما غُدوة ، فمعرفة .

وقال الخليل : يجوز أن تقول : أتيتك اليوم غُدوة وبُكرة ، فجعلها بمنزلة ضحوة ، فهذا وجه قراءة ابن عامر .

فان قيل : دعاء القوم كان متصلاً بالليل والنهار ، فلماذا خص الغداة والعشي ؟

فالجواب : أنه نبه بالغداة على جميع النهار ، وبالعشي على الليل ، لأنه إذا كان عمل النهار خالصاً له ، كان عمل الليل أصفى .

قوله تعالى : (يريدون وجهه) قال الزجاج : أي يريدون الله ، فيشهد الله لهم بصحة النيات ، وأنهم مخلصون في ذلك .

وأما الحساب المذكور في الآية ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه حساب الأعمال ، قاله الحسن .

والثاني : حساب الأرزاق . والثالث : أنه بمعنى الكفاية ؛ والمعنى : ما عليك من كفايتهم ، ولا عليهم كفايتك .

قوله تعالى : (فتكون من الظالمين) قال ابن الأنباري : عظم هذا الأمر على النبي ﷺ ، وخُوِّف بالدخول في جملة الظالمين ، لأنه كان قد همّ بتقديم الرؤساء على الضعفاء .

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك فتنّا بعضهم ببعض) المعنى : وكما ابتلينا قبلك الغني بالفقير ، ابتلينا أيضاً بعضهم ببعض . و « فتنا » بمعنى : ابتلينا واختبرنا ؛ (ليقولوا) ، يعني الكبراء ؛ (أهؤلاء) يعنون الفقراء والضعفاء (منّ الله عليهم) بالهدى ؟ وهذا استفهام معناه الانكار ، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة .

قال ابن السائب : ابتلى الله الرؤساء بالموالي ؛ فاذا نظر الشريف إلى الوضيع قد آمن قبله ، أنف أن يسلم ، ويقول : سبقني هذا ؟

قوله تعالى : (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي : بالذين يشكرون نعمته إذا منَّ عليهم بالهداية . والمعنى : إنما يهدي الله من يعلم أنه يشكر . والاستفهام في « أليس » ، معناه التقرير ، أي : إنه كذلك .

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في رجال أتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظيمة ، فسكت عنهم رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية [1] ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها نزلت في الذين نُهي عن طردهم ، فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثالث : أنها نزلت في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، وعثمان بن مظعون ، وأبي عبيدة ، ومصعب بن عمير ، وسالم ، وأبي سلمة ، والأرقم ابن أبي الأرقم ، وعمار ، وبلال ، قاله عطاء .

والرابع : أن عمر بن الخطاب كان أشار على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء ،

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » ١١/٣٩٠ ، ٣٩١ من طريق مجمع بن صمعان قال : سمعت ماهان . وذكره السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد ، ومسدد ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن أبي حاتم . وماهان هو أبو سالم الكوفي الأعور ، ثقة عابد ، روى عن ابن عباس وأم سلمة ، قتله الحجاج سنة ثلاث وثمانين .

استمالة للرؤساء إلى الإسلام . فلما نزلت : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) ، جاء عمر يعتذر من مقالته ويستغفر منها ؛ فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن السائب .

والخامس : أنها نزلت مبشرة باسلام عمر بن الخطاب ؛ فلما جاء وأسلم ، تلاها عليه رسول الله ﷺ ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فأما قوله تعالى : (يؤمنون بآياتنا) فمعناه : يصدِّقون بحججنا وبراهيننا .

قوله تعالى : (فقل سلام عليكم) فيه قولان .

أحدهما : أنه أُمر بالسلام عليهم تشريفاً لهم ؛ وقد ذكرناه عن الحسن ، وعكرمة .

والثاني : أنه أُمر بابلاغ السلام إليهم عن الله تعالى ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : ومعنى السلام : دعاء للانسان بأن يسلم من الآفات . وفي السوء قولان .

أحدهما : أنه الشرك . والثاني : المعاصي .

وقد ذكرنا في سورة (النساء) معنى « الجهالة » . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « إنه من عمل منكم سوءاً » « فانه غفور » بكسر الألف فيهما . وقرأ عاصم ، وابن عامر : بفتح الألف فيهما . وقرأ نافع : بنصب ألف « أنه » وكسر ألف « فانه غفور » . قال أبو علي : من كسر ألف « إنه » جعله تفسيراً للرحمة ؛ ومن كسر ألف « فانه غفور » فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء ، ومن فتح ألف « أنه من عمل » جعل « أنّ » بدلاً من الرحمة ، والمعنى : كتب ربكم « أنه من عمل » ، ومن فتحها بعد الفاء ، أضمر خبراً تقديره : فله (أنه غفور رحيم) والمعنى : فله غفرانه . وكذلك قوله تعالى : (فأن له نارجهنم) [التوبة : ٦٣] ، معناه : فله أن له نار جهنم . وأما قراءة نافع ، فانه أبدل من الرحمة ، واستأنف ما بعد الفاء .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نفصل الآيات) أي : وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين ، كذلك نبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل . قال ابن قتيبة : ومعنى تفصيلها : إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء .

قوله تعالى : (ولتستبين) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ولتستبين » بالتاء ، « سبيل » بالرفع . وقرأ نافع ، وزيد عن يعقوب : بالتاء أيضاً ، إلا أنهما نصبا السبيل . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « وليستبين » بالياء ، « سبيل » بالرفع . فمن قرأ « ولتستبين » بالياء أو التاء ، فلأن السبيل تذكر وتؤنث على ما بينا في (آل عمران) ، ومن نصب اللام ، فالمعنى : ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين . وفي سبيلهم التي بُيِّنت له ، قولان .

أحدهما : أنها طريقهم في الشرك ، ومصيرهم إلى الخزي ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها مقصودهم في طرد الفقراء عنه ، وذلك إنما هو الحسد ، لا إيثار مجالسته واتّباعه ، قاله أبو سليمان .

فان قيل : كيف انفردت لام « كي » في قوله : « ولتستبين » وسبيلها أن تكون شرطاً لفعل يتقدمها أو يأتي بعدها ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري بجوابين .

أحدهما : أنها شرط لفعل مضمر ، يراد به : ونفعل ذلك لكي تستبين .

والثاني : أنها معطوفة على لام مضمرة ، تأويله : نفصّل الآيات لينكشف أمرهم ، ولتستبين سبيلهم .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعني الأصنام . وفي معنى « تدعون » قولان . أحدهما : تدعونهم آلهة .

والثاني : تعبدون ؛ قاله ابن عباس . وأهواؤهم : دينهم . قال الزجاج : أراد إنما عبدتموها على طريق الهوى ، لا على طريق البيّنة والبرهان . ومعنى « إذاً » معنى الشرط ؛ والمعنى : قد ضللت إن عبدتها . وقرأ طلحة ، وابن أبي ليلى : « قد ضلِلت » بكسر اللام .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إني على بينة من ربي) سبب نزولها أن النضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ائتنا بالعذاب الذي تَعِدُنا به ، استهزاءً ؛ وقام النضر عند الكعبة وقال : اللهم إن كان ما يقول حقاً ، فائتنا بالعذاب ؛ فنزلت هذه الآية ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس . فأما البينة ، فهي الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل . قال الزجاج : أنا على أمر بيّن ، لا متبعٌ لهوى .

قوله تعالى : (وكذبتم به) في هاء الكناية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الرب . والثاني : ترجع إلى البيان . والثالث : ترجع إلى العذاب الذي طلبوه استهزاءً .

قوله تعالى : (ما عندي ما تستعجلون به) أي : ما بيدي . وفي الذي استعجلوا به قولان .

أحدهما : أنه العذاب ؛ قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أنه الآيات التي كانوا يقترحونها ؛ ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (إن الحكم إلا لله) فيه قولان .

أحدهما : أنه الحكم الذي يفصل به بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب .

والثاني : أنه القضاء بإنزال العذاب على المخالف .

قوله تعالى : (يَقُصُّ الحق) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع « يَقُصُّ الحق » بالصاد المشددة ، من القصص ؛ والمعنى : أن كل ما أخبر به فهو حق . وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « يقضي الحق » من القضاء ؛ والمعنى : يقضي القضاء الحق .

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل لو أن عندي ما تستعجلون به) أي : من العذاب (لقضي الأمر بيني وبينكم) قال ابن عباس : يقول : لم أمهلكم ساعة ، ولأهلكتكم .

قوله تعالى : (والله أعلم بالظالمين) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : إن شاء عاجلهم ، وإن شاء أخَّر عقوبتهم .

والثاني : أعلم بما يؤول إليه أمرهم ، وأنه قد يهتدي منهم قوم ، ولا يهتدي آخرون ؛ فلذلك يؤخِّرهم .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) قال ابن جرير : المفاتح : جمع مفتح ؛

يقال : مفتح ومفتاح ، فمن قال : مفتح ، جمعه : مفاتح . ومن قال : مفتاح ، جمعه : مفاتيح . وفي « مفاتح الغيب » سبعة أقوال .

أحدها : أنها خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل . روى البخاري في أفراده من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله »[1] قال ابن مسعود : أُوتيَ نبيُّكم علم كل شيء إلا مفاتيحَ الغيب[2] .

والثاني : أنها خزائن غيب السموات من الأقدار والأرزاق ، قاله ابن عباس .

والثالث : ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب ، وما تصير إليه الأمور ، قاله عطاء .

والرابع : خزائن غيب العذاب ، متى ينزل ، قاله مقاتل .

---

(١) « المسند » : ٧/٧ ، والبخاري : ٢١٩/٨ ، « وصحيح ابن حبان » : ٦٩/١ ، ٧٠ .

(٢) الطبري : ٤٠١/١١ ، ورواه أحمد في « المسند » : ٢٤١/٥ بلفظ « أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على « المسند » : اسناده صحيح ، وذكره ابن كثير في « التفسير » ٤٧٤/٦ عن هذا الموضع ، ثم قال : « وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو ابن مرة به وزاد في آخره : قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم أكثر من خمسين مرة ، ورواه أيضاً عن وكيع عن مسعر عن عمرو بن مرة به ، وهذا اسناد حسن على شرط « السنن » ولم يخرجوه » . وهو أيضاً في « مجمع الزوائد » ٢٦٣/٨ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى ورجالها رجال الصحيح . ورواه أحمد أيضاً في « المسند » ٣١٧/٧ من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس . . . » .

والخامس : الوُصلة إلى علم الغيب إذا استُعْلِم ، قاله الزجاج .

والسادس : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال .

والسابع : ما لم يكن ، هل يكون ، أم لا يكون ؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون ، إن كان ، كيف يكون ؟ فأما البَرُّ ، فهو القفر . وفي البحر قولان .

أحدهما : أنه الماء ، قاله الجمهور . والثاني : أنه القرى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) قال الزجاج : المعنى : أنه يعلمها ساقطة وثابتة ، كما تقول : ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه ، ليس تأويله : أعرفه في حال مجيئه فقط . فأما ظلمات الأرض ، فالمراد بها بطن الأرض .

وفي الرطب واليابس ، خمسة أقوال .

أحدها : أن الرطب : الماء ، واليابس : البادية . والثاني : الرطب : ما يُنبِت ، واليابس : ما لا يُنبِت . والثالث : الرطب : الحي ، واليابس : الميت . والرابع : الرطب : لسان المؤمن يذكر الله ، واليابس : لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله . والخامس : أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى ، فهو يعلمه رطباً ، ويعلمه يابساً . وفي الكتاب المبين قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ؛ قاله مقاتل . والثاني : أنه علم الله المتقَنُ ؛ ذكره الزجاج . فإن قيل : ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ، ذكرهن ابن الأنباري .

أحدها : أنه أحصاها في كتاب ، لتقف الملائكة على نفاذ علمه .

والثاني : أنه نبه بذلك عباده على تعظيم الحساب ، وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون ، لأن من يثبت مالا ثواب فيه ولا عقاب ، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع .

والثالث : أن المراد بالكتاب : العلم ؛ فالمعنى : أنها مثبتة في علمه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل) يريد به النوم ، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم ، كما يقبض بالموت . وقال ابن عباس : يقبض أرواحكم في منامكم . وجرحتم : بمعنى كسبتم . (ثم يبعثكم) أي : يوقظكم فيه ، أي : في النهار . (ليُقضىٰ أجل مسمى) أي : لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم ، فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) الحفظة : الملائكة ، واحدهم : حافظ ، والجمع : حفظة ، مثل كاتب وكتبة ، وفاعل وفعلة . وفيما يحفظونه قولان .

أحدهما : أعمال بني آدم ؛ قاله ابن عباس . والثاني : أعمالهم وأجسادهم ، قاله السدي .

قوله تعالى : (توفته رسلنا) وقرأ حمزة : « توفاه رسلنا » وحجته أنه فعل مسند إلى مؤنث غير حقيقي ، وإنما التأنيث للجمع ، فهو مثل : (وقال نسوة) [يوسف : ٣٠] . وفي المراد بالرسل ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أعوان ملك الموت ، قاله ابن عباس . وقال النخعي : أعوانه يتوفَّون النفوس ، وهو يأخذها منهم .

والثاني : أن المراد بالرسل : مَلَك الموت وحده ، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم الحفظة ، قاله الزجاج .

قولهتعالى : (وهم لا يُفرِّطون) قال ابن عباس : لا يضيّعون . فان قيل : كيف الجمع بين قوله : (توفته رسلنا) وبين قوله : (قل يتوفاكم ملك الموت) ؟ [السجدة : ١١] فعنه جوابان .

أحدهما : أنه يجوز أن يريد بالرسل مَلَك الموت وحده ، وقد يقع الجمع على الواحد.

والثاني : أن أعوان مَلَك الموت يفعلون بأمره ، فأضيف الكل إلى فعله .

وقيل : تَوَفّي أعوان ملك الموت بالنزع ، وتوفّي ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب ، ويدعوها فتخرج ، وتوفّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الميت .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

قولهتعالى : (ثم رُدُّوا إلى الله) يعني العباد . وفي متولي الردّ قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة ، رَدَّتهم بالموت إلى الله تعالى .

والثاني : أنه الله عز وجل ، ردهم بالبعث في الآخرة . وفي معنى ردهم إلى الله تعالى ، قولان .

أحدهما : أنهم ردوا إلى المكان الذي لا يملك الحكم فيه إلا الله وحده .

والثاني : أنهم ردوا إلى تدبيره وحده ؛ لأنه لما أنشأهم كان منفرداً بتدبيرهم ، فلما مكّنهم من التصرف ، صاروا في تدبير أنفسهم ، ثم كفهم عنه بالموت ، فصاروا مردودين إلى تدبيره .

قوله تعالى : (ألا له الحكم) يعني القضاء . وبيان سرعة الحساب ، في (البقرة)[١] .

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل من ينجّيكم) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر : (قل من ينجّيكم) (قل الله ينجّيكم) ، مشدَّدَين . وقرأ يعقوب ، والقزاز عن عبد الوارث : بسكون النون وتخفيف الجيم . قال الزجاج : والمشدَّدة أجود للكثرة . وظلمات البر والبحر : شدائدها ؛ والعرب تقول لليوم الذي تلقى فيه شدة : يوم مظلم ، حتى إنهم يقولون : يوم ذو كواكب ، أي : قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل . قال الشاعر :

فِدَىً لِبَنِي ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي
إذا كَانَ يَوْماً ذا كَوَاكِبَ أَشْنَعَا[٢]

---

(١) يعني : تقدم بيان سرعة الحساب في سورة (البقرة) عند قوله تعالى : (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) .

(٢) البيت أنشده سيبويه في « الكتاب » ٢١/١ ، ونسبه لمقاس العائذي ، وإسمه مسهر ابن النعمان بن عمرو بن ربيعة بن تيم بن الحارث . . . وهو شاعر جاهلي كما نص عليه ابن دريد في « الاشتقاق » ، وذكر المرزباني أنه مخضرم . ورواية الشطر الثاني عند سيبويه :

« إذا كان يوم ذو كواكب أشهبُ »

وأورد بعده لعمرو بن شأس بيتاً آخر هو :

بني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا

فالمصنف لفق البيت من البيتين ، قال الأعلم : أراد : وقع يوم ، أو حضر يوم ، ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل ، وأراد باليوم يوماً من أيام الحرب ، وصفه بالشدة ، فجعله كالليل ـــ

قوله تعالى : (تدعونه تضرعاً) أي : مظهرين الضراعة ، وهي شدة الفقر إلى الشيء ، والحاجة .

قوله تعالى : (وخُفية) قرأ عاصم إلا حفصاً : « وخِفية » بكسر الخاء ؛ وكذلك في (الأعراف) . وقرأ الباقون بضم الخاء ، وهما لغتان . قال الفراء : وفيها لغة أخرى بالواو ، ولا تصلح في القراءة ، خِفْوة ، وخَفْوة . ومعنى الكلام ، أنكم تدعونه في أنفسكم ، كما تدعونه ظاهراً : «لئن أنجيتنا» ، كذلك قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « لئن أنجيتنا » ،وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « لئن أنجانا » بألف ، لمكان الغيبة في قوله : « تدعونه » . وكان حمزة ، والكسائي ، وخلف ، يُميلون الجيم .

قوله تعالى : (من هذه) يعني : في أي شدة وقعتم ، قلتم : « لئن أنجيتنا من هذه » . قال ابن عباس : و « الشاكرون » هاهنا : المؤمنون . وكانت قريش تسافر في البر والبحر ، فإذا ضلوا الطريق وخافوا الهلاك ، دعَوُا الله مخلصين ، فأنجاهم . فأما « الكرب » فهو الغم الذي يأخذ بالنفس ، ومنه اشتقت الكربة .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فيه قولان .

ـــ تبدو فيه الكواكب ، ونسبه إلى الشهبة ، إما لكثرة السلاح الصقيلة فيه ، وإما لما ذكره من النجوم ، وذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل ، وكان مقاس نازلاً فيهم ، وأصله من قريش من عائذة ، وهم حي منهم .

أحدها : أن الذي فوقهم : العذاب النازل من السماء ، كما حصب قوم لوط ، وأصحاب الفيل . والذي من تحت أرجلهم : كما خسف بقارون ، قاله ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل . وقال غيرهم : ومنه الطوفان ، والريح ، والصيحة ، والرجفة .

والقول الثاني : أن الذي من فوقهم : من قِبَل أُمرائهم . والذي من تحتهم : من سَفَلتهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال في رواية أخرى : الذي من فوقهم : أئمة السوء ؛ والذي من تحت أرجلهم : عبيد السوء .

قوله تعالى : (أو يلبسكم شيعاً) قال ابن عباس : يَبُثُّ فيكم الأهواء المختلفة ، فتصيرون فِرَقاً . قال ابن قتيبة : يلبسكم : من الالتباس عليهم [1] . والمعنى : حتى تكونوا شِيَعاً ، أي : فرقاً مختلفين . ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب . وقال الزجاج : يلبسكم ، أي : يخلط أمركم خلط اضطراب ، لا خلط اتفاق . يقال : لَبَسْتُ عليهم الأمر ، ألبسه : إذا لم أبيِّنه . ومعنى شيعاً : أي يجعلكم فرقاً ، فاذا كنتم مختلفين ، قاتل بعضكم بعضاً .

قوله تعالى : (ويذيق بعضكم بأس بعض) أي : يقتل بعضكم بيد بعض . وفيمن عُني بهذه الآية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها في المسلمين أهل الصلاة ، هذا مذهب ابن عباس ، وأبي العالية ، وقتادة . وقال أُبيّ بن كعب في هذه الآية : هن أربع خلال ، وكلّهن عذاب ، وكلّهن واقع قبل يوم القيامة ، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، أُلبسوا شيعاً ، وأُذيق بعضهم بأس بعض . وثنتان واقعتان لامحالة : الخسف ، والرجم [2] .

---

(١) في « غريب القرآن » : من الالتباس عليكم .

(٢) « المسند » : ٥/١٣٤ ، ١٣٥ ، والطبري : ١١/٤٢٢ ، وخرجه الهيثمي في « مجمع —

والثاني : أن العذاب للمشركين ، وباقي الآية للمسلمين ، قاله الحسن . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به من كان قبلكم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليكم عدواً يستبيح بيضتكم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، فمنعنيها [1] .

والثالث : أنها تهدُّدٌ للمشركين ، قاله ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (وكذب به قومك) في هاء « به » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها كناية عن القرآن . والثاني : عن تصريف الآيات . والثالث : عن العذاب .

الزوائد» ٧/٢١ ، ثم قال : رواه أحمد ورجاله ثقات ، قلت : ـ أي الهيثمي ـ : والظاهر أن من قوله : « فمضت اثنتان إلى آخره » من قول رفيع (يعني أبا العالية) فان أبي بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة . وقال الحافظ في « الفتح » ٨/٢٢٠ : وقد أعل هذا الحديث بأن أبي بن كعب لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، فكأن حديثه انتهى عند قوله : « لا محالة » والباقي من كلام بعض الرواة ، وأعل أيضاً بأنه مخالف لحديث جابر وغيره ، وأجيب بأن طريق الجمع أن الاعادة المذكورة في حديث جابر وغيره مقيدة بزمان مخصوص ، وهو وجود الصحابة ، والقرون الفاضلة ، وقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (قل هو القادر) إلى آخرها فقال : أما إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعدُ ، وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر بأن المراد بتأويلها ما يتعلق بالفتن ونحوها .

(١) « صحيح مسلم » ٤/٢٢١٦ عن سعد بن أبي وقاص ، و « المسند » : ٥/٢٤٠ ، وابن ماجه : ٢/١٣٠٣ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقال البوصيري في « زوائده » : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

قوله تعالى : (قل لست عليكم بوكيل) فيه قولان .

أحدهما : لست حفيظاً على أعمالكم لأُجازيكم بها ، إنما أنا منذر ، قاله الحسن .

والثاني : لست حفيظاً عليكم ، أخذكم بالإيمان ، إنما أدعوكم إلى الله ، قاله الزجاج .

فصل

وفي هذا القدر من الآية قولان .

أحدهما : أنه اقتضى الاقتصار في حقهم على الإنذار من غير زيادة ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .

والثاني : أن معناه : لست حفيظاً عليكم ، إنما أُطالبكم بالظواهر من الإقرار والعمل ، لا بالأسرار ؛ فعلى هذا هو محكم .

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لكل نبإٍ مستقر) أي : لكل خبر يخبر الله به وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير . قال السدي : فاستقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر . وقال مقاتل : منه في الدنيا يوم بدر ، وفي الآخرة جهنم .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) فيمن أُريد بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : المشركون . والثاني : اليهود . والثالث : أصحاب الأهواء . والآيات : القرآن . وخوض المشركين فيه : تكذيبهم به واستهزاؤهم ، ويقاربه خوض اليهود ، وخوض أهل الأهواء بالمراء والخصومات .

قوله تعالى : (فأعرض عنهم) أي : فاترك مجالستهم ، حتى يكون خوضهم في غير القرآن . (وإما ينسينك) وقرأ ابن عامر: « يُنَسِّيَنَّكَ » ، بفتح النون ، وتشديد السين ، والنون الثانية . ومثل هذا : غَرَّمْتُهُ وأغرمتُه . وفي التنزيل : (فمهِّل الكافرين أمهلهم) [الطارق: ١٧] . والمعنى : إذا أنساك الشيطان ، فقعدت معهم ناسياً نَهْيَنَا لك ، فلا تقعد بعد الذكرى . والذكر والذكرى : واحد . قال ابن عباس : قم إذا ذكرته ؛ والظالمون : المشركون .

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلٰكِنْ ذِكْرٰى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المسلمين قالوا : لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن ، وخاضوا فيه ، فنمنعاهم ، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ، ولا أن نطوف بالبيت ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أن المسلمين قالوا : إنا نخاف الإثم إن لم ننههم عن الخوض ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن المسلمين قالوا : لو قمنا عنهم إذا خاضوا ، فانا نخشى الإثم في مجالستهم ، فنزلت هذه الآية . هذا عن مقاتل ، والأولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : (وما على الذين يتقون) فيه قولان .

أحدها : يتقون الشرك . والثاني : يتقون الخوض .

قوله تعالى : (من حسابهم) يعني : حساب الخائضين . وفي « حسابهم » قولان .

أحدهما : أنه كفرهم وآثامهم . والثاني : عقوبة خوضهم .

قوله تعالى : (ولكن ذكرى) أي : ولكن عليكم أن تذكروهم . وفيما تذكرونهم به ، قولان .

أحدهما : المواعظ . والثاني : قيامكم عنهم . قال مقاتل : إذا قمتم عنهم ، منعهم من الخوض الحياء منكم ، والرغبة في مجالستكم .

قوله تعالى : (لعلهم يتقون) فيه قولان .

أحدهما : يتقون الاستهزاء . والثاني : يتقون الوعيد .

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة ، لأنها اقتضت جواز مجالسة الخائضين والاقتصار على تذكيرهم ، ثم نسخت بقوله : (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) [النساء : ١٤٠] . والصحيح أنها محكمة ، لأنها خبر ، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه ، ولا يلزمه حساب غيره .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ

اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لايُؤْخَذْ مِنْهَا أولٰـئِكَ الـَّذِينَ أُبْسِلُـوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ ألِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً) فيهم قولان .

أحدهما : أنهم الكفار . والثاني : اليهود والنصارى .

وفي اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه استهزاؤهم بآيات الله إذا سمعوها .

والثاني : أنهم دانوا بما اشتهوا ، كما يَلْهُوْن بما يشتهون .

والثالث : أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتهوا ، كما يلهون إذا اشتهوا . قال الفراء : ويقال : إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد ، فهم يَلْهون في أعيادهم ، إلا أمة محمد ﷺ ، فان أعيادهم صلاة وتكبير وبرٌ وخير .

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية ، قولان .

أحدهما : أنه خرج مخرج التهديد ، كقوله : (ذرني ومن خلقت وحيداً) [المدثر : ١١] فعلى هذا ، هو محكم ، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثاني : أنه اقتضى المساعة لهم والإعراض عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ؛ وإلى هذا ذهب قتادة ، والسدي .

قوله تعالى : (وذكّر به) أي : عظ بالقرآن . وفي قوله : (أن تبسل) قولان .

أحدها : لئلا تبسل نفس ، كقوله : (أن تضلوا) [النساء : ١٧٦] .

والثاني : ذكّرهم إبسال المبسلين بجناياتهم لعلّهم يخافون .

وفي معنى « تبسل » سبعة أقوال .

أحدها : تُسْلَم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، والسدي . وقال ابن قتيبة : تُسلَم إلى الهلكة . قال الشاعر :

وإبسالي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعَوْناه ولا بِدَمٍ مُرَاقِ [1]

أي : بغير جرم أجرمناه ؛ والبَعْوُ : الجناية . وقال الزجاج : تُسْلَمُ بعملها غير قادرة على التخلص . والمستبسل : المستسلم الذي لا يعلم أنه يقدر على التخلص .

والثاني : تُفْضَح ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : تُدفع ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والرابع : تُهلَكُ ، روي عن ابن عباس أيضاً . والخامس : تُحبس وتُؤخذ ، قاله قتادة ، وابن زيد . والسادس : تُجزى ، قاله ابن السائب ، والكسائي . والسابع : تُرتهن ، قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : تُرتهن وتسلم ؛ وأنشد :

هُنَالِكَ لا أرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي سَمِيرَ اللَّيالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ [2]

---

(١) البيت لعوف بن الأحوص الكلابي كما قال ابن قتيبة في « المعاني الكبير » ٢/١١١٤ ، وهو في « نوادر أبي زيد » ١٥١ ، و « مجاز القرآن » ١/١٩٤ ، و « غريب القرآن » : ١٥٥ ، و« الطبري » : ١١/٤٤٥ ، و« القرطبي » ٧/١٦ ، و « شواهد الكشاف » : ٢٠٠ ، و « اللسان » و « التاج » « بسل » و « بعو » .

(٢) البيت للشَّنْفَرى ، وهو شاعر جاهلي من صعاليك العرب وفتاكهم ، وهو في « الطرائف » ٣٦ ، و « مجاز القرآن » : ١/١٩٥ ، و « الشعر والشعراء » ١/٢٦ ، و « الحماسة » بشرح ـــ

سمير الليالي : أبَدَ الليالي . فأما الولي : فهو الناصر الذي يمنعها من عذاب الله . والعدل : الفداء . قال ابن زيد : وإن تفتد كلّ فداء لايقبل منها . فأما الحميم ، فهو الماء الحار . قال ابن قتيبة : ومنه سمي الحمّام.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أندعو من دون الله) أي : أنعبد مالا يضرنا إن لم نعبده ، ولا ينفعنا إن عبدناه ، وهي الأصنام . (ونُردُّ على أعقابنا) أي : نرجع إلى الكفر (بعد إذ هدانا الله) إلى الإسلام ، فنكون (كالذي استهوته الشياطين) . وقرأ حمزة : «استهواه الشياطين» ، على قياس قراءته:(توفاه رُسُلُنا) . وفي معنى « استهوانها » قولان .

أحدهما : أنها هوت به وذهبت ، قاله ابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : تُشبّه له الشياطين ، فيتبعها حتى تهوي به في الأرض ، فتُضلّه .

والثاني : زيَّنت له هواه ، قاله الزجاج . قال : و « حيران » منصوب على الحال ، أي : استهوته في حال حيرته . قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتّبِعوا سبيلنا ، واتركوا دين محمد ، فقال تعالى :(قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونردُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله) فنكون كرجل كان مع قوم

ـــ التبريزي ٢/٦٣ وشرح « المفضليات » ١٩٧ ، و«الطبري » ١١/٤٤٦ ، و « اللسان » و « التاج » : بسل : وقوله : سمير الليالي ، ويروى « سجيس الليالي » وهما بمعنى : ومعنى « مبسلاً بالجرائر » أنه أسلم إلى عدوه بما جنى عليهم .

على طريق ، فضلّ ، فحيرته الشياطين ، وأصحابه على الطريق يدعونه : يافلان هلم إلينا ، فانا على الطريق ، فيأبى . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق ، دعاه أبوه وأمه إلى الإسلام فأبى . قال مقاتل : والمراد بأصحابه : أبواه .

قوله تعالى : (قل إن هدى الله هو الهدى) هذا رد على من دعا إلى عبادة الأصنام ، وزجرٌ عن إجابته كأنه قيل له : لاتفعل ذلك ، لأن هدى الله هو الهدى ، لا هدى غيره .

قوله تعالى : (وأُمرنا لنسلم) قال الزجاج : العرب تقول : أمرتك أن تفعل ، وأمرتك لتفعل ، وأمرتك بأن تفعل . فمن قال : « بأن » فالباء للالصاق . والمعنى : وقع الأمر بهذا الفعل ، ومن قال : « أن تفعل » فعلى حذف الباء ؛ ومن قال : « لتفعل » فقد أخبر بالعلة التي لها وقع الأمر . قال : وفي قوله : (وأن أقيموا الصلاة) وجهان .

أحدهما : أمرنا لأن نسلم ، ولأن نقيم الصلاة .

والثاني : أن يكون محمولاً على المعنى ، لأن المعنى : أُمرنا بالإسلام ، وباقامة الصلاة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) فيه أربعة أقوال .

أحدها : خلقها للحق . والثاني : خلقها حقاً . والثالث : خلقها بكلامه وهو الحق . والرابع : خلقها بالحكمة .

قولهتعالى : (ويوم يقول كن فيكون) قال الزجاج : الأجود أن يكون منصوباً على معنى : واذكر يوم يقول كن فيكون ، لأن بعده (وإذ قال إبراهيم) فالمعنى : واذكر هذا وهذا . وفي الذي يقول له كن فيكون ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله مقاتل . والثاني : مايكون في القيامة .

والثالث : أنه الصور ، وما ذكر من أمر الصور يدل عليه ، قالهما الزجاج . قال : وخُصَّ ذلك اليوم بسرعة إيجاد الشيء ، ليدل على سرعة أمر البعث .

قولهتعالى : (قوله الحق) أي : الصدق الكائن لامحالة (وله الملك يوم ينفخ في الصور) . وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو : « ننفخ » بنونين . ومعنى الكلام : أن الملوك يومئذ لا ملك لهم ، فهو المنفرد بالملك وحده ، كما قال : (والأمر يومئذ لله) [الانفطار : ١٩] . وفي « الصور » قولان .

أحدهما : أنه قرن ينفخ فيه ؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور ، فقال : « هو قرن ينفخ فيه » (١) . وقال مجاهد : الصور كهيأة البوق . وحكى ابن قتيبة : أن الصور : القرن ، في لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشد :

نَحْنُ نَطَحْنَاهُم غَدَاةَ الجَمْعَيْن بالضَّابِحَاتِ في غُبَارِ النَّقْعَيْن
نَطْحاً شَدِيداً لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن (٢)

---

(١) « المسند » : ١٠/١٠ ، ١١ ، والترمذي : ٣/٢٩٥ ، وصححه ، وأبو داود في « سننه » : ٤/٣٢٦ ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٤٣٦ ، ٥٠٦ و ٤/٥٦٠ ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الرجز في « غريب القرآن » : ٢٦ بدون نسبة ، والأول والثالث في « اللسان » (صور) والضابحات : الخيل الصاهلة .

وأنشد الفراء :

لَوْلاَ ابنُ جَعْدَةَ لَم يُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُم
وَلا خُرَاسَانُ حتَّى يُنْفَخَ الصُّوْرُ (١)

وهذا اختيارُ الجمهور .

والثاني : أن الصور جمع صورة ؛ يقال : صورة وصور ، بمنزلة سورة وسور ، كسورة البناء ؛ والمراد نفخ الأرواح في صُوَرِ الناس ، قاله قتادة ، وأبو عبيدة . وكذلك قرأ الحسن ، ومعاذ القارىء ، وأبو مِجْلَز ، وأبو المتوكل « في الصُّوَر » بفتح الواو . قال ثعلب : الأجود أن يكون الصور : القرن ، لأنه قال عز وجل : (ونُفخ في الصور فصَعِق من في السموات ومن في الأرض) ؛ ثم قال : (ثم نُفخ فيه أُخرى) ؛ ولو كان الصُّوَر ، كان : ثم نُفخ فيها ، أو فيهن ؛ وهذا يدل على أنه واحد ؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنفخ في الصُّور مرتين . وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الصور قرن يُنفخ فيه ثلاث نفخات ؛ الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين » (٢) . قال ابن عباس : وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي الأولى ، يعني : نفخة الصعق .

---

(١) البيت بدون نسبة في « معاني القرآن » للفراء ١/٢٤٠ ، و « المعرب » للجواليقي : ٢٦٧ ، وابن جرير الطبري ١١/٤٦٣ ، و « نسب قريش » : ٣٤٥ ، و « اللسان » : صور . وابن جعدة : هو عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي ، وكان أبوه جعدة بن هبيرة على خراسان ولاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه . والقهندز ، بضم القاف والهاء وسكون النون وضم الدال من لغة خراسان ، يعنون بها الحصن أو القلعة . وقد استشهد الفراء وابن جرير بالبيت على أن العرب تقول : نفخ في الصور ، ونفخ الصور .

(٢) هو قطعة من حديث طويل ساقه بطوله الحافظ ابن كثير في « التفسير » ٢/١٤٦ من ——

قوله‌تعالى : (عالم الغيب) وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ،(والشهادة) وهو ما شاهدوه ورأوه . وقال الحسن : يعني بذلك السر والعلانية .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

قوله‌تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) في « آزر » أربعة أقوال .

أحدها : أنه اسم أبيه ، روي عن ابن عباس [1] ، والحسن ، والسدي ، وابن إسحاق .

—— طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني . قال الشيخ أحمد شاكر : هو حديث ظاهر النكارة ، واسماعيل بن رافع راويه قال فيه ابن معين : ليس بشيء ، وقال أبو حاتم : هو منكر الحديث ، وقال ابن حبان في كتاب « المجروحين » ص : ٨٣ — ٨٤ (مخطوط مصور) كان رجلاً صالحاً إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الغالب على حديثه المناكير التي يسبق إلى القلب أنه كالمتعمد لها . قلت : وروى البخاري : ٨/٤٢٤ ، ومسلم ٤/٢٢٧٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهراً؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل . وقوله : « أبيت » قال الحافظ : معناه : امتنعت عن القول بتعيين ذلك ، لأنه ليس عندي في ذلك توقيف . وقد رجح غير واحد من العلماء أنها نفختان فقط .

(١) قال الشيخ أحمد شاكر : أما أن اسم والد ابراهيم « آزر » فانه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني . وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه ، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة « تارح » أو لم يكن ، فلا أثر له في وجوب الايمان بصدق ما نص عليه القرآن ، وبدلالة لفظ « لأبيه » على معناه الوضعي في اللغة ، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة . ثم يقطع كل شك ، ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ٦/٢٧٦ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ... إلى آخر الحديث وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب .

والثاني : أنه اسم صنم ، فأما اسم أبي إبراهيم ، فتارح ، قاله مجاهد . فيكون المعنى : أتتخذ آزر أصناماً ؛ فكأنه جعل أصناماً بدلاً من آزر ، والاستفهام معناه الإنكار .

والثالث : أنه ليس باسم ، إنما هو سبّ بعيب ، وفي معناه قولان . أحدهما : أنه المعوّج ، كأنه عابه بزيغه وتعويجه عن الحق ، ذكره الفراء . والثاني : أنه المخطىء ، فكأنه قال : يا مخطىء أتتخذ أصناماً ؛ ذكره الزجاج .

والرابع : أنه لقب لأبيه ، وليس باسمه ، قاله مقاتل بن حيان . قال ابن الأنباري : قد يغلب على اسم الرجل لقبه ، حتى يكون به أشهر منه باسمه . والجمهور على قراءة « آزر » بالنصب . وقرأ الحسن ، ويعقوب بالرفع . قال الزجاج : من نصب ، فموضع « آزر » خفضٌ بدلاً من أبيه ؛ ومن رفع فعلى النداء .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نري إبراهيم) أي : وكما أريناه البصيرة في دينه ، والحق في خلاف قومه ، نريه (ملكوت السموات والأرض) . وقيل : « نري » بمعنى أرينا . قال الزجاج : والملكوت بمنزلة المُلك ، إلا أن الملكوت أبلغ في اللغة ، لأن الواو والتاء يزادان للمبالغة ؛ ومثل الملكوت : الرغبوت والرهبوت . قال مجاهد : ملكوت السموات والأرض : آياتها ؛ تفرجت له السموات السبع ، حتى العرشُ ، فنظر فيهن ، وتفرجت له الأرضون السبع ، فنظر فيهن . وقال قتادة : ملكوت السموات : الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار . وقال السدي : أُقيم على صخرة ، وفتحت له السموات والأرض ، فنظر إلى ملك الله عز وجل ، حتى نظر إلى العرش ، وإلى منزله من الجنة ، وفتحت له الأرضون السبع ، حتى نظر إلى الصخرة التي عليها الأرضون .

قوله تعالى : (وليكون من الموقنين) هذا عطف على المعنى ، لأن معنى الآية : نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به ، وليكون من الموقنين .

وفي ما يوقن به ثلاثة أقوال .

أحدها : وحدانية الله وقدرته . والثاني : نبوته ورسالته . والثالث : ليكون موقناً بعلم كل شيء حساً ، لا خبراً .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما جنَّ عليه الليل) قال الزجاج : يقال : جن عليه الليل ، وأجنه الليل : إذا أظلم ، حتى يستر بظلمته ؛ ويقال لكل ماستر : جنّ ، وأجنّ ، والاختيار أن يقال : جنّ عليه الليل ، وأجنه الليل .

الإشارة إلى بدء قصة إبراهيم عليه السلام

روى أبو صالح عن ابن عباس قال : وُلد إبراهيم في زمن نُمروذ ، وكان لنمروذ كُهّان ، فقالوا له : يولد في هذه السنة مولود يفسد آلهة أهل الأرض ، ويدعوهم إلى غير دينهم ، ويكون هلاك أهل بيتك على يده ، فعزل النساء عن الرجال ، ودخل آزر إلى بيته ، فوقع على زوجته ، فحملت ، فقال الكهان لنمروذ : إن الغلام قد حمل به الليلة . فقال : كل من ولدت غلاماً فاقتلوه . فلما أخذ أمَّ إبراهيم المخاضُ ، خرجت هاربة ، فوضعته في نهر يابس ، ولفّته في خرقة ، ثم وضعته في حَلْفاء [1] ، وأخبرت به أباه ، فأتاه ، فحفر له سرباً ، وسد عليه بصخرة ،

(١) في « اللسان » الحلفاء : نبت أطرافه محددة ، كأنها أطراف سعف النخل والخوص ، ينبت في مغايض الماء والنزوز ، الواحدة : حلفة ، مثل قصبة وقصباء ، وطرفة وطرفاء .

وكانت أُمه تختلف إليه فترضعه ، حتى شب وتكلم ، فقال لأُمه : من ربي ؟ فقالت : أنا . قال: فمن ربكِ ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت : اسكت . فسكت ، فرجعت إلى زوجها ، فقالت : إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض ، ابنك . فأتاه ، فقال له مثل ذلك . فلما جنّ عليه الليل ، دنا من باب السرب ، فنظر فرأى كوكباً . قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم « رأى » ، بفتح الراء والهمزة ؛ وقرأ أبو عمرو : « رَإى » ؛ بفتح الراء وكسر الهمزة ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم . « رِإى » ، بكسر الراء والهمزة ، واختلفوا فيها إذا لقيها ساكن ، وهو آت في ستة مواضع : (رأى القمر) (فلما رأى الشمس) وفي النحل (وإذا رأى الذين ظلموا) [النحل : ٨٥] (وإذا رأى الذين أشركوا) [النحل : ٨٦] وفي الكهف : (ورأى المجرمون النار) [الكهف : ٥٣] ، وفي الأحزاب : (ولما رأى المؤمنون) [الاحزاب:٢٢] . وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وحمزة إلا العبسي ، وخلف في اختياره : بكسر الراء وفتح الهمزة في الكل ، وروى العبسي كسرة الهمزة أيضاً ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ؛ وابن عامر ، والكسائي : بفتح الراء والهمزة . فان اتصل ذلك بمكني ، نحو : رآك ، ورآه ، ورآها ؛ فان حمزة ، والكسائي ، وخلف ، والوليد عن ابن عامر ، والمفضل ، وأبان ، والقزاز عن عبد الوارث ، والكسائي عن أبي بكر : يكسرون الراء ، ويميلون الهمزة .

وفي الكوكب الذي رآه قولان .

أحدهما : أنه الزهرة ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : المشتري ، قاله مجاهد ، والسدي .

قوله تعالى : (قال هذا ربي) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على ظاهره . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : هذا ربي ، فعبده حتى غاب ، وعبد القمر حتى غاب ، وعبد الشمس حتى غابت ؛ واحتج أرباب هذا القول بقوله : (لئن لم يهدني ربي) وهذا يدل على نوع تحيير ، قالوا : وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه ، قبل أن يثبت عنده دليل . وهذا القول لا يرتضى ، والمتأهِلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال . فأما قوله : (لئن لم يهدني ربي) فما زال الأنبياء يسألون الهدى ، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم ، كقوله : (واجنبني وبَنيّ أن نعبد الأصنام) [إبراهيم : ٣٥] ولأنه قد آتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً ، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير ؟! .

والثاني : أنه قال ذلك استدراجاً للحجة ، ليعيب آلهتهم ويريهم بغضها عند أفولها ، ولا بد أن يضمر في نفسه : إما على زعمكم ، أو فيما تظنون ، فيكون كقوله : (أين شركائي) ، وإما أن يضمر : يقولون ، فيكون كقوله : (ربنا تقبل منا) [البقرة : ١٢٧] ، أي: يقولان ذلك ، ذكر نحو هذا أبو بكر ابن الأنباري ، ويكون مراده استدراج الحجة عليهم ، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل بقوم يعبدون صنما ، فأظهر تعظيمه ، فأكرموه ، وصدروا عن رأيه ، فدهمهم عدو ، فشاورهم ملِكهم ، فقال : ندعو إلهنا ليكشف ما بنا ، فاجتمعوا يدعونه ، فلم ينفع ، فقال هاهنا إله ندعوه ، فيستجيب ، فدعَوُا الله ، فصرف عنهم مايحذرون ، وأسلموا .

والثالث : أنه قال مستفهما ، تقديره : أهذا ربي ؟ فأضمرت ألف الاستفهام ، كقوله : (أفإن مت ، فهم الخالدون) [الأنبياء : ٣٤] ؟ أي : أفَهُمُ الخالدون ؟ قال الشاعر :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ

غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ [1]

أراد : أكذبتك ؛ قال ابن الأنباري : وهذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لايضمر إذ كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار ؛ وظاهر قوله : (هذا ربي) أنه إشارة إلى الصانع . وقال الزجاج : كانوا أصحاب نجوم ، فقال : هذا ربي ، أي : هذا الذي يدبرني ، فاحتج عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر ، لانرى فيه إلا أثر مدبِّر . و « أفل » بمعنى : غاب ؛ يقال : أفل النجم يأفُل ويأفِل أفولاً

قوله تعالى : (لا أحب الآفلين) أي : حبَّ ربٍّ معبود ، لأن ماظهر وأفل كان حادثاً مدبَّراً .

﴿ فَلَمَّا رَأَ الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما رأى القمر) قال ابن قتيبة : سمي القمر قمراً لبياضه ؛ والأقمر : الأبيض ؛ وليلة قمراء ، أي : مضيئة . فأما البازغ ، فهو الطالع . ومعنى (لئن لم يهدني) : لئن لم يثبّتني على الهدى . فان قيل : لم قال في الشمس : هذا ، ولم يقل : هذه ؛ فعنه أربعة أجوبة .

أحدها : أنه رأى ضوء الشمس ، لا عينها ، قاله محمد بن مقاتل . والثاني :

---

(١) البيت للأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً ، وهو في ديوانه : ٤١ ، و « مجاز القرآن » ١/٥٦ ، و « الكامل » : ٦١١ ، والطبري ١/٣٦١ ، و « النهاية » و « اللسان » (كذب) وشواهد المغني : ٥٢ ، و « الخزانة » : ٢/٤١١ ، ٤/٤٥٢ .

أنه أراد: هذا الطالع ربي ، قاله الأخفش . والثالث : أن الشمس بمعنى الضياء والنور ، فحمل الكلام على المعنى . والرابع : أن الشمس ليس في لفظها علامة من علامات التأنيث ، وإنما يشبه لفظها لفظ المذكَّر ، فجاز تذكيرها . ذكره والذي قبله ابن الأنباري .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَٰنِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إني وجهت وجهي) قال الزجاج : جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين عز وجل . وباقي الآية قد تقدم .

وقوله تعالى : (وحاجه قومه) قال ابن عباس : جادلوه في آلهتهم، وخوَّفوه بها ، فقال منكراً عليهم : (أتحاجُّونِّي) . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : (أتحاجُّوني) و (تأمرونّي) [الزمر : ٦٤] بتشديد النون . وقرأ نافع ، وابن عامر بتخفيفها ، فحذفا النون الثانية لالتقاء النونين . ومعنى (أتحاجونّي في الله) أي: في توحيده . (وقد هدان) ، أي : بيَّن لي مابه اهتديت . وقرأ الكسائي : « هداني » ، بإمالة الدال . والإمالة حسنة فيما كان أصله الياء ، وهذا من هدى يَهدي .

قوله تعالى : (ولا أخاف ما تشركون به) أي : لا أرهب آلهتكم ، وذلك أنهم قالوا : نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء ، فقال : لا أخافها لأنها لا تضر ولا تنفع (إلا أن يشاء ربي شيئاً) فله أخاف (وسع ربي كل شيء علماً) أي : علمه علماً تاماً .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكيف أخاف ما أشركتم) أي : من هذه الأصنام التي لاتضر ولا تنفع ، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم بالله الذي خلقكم ورزقكم ، وهو قادر على ضركم ونفعكم (مالم ينزل به عليكم سلطاناً) أي : حجة . (فأي الفريقين أحق بالأمن) أي : بأن يأمن العذاب ، الموحّدُ الذي يعبد من بيده الضر والنفع ؟ أم المشرك الذي يعبد مالا يضر ولا ينفع ؟ ثم بين الأحق من هو بقوله : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي : لم يخلطوه بشرك . روى البخاري ، ومسلم في « صحيحيهما » من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ، شق ذلك على المسلمين ، فقالوا : يارسول الله ، وأينا ذلك ؟ فقال : إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان : ١٣][(١)] ؟

وفيمن عنى بهذه الآية ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إبراهيم وأصحابه ، وليست في هذه الأمة ، قاله علي بن أبي طالب .

وقال في رواية أخرى : هذه الآية لإبراهيم خاصة ، ليس لهذه الأمة منها شيء .

والثاني : أنه من هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة .

والثالث : أنها عامة ، ذكره بعض المفسرين . وهل هي من قول ابراهيم لقومه ، أم جواب من الله تعالى ؟ فيه قولان .

---

(١) « المسند » : ٢٠٧/٥ ، والبخاري : ٨١/١ ، ٢٢١/٨ ، ومسلم بشرح النووي ١٤٢/٢ ، ١٤٣ ، والترمذي ١٣٢/٢ .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وتلك حجتنا) يعني ما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس ، وعيبهم ، إذ سووا بين الصغير والكبير ، وعبدوا من لا ينطق ، وإلزامه إيام الحجة . (آتيناها ابراهيم) أرشدناه إليها بالإلهام. وقال مجاهد : الحجة قول ابراهيم (فأي الفريقين أحق بالأمن) ؟ .

قوله تعالى : (نرفع درجات من نشاء) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عمرو وابن عامر : (درجاتِ من نشاء) ، مضافاً . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي (درجاتٍ)، منوناً ، وكذلك قرؤوا في (يوسف) [يوسف : ٧٦]. ثم في المعنى قولان .

أحدهما : أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة . والثاني : بالاصطفاء للرسالة .

قوله تعالى : (إن ربك حكيم) قال ابن جرير : حكيم في سياسة خلقه ، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذبة (عليم) بما يؤول إليه أمر الكل .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ووهبنا له إسحق) ولداً لصلبه (ويعقوب) ولداً لإسحاق (كلاً) من هؤلاء المذكورين (هدينا) أي : أرشدنا .

قوله تعالى : (ومن ذرِّيته) في « هاء الكناية » ، قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى نوح ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء ، ومقاتل ، وابن جرير الطبري .

والثاني : إلى إبراهيم ، قاله عطاء . وقال الزجاج : كلا القولين جائز ، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى ، واحتج ابن جرير للقول الأول بأن الله تعالى ، ذكر في سياق الآيات لوطاً ، وليس من ذرية إبراهيم . وأجاب عنه أبو سليمان الدمشقي بأنه يحتمل أن يكون أراد : ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة ، ثم قوله : (وكذلك نجزي المحسنين) من أبين دليل على أنه إبراهيم ، لأن افتتاح الكلام إنما هو بذكر ما أثاب به إبراهيم . فأما « يوسف » فهو اسم أعجمي . قال الفراء : « يوسف » . بضم السين من غير همز ، لغة أهل الحجاز ، وبعض بني أسد يقول : « يؤسف » ، بالهمز ، وبعض العرب يقول : « يوسِف » بكسر السين ، وبعض بني عُقيل يقول : « يوسَف » بفتح السين .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المحسنين) أي : كما جزينا إبراهيم على توحيده وثباته على دينه ، بأن رفعنا درجته ، ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء ، كذلك نجزي المحسنين . فأما عيسى ، وإلياس ، واليسع ، ولوطاً ، فأسماء أعجمية ، وجمهور القراء يقرؤون « اليسع » بلام واحدة مخففاً ، منهم ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو وابن عامر . وقرأ حمزة ، والكسائي هاهنا وفي (ص) : « إِللَيْسَعَ » بلامين مع التشديد . قال الفراء : وهي أشبه بالصواب ، وبأسماء الأنبياء من بني إسرائيل ، ولأن العرب لا تدخل على « يَفْعَل » ، إذا كان في معنى فلان ، ألفاً ولاماً ، يقولون :

هذا يسع قد جاء ، وهذا يعمر ، وهذا يزيد ، فهكذا الفصيح من الكلام . وأنشدني بعضهم .

وَجَدْنا الوَلِيْدَ بنَ اليَزِيْدِ مباركاً شَدِيْداً بأحْناءِ الخلافَةِ كاهِلُه[1]

فلما ذكر الوليد بالألف واللام ، أتبعه يزيد بالألف واللام ، وكلٌّ صواب . وقال مكي : من قرأه بلام واحدة ، فالأصل عنده : يسع ، ومن قرأه بلامين ، فالأصل عنده : لَيْسَعُ ، فأدخلوا عليه حرف التعريف . وباقي أسماء الأنبياء قد تقدم بيانها ، والمراد بالعالمين : عالمو زمانهم .

قوله تعالى : (ومن آبائهم وذرياتهم) « من » هاهنا للتبعيض . قال الزجاج : المعنى : هدينا هؤلاء ، وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم . (واجتبيناهم) مثل اخترناهم واصطفيناهم ، وهو مأخوذ من جبيت الشيء : إذا أخلصته لنفسك . وجبيت الماء في الحوض : إذا جمعته فيه . فأما الصراط المستقيم ، فهو التوحيد .

﴿ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ذلك هدى الله) قال ابن عباس : ذلك دين الله الذي هم عليه (يهدي به من يشاء من عباده) . (ولو أشركوا) يعني الأنبياء المذكورين (لحبط) أي : لبطل وزال عملهم ، لأنه لا يقبل عمل مشرك .

---

(١) البيت من قصيدة لابن ميادة الرماح بن أبرد يمدح فيها أبا العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان . وهو في « معاني القرآن » للفراء ١/٣٤٢ ، و « المغني » : ٥٢ ، و « تاريخ الخلفاء » للسيوطي : ٢٥٢ . وقوله : « بأحناء الخلافة » فالأحناء جمع الحنو وهو الجهة والجانب ، ويقال : أحناء الأسور لما تشابه منها وأشكل المخرج منه . والكاهل : اسم لما بين الكتفين ، ويعبر بشدة الكاهل عن القوة .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) يعني الكتب التي أنزلها عليهم . والحكمُ : الفقه ، والعلم (فان يكفر بها) يعني بآياتنا .

وفيمن أُشير إليه بـ « هؤلاء » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة .

والثاني : أنهم قريش ، قاله السدي . والثالث : أُمة النبي ﷺ ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (فقد وكلنا بها) قال أبو عبيدة : فقد رزقناها قوماً . وقال الزجاج : وكلنا بالإيمان بها قوماً . وفي هؤلاء القوم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أهل المدينة من الأنصار ، قاله ابن عباس ، وابن المسيب ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : الأنبياء والصالحون ، قاله الحسن . وقال قتادة : هم النبيُّون الثمانية عشر ، المذكورون في هذا المكان ، وهذا اختيار الزجاج ، وابن جرير .

والثالث : أنهم الملائكة ، قاله أبو رجاء . والرابع : أنهم المهاجرون والأنصار .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله) يعني النبيين المذكورين .

وفي قوله تعالى : (فبهداهم اقتده) قولان .

أحدهما : بشرائعهم وبسننهم فاعملْ ، قاله ابن السائب .

والثاني : اقتدِ بهم في صبرهم ، قاله الزجاج . وكان ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، يثبتون الهاء من قوله : « اقتده » في الوصل ساكنة . وكان حمزة ، وخلف ، ويعقوب ، والكسائي عن أبي بكر ، واليزيدي في اختياره ، يحذفون الهاء في الوصل . ولا خلاف في إثباتها في الوقف ، وإسكانها فيه .

قوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً) يعني على القرآن . والذكرى : العظة . والعالمون هاهنا : الجن والإنس .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) في سبب نزولها سبعة أقوال .

أحدها : أن مالك بن الصيف رأس اليهود ، أتى رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ؟ » قال : نعم . قال : « فأنت الحبر السمين » . فغضب ، ثم قال : (ما أنزل الله على بشر من شيء) فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة : نزلت في مالك بن الصيف .

والثاني : أن اليهود قالوا : يامحمد ، أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال :« نعم» . قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فنزلت هذه الآية ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والثالث : أن اليهود قالوا : يامحمد ، إن موسى جاء بألواح يحملها من عند الله ، فائتنا بآية كما جاء موسى ، فنزل : (يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً

من السماء) ، إلى قوله : (عظيماً) [النساء: ١٥٣-١٥٦] . فلما حدَّثهم بأعمالهم الخبيثة ، قالوا : والله ما أنزل الله عليك ولا على موسى وعيسى ، ولا على بشر ، من شيء ، فنزلت هذه الآية ، قاله محمد بن كعب .

والرابع : أنها نزلت في اليهود والنصارى ، آتاهم الله علماً ، فلم ينتفعوا به ، قاله قتادة .

والخامس : أنها نزلت في فنحاص اليهودي ، وهو الذي قال : (ما أنزل الله على بشر من شيء) قاله السدي .

والسادس : أنها نزلت في مشركي قريش ، قالوا : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد[1] .

والسابع : أن أولها ، إلى قوله : (من شيء) في مشركي قريش . وقوله : (من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) في اليهود ، رواه ابن كثير عن مجاهد . وفي معنى (وما قدروا الله حق قدره) ثلاثة أقوال .

أحدها : ما عظَّموا الله حق عظمته ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والفراء ، وثعلب ، والزجاج .

والثاني : ما وصفوه حق صفته ، قاله أبو العالية ، واختاره الخليل .

والثالث : ما عرفوه حق معرفته ، قاله أبو عبيدة .

(١) رجح هذا القول ابن كثير ، وقال : إنه الأصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر كما قال : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) [يونس : ٢] . وقال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) [الاسراء : ٩٤، ٩٥] .

قوله تعالى : (يجعلونه قراطيس) معناه : يكتبونه في قراطيس . وقيل : إنما قال : قراطيس ، لأنهم كانوا يكتبونه في قراطيس مقطّعة ، حتى لا تكون مجموعة ، ليخفوا منها ما شاؤوا .

قوله تعالى : (يبدونها) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يجعلونه قراطيس يبدونها » و « يخفون » بالياء فيهن . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالتاء فيهن . فمن قرأ بالياء ، فلأن القوم غُيَّب ، بدليل قوله : (وما قدروا الله حق قدره) . ومن قرأ بالتاء ، فعلى الخطاب ؛ والمعنى : تبدون منها ما تحبون ، وتخفون كثيراً ، مثل صفة محمد ﷺ ، وآية الرجم ، ونحو ذلك مما كتموه .

قوله تعالى : (وعُلّمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) في المخاطب بهذا قولان .

أحدها : أنهم اليهود ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه خطاب المسلمين ، قاله مجاهد . فعلى الأول : عُلّموا ما في التوراة ؛ وعلى الثاني : عُلّموا على لسان محمد ﷺ .

قوله تعالى : (قل الله) هذا جواب لقوله :(من أنزل الكتاب) وتقديره : فان أجابوك ، وإلا فقل : الله أنزله .

قوله تعالى : (ثم ذرهم) تهديد . وخوضهم : باطلهم . وقيل : إن هذا أمر بالإعراض عنهم ، ثم نسخ بآية السيف .

قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه) يعني القرآن . قال الزجاج : والمبارك : الذي يأتي من قبله الخير الكثير . والمعنى : أنزلناه للبركة والإنذار .

﴿ وَهٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

قوله تعالى : (مصدِّقُ الذي بين يديه) من الكتب .

قوله تعالى : (ولتنذر أم القرى) قرأ عاصم إلا حفصاً : « ولينذر » بالياء ؛ فيكون الكتاب هو المنذر . وقرأ الباقون : بالتاء ، على الخطاب للنبي ﷺ . فأما أم القرى ، فهي مكة . قال الزجاج : والمعنى : لتنذر أهل أم القرى .

وفي تسميتها بأم القرى أربعة أقوال .

أحدها : أنها سميت بذلك ، لأن الأرض دُحيت من تحتها ، قاله ابن عباس .

والثاني : لأنها أقدمُها ، قاله ابن قتيبة . والثالث : لأنها قبلة جميع الناس ، يؤُمُّونها .

والرابع : لأنها كانت أعظم القرى شأناً ، ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : (ومن حولها) قال ابن عباس : يريد الأرض كلها .

قوله تعالى : (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) في هاء الكناية قولان .

أحدها : أنها ترجع إلى القرآن .

والثاني : إلى النبي محمد ﷺ . والمعنى : من آمن بالآخرة آمن به ؛ ومن لم يؤمن به ، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة ، ولا يعتدُّ به ، ألا ترى إلى قوله : (وهم على صلاتهم يحافظون) فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَآ أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أولها ، إلى قوله : (ولم يوحَ إليه شيء) نزل في مُسيلمة الكذاب .

وقوله تعالى : (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان قد تكلم بالإسلام ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في بعض الأحايين ؛ فاذا أُملي عليه : « عزيز حكيم » كتب : « غفور رحيم » فيقول لرسول الله ﷺ : هذا وذاك سواء . فلما نزلت : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله : (خلقاً آخر) عجب عبد الله بن سعد ، فقال : (تبارك الله أحسن الخالقين) [المؤمنون : ١٢ - ١٤] فقال رسول الله ﷺ : « كذا أنزلت عليّ ، فاكتبها » فشك حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقاً ، لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ، ولئن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس (١) .
قال عكرمة : ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة .

والقول الثاني : أن جميع الآية في عبد الله بن سعد ، قاله السدي .

والثالث : أنها نزلت في مسيلمة ، والأسود العنسيّ ، قاله قتادة . فان قيل : كيف أفرد قوله : (أو قال أُوحي إليّ) من قوله : (ومن أظلم ممن افترى) وذاك مفترٍ أيضاً ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الوصفين لرجل واحد ، وصف بأمر بعد أمر ليدل على جرأته .
والثاني : أنه خص بقوله : (أو قال أوحي إليّ) بعد أن عم بقوله : (افترى على الله) لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدّعي أنه يوحى إليه ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (سأُنزل مثل ما أنزل الله) أي : سأقول . قال ابن عباس : يعنون الشعر ، وهم المستهزؤون . وقيل : هو قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
قال الزجاج : وهذا جواب لقولهم : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) .

---

(١) إسناده تالف هالك ، كما مر غير مرة .

قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا مسلمين بمكة ، فأخرجهم الكفار معهم إلى قتال بدر ، فلما أبصروا قلّة أصحاب رسول الله ﷺ رجعوا عن الإيمان ، فنزل فيهم هذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء) قاله أبو سليمان .

والثالث : الموصوفون في هذه الآية ، وهم المفترون والمدّعون الوحي إليهم ، ومماثلة كلام الله . قال الزجاج : وجواب « لو » محذوف ؛ والمعنى : لو تراهم في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً . ويقال لكل من كان في شيء كبير : قد غمر فلاناً ذلك . قال ابن عباس : غمرات الموت : سكراته . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : سميت غمرات ، لأن أهوالها يغمرن من يقعن به .

قوله تعالى : (والملائكة باسطو أيديهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بالضرب ، قاله ابن عباس . والثاني : بالعذاب ، قاله الحسن ، والضحاك . والثالث : باسطوها لقبض الأرواح من الأجساد ، قاله الفراء .

وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عند الموت . قال ابن عباس : هذا عند الموت ، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وملك الموت يتوفّاهم .

والثاني : يوم القيامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في النار ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) فيه إضمار « يقولون » وفي معناه قولان .

أحدها : استسلموا لإخراج أنفسكم .

والثاني : أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم .

قوله تعالى : (تجزَون عذاب الهون) قال أبو عبيدة : الهون : مضموم ، وهو الهوان ؛ وإذا فتحوا أوله ، فهو الرِّفق والدَّعة . قال الزجاج : والمعنى : تجزَون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى) سبب نزولها : أن النضر بن الحارث قال : سوف تشفع لي اللاَّت والعزى ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة . ومعنى فرادى : وُحداناً . وهذا إخبار من الله تعالى بما يوبِّخ به المشركين يوم القيامة . قال أبو عبيدة : فرادى ، أي : فرد فرد . وقال ابن قتيبة : فرادى : جمع فرد .

وللمفسرين في معنى « فرادى » خمسة أقوال متقاربة المعنى .

أحدها : فرادى من الأهل والمال والولد ، قاله ابن عباس . والثاني : كل واحد على حدة ، قاله الحسن . والثالث : ليس معكم من الدنيا شيء ، قاله مقاتل . والرابع : كل واحد منفرد عن شريكه في الغيّ ، وشقيقه ، قاله الزجاج . والخامس : فرادى من المعبودين ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : (كما خلقناكم أول مرة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا مال ولا أهل ولا ولد . والثاني : حفاةً عراةً غرلاً . والغرل : القلف . والثالث : أحياء . وخولناكم : بمعنى ملَّكناكم . (وراء ظهوركم) أي :

في الدنيا . والمعنى : أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني ، وبقي الندم على سوء الاختيار . وفي شفعائهم ، قولان .

أحدهما : أنها الأصنام . قال ابن عباس : شفعاؤكم ، أي : آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم . و (زعمتم أنهم فيكم) أي : عندكم شركاء . وقال ابن قتيبة : زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء .

والثاني : أنها الملائكة ؛ كانوا يعتقدون شفاعتها ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (لقد تقطّع بينكم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : بالرفع . وقرأ نافع ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بنصب النون على الظرف . قال الزجاج : الرفع أجود ، ومعناه : لقد تقطّع وصلكم ، والنصب جائز ، ومعناه : لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم . وقال ابن الأنباري : التقدير : لقد تقطع ما بينكم ، فحذف « ما » لوضوح معناها . قال أبو علي : الذين رفعوه ، جعلوه اسماً ، فأسندوا الفعل الذي هو « تقطّع » إليه ؛ والمعنى : لقد تقطع وصلكم . والذين نصبوا ، أضمروا اسم الفاعل في الفعل ، والمضمر هو الوصل ؛ فالتقدير : لقد تقطع وصلكم بينكم . وفي الذي كانوا يزعمون قولان .

أحدهما : شفاعة آلهتهم . والثاني : عدم البعث والجزاء .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى) في معنى الفلق قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الخلق ، فالمعنى : خالق الحب والنوى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أن الفلق بمعنى الشق . ثم في معنى الكلام قولان .

أحدها : أنه فلق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : أنه الشقان اللذان في الحب والنوى ، قاله مجاهد ، وأبو مالك . قال ابن السائب : الحب : ما لم يكن له نوى ، كالبُرِّ والشعير ؛ والنوى : مثل نوى التمر .

قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت ومخرج الميتِ من الحي) قد سبق تفسيره في (آل عمران) .

قوله تعالى : (فأنى تؤفكون) أي : كيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان .

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فالق الإصباح) في معنى الفلق قولان قد سبقا . فأما الإصباح ، فقال الأخفش : هو مصدر من أصبح . وقال الزجاج : الإصباح والصبح واحد .

وللمفسرين في الإصباح ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه إضاءة الفجر ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد : فلق الإصباح من الليل .

والثالث : أنه نور النهار ، قاله الضحاك . وقرأ أنس بن مالك ، والحسن ، وأبو مجلز ، وأيوب ، والجحدري : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة . قال أبو عبيد : ومعناه جمع صبح .

قوله تعالى : (وجاعل الليل سكناً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « جاعل » بألف . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « وجعل » بغير ألف . « الليلَ » نصباً . قال أبو علي : من قرأ : « جاعل » فلأجل « فالق » وهم يراعون المشاكلة . ومن قرأ : « جعل » فلأن « فاعلاً » هاهنا ، بمعنى : «فعل » بدليل قوله : (والشمس والقمر حسباناً) . فأما السكن ، فهو ماسكنْتَ إليه . والمعنى : أن الناس يسكنون فيه سكون راحة . وفي الحسبان قولان .

أحدهما : أنه الحساب ، قاله الجمهور . قال ابن قتيبة : يقال : خذ من كل شيء بحسبانه ، أي : بحسابه . وفي المراد بهذا الحساب ، ثلاثة أقوال . أحدها : أنهما يجريان إلى أجل جُعل لهما ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : يجريان في منازلهما بحساب ، ويرجعان إلى زيادة ونقصان ، قاله السدي . والثالث : أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن معنى الحسبان : الضياء ، قاله قتادة . قال الماوردي ، كأنه أخذه من قوله تعالى : (ويرسل عليها حسباناً من السماء) [الكهف : ٤٠] أي : ناراً . قال ابن جرير : وليس هذا من ذاك في شيء .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم النجوم) جعل ، بمعنى خلق . وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم ، لأن سالكي القفار وراكبي البحار ، إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) يعني آدم (فمستقر) . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، إلا رويساً : بكسر القاف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : بفتحها . قال الزجاج : من كسر ، فالمعنى : « فمنكم مستقِر » ومن نصب ، فالمعنى : « فلكم مستقَرّ » . فأما مستودع ، فبالفتح ، لاغير . ومعناه على فتح القاف : « ولكم مستودع » وعلى كسر القاف : « منكم مستودع » . وللمفسرين في هذا المستقر والمستودع تسعة أقوال .

أحدها : فمستقر في الأرحام ، ومستودع في الأصلاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والنخعي ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : المستقر في الأرحام ، والمستودع في القبر ، قاله ابن مسعود .

والثالث : المستقر في الأوض ، والمستودع في الأصلاب ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والرابع : المستقر والمستودع في الرحم ، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس .

والخامس : المستقر حيث يأوي ، والمستودع حيث يموت ، رواه مقسم عن ابن عباس .

والسادس : المستقر في الدنيا ، والمستودع في القبر .

والسابع : المستقر في القبر ، والمستودع في الدنيا ، وهو عكس الذي قبله ، رويا عن الحسن .

والثامن : المستقر في الدنيا ، والمستودع عند الله تعالى ، قاله مجاهد .

والتاسع : المستقر في الأصلاب ، والمستودع في الأرحام ، قاله ابن بحر ، وهو عكس الأول .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ أُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يعني المطر (فأخرجنا به) أي : بالمطر . وفي قوله تعالى :(نبات كل شيء) قولان .

أحدهما : نبات كل شيء من الثمار ، لأن كل ماينبت ، فنباته بالماء .

والثاني : رزق كل شيء وغذاؤه . وفي قوله تعالى :(فأخرجنا منه) قولان .

أحدهما : من الماء ، أي : به .

والثاني : من النبات . قال الزجاج : الخَضِر بمعنى الأخضر ؛ يقال : اخضرّ ، فهو أخْضر ، وخَضِر ، مثل اعورّ ، فهو أعْوَر ، وعَوِر .

قوله تعالى : (نخرج منه) أي : من الخضر (حباً متراكبا) كالسنبل والشعير . والمتراكب : الذي بعضه فوق بعض .

قوله تعالى : (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) وروى الخفّاف عن أبي عمرو : « قُنوان » بضم القاف ؛ وروى هارون عنه بفتحها . قال الفراء : معناه : ومن النخل ما قنوانه دانية ؛ وأهل الحجاز يقولون : « قِنوان » بكسر القاف ؛ وقيس يضمونها ؛ وضبة ، وتميم يقولون : «قنيان » . وأنشدني المفضّل عنهم :

فأثَّتْ أعَالِيهِ وآدَتْ أصُولُه وَمَالَ بِقِنْيانٍ من البُسْرِ أحْمَرَا [1]

(١) البيت لامرىء القيس ديوانه : ٦٧ ، و « اللسان » : قنا من قصيدته المستجادة ، وهو من أولها يصف ظعن الحي يشبهها بالنخل . وقوله : أثت أعاليه ، أي : عظمت والتفت من ثقل حملها . وقوله : آدت ، أي : تثنت ومالت .

ويجتمعون جميعاً ، فيقولون : « قِنو » و « قُنو » ولا يقولون : «قِني » ولا « قُني » وكلب يقولون : « ومال بِقِنيان » . قال المصنف : والبيت لامرئ القيس ؛ ورواه أبو سعيد السكري : « ومال بِقِنوان » مكسورة القاف مع الواو ، ففيه أربع لغات : قِنوان ، وقُنوان ، وقِنيان ، وقُنيان ؛ و « أثت » : كثرت ؛ ومنه : شعر أثيت . و « آدت » : اشتدت . وقال ابن قتيبة : القنوان : عذوق النخل ، واحدها : قنو ، جمع على لفظ تثنية ؛ ومثله : صِنو وصِنوان في التثنية ، وصنوان في الجميع . وقال الزجاج : قِنوان : جمع قِنو ، وإذا ثنيته فهما قِنوانِ ، بكسر النون . ودانية ، أي : قريبة المتناول ، ولم يقل : « ومنها قنوان بعيدة » لأن في الكلام دليلاً أن البعيدة السحيقة ؛ قد كانت غير سحيقة ، فاجتُزِئ بذكر القريبة عن ذكر البعيدة ؛ كقوله تعالى : (سرابيل تقيكم الحر) [النحل : ٨١] . وقال ابن عباس : القُنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

قوله تعالى : (وجنات من أعناب) قال الزجاج : هو نسق على قوله : « خضراً » (والزيتون والرمان) المعنى : وأخرجنا منه شجر الزيتون والرمان ؛ وقد روى أبو زيد عن المفضل : « وجناتٌ » بالرفع .

قوله تعالى : (مشتبهاً وغير متشابه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشتبهاً في المنظر ، وغير متشابه في الطعم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مشتبهاً ورقه ، مختلفاً ثمره ، قاله قتادة ، وهو في معنى الأول .

والثالث : منه مايشبه بعضه بعضاً ، ومنه مايخالف . قال الزجاج : وإنما قرن الزيتون بالرمان ، لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره . قال الشاعر :

بُورِكَ المَيّت الغَرِيبُ كما بو رِكَ نَضْحُ الرُّمَّانِ والزَّيْتُونِ

ومعناه : أن البركة في ورقه اشتماله على عوده كله .

قوله تعالى : (انظروا إلى ثمره) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : (انظروا إلى ثمره) ، و (كلوا من ثمره) [الانعام : ١٤١] ، و(ليأكلوا من ثمره) [يس : ٣٥] : بالفتح في ذلك . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بالضم فيهن . قال الزجاج : يقال : ثَمَرَةٌ ، وثَمَر ، وثِمَارٌ ، وثُمُر ؛ فمن قرأ : « إلى ثُمُره » بالضم أراد جمع الجمع . وقال أبو علي : يحتمل وجهين . أحدهما هذا ، وهو أن يكون الثمر جمع ثمار . والثاني : أن تكون الثمر جمع ثمرة ، وكذلك : أكمة ، وأُكُم ، وخشبة وخُشُب . قال الفراء : يقول : انظروا إليه أول ما يَعْقِد ، وانظروا إلى ينعه ، وهو نضجه وبلوغه . وأهل الحجاز يقولون : يَنْعَ ، بفتح الياء ، وبعض أهل نجد يضمونها . قال ابن قتيبة : يقال : ينَعت الثمرة ، وأينعت : إذا أدركت ، وهو اليُنْع واليَنْع . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والأعمش ، وابن محيصن : « ويُنْعِه » بضم الياء . قال الزجاج : الينع : النُضج . قال الشاعر :

في قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعا [1]

وبيّن الله تعالى لهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال لا يقدر عليه الخلق ، أنه كذلك يبعثهم .

---

(١) « الحيوان » : ٤/١٠ ، و « الكامل » : ١/٢٢٦ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٠٢ ، و « الطبري » : ١١/٥٨٠ ، و « خزانة الأدب » : ٣/٢٧٩ ، و « اللسان » : ينع . قال المبرد : قال أبو عبيدة : هذا الشعر مختلف فيه ، فبعضهم ينسبه إلى الأحوص ، وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية . وفي « اللسان » قال ابن بري : هو للأحوص ، أو يزيد بن معاوية ، أو عبد الرحمن بن حسان ، ونسبه صاحب « اللسان » في مادة : « دسكر » إلى الأخطل . والدسكرة : بناء كالقصر ، كانت الأعاجم تتخذه للشرب والملاهي .

قوله تعالى : (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) قال ابن عباس : يصدِّقون أن لذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى . وقال مقاتل : يصدقون بالتوحيد .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن) جعلوا ، بمعنى وصفوا . قال الزجاج : نصبُ « الجن » من وجهين .

أحدها : أن يكون مفعولاً ، فيكون المعنى : وجعلوا لله الجنَّ شركاء ؛ ويكون الجن مفعولاً ثانياً ، كقوله : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) [الزخرف : ١٩] .

والثاني : أن يكون الجن بدلاً من شركاء ، ومفسراً للشركاء . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران ، وأبو حيوة ، والجحدري : « شركاء الجنُ » برفع النون ؛ وقرأ ابن أبي عبلة ، ومعاذ القارىء : « الجنِّ » بخفض النون .

وفي معنى جعلهم الجن شركاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان ، فجعلوهم شركاء لله ، قاله الحسن ، والزجاج .

والثاني : قالوا : إن الملائكة بنات الله فهم شركاؤه ، كقوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) [الصافات : ١٥٨] فسمى الملائكة جنّاً لاجتنانهم ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أن الزنادقة قالوا : الله خالق النور والماء والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وفيهم نزلت هذه الآية . قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وخلقهم) في الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء ، فيكون المعنى : وجعلوا للذي خلقهم شركاء لايخلقون .

والثاني : أنها ترجع إلى الجن ، فيكون المعنى : والله خلق الجن ، فكيف يكون الشريك لله محدَثاً ؛ ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : (وخرقوا له بنين وبنات) وقرأ نافع : « وخرّقوا » بالتشديد ، للمبالغة والتكثير ، لأن المشركين ادّعوا الملائكةَ بناتِ الله ، والنصارى المسيحَ ، واليهود عزيراً . وقرأ ابن عباس ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : « وحرّفوا » بحاء غير معجمة وبتشديد الراء وبالفاء . وقرأ ابن السميفع ، والجحدري : « خارقوا » بألف وخاء معجمة . قال السدي : أما « البنون » ، فقول اليهود : عزير ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله ؛ وأما « البنات » ، فقول مشركي العرب : الملائكة بنات الله . قال الفراء : خرّقوا ، واخترقوا ، وخلقوا ، واختلقوا ، بمعنى افتروا . وقال أبو عبيدة : خرقوا : جعلوا . قال الزجاج : ومعنى : « بغير علم » : أنهم لم يذكروه من علم ، إنما ذكروه تكذُّباً .

﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (أنى يكون له ولد) قال الزجاج : أي : من أين يكون له ولد ،

والولد لايكون إلا من صاحبة ؟! واحتج عليهم في نفي الولد بقوله : (وخلق كل شيء) فليس مثل خالق الأشياء، فكيف يكون الولد لمن لا مثل له ؟! فاذا نُسب إليه الولد ، فقد جُعل له مثل .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) في الإدراك قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإحاطة . والثاني : بمعنى الرؤية . وفي « الأبصار » قولان .

أحدهما : أنها العيون ، قاله الجمهور . والثاني : أنها العقول ، رواه عبد الرحمن ابن مهدي عن أبي حصين القارىء . في معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : لاتحيط به الأبصار ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن المسيب ، وعطاء . وقال الزجاج : معنى الآية : الإحاطة بحقيقته ، وليس فيها دفع للرؤية ، لِما صح عن رسول الله ﷺ من الرؤية [1] ، وهذا مذهب أهل السُّنَّة والعلم والحديث .

والثاني : لاتدركه الأبصار إذا تجلَّى بنوره الذي هو نوره ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : لاتدركه الأبصار في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومقاتل . ويدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا ، قوله : (وجوه

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في « التفسير » ١٦١/٢ : تواترت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وأنس ، وجرير ، وصهيب ، وبلال ، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات ، وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه .

يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) [القيامة : ٢٢، ٢٣] فقيّد النظر إليه بالقيامة ، وأطلق في هذه الآية ، والمطلق يحمل على المقيد .

وقوله تعالى : (وهو يدرك الأبصار) فيه القولان . قال الزجاج : وفي هذا الإعلام دليل على أنّ خَلْقَه لايدركون الأبصار ، أي : لايعرفون حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه ، دون أن يبصر من غيرهما من أعضائه ؛ فأعلم الله أن خلقاً من خلقه لايدرك المخلوقون كنهه ، ولا يحيطون بعلمه ؛ فكيف به عز وجل ؟ ! فأما « اللطيف » ، فقال أبو سليمان الخطابي : هو البرّ بعباده ، الذي يلطف بهم من حيث لايعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لايحتسبون . قال ابن الأعرابي : اللطيف : الذي يوصل إليك أرَبَك في رِفق ؛ ومنه قولهم : لطف الله بك ؛ ويقال : هو الذي لَطُفَ عن أن يُدرَك بالكيفية . وقد يكون اللطف بمعنى الدقة والغموض ، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام ، وذلك مما لايليق بصفات الباري سبحانه . وقال الأزهري : اللطيف من أسماء الله ، معناه : الرفيق بعباده ؛ والخبير : العالم بكنه الشيء ، المطلع على حقيقته .

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

قوله تعالى : (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر : جمع بصيرة ، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به . قال الزجاج : والمعنى : قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر (فمن أبصر فلنفسه) نفع ذلك (ومن عمي) فعلى نفسه ضرر ذلك ، لأن الله عز وجل غني عن خلقه . (وما أنا عليكم بحفيظ) أي : لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

فصل

وذكر المفسرون أن هذه الآية نسخت بآية السيف . وقال بعضهم : معناها : لست رقيباً عليكم ، أحصي أعمالكم ؛ فعلى هذا لا وجه للنسخ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نصرف الآيات) قال الأخفش : « وكذلك » معناها : وهكذا . وقال الزجاج : المعنى : وَمِثْلُ ما بيَّنَّا فيما تُلي عليك ، نُبيِّنُ الآيات . قال ابن عباس : نصرِّف الآيات ، أي : نبيِّنها في كل وجه ، ندعوهم بها مرَّة ، ونخوِّفهم بها أُخرى . (وليقولوا) يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن « دارست » . قال ابن الأنباري : معنى الآية : وكذلك نصرف الآيات ، لنلزمهم الحجة ، وليقولوا : دارست ؛ وإنما صرَّف الآيات ليسعد قوم بفهمها والعمل بها ، ويشقى آخرون بالإعراض عنها ؛ فمن عمل بها سعد ، ومن قال : دارست ، شقي . قال الزجاج : وهذه اللام في « ليقولوا » يسميها أهل اللغة لام الصيرورة . والمعنى : أن السبب الذي أدَّاهم إلى أن قالوا : دارست ، هو تلاوة الآيات ، وهذا كقوله : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً) [القصص : ٨] وهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم ، ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدوّاً وحزناً . ومثله أن تقول : كتب فلان الكتاب لحتفه ، فهو لم يقصد أن يُهلك نفسه بالكتاب ، ولكن العاقبة كانت الهلاك . فأما « دارست » فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « دارست » بالألف وسكون السين وفتح التاء ؛ ومعناها : ذاكرت أهل الكتاب . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي :

« درست » بسكون السين وفتح التاء ، من غير ألف ، على معنى : قرأت كتب أهل الكتاب . قال المفسرون : معناها : تعلمت من جبر ، ويسار . وسنبين هذا في قوله : (إنما يعلّمه بشر)[النحل:١٠٣] إن شاء الله. وقرأ ابن عامر ، ويعقوب : « درست » بفتح الراء والسين وسكون التاء من غير ألف . والمعنى : هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست . أي : قد مضت وامّحت . وجميع من ذكرنا فتح الدال في قراءته . وقد روي عن نافع أنه قال : « دُرِسَت » برفع الدال وكسر الراء وتخفيف التاء ، وهي قراءة ابن يعمر ؛ ومعناها : قُرئت . وقرأ أُبي بن كعب : « دَرُسَتْ » بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء . قال الزجاج : وهي بمعنى : « دَرَسَتْ » أي : امّحت ؛ إلا أن المضمومة الراء أشد مبالغة . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو العالية ، ومورّق : « دُرِّسْتَ » برفع الدال ، وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين . وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرّف : « دَرَسَ » بفتح الراء والسين بلا ألف ولا تاء . وروى عصمة عن الأعمش : « دارس » بألف .

قوله تعالى : (ولنبينه) يعني : التصريف (لقوم يعلمون) ما تبين لهم من الحق فيقبلوه .

﴿ إتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله تعالى : (وأعرض عن المشركين) قال المفسرون : نسخ بآية السيف .

قوله تعالى : (ولو شاء الله ما أشركوا) فيه ثلاثة أقوال حكاها الزجاج .

أحدها : لو شاء لجعلهم مؤمنين . والثاني : لو شاء لأنزل آية تضطرهم إلى الإيمان . والثالث : لو شاء لاستأصلهم ، فقطع سبب شركهم . قال ابن عباس : وباقي الآية نسخ بآية السيف .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أنه لما قال للمشركين : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قالوا : لتنتهينّ يامحمد عن سبِّ آلهتنا وعيبها ، أو لنهجونّ إلهك الذي تعبده ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار ، فيردون ذلك عليهم ، فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة لاعلم لهم بالله ، قاله قتادة . ومعنى « يدعون » : يعبدون ، وهي الأصنام . (فيسبوا الله) أي : فيسبوا من أمركم بعيبها ، فيعود ذلك إلى الله تعالى ، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى ، لأنهم كانوا يقرّون أنه خالقهم ، وإن أشركوا به (١) .

وقوله تعالى : (عدواً بغير علم) ، أي : ظلماً بالجهل . وقرأ يعقوب :

(١) ومن هذا القبيل — وهو ترك المصلحة لدرء مفسدة أرجح منها — ما رواه الامام أحمد ١٠/٤٨ ، ٤٩ ، والبخاري ١٠/٣٣٨ ، ومسلم ١/٩٢ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

« عُدُوّاً » ، بضم العين والدال وتشديد الواو . والعرب تقول في الظلم : عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعُدواناً . وعدا ، أي : ظلم .

قوله تعالى : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أي : كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام ، وطاعة الشيطان ، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر . قال المفسرون : وهذه الآية نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أنه لما نزل في (الشعراء : ٤) : (إن نشأ نُنَزِّل عليهم من السماء آية) قال المشركون : أنزلها علينا حتى والله نؤمن بها ؛ فقال المسلمون : يارسول الله ، أنزلها عليهم لكي يؤمنوا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن قريشاً قالوا : يامحمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر ، فينفجر منها اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، وأن ثمودَ كانت لهم ناقة ، فائتنا بمثل هذه الآيات حتى نصدّقك : فقال : « أيّ شيء تحبون ؟ » قالوا : أن تجعل لنا الصفا ذهباً . قال : « فان فعلت تصدقوني ؟ » فقالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنّك أجمعين . فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولكني لم أُرسِل آية فلم يصدّق بها ، إلا أنزلتُ العذابَ ، وإن شئتَ تركتُهم حتى يتوبَ تائبهم . فقال رسول الله ﷺ « اتركهم حتى يتوب تائبهم »، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (يجهلون) ، هذا قول

محمد بن كعب القرظي [1] . وقد ذكرنا معنى (جهد أيمانهم) في (المائدة) ؛ وإنما حلفوا على ما اقترحوا من الآيات ، كقولهم : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) [الاسراء : ٩٠] .

قوله تعالى : (قل إنما الآيات عند الله) أي : هو القادر على الإتيان بها دوني ودون أحد من خلقه . (وما يشعركم أنها) أي : يدريكم أنها . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف في اختياره : بكسر الألف ، فعلى هذه القراءة يكون الخطاب بقوله « يشعركم » للمشركين ، ويكون تمام الكلام عند قوله: (وما يُشْعِرُكم) ويكون المعنى : وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ؟ وتكون « إنها » مكسورة على الاستئناف والإخبار عن حالهم . وقال أبو علي : التقدير : وما يُشعرُكم إيمانهم ؟ فحذف المفعولُ . والمعنى : لوجاءت الآية التي اقترحوها ، لم يؤمنوا . فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين . قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : (وما يشعركم إنها) ؛ فقلت : ما منعها أن تكون كقولك : ما يدريك أنه لا يفعل ؟ فقال : لا يحسن ذلك في هذا الموضع ؛ إنما قال : (وما يشعركم) ثم ابتدأ فأوجب ، فقال : (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) ولو قال : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) ؛ كان ذلك عذراً لهم . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « أنها » ، بفتح الألف ؛ فعلى هذا ، المخاطب بقوله: (وما يشعركم) رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدها : وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . وفي قراءة أُبيّ : لعلها إذا

---

(١) «الطبري» : ١٢/٣٨ ؛ وقال ابن كثير بعد أن أورده : وهذا مرسل ، وله شواهد من وجوه أخر .

جاءت لا يؤمنون . والعرب تجعل « أن » بمعنى « لعل » . يقولون : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، أي : لعلك .

قال عدي بن زيد :

أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكِ أَنَّ مَنِيَّتِي إِلى سَاعَةٍ فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى غَدِ[1]

أي : لعل منيتي . وإلى هذا المعنى ذهب الخليل ، وسيبويه ، والفراء في توجيه هذه القراءة .

والثاني : أن المعنى : وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، وتكون « لا » صلة ؛ كقوله تعالى : (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) [الاعراف : ١٢] وقوله تعالى : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) [الانبياء : ٩٥] ذكره الفراء ورده الزجاج واختار الأول . والأكثرون على قراءة : « يؤمنون » بالياء ؛ منهم ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ؛ وقرأ ابن عامر ، وحمزة : بالتاء ، على الخطاب للمشركين . قال أبو علي : من قرأ بالياء ، فلأنَّ الذين أقسموا غُيَّبٌ ، ومن قرأ بالتاء ، فهو انصراف من الغَيبة إلى الخطاب .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم) التقليب : تحويل الشيء عن وجهه . وفي معنى الكلام ، أربعة أقوال .

أحدها : لو أتيناهم بآية كما سألوا ، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان بها ،

---

(١) « جمهرة أشعار العرب » : ١٧٩ ، و « الشعر والشعراء » ١/١٧٨ ، و « اللسان » : أنن ، وغيرها ، من قصيدة له حكيمة .

وحُلْنا بينهم وبين الهدى ، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك . وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا ؛ فالمعنى : لو ردُّوا لحُلنا بينهم وبين الهدى كما حُلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ونقلّب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات ، قاله مقاتل .

والرابع : أن ذلك التقليب في النار ، عقوبة لهم ، ذكره الماوردي . وفي هاء « به » أربعة أقوال . أحدها : أنها كناية عن القرآن . والثاني : عن النبي ﷺ . والثالث : عما ظهر من الآيات . والرابع : عن التقليب . وفي المراد بـ « أول مرة » ثلاثة أقوال . أحدها : أن المرة الأولى : دار الدنيا . والثاني : أنها معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليهم وسلم . والثالث : أنها صرف قلوبهم عن الإيمان قبل نزول الآيات أن لو نزلت ؛ والطغيان والعمه مذكوران في سورة (البقرة) .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) سبب نزولها : أن المستهزئين أتوا رسولَ الله ﷺ في رهط من أهل مكة ، فقالوا له : ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم : أحق ما تقول ، أم باطل ؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا ، وكلمهم

الموتى ، فشهدوا لك بالنبوة (وحشرنا) أي : جمعنا (عليهم كل شيء) في الدنيا (قبلاً ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) ، فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته ، لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ، ومتى شاؤوا لم يؤمنوا . فأما قوله : « قِبَلاً » ، فقرأ ابن عامر ، ونافع : بكسر القاف وفتح الباء . قال ابن قتيبة : معناها : معاينة . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « قُبُلاً » بضم القاف والباء . وفي معناها ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جمع قبيل ، وهو الصِّنْف ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء قبيلاً قبيلاً ، قاله مجاهد ، واختاره أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه جمع قبيل أيضاً ، إلا أنه : الكفيل ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فكَفَلَ بصحة ما تقول ، اختاره الفراء ، وعليه اعتراض ، وهو أن يقال : إذا لم يؤمنوا بإنزال الملائكة ، وتكليم الموتى ، فَلأَنْ لايؤمنوا بالكفالة التي هي قول ، أولى . فالجواب : أنه لو كَفَلَت الأشياء المحشورة ، فنطق ما لم ينطق ، كان ذلك آية بينة .

والثالث : أنه بمعنى المقابل ، فيكون المعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فقابلهم ، قاله ابن زيد . قال أبو زيد : يقال : لقيت فلاناً قِبَلاً وقَبَلاً وقُبُلاً وقبيلاً وقَبَلِيّاً ومقابلة ، وكله واحد ، وهو للمواجهة . قال أبو علي : فالمعنى في القرآن ـ على ما قاله أبو زيد ـ واحد ، وإن اختلفت الألفاظ .

قوله تعالى : (ولكن أكثرهم يجهلون) فيه قولان .

أحدها : يجهلون أن الأشياء لاتكون إلا بمشيئة الله تعالى .

والثاني : أنهم يجهلون أنهم لو أُوتوا بكل آية ما آمنوا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً) أي : وكما جعلنا لك ولأُمتك شياطين الإِنس والجن أعداءً ، كذلك جعلنا لمن تقدَّمك من الأنبياء وأُممهم ؛ والمعنى : كما ابتليناك بالأعداء ، ابتلينا مَنْ قبلك ، ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى . قال الزجاج : « وعدو » : في معنى أعداء ، و« شياطين الإِنس والجن » : منصوب على البدل من « عدو » ، ومفسِّر له ؛ ويجوز أن يكون : « عدواً » منصوب على أنه مفعول ثان ، المعنى : وكذلك جعلنا شياطين الإِنس والجن أعداءً لأُممهم . وفي شياطين الإِنس والجن ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم مردة الإِنس والجن ، قاله الحسن ، وقتادة . والثاني : أن شياطين الإِنس : الذين مع الإِنس ، وشياطين الجن : الذين مع الجن ، قاله عكرمة ، والسدي . والثالث : أن شياطين الإِنس والجن : كفارهم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (يوحي) أصل الوحي : الإِعلام والدلالة بِستر وإخفاء . وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : يأمر . والثاني : يوسوس . والثالث : يشير .

وأما (زخرف القول) ، فهو ما زُيِّن منه ، وحُسِّن ، ومُوِّه ، وأصل الزخرف : الذهب . قال أبو عبيدة : كل شيء حسَّنته وزيَّنته وهو باطل ، فهو زخرف . وقال الزجاج : « الزخرف » في اللغة : الزينة ؛ فالمعنى : أن بعضهم يزيِّن لبعضٍ الأعمالَ القبيحة ؛ و « غروراً » منصوب على المصدر ؛ وهذا المصدر

محمول على المعنى ، لأن معنى إيحاء الزخرف من القول : معنى الغرور ، فكأنه قال : يَغرُّون غُروراً . وقال ابن عباس : (زخرفَ القول غروراً) : الأمانيُّ بالباطل . قال مقاتل : وَكَّلَ إبليسُ بالإنس شياطينَ يُضِلُّونَهم ، فاذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن ، قال أحدهما لصاحبه : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا ، فأضللْ أنت صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض . وقال غيره : إن المؤمن إذا أعيا شيطانه ، ذهب إلى متمرد من الإنس ، وهو شيطان الإنس ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين . وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن ، لأني إذا تعوَّذت من ذاك ذهب عني ، وهذا يَجُرُّني إلى المعاصي عِياناً .

قوله تعالى : (ولو شاء ربك مافعلوه) في هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الوسوسة . والثاني : ترجع إلى الكفر . والثالث : إلى الغرور ، وأذى النبيّين .

قوله تعالى : (فذرهم وما يفترون) قال مقاتل : يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب . وقال غيره : فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياؤهم ، وما يختلقون من كذب ، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولتصغى إليه) أي : ولتميل ؛ والهاء : كناية عن الزخرف والغرور . والأفئدة : جمع فؤاد ، مثل غراب وأغربة . قال ابن الأنباري : فعلنا بهم ذلك لكي تصغى إلى الباطل أفئدةُ الذين لايؤمنون بالآخرة ، (وليرضوا) الباطل ، (وليقترفوا) أي : ليكتسبوا ، وليعملوا ماهم عاملون .

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

قوله تعالى : (أفغير الله أبتغي حكماً) سبب نزولها : أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ : اجعل بيننا وبينك حَكَماً ، إن شئت من أحبار اليهود ، وإن شئت من أحبار النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك ، فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردي . فأما الحَكَمُ ، فهو بمعنى الحاكم ؛ والمعنى : أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ ! و« الكتاب » : القرآن ، و« المفصل » : المبين الذي بان فيه الحق من الباطل ، والأمر من النهي ، والحلال من الحرام .

(والذين آتيناهم الكتاب) فيهم قولان .

أحدهما : علماء أهل الكتابين ، قاله الجمهور . والثاني : رؤساء أصحاب النبي محمد ﷺ ، كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأشباههم ، قاله عطاء .

قوله تعالى : (يعلمون أنه مُنَزَّلٌ) قرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « منزّل » بالتشديد ؛ وخففها الباقون .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَمُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ونافع : « كلمات » على الجمع ؛ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب : « كلمة » على التوحيد ؛ وقد ذكرت العرب الكلمة ، وأرادت الكثرة ؛ يقولون : قال قُسّ في كلمته ، أي : في خطبته ، وزهير في كلمته ، أي : في قصيدته .

وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها القرآن ، قاله قتادة . والثاني : أقضيتُه وعداته . والثالث : وعده ووعيده ، وثوابه وعقابه . وفي قوله : (صدقاً وعدلاً) قولان .

أحدهما : صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدّر . والثاني : صدقاً فيما وعد وأوعد ، وعدلاً فيما أمر ونهى . وفي قوله : (لامبدّل لكلماته) قولان .

أحدهما : لايقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها .

والثاني : لا خُلف لمواعيده ، ولا مغيّر لحكمه .

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض) سبب نزولها : أن الكفار قالوا للمسلمين : أتأكلون ماقتلتم ، ولا تأكلون ماقتل ربكم ؟ فنزلت هذه الآية ، ذكره الفراء . والمراد بـ (أكثر من في الأرض) : الكفار . وفي ماذا يطيعهم فيه أربعة أقوال .

أحدها : في أكل الميتة . والثاني : في أكل ما ذبحوا للأصنام . والثالث : في عبادة الأوثان . والرابع : في اتباع ملل الآباء ؛ و (سبيل الله) : دينه . قال ابن قتيبة : ومعنى (يخرصون) : يحدسون ويوقعون ؛ ومنه قيل للحازر : خارص . فان قيل : كيف يجوز تعذيب من هو على ظنٍ من شركه ، وليس على يقينٍ من كفره ؟ ! فالجواب : انهم لما تركوا التماس الحجة ، واتبعوا أهواءهم ، واقتصروا على الظن والجهل ، عُذّبوا ، ذكره الزجاج .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن ربك هو أعلم مَنْ يضل عن سبيله) قال الزجاج : موضع « مَنْ » رفع بالابتداء ، ولفظها لفظ الاستفهام ؛ والمعنى : إن ربك هو أعلم أيْ الناس يَضل عن سبيله . وقرأ الحسن : « من يُضِل » بضم الياء وكسر الضاد ، وهي رواية ابن أبي شريح . قال أبو سليمان : ومقصود الآية : لاتلتفت إلى قسم من أقسم أنه يؤمن عند مجيء الآيات ، فلن يؤمن إلا من سبق له القدر بالإيمان .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) سبب نزولها : أن الله تعالى لما حرم الميتة ، قال المشركون للمؤمنين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله ، فما قتل الله لكم أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم ، يريدون الميتة ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما لكم أَلَّا تأكلوا) قال الزجاج : المعنى : وأي شيء يقع لكم في أن لاتأكلوا ؛ وموضع « أن » نصب ، لأن « في » سقطت ، فوصل المعنى إلى « أن » فنصبها .

قوله تعالى : (وقد فصَّل لكم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « فُصِّل لكم ما حُرِّم عليكم » مرفوعتان ؛ وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ،

ويعقوب ، والقزاز عن عبد الوارث : « فَصَّل » بفتح الفاء، « ما حَرَّم » بفتح الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « فَصَّل » بفتح الفاء ، « ما حُرِّم » بضم الحاء . قال الزجاج : أي : فُصِّل لكم الحلال من الحرام ، وأُحل لكم في الاضطرار ما حُرِّم . وقال سعيد بن جبير : فُصِّل لكم ما حُرِّم عليكم ، يعني : مابُيِّن في (المائدة) من الميتة ، والدم ، إلى آخر الآية .

(وإن كثيراً ليَضلون بأهوائهم) يعني : مشركي العرب يَضلون في أمر الذبائح وغيره . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « ليَضلون » ، وفي (يونس : ٨٨) : (ربنا ليَضلوا) وفي (إبراهيم : ٣٠) : (أنداداً ليَضلوا) وفي (الحج : ٩) : (ثاني عطفه ليَضل) وفي (لقمان : ٦) : (ليَضل عن سبيل الله بغير علم) وفي (الزمر : ٨) : (أنداداً ليَضل) بفتح الياء في هذه المواضع الستة ؛ وضمهن عاصم ، وحمزة ، والكسائي . وقرأ نافع ، وابن عامر : « ليَضلون بأهوائهم » . وفي (يونس) : (ليَضلوا) بالفتح ؛ وضما [1] الأربعة الباقية . فمن فتح ، أراد : أنهم هم الذين ضلوا ؛ ومن ضم ، أراد : أنهم أضلوا غيرهم ، وذلك أبلغ في الضلال ، لأن كل مُضِلٍ ضَالٌ ؛ وليس كل ضَالٍ مُضِلاً .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) في الإثم هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الزنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ فعلى هذا ، في ظاهره وباطنه قولان . أحدهما : أن ظاهره : الإعلان به ، وباطنه : الاستسرار ، قاله

(١) أي : نافع ، وابن عامر المتقدم ذكرهما .

الضحاك ، والسدي . قال الضحاك : وكانوا يرون الاستسرار بالزنا حلالاً . والثاني : أن ظاهره نكاح المحرمات ، كالأمهات ، والبنات ، وما نكح الآباء . وباطنه : الزنا ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أنه عام في كل إثم . والمعنى : ذروا المعاصي ، سرّها وعلانيتها ؛ وهذا مذهب أبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، والزجاج . وقال ابن الأنباري : المعنى : ذروا الإثم من جميع جهاته .

والثالث : أن الإثم : المعصية [1] ، إلا أن المراد به هاهنا أمر خاص . قال ابن زيد : ظاهره هاهنا : نزع أثوابهم ، إذ كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، وباطنه : الزنا .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) سبب نزولها : مجادلة المشركين للمؤمنين في قولهم : أتأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ! على ماذكرنا في سبب قوله تعالى : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) [الانعام:١١٨] هذا قول ابن عباس . وقال عكرمة : كتبت فارس إلى قريش : إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ماذبحه الله ، ويأكلون ماذبحوا لأنفسهم ؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي ﷺ بذلك ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فنزلت هذه الآية .

---

(١) روى الامام أحمد في « المسند » ١٨٢/٤ ، ومسلم في « صحيحه » ١٩٨٠/٤ عن النواس بن سمعان الأنصاري ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والاثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وفي المراد بما لم يذكر اسم الله عليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الميتة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنه الميتة والمنخنقة ، إلى قوله : (وما ذبح على النصب)[المائدة : ٣] روي عن ابن عباس .

والثالث : أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها ، قاله عطاء .

والرابع : أنه عام فيما لم يسمَّ الله عند ذبحه ؛ وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله ابن يزيد الخطمي ، ومحمد بن سيرين .

فصل

فان تعمَّد ترك التسمية ، فهل يباح ؟ فيه عن أحمد روايتان . وإن تركها ناسياً أبيحت . وقال الشافعي : لايحرم في الحالين جميعاً . وقال شيخنا علي بن عبيد الله : فاذا قلنا : إن ترك التسمية عمداً يمنع الإباحة ، فقد نُسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب بقوله : (وطعام الذين أُوتوا الكتاب حل لكم)[المائدة : ٥] وعلى قول الشافعي : الآية محكمة .

قوله تعالى : (وإنه لفسق) يعني : وإنَّ أكلَ ما لم يُذكر عليه اسم الله لفسق ، أي : خروج عن الحق والدين . وفي المراد بالشياطين هاهنا قولان .

أحدها : أنهم شياطين الجن ، روي عن ابن عباس .

والثاني : قوم من أهل فارس ، وقد ذكرناه عن عكرمة ؛ فعلى الأول : وحيهم الوسوسة ، وعلى الثاني : وحيهم الرسالة . والمراد بـ « أوليائهم » الكفار الذين جادلوا رسول الله ﷺ في ترك أكل الميتة . ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم مشركو قريش . والثاني : اليهود ؛ (وإن أطعتموهم) في استحلال الميتة (إنكم لمشركون) .

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه) اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال.

أحدها : أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وأبي جهل ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث ، وحمزة لم يؤمن بَعْدُ ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل ، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس ، فقال له : أما ترى ما جاء به ؛ سفّه عقولنا ، وسبّ آلهتنا ، فقال حمزة : ومن أسفهُ منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ؟ ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عمار بن ياسر ، وأبي جهل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : في عمر بن الخطاب ، وأبي جهل ، قاله زيد بن أسلم ، والضحاك .

والرابع : في النبي ﷺ ، وأبي جهل ، قاله مقاتل .

والخامس : أنها عامة في كل مؤمن وكافر ، قاله الحسن في آخرين .

وفي قوله : (كان ميتاً فأحييناه) قولان .

أحدها : كان ضالاً فهديناه ، قاله مجاهد .

والثاني : كان جاهلاً ، فعلَّمناه ، قاله الماوردي . وقرأ نافع : « ميّتاً » بالتشديد . قال أبو عبيدة : الميتة ، مخففة : من ميّتة ، والمعنى واحد . وفي « النور » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الهدى ، قاله ابن عباس . والثاني : القرآن ، قاله الحسن . والثالث : العلم . وفي قوله : (يمشي به في الناس) ثلاثة أقوال .

أحدها : يهتدي به في الناس ، قاله مقاتل . والثاني : يمشي به بين الناس إلى الجنة . والثالث : ينشر به دينه في الناس ، فيصير كالماشي ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : (كمن مثله) المثل : صلة ؛ والمعنى : كمن هو في الظلمات . وقيل : المعنى : كمن لو شُبّه بشيء ، كان شبيهُه مَنْ في الظلمات . وقيل : المراد بالظلمات هاهنا : الكفر .

قوله تعالى : (وكذلك زين) أي : كما بقي هذا في ظلماته لايتخلص منها ، كذلك زين (للكافرين ماكانوا يعملون) من الشرك والمعاصي .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك جعلنا في كل قرية) أي : وكما زينا للكافرين عملهم ، فكذلك جعلنا في كل قريه أكابرَ مجرميها ، وقيل معناه : وكما جعلنا فُسّاق مكة أكابرها ، فكذلك جعلنا فُسّاق كل قرية أكابرها . وإنما جعل الأكابر فُسّاقَ كلِّ قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة . وقال ابن قتيبة : تقدير الآية : وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ؛ و« أكابر » لاينصرف ، وهم العظماء .

قوله تعالى : (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة : المكر : الخديعة ، والحيلة ،

والفجور، والغدر ، والخلاف . قال ابن عباس : ليقولوا فيها الكذب . قال مجاهد : أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعةً ، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ، يقولون للناس : هذا شاعر ، وكاهن .

قوله تعالى : (وما يمكرون إلا بأنفسهم) أي : ذلك المكر بهم يحيق .

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا جاءتهم آية) سبب نزولها : أن أبا جهل قال : زاحمتنا بنو عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كَفَرَسَيْ رِهَان ، قالوا : منّا نبيٌ يوحى إليه . والله لانؤمن به ولا نَتَّبِعُه أو أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . قال الزجاج : الهاء والميم تعود على الأكابر الذين جرى ذكرهم . وقال أبو سليمان : تعود على المجادلين في تحريم الميتة . قال مقاتل : والآية : انشقاق القمر ، والدخان . قال ابن عباس في قوله : (مثل ما أُوتِيَ رسلُ الله) قال : حتى يوحى إلينا ، ويأتينا جبريل ، فيخبرنا أن محمداً صادق . قال الضحاك : سأل كل واحد منهم أن يختص بالرسالة والوحي .

قوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « رسالتَه » بنصب التاء على التوحيد ؛ والمعنى : أنهم ليسوا لها بأهل ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أولى بها منك ، لأني أكبرُ منك سناً ، وأكثرُ منك مالاً ، فنزل قوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) . وقال أهل المعاني : الأبلغ في تصديق الرسل أن لايكونوا قبل

مبعثهم مطاعين في قومهم ، لأن الطعن كان يتوجه عليهم ، فيقال : إنما كانوا رؤساء فاتُّبِعوا ، فكان الله أعلم حيث جعل الرسالة ليتيم أبي طالب ، دون أبي جهل ، والوليد ، وأكابر مكة .

قوله تعالى : (سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ) قال أبو عبيدة : الصَّغَار : أشد الذل . وقال الزجاج : المعنى : هم ، وإن كانوا أكابر في الدنيا ، فسيصبهم صغار عند الله ، أي : صغار ثابت لهم عنـد الله . وجائز أن يكون المعنى : سيصيبهم عند الله صغار . وقال الفراء : معناه : صغـار من عند الله ، فحذفت « مِنْ » . وقال أبو رَوْق : صغار في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديَه) قال مقاتل : نزلت في رسول الله ﷺ ، وأبي جهل .

قوله تعالى : (يشرحْ صدرَه) قال ابن الأعرابي : الشرح : الفتح . قال ابن قتيبة : ومنه يقال : شرحتُ لك الأمر ، وشرحتُ اللحم : إذا فتحتَه . وقال : ابن عباس : « يشرحْ صدره » أي : يوسعْ قلبه للتوحيد والإيمان . وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ : (فمن يرد الله أن يهديَه يشرحْ صدرَه للاسلام) ، فقيل له : يارسول الله ، وما هـذا الشرح ؟ قال : « نور يقذفه الله في القلب ، فينفتح القلب » . قالوا : فهل لذلك من أمارة ؟ قال : « نعم » . قيل : وما هي ؟

قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[١] .

قوله تعالى : (ضيقاً) قرأ الأكثرون بالتشديد . وقرأ ابن كثير : « ضَيْقاً » ، وفي (الفرقان : ١٣) : (مكاناً ضَيْقاً) بتسكين الياء خفيفة . قال أبو علي : الضَّيِّق ، والضَّيْق : مثل الميّت ، والميْت .

قوله تعالى : (حرجاً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : (حَرَجاً) بفتح الراء . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الراء . قال الفراء : وهما لغتان . وكذلك قال يونس بن حبيب النحوي : هما لغتان ، إلا أن الفتح أكثر على ألسنة العرب من الكسر ، ومجراها مجرى الدَّنَفِ والدَّنِفِ . وقال الزجاج : الحرج في اللغة : أضيق الضيق .

قوله تعالى : (كأنما يصَّاعد) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « يصَّعَّد » بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « يصّاعد » بتشديد الصاد وبعدها ألف . وقرأ ابن كثير : « يَصْعَد » بتخفيف الصاد والعين من غير ألف والصاد ساكنة . وقرأ ابن مسعود ، وطلحة : « تصَعَّدُ » بتاء من غير ألف . وقرأ أُبيُّ بن كعب : « يتصاعد » بألف وتاء . قال الزجاج : قوله : (كأنما يصّاعد في السماء) . و « يصَّعَّد » ، أصله : « يتصاعد » ، و « يتصعد » ، إلا أن التاء تدغم في الصاد

---

(١) « الطبري » ١٢/١٠٠ ، ١٠١ من طريقين عن عبد الله بن مسعود ، وكلاهما ضعيف ، وأورده ابن كثير ٢/١٧٤ ، بعد أن ذكره من طريق مرسل عن أبي جعفر الهاشمي ، وقال : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً ، وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر على الحديث في « تفسير الطبري » ١٢/٩٩ ، ١٠٢ .

لقربها منها ، والمعنى : كأنه قد كُلِّف أن يَصْعَدَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه . ويجوز أن يكون المعنى : كأن قلبه يصعد في السماء نُبُوّاً عن الإسلام والحكمة . وقال الفراء : ضاق عليه المذهب ، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء ، وليس يقدر على ذلك . وقال أبو علي : « يَصَّعَّد » و« ويَصَّاعد »: من المشقة ، وصعوبة الشيء ، ومنه قول عمر : ما تَصَعَّدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح ، أي : ما شق عليّ شيء مشقتها .

قوله تعالى : (كذلك) أي : مثل ما قصصنا عليك . (يجعل الله الرجس) وفيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه الشيطان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . يعني : أن الله يسلِّطه عليهم .

والثاني : أنه المأثم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنه مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه العذاب ، قاله عطاء ، وابن زيد ، وأبو عبيدة .

والخامس : أنه اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ، قاله الزجاج . وهذه الآية تقطع كلام القَدَريَّة ، إذ قد صرحت بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى .

﴿ وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهذا صراط ربِّكَ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن مسعود . والثاني : التوحيد ، قاله ابن عباس .

والثالث : ما هو عليه من الدّين ، قاله عطاء . ومعنى استقامته : أنه يؤدّي بسالكه إلى الفوز . قال مكي بن أبي طالب : و« مستقيماً » : نصب على الحال من « صراط » ، وهذه الحال يقال لها : الحال المؤكدة ، لأن صراط الله ، لايكون إلا مستقيماً ، ولم يؤت بها لتفرق بين حالتين ، إذ لايتغير صراط الله عن الاستقامة أبداً ، وليست هذه الحال كالحال من قولك : « هذا زيد راكباً » ، لأن زيداً قد يخلو من الركوب .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (لهم دار السلام) يعني الجنة . وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال .

أحدها : أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها دار السلامة التي لاتنقطع ، قاله الزجاج .

والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام ، ففي ابتداء دخولهم : (ادخلوها بسلام) [الحجر : ٤٦] ، وبعد استقرارهم : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] . وقوله : (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) [الواقعة : ٢٥] ، وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) ، [يس : ٥٨] ، وقوله : (تحيتهم يوم يلقونه سلام) [الأحزاب : ٤٤] . ومعنى : (عند ربهم) أي : مضمونة لهم عنده ، (وهو وليهم) أي : متولي إيصال المنافع إليهم ، ودفع المضار عنهم (بما كانوا يعملون) من الطاعات .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً) يعني الجن والإنس . وقرأ حفص عن عاصم : « يحشرهم » بالياء . قال أبو سليمان : يعني : المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما حرّمه الله من الميتة .

قوله تعالى : (يامعشر الجن) فيه إضمار ، فيقال لهم : يامعشر ؛ والمعشر : الجماعة ، أمرهم واحد ، والجمع : المعاشر .

وقوله : (قد استكثرتم من الإنس) أي : من إغوائهم وإضلالهم . (وقال أولياؤهم من الإنس) يعني الذين أضلهم الجن . (ربّنا استمتع بعضُنا ببعض) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن استمتاع الإنس بالجن : أنهم كانوا إذا سافروا ، فنزلوا وادياً ، وأرادوا مبيتاً ، قال أحدهم : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله ؛ واستمتاع الجن بالإنس : أنهم كانوا يفخرون على قومهم ، ويقولون : قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل ، والفراء .

والثاني : أن استمتاع الجن بالإنس : طاعتهم لهم فيما يغرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي . واستمتاع الإنس بالجن : أن الجن زيّنَتْ لهم الأمور التي يهوَوْنَها ، وشهّوْها إليهم حتى سهل عليهم فعلها ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وبه قال محمد بن كعب ، والزجاج .

والثالث : أن استمتاع الجن بالإنس : إغواؤهم إياهم . واستمتاع الإنس بالجن : ما يتلقَّون منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك . والمراد بالجن في هذه الآية : الشياطين .

قوله تعالى : (وبلغنا أجلنا الذي أجَّلْتَ لنا) فيه قولان .

أحدهما : الموت ، قاله الحسن ، والسدي . والثاني : الحشر ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (قال النار مثواكم) قال الزجاج : المثوى : المقام ؛ و « خالدين » منصوب على الحال . المعنى : النار مقامكم في حال خلود دائم (إلا ما شاء الله) هو استثناء من يوم القيامة ، والمعنى : (خالدين فيها) مذ يبعثون (إلا ما شاء الله) من مقدار حشرهم من قبورهم ، ومدتهم في محاسبتهم . ويجوز أن تكون (إلا ما شاء الله) أن يزيدهم من العذاب . وقال بعضهم : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب ؛ وقيل في هذا غير قول ، ستجدها مشروحة في (هود) إن شاء الله .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً) في معناه أربعة أقوال .

أحدها : نجعل بعضهم أولياء بعض ، رواه سعيد عن قتادة .

والثاني : نُتْبِعُ بعضهم بعضاً في النار بأعمالهم من الموالاة ، وهي المتابعة ، رواه معمر عن قتادة .

والثالث : نسلّط بعضهم على بعض ، قاله ابن زيد .

والرابع : نكل بعضهم إلى بعض ولا نعينهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (بما كانوا يكسبون) أي : من المعاصي .

﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم) قرأ الحسن ، وقتادة : « تأتكم » بالتاء ، (رسل منكم) . واختلفوا في الرسالة إلى الجن على أربعة أقوال .

أحدها : أن الرسل كانت تبعث إلى الإنس خاصة ، وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الإنس والجن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رسل الجن ، هم الذين سمعوا القرآن ، فولّوا إلى قومهم منذرين ، روي عن ابن عباس أيضاً . وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنذر من الجن ، وهم قوم يسمعون كلام الرسل ، فيبلّغون الجن ماسمعوا .

والثالث : أن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم ، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وأبو سليمان ، وهو ظاهر الكلام .

والرابع : أن الله تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم ، وإنما جاءتهم رسل الإنس ، قاله ابن جريج ، والفراء ، والزجاج . قالوا : ولا يكون الجمع في قوله : (ألم يأتكم رسل منكم) مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين ، كقوله تعالى : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) [الرحمن : ٢٢] ، وإنما هو خارج من الملح وحده .

وفي دخول الجن الجنة إذا آمنوا قولان .

أحدهما : يدخلونها ، ويأكلون ويشربون ، قاله الضحاك .

والثاني : أن ثوابهم أن يجاروا من النار ويصيروا تراباً ، رواه سفيان عن ليث .

قوله تعالى : (يقصون عليكم آياتي) أي : يقرؤون عليكم كتبي . (وينذرونكم) أي : يخوّفونكم يوم القيامة . وفي قوله : (شهدنا على أنفسنا) قولان .

أحدهما : أقررنا على أنفسنا بإنذار الرسل لنا .

والثاني : شهد بعضنا على بعض بإنذار الرسل إياهم . ثم أخبرنا الله تعالى بحالهم ، فقال : (وغرّتهم الحياة الدنيا) أي : بزينتها ، وإمهالهم فيها . (وشهدوا على أنفسهم) أي : أقروا أنهم كانوا في الدنيا كافرين . وقال مقاتل : ذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر .

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) قال الزجاج : ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل ، وأمر عذاب من كذب ، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، أي : لايهلكهم حتى يبعث إليهم رسولاً . قال ابن عباس : « بظلم » أي : بشرك (وأهلها غافلون) لم يأتهم رسول .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا) أي : لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، أي : منازل يبلغها بعمله ، إن كان خيراً فخيراً ، وإن كان شراً فشراً . وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط ، كتفاضل الدرج .

قوله تعالى : (عما يعملون) قرأ الجمهور بالياء ؛ وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ . إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

قوله تعالى : (وربك الغني) يريد : الغني عن خلقه (ذو الرحمة) قال ابن عباس : بأوليائه وأهل طاعته . وقال غيره : بالكل . ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين . (إن يشأ يذهبْكم) بالهلاك ؛ وقيل : هذا الوعيد لأهل مكة ؛ (ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم) أي : ابتدأكم (من ذرية قوم آخرين) يعني : آباءهم الماضين . (إن ما توعدون) به من مجيء الساعة والحشر (لآتٍ وما أنتم بمعجزين) أي : بفائتين . قال أبو عبيدة : يقال : أعجزني كذا ، أي : فاتني وسبقني .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (على مكانتكم) وقرأ أبو بكر عن عاصم : « مكاناتكم » على الجمع قال ابن قتيبة : أي : على موضعكم ، يقال : مكان ومكانة ، ومنزل ومنزلة . وقال الزجاج : اعملوا على تمكنكم . قال : ويجوز أن يكون المعنى : اعملوا على ما أنتم عليه . تقول الرجل إذا أمرته أن يثبت على حال : كن على مكانتك .

قوله تعالى : (إني عامل) أي : عامل ما أمرني به ربي (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « تكون » بالتاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالياء . وكذلك خلافهم في (القصص : ٣٧) ، ووجه التأنيث ، اللفظ ، ووجه التذكير ، أنه ليس بتأنيث حقيقي . وعاقبة الدار : الجنة . والظالمون هاهنا : المشركون . فان قيل : ظاهر هذه الآية أمرهم بالاقامة على ما هم عليه ، وذلك لا يجوز . فالجواب : أن معنى هذا الأمر المبالغة في الوعيد ؛ فكأنه قال : أقيموا على ما أنتم عليه ، إن رضيتم بالعذاب ، قاله الزجاج .

فصل

وفي هذه الآية قولان .

أحدهما : أن المراد بها التهديد ؛ فعلى هذا هي محكمة .

والثاني : أن المراد بها ترك القتال ؛ فعلى هذا هي منسوخة بآية السيف .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) قال ابن قتيبة : ذرأ ، بمعنى خلق . (من الحرث) وهو الزرع . (والأنعام) : الإبل والبقر والغنم . وكانوا إذا زرعوا ، خطوا خطاً ، فقالوا : هذا لله ، وهذا لآلهتنا ، فاذا حصدوا ما جعلوه لله ، فوقع منه شيء فيما جعلوه لآلهتهم ، تركوه وقالوا : هي إليه محتاجة ؛ وإذا حصدوا ما جعلوه لآلهتهم ، فوقع منه شيء في مال الله ، أعادوه إلى موضعه . وكانوا يجعلون من الأنعام شيئاً لله ؛ فاذا ولدت إناثها ميتاً أكلوه ، وإذا ولدت أنعام آلهتهم ميتاً عظموه فلم يأكلوه . وقال الزجاج : معنى الآية : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، وجعلوا لشركائهم نصيباً ، يدل عليه قوله تعالى : (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) ، فدل بالإشارة إلى النصيبين على نصيب الشركاء ؛ وكانوا إذا زكا ما لله ، ولم يزكُ ما لشركائهم ، ردوا الزاكي على أصنامهم ، وقالوا : هذه أحوج ، والله غني ؛ وإذا زكا ما للأصنام ، ولم يزكُ ما لله ، أقروه على ما به . قال

المفسرون : وكانوا يَصرفون ماجعلوا لله إلى الضِّيفان والمساكين . فمعنى قوله : (فلا يصل إلى الله) أي : إلى هؤلاء . ويصرفون نصيب آلهتهم في الزرع إلى النفقة على خُدَّامها . فأما نصيبها في الأنعام ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان للنفقة عليها أيضاً . والثاني : أنهم كانوا يتقربون به ، فيذبحونه لها . والثالث : أنه البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . وقال الحسن : كان إذا هلك مالأوثانهم غرِموه ، وإذا هلك ما لله لم يَغْرَمُوه . وقال ابن زيد : كانوا لايأكلون ماجعلوه لله حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم ، ولا يذكرون الله على ماجعلوه للأوثان . فأما قوله : « بزعمهم » فقرأ الجمهور : بفتح الزاي ؛ وقرأ الكسائي ، والأعمش : بضمها . وفي الزعم ثلاث لغات : ضم الزاي ، وفتحها ، وكسرها . ومثله : السُّقط ، والسَّقط ، والسِقط ؛ والفَتْك ، والفُتْك ، والفِتْك ؛ والزَّعم ، والزُّعم ، والزِعم . قال الفراء : فتح الزاي في الزَّعم ، لأهل الحجاز ؛ وضمها لأسد ؛ وكسرها لبعض قيس فيما يحكي الكسائي .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك زين) أي : ومثل ذلك الفعل القبيح فيما قسموا بالجهل زيَّن . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون « وكذلك » مستأنفاً ، غير مشارٍ به إلى ما قبله ؛ فيكون المعنى : وهكذا زيَّن . وقرأه الجمهور : « زَيَّن » بفتح الزاي والياء ، ونصب اللام من « قتلَ » ، وكسر الدال من « أولادِهم » ، ورفع « الشركاء » ؛ وجه هذه القراءة ظاهر . وقرأ ابن عامر : بضم زاي « زُيِّن » ،

ورفع اللام [من « قتلُ »] ، ونصب الدال من « أولادهم » ، وخفض « الشركاء » . قال أبو علي : ومعناها : قتلُ شركائهم أولادَهُم ؛ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به ، وهذا قبيح ، قليل في الاستعمال . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن : « زُيِّن » بالرفع ، « قتلُ » بالرفع أيضاً ، « أولادِهم » بالجر ، « شركاؤُهم » رفعاً . قال الفراء : رَفعَ القتل إذ لم يسمَّ فاعله ؛ ورفع الشركاء بفعل نواه ، كأنه قال : زيَّنه لهم شركاؤهم . وكذلك قال سيبويه في هذه القراءة ؛ قال : كأنه قيل : مَن زيَّنه ؛ فقال : شركاؤهم . قال مكي بن أبي طالب : وقد روي عن ابن عامر أيضاً أنه قرأ بضم الزاي ، ورفع اللام ، وخفض الأولاد والشركاء ؛ فيصير الشركاء اسماً للأولاد ، لمشاركتهم للآباء في النسب والميراث والدِّين .

وللمفسرين في المراد بشركائهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والسدِّي . والثاني : شركاؤهم في الشرك ، قاله قتادة . والثالث : قوم كانوا يخدمون الأوثان ، قاله الفراء ، والزجاج . والرابع : أنهم الغُواة من الناس ، ذكره الماوردي . وإنما أضيف الشركاء إليهم ، لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه .

وفي الذي زيَّنوه لهم من قتل أولادهم قولان .

أحدهما : أنه وأد البنات أحياءً خيفة الفقر ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه كان يحلف أحدهم أنه إن ولد له كذا وكذا غلاماً أن ينحر أحدهم ، كما حلف عبد المطلب في نحر عبد الله ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

قوله تعالى : (ليُرْدوهم) أي : ليهلكوهم . وفي هذه اللام قولان .

أحدهما : أنها لام « كي » . والثاني : أنها لام العاقبة ، كقوله : (ليكون لهم عدواً) [القصص : ٨] أي : آل أمرهم إلى الردى ، لا أنهم قصدوا ذلك .

قوله تعالى : (وليَلبسوا عليهم دينهم) أي : ليخلطوا . قال ابن عباس : ليُدخلوا عليهم الشك في دينهم ؛ وكانوا على دين إسماعيل ، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين .

قوله تعالى : (فذرهم وما يفترون) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية إذا دفنوا بناتهم قالوا : إن الله أمرنا بذلك ؛ فقال : (فذرهم وما يفترون) ؛ أي : يكذبون ؛ وهذا تهديد ووعيد ، فهو محكم . وقال قوم : مقصوده ترك قتالهم ، فهو منسوخ بآية السيف .

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) الحرث : الزرع ، والحجر : الحرام ؛ والمعنى : أنهم حرّموا أنعاماً وحرثاً جعلوه لأصنامهم . قال ابن قتيبة : وإنما قيل للحرام : حجر ، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه . وقرأ الحسن ، وقتادة : « حُجْر » بضم الحاء . قال الفراء : يقال : حِجْر ، وحُجْر ، بكسر الحاء وضمها ؛ وهي في قراءة ابن مسعود : « حرج » ، مثل : « جذب » و « جبذ » .

وفي هذه الأنعام التي جعلوها للأصنام قولان .

أحدهما : أنها البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

والثاني : أنها الذبائح التي للأوثان ؛ وقد سبق ذكرها .

قوله تعالى : (لايطعمها إلا من نشاء) هو كقولك : لايذوقها إلا من نريد .

وفيمن أطلقوا له تناولها قولان .

أحدهما : أنهم منعوا منها النساء ، وجعلوها للرجال ، قاله ابن السائب .

والثاني : عكسه ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم ، لا حجة فيه ولا برهان .

وفي قوله : (وأنعام حُرِّمت ظهورها) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحام ، قاله ابن عباس . والثاني : البحيرة ، كانوا لايحجُّون عليها ، قاله أبو وائل . والثالث : البحيرة ، والسائبة ، والحام ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها) هي قربان آلهتهم ، يذكرون عليها اسم الأوثان خاصة . وقال أبو وائل : هي التي كانوا لايحجُّون عليها ؛ وقد ذكرنا هذا عنه في قوله : (حرِّمت ظهورها) ، فعلى قوله ، الصفتان لموصوف واحد . وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لايذكرون اسم الله عليها في شيء ؛ لا إن ركبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن نُتِجوا . وفي قوله : (افتراءً على الله) قولان .

أحدهما : أن ذكر أسماء أوثانهم وترك ذكر الله ، هو الافتراء .

والثاني : أن إضافتهم ذلك إلى الله تعالى ، هو الافتراء ؛ لأنهم كانوا يقولون : هو حرَّم ذلك .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام) يعني بالأنعام : المحرمات عندهم ، من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة . وللمفسرين في المراد بما في بطونها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اللبن ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : الأجنَّة ، قاله مجاهد . والثالث : الولد واللبن ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : (خالصة لذكورنا) قرأ الجمهور : « خالصة » على لفظ التأنيث . وفيها أربعة أوجه .

أحدها : أنه إنما أنثت ، لأن الأنعام مؤنثة ، وما في بطونها مثلها ، قاله الفراء .

والثاني : أن معنى « ما » التأنيث ، لأنها في معنى الجماعة ؛ فكأنه قال : جماعة ما في بطون هذه الأنعام خالصة ، قاله الزجاج .

والثالث : أن الهاء دخلت للمبالغة في الوصف ، كما قالوا : « علاّمة » و « نسّابة » .

والرابع : أنه أُجري مجرى المصادر التي تكون بلفظ التأنيث عن الأسماء المذكّرة ، كقولك : عطاؤك عافية ، والرخص نعمة ، ذكرهما ابن الأنباري . وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، والضحاك ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « خالص » بالرفع ، من غير هاء . قال الفراء : وإنما ذكّر لتذكير « ما » . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وابن يعمر : « خالصُهُ » برفع الصاد والهاء على ضمير مذكّر ، قال الزجاج : والمعنى : ما خلص حياً . وقرأ قتادة : « خالصةً » بالنصب . فأما الذكور ، فهم الرجال ، والأزواج النساء .

قوله تعالى : (وإن يكن ميتة) قرأ الأكثرون : « يكن » بالياء ، « ميتة » بالنصب ؛ وذلك مردود على لفظ « ما » . المعنى : وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة . وقرأ ابن كثير : « يكن » بالياء ، « ميتةٌ » بالرفع . ووافقه ابن عامر في رفع الميتة ؛ غير أنه قرأ : « تكن » بالتاء . والمعنى : وإن تحدث وتقع ، فجعل « كان » : تامة لا تحتاج إلى خبر . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « تكن » بالتاء ، « ميتةً » بالنصب . والمعنى : وإن تكن الأنعام التي في البطون ميتة .

قوله تعالى : (فهم فيه شركاء) يعني الرجال والنساء . (سيجزيهم وصفهم) قال الزجاج : أراد جزاء وصفهم الذي هو كذب .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : « قتّلوا » بالتشديد . قال ابن عباس : نزلت في ربيعة ، ومضر ، والذين كانوا يدفنون بناتهم أحياءً في الجاهلية من العرب . وقال قتادة : كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم بنته مخافة السبي والفاقة ، ويغذو كلبه . وقال الزجاج : وقوله : « سفهاً » منصوب على معنى اللام ، تقديره : للسفه ؛ تقول : فعلت ذلك حذر الشر . وقرأ ابن السميفع ، والجحدري ، ومعاذ القارىء : « سفهاء » برفع السين وفتح الفاء والهاء وبالمد وبالنصب والهمز .

قوله تعالى : (بغير علم) أي : كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أن أتاهم علم في ذلك ، وحرّموا ما رزقهم الله من الأنعام والحرث ، وزعموا أن الله آمرهم بذلك .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن المعروشات ما انبسط على وجه الأرض ، فانتشر مما يعرّش ، كالكرم ، والقرع ، والبطيخ ؛ وغير معروشات : ما قام على ساق ، كالنخل والزرع ، وسائر الأشجار .

والثاني : أن المعروشات : ماأنبته الناس ؛ وغير معروشات : ماخرج في البراري والجبال من الثمار ، رويا عن ابن عباس .

والثالث : أن المعروشات ، وغير المعروشات : الكرم ، منه ما عرش ، ومنه ما لم يعرش ، قاله الضحاك .

والرابع : أن المعروشات : الكروم التي قد عُرّش عنبها ، وغير المعروشات : سائر الشجر التي لا تُعرَّش ، قاله أبو عبيدة . والأُكُلُ : الثمر . (والزيتون والرمان متشابهاً) ، قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر) هذا أمر إباحة ؛ وقيل : إنما قدَّم الأكل لينهى عن فعل الجاهلية في زروعهم من تحريم بعضها .

قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وأبو عمرو : بفتح الحاء ، وهي لغة أهل نجد ، وتميم . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : بكسرها ، وهي لغة أهل الحجاز ، ذكره الفراء .

وفي المراد بهذا الحق قولان .

أحدهما : أنه الزكاة ، روي عن أنس بن مالك ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، وطاووس ، وجابر بن زيد ، وابن الحنفية ، وقتادة في آخرين ؛ فعلى هذا ، الآية محكمة .

والثاني : أنه حق غير الزكاة فُرض يوم الحصاد ، وهو إطعام من حضر ، وترك ما سقط من الزرع والثمر ، قاله عطاء ، ومجاهد . وهل نُسخ ذلك ، أم لا ؟ إن قلنا : إنه أمر وجوب ، فهو منسوخ بالزكاة ؛ وإن قلنا : إنه أمر استحباب ، فهو باقي الحكم .

فان قيل : هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد ؟ فالجواب : إن قلنا : إنه إطعام من حضر من الفقراء ، فذلك يكون يوم الحصاد ؛ وإن قلنا : إنه الزكاة ، فقد ذُكرت عنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الأمر بالإيتاء محمول على النخيل ، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد . فأما الزروع ، فالأمر بالإيتاء منها محمول على وجوب الإخراج ؛ إلا أنه لايمكن ذلك عند الحصاد ، فيؤخَّر إلى زمان التنقية ، ذكره بعض السلف .

والثاني : أن اليوم ظرف للحق ، لا للايتاء ؛ فكأنه قال : وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية .

والثالث : أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لايجب فيه بنفس خروجه وبلوغه ؛ إنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه . وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق يلزم بنفس نباته قبل قطعه ، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد ، دون مايتلف ، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى . وفي قوله : (ولا تسرفوا) ستة أقوال .

أحدها : أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حد يُجحف به ، قاله أبو العالية ، وابن جريج . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة ، ثم قسمها في يوم واحد ، فأمسى ولم يترك لأهله شيئاً ، فكره الله تعالى له ذلك ، فنزلت : (ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين) .

والثاني : أن الإسراف : منع الصدقة الواجبة ، قاله سعيد بن المسيب .

والثالث : أنه الإنفاق في المعصية ، قاله مجاهد ، والزهري .

والرابع : أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام ، قاله عطية العوفي ، وابن السائب .

والخامس : أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة ، قاله ابن زيد.

والسادس : أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة ، قاله ابن بحر .

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) هذا نسق على ماقبله ؛ والمعنى : أنشأ جنّاتٍ ، وأنشأ حمولةً وفرشاً . وفي ذلك خمسة أقوال .

أحدها : أن الحمولة : ماحمل من الإبل ، والفرشَ : صغارها ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وابن قتيبة .

والثاني : أن الحمولة : ما انتفعت بظهورها ، والفرش : الراعيـة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أن الحمولة : الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، وكل شيء يُحمَل عليه . والفرش : الغنم : رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : الحمولة : من الإبل ، والفرش : من الغنم ، قاله الضحاك .

والخامس : الحمولة : الإبل والبقر . والفرش : الغنم ، وما لا يحمل عليه من الإبل ، قاله قتادة . وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « حُمولة » بضم الحاء .

قوله تعالى : (كلوا مما رزقكم الله) قال الزجاج : المعنى : لا تحرِّموا ما حرمتم مما جرى ذكره ، (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي : طرقه . قال : وقوله : (ثمانية أزواج) بدل من قوله : (حمولة وفرشا) . والزوج ، في اللغة : الواحد الذي يكون معه آخر . قال المصنف : وهـذا كلام يفتقر إلى تمام ، وهو أن يقال : الزوج : ما كان معه آخر من جنسه ، فحينئذ يقال لكل واحـد منهما : زوج .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (من الضأن اثنين) الضأن : ذوات الصوف من الغنم ، والمعز : ذوات الشعر منها . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « المعَز » بفتح العين . وقرأ نافع ، وحمزة ، وعاصم ، والكسائي : بتسكين العين . والمراد بالأنثيين الذكر والأنثى . (قل آلذكرين) من الضأن والمعز حرم الله عليكم (أم الأنثيين) منها؟ . المعنى : فان كان ما حرم عليكم الذكرين ، فكل الذكور حرام ، وإن كان حرم الأنثيين ، فكل الإناث حرام ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فهي تشتمل على الذكور ، وتشتمل على الإناث ، وتشتمل على الذكور والإناث ، فيكون كل جنين حراماً . وقال ابن الأنباري : معنى الآية : أَلحِقكم التحريم من جهة الذكرين ، أم من جهة الأنثيين؟ فان قالوا : من جهة الذكرين ، حَرُم عليهم كل ذكر ، وإن قالوا : من جهة الأنثيين ، حرمت عليهم كل أنثى ؛ وإن قالوا : من جهة الرحم ، حَرُمَ عليهم الذكر والأنثى . وقال ابن جرير الطبري : إن قالوا : حرَّم الذكرين ، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم بعض الذكران منها وظهوره ، وفي ذلك فساد دعواهم . وإن قالوا : حرَّم الأنثيين أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك

وظهوره . وإن قالوا : مااشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها . قال المفسرون : فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها ، لأنهم كانوا يحرِّمون أجناساً من النعم ، بعضها على الرجال والنساء ، وبعضها على النساء دون الرجال .

وفي قوله : (آلذَّكرين حرَّم أم الأنثيين) إبطال لما حرَّموه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

وفي قوله : (أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين) ، إبطال قولهم : (ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا) .

قوله تعالى : (نبئوني بعلم) قال الزجاج : المعنى : فسروا ما حرمتم بعلم ، أي : أنتم لا علم لكم ، لأنكم لا تؤمنون بكتاب . (أم كنتم شهداء) أي : هل شاهدتم الله قد حرَّم هذا ، إذا كنتم لا تؤمنون برسول ؟

قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم) قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحي ، ومن جاء بعده . والظالمون هاهنا : المشركون .

﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أجد فيما أُوحيَ إليَّ محرماً على طاعم يطعمه) نبههم بهذا على أن التحريم والتحليل ، إنما يثبت بالوحي . وقال طاووس ، ومجاهد : معنى الآية : لا أجد محرماً مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا . والمراد بالطاعم :

الآكل . (إلا أن يكون ميتة) أي : إلا أن يكون المأكول ميتة . قرأ ابن كثير ، وحمزة : « إلا أن يكون » بالياء ، « ميتة » نصباً . وقرأ ابن عامر : « إلا أن تكون » بالتاء ، « ميتةٌ » بالرفع ؛ على معنى : إلا أن تقع ميتةٌ ، أو تحدث ميتةٌ . (أو دماً مسفوحاً) قال قتادة : إنما حُرِّمَ المسفوحُ ، فأما اللحم إذا خالطه دم ، فلا بأس به . قال الزجاج : المسفوح : المصبوب . وكانوا إذا ذَكَّوا يأكلون الدم كما يأكلون اللحم . والرجس : اسم لما يُستقذَر ، وللعذاب . (أو فسقاً) المعنى : أو أن يكون المأكول فسقاً . (أُهل لغير الله به) أي : رُفع الصوت على ذبحه باسم غير الله ، فسمي ما ذُكر عليه غير اسم الله فسقاً ؛ والفسق : الخروج من الدين .

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين .

أحدها : أنها محكمة . ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها خبر ، والخبر لايدخله النسخ . والثاني : أنها جاءت جواباً عن سؤال سألوه ؛ فكان الجواب بقدر السؤال ، ثم حُرِّم بعد ذلك ما حُرِّم . والثالث : أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذُكر فيها .

والقول الثاني : أنها منسوخة بما ذكر في (المائدة) من المنخنقة والموقوذة ، وفي السُنَّةِ من تحريم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير [١] . وقيل : إن آية (المائدة) داخلة في هذه الآية ، لأن تلك الأشياء كلها ميتة .

---

(١) روى الامام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي ثعلبة الخشني ، قال : وحرم —

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر) وقرأ الحسن ، والأعمش : « ظُفْرٍ » بسكون الفاء ؛ وهذا التحريم تحريم بلوى وعقوبة .

وفي ذي الظفر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما ليس بمنفرج الأصابع ، كالإبل ، والنعام ، والإوَزّ ، والبط ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : الإبل فقط ، قاله ابن زيد .

والثالث : كل ذي حافر من الدواب ، ومخلب من الطير ، قاله ابن قتيبة . قال : وسمي الحافر ظفراً على الإستمارة ؛ والعرب تجعل الحافر والأظلاف موضع القدم ، استمارة ؛ وأنشدوا :

سَأَمْنَعُها أوْ سَوْفَ أَجْعَلُ أمْرَهَا إلى مَلِكٍ أظلافُـه لم تُشَقَّق [1]

—— رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية ، وزاد أحمد ، ولحم كل ذي ناب من السباع » وقد صح النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية من حديث البراء بن عازب ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وزاهر الأسلمي ، وابن أبي أوفى . وروى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن عباس قال : « نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير » وروى مسلم في « صحيحه » ٣/١٥٣٤ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل ذي ناب من السباع حرام » .

(١) البيت غير منسوب في « مشكل القرآن » ١١٦ ، و « الصناعتين » : ٣٠١ ، و « الموازنة » ٤٤ ، و « الامالي » ٢/١٢٠ . وفي « السمط » ٧٤٦ : البيت لعقفان بن قيس بن عاصم بن عبيد اليربوعي ، وكان النعمان بن المنذر استعمل الفلاق بن عمرو الرياحي على هجائن من ——

أراد قدميه ؛ وإنما الأظلاف للشاء والبقر . قال ابن الأنباري : الظفر هاهنا، يجري مجرى الظفر للانسان . وفيه ثلاث لغات . أعلاهن : ظُفُر ؛ ويقال : ظُفْر ، وأُظفور . وقال الشاعر :

أَلم تر أنَّ الموتَ أدْرَكَ مَنْ مَضَى فلم يُبْقِ منه ذا جناح وذا ظُفُر

وقال الآخر :

لقد كنتُ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العِدَى فأصبحتُ ما يَخْشَوْنَ نابي ولا ظُفْري

وقال الآخر :

ما بين لُقمته الأولى إذا انحَدَرَتْ وبين أخرى تليها قِيْدُ أُظْفُور [1]

وفي شحوم البقر والغنم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما حرّم من ذلك شحوم الثروب خاصة ، قاله قتادة .

والثاني : شحوم الثروب والكلى ، قاله السدي ، وابن زيد .

والثالث : كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم ، ولا على عظم ، قاله ابن جريج .

وفي قوله : (إلا ما حملت ظهورهما) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما علق بالظهر من الشحوم ، قاله ابن عباس . والثاني : الأَلْيَة ، قاله أبو صالح ، والسدي . والثالث : ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ،

—— يلي أرضه من العرب ، وكانت لعقفان هذا هجائن ، فأخفاها ، فطلبها النلاق ، فعمد عقفان بابله حتى أتى النعمان ، فأجاره ولم يأخذ منها شيئاً . فقال قصيدة منها :

سواء عليكم شؤْمُها وهجانُها وإن كان فيها واضح اللون يبرُقِ

سأمنها ـ البيت ـ وهذه من أقبح الاستعارات ، وإنما يريد بقوله : أظلافه لم تشقق : أنه منتعل مترفه ، فلم تشقق قدماه .

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » و « أساس البلاغة » : ظفر ، وروايته فيهما :

ما بين لقمتها الاولى إذا ازدردت وبين أخرى تليها قيس أظفور

قاله قتادة . فأما الحوايا ، فللمفسرين فيها أقوال تتقارب معانيها . قال ابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة : هي المباعر . وقال ابن زيد : هي بنات اللبن ، وهي المرابض التي تكون فيها الأمعاء . وقال الفراء : الحوايا : هي المباعر ، وبنات اللبن . وقال الأصمعي : هي بنات اللبن ، واحدها : حاوياء ، وحاوية ، وحَويّة .

قال الشاعر :

أَقْتُلُهم ولا أرى مُعاويه   الجاحِظَ العَيْنِ العَظيمَ الحاويه[١]

وقال الآخر :

كأنّ نقيق الحَبِّ في حاويائه   فحيحُ الأفاعي أو نقيقُ العقارِب[٢]

وقال أبو عبيدة : الحوايا : ما تحوّى من البطن ، أي : ما استدار منها . وقال الزجاج : الحوايا : اسم لجميع ما تحوّى من الأمعاء ، أي : استدار . وقال ابن جرير الطبري : الحوايا : ما تحوّى من البطن ، فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى : المرابض ، وفيها الأمعاء :

قوله تعالى : (أو ما اختلط بعظم) فيه قولان .

أحدها : أنه شحم البطن والألية ، لأنها على عظم ، قاله السدي .

والثاني : كل شحم في القوائم ، والجنب ، والرأس ، والعينين ، والأذنين ، فهو مما اختلط بعظم ، قاله ابن جريج . واتفقوا على أن ما حملت ظهورهما حلال ،

---

(١) البيت في « اللسان » : حوي ، منسوب لعلي رضي الله عنه .

(٢) قائله جرير ، وهو في « ديوانه » : ٨٣ ، و « معجم مقاييس اللغة » : ٢/١١٢ ، و « اللسان » : حوى .

بالاستثناء من التحريم . فأما ما حملت الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، ففيه قولان .

أحدها : أنه داخل في الاستثناء ، فهو مباح ؛ والمعنى : وأُبيح لهم ما حملت الحوايا من الشحم وما اختلط بعظم ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه نسق على ما حرّم ، لا على الاستثناء ؛ فالمعنى : حرّمنا عليهم شحومهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، إلا ما حملت الظهور ، فانه غير محرم ، قاله الزجاج . فأما « أو » المذكورة هاهنا ، فهي بمعنى الواو ، كقوله : (آثماً أو كفوراً) [الدهر : ٢٤] .

قوله تعالى : (ذلك جزيناهم) أي : ذلك التحريم عقوبة لهم على بغيهم .

وفي بغيهم قولان .

أحدها : أنه قتلهم الأنبياء ، وأكلهم الربا . والثاني : أنه تحريم ما أحل لهم .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فان كذبوك) قال ابن عباس : لما قال رسول الله ﷺ للمشركين : « هذا ما أُوحي إليّ أنّه محرّم على المسلمين وعلى اليهود » ، قالوا : فانك لم تصب ، فنزلت هذه الآية . وفي المكذبين قولان .

أحدها : المشركون ، قاله ابن عباس . والثاني : اليهود ، قاله مجاهد . والمراد بذكر الرحمة الواسعة ، أنه لا يعجل بالعقوبة والبأس : العذاب .

وفي المراد بالمجرمين قولان .

أحدها : المشركون . والثاني : المكذبون .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا) أي : إذا لزمتهم الحجة ، وتيقّنوا باطل ما هم عليه من الشرك وتحريم مالم يحرّمه الله (لو شاء الله ما أشركنا) ، فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل ؛ فكأنهم قالوا : لو لم يرض ما نحن عليه ، لحال بيننا وبينه ؛ وإنما قالوا ذلك مستهزئين ، ودافعين للاحتجاج عليهم ، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالّون ، وإنما هم على المشيئة أيضاً ؟ فلا حجة لهم ، لأنهم تعلّقوا بالمشيئة ، وتركوا الأمر ؛ ومشيئة الله تعمّ جميع الكائنات ، وأمره لا يعمّ مراداته ، فعلى العبد اتباع الأمر ، وليس له أن يتعلّل بالمشيئة بعد ورود الأمر .

قوله تعالى : (كذلك كذّب الذين من قبلهم) قال ابن عباس . أي : قالوا لرسلهم مثلما قال هؤلاء لك ، (حتى ذاقوا بأسنا) أي : عذابنا . (قل هل عندكم من علم) أي : كتاب نزل من عند الله في تحريم ماحرّمتم (إن تتبعون إلا الظّنّ) لا اليقين ؛ و « إن » بمعنى « ما » . و « تخرصون » : تكذبون .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل فلله الحجة البالغة) قال الزجاج : حجّته البالغة : تبيينه أنه الواحد ، وإرساله الأنبياء بالحجج المعجزة . قال السدي : (فلو شاء لهداكم أجمعين) يوم أخذ الميثاق .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل هَلُمَّ شهداءَكم) قال الزجاج : زعم سيبويه أن « هلم » هاء ضمت إليها « لُمَّ » ، وجعلتا كالكلمة الواحدة ؛ فأكثر اللغات أن يقال : « هلمَّ » : للواحد والاثنين والجماعة ؛ بذلك جاء القرآن . ومن العرب من يثنّي ويجمع ويؤنّث ، فيقول للذكر : « هلمَّ » ، وللمرأة : « هلمِّي » ، وللاثنين : « هلمَّا » ، وللثنتين : « هلمَّا » ، وللجماعة : « هلمُّوا » ، وللنسوة : « هلمُمْن » . وقال ابن قتيبة : « هلم » ، بمعنى : « تعال » . وأهل الحجاز لا يثنّونها ولا يجمعونها . وأهل نجد يجعلونها من « هَلْمَمْتُ » ، فيثنّون ويجمعون ويؤنّثون ؛ وتوصل باللام ، فيقال : « هلم لك » ، « وهلم لكما » . قال : وقال الخليل : أصلها « لُمَّ » ، وزيدت الهاء في أولها . وخالفه الفراء ، فقال : أصلها « هل » ضُمَّ إليها « أُمَّ » ، والرفعة التي في اللام من همزة « أُمَّ » لما تُركت انتقلت إلى ما قبلها ؛ وكذلك « اللهم » يرى أصلها : « يا الله أُمَّنا بخير » فكثرت في الكلام ، فاختلطت ، وتُركت الهمزة . وقال ابن الأنباري : معنى « هلم » : أقبل ؛ وأصله : « أُمَّ يا رجل » ، أي : « اقصد » ، فضموا « هل » إلى « أم » وجعلوهما حرفاً واحداً ، وأزالوا « أم » عن التصرف ، وحوّلوا ضمة همزة « أم » إلى اللام ، وأسقطوا الهمزة ، فاتصلت الميم باللام . وإذا قال الرجل للرجل : « هلم » ، فأراد أن يقول : لا أفعل ، قال : « لا أَهَلُمّ » و « لا أُهَلِمْ » . قال مجاهد : هذه الآية جواب قولهم : إن الله حرم البحيرة ، والسائبة . قال مقاتل : الذين يشهدون أن الله حرّم

هـذا الحرث والأنعام ، (فان شهدوا) أن الله حرّمه (فلا تشهدْ معهم) أي : لاتصدّقْ قولهم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل تعالوا أتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) « ما » بمعنى « الذي » . وفي « لا » قولان .

أحدها : أنها زائدة ، كقوله : « أن لاتسجدَ »[الاعراف : ١٢] .

والثاني : أنها ليست زائـدة ، وإنما هي نافية ؛ فعلى هـذا القول ، في تقدير الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون قوله : « أن لا تشركوا » ، محمولاً على المعنى ؛ فتقديره : أتل عليكم أن لاتشركوا ، أي : أتل تحريم الشرك .

والثاني : أن يكون المعنى : أوصيكم أن لاتشركوا ، لأن قوله : (وبالوالدين إحساناً)[الاسراء : ٢٣] محمول على معنى : أوصيكم بالوالدين إحساناً ، ذكرهما الزجاج .

والثالث : أن الكلام تم عند قوله : (حرَّم ربكم) . ثم في قوله : « عليكم » قولان .

أحدهما : أنها إغراء ، كقوله : (عليكم أنفسكم) [المائدة : ١٠٥] . فالتقدير : عليكم أن لاتشركوا ، ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أن يكون بمعنى : فُرض عليكم ، ووجب عليكم أن لاتشركوا .
وفي هذا الشرك قولان .

أحدهما : أنه ادعاء شريك مع الله عز وجل . والثاني : أنه طاعة غيره في معصيته .

قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم) يريد دفن البنات أحياءً . (من إملاق) أي : من خوف فقر .

قوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أن الفواحش : الزنا ، وما ظهر منه : الإعلان به ، وما بطن : الاستسرار به ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثاني : أن ما ظهر : الخمر ، ونكاح المحرمات . وما بطن : الزنا ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أن ما ظهر : الخمر ، وما بطن : الزنا ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه عام في الفواحش . وظاهرها : علانيتها ، وباطنها : سِرُّها ، قاله قتادة .

والخامس : أن ما ظهر : أفعال الجوارح ، وما بطن: اعتقاد القلوب ، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع ، وفي تفسير قوله : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) [الانعام:١٢٠] .

والنفس التي حرَّم الله : نفس مسلم أو معاهد . والمراد بالحق : إذن الشرع .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه) إنما خص مال اليتيم ، لأن الطمع فيه ، لقلّة مراعيه وضعف مالكه ، أقوى .

وفي قوله : (إلا بالتي هي أحسن) أربعة أقوال .

أحدها : أنه أكل الوصي المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : التجارة فيه ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي .

والثالث : أنه حفظه له إلى وقت تسليمه إليه ، قاله ابن السائب .

والرابع : أنه حفظه عليه ، وتثميره له ، قاله الزجاج . قال : و « حتى » محمولة على المعنى ؛ فالمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده ، فاذا بلغ أشده ، فادفعوه إليه . فأما الأشُدّ ، فهو استحكام قوة الشباب والسنّ . قال ابن قتيبة : ومعنى الآية : حتى يتناهى في النبات إلى حدّ الرجال . يقال : بلغ أشده : إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان . وقال أبو عبيدة : الأَشُدُّ لا واحد له منه ؛ فإن أكرهوا على ذلك ، قالوا : شَدٌّ ، بمنزلة : ضَبٌّ ؛ والجمع : أضُبٌّ . قال ابن الأنباري : وقال جماعة من البصريين : واحد الأَشُدّ : شُدٌّ ، بضم الشين . وقال بعض البصريين : واحد الأَشُدّ : شِدّةٌ ، كقولهم : نِعمة ، وأنْعُم . وقال بعض أهل اللغة : الأَشُدُّ : اسم لا واحد له . وللمفسرين في الأشُد ثمانية أقوال .

أحدها : أنه ثلاث وثلاثون سنة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أربعون سنة ، روي عن عائشة عليها السلام .

والرابع : ثماني عشرة سنة ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والخامس : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

والسادس : أربع وثلاثون سنة ، قاله سفيان الثوري .

والسابع : ثلاثون سنة ، قاله السدي . وقال : ثم جاء بعد هذه الآية : (حتى إذا بلغوا النكاح)[النساء : ٦] فكأنه يشير إلى النسخ .

والثامن : بلوغ الحُلُم ، قاله زيد بن أسلم ، والشعبي ، ويحيى بن يعمر ، وربيعة ، ومالك بن أنس ، وهو الصحيح . ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسَّروا هذه الآية بما ذُكر عنهم ، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفاسير ، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى : (ولما بلغ أشده)[يوسف : ٢٢ ، والقصص : ١٤] إلى هذا المكان ؛ وذلك نهاية الأَشُدِّ ، وهذا ابتداء تمامه ؛ وليس هذا مثل ذاك . قال ابن جرير : وفي الكلام محذوف ، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حُذف ، لأن المعنى : حتى يبلغ أشده ؛ فاذا بلغ أشده ، فآنستم منه رشداً ، فادفعوا إليه ماله .

قال المصنف : إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية ، فليس بصحيح ؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى ؛ وإنما أُطلق في هذه الآية ما قُيِّد في غيرها ، فحُمل المطلق على المقيد .

قوله تعالى : (وأوفوا الكيل) أي : أتموه ولا تنقصوا منه . و (الميزان) أي : وَزْنَ الميزان . والقسط : العدل . (لا نكلِّف نفساً إلا وسعها) أي : ما يسعها ، ولا تضيق عنه . قال القاضي أبو يعلى : لما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل ، كُلِّفنا الاجتهاد في التحري ، دون تحقيق الكيل والوزن .

قوله تعالى : (وإذا قلتم فاعدلوا) أي : إذا تكلمتم أو شهدتم ، فقولوا الحق ،

ولو كان المشهود له أو عليه ذا قرابة . وعَهْد الله يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به ، وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره . (ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكرون) أي : لتذَّكَّروه وتأخذوا به . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تذّكّرون » [الانعام : ١٥٣] و « يذّكّرون » [الانعام : ١٢٦] و « يذّكّر الإنسان » [مريم : ٦٧] و « أن يذّكّر » [الفرقان : ٦٢] ،و«ليذّكّروا»[الاسراء:٤١] مشدّداً ذلك كلّه . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم ، وابن عامر كل ذلك بالتشديد ، إلا قوله : (أَوَلا يَذّكّر الإنسانُ) [مريم : ٦٧] فإنهم خففوه . روى أبان ، وحفص عن عاصم : « يذكرون » خفيفة الذال في جميع القرآن . قرأ حمزة ، والكسائي : « يذّكّرون » مشدداً إذا كان بالياء ، ومخففاً إذا كان بالتاء .

﴿ وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : « وأنّ » بفتح الألف مع تشديد النون . قال الفراء : إن شئت جعلت « أن » مفتوحة بوقوع « أتل » عليها ؛ وإن شئت جعلتها خفضاً ، على معنى : ذلكم وصاكم به ، وبأن هذا صراطي مستقيماً . وقرأ ابن عامر بفتح الألف أيضاً ، إلا أنه خفف النون ، فجعلها مخففة من الثقيلة ؛ وحكم إعرابها حكم تلك . وقرأ حمزة ، والكسائي : بتشديد النون مع كسر الألف . قال الفراء : وكسر الألف على الاستئناف . وفي الصراط قولان .

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : الإسلام . وقد بينا إعراب قوله : « مستقيماً » أيضاً . فأما « السُّبُل » ، فقال ابن عباس : هي الضلالات [1] . وقال مجاهد :

---

(١) روى الامام أحمد في « المسند » ١٨٢/٤ ، ١٨٣ ، والحاكم في « المستدرك » ٧٣/١ ـــ

البدع والشبهات . وقال مقاتل : أراد ما حرّموا على أنفسهم من الأنعام والحرث .

(فتفرّقَ بكم عن سبيله) أي : فتضلّكم عن دينه .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب) قال الزجاج : « ثم » هاهنا للعطف على معنى التلاوة ؛ فالمعنى : أتل ما حرم ربكم ، ثم أتل عليكم ما آتاه الله موسى . وقال ابن الأنباري : الذي بعد « ثم » مقدّم على الذي قبلها في النية ؛ والتقدير : ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ .

قوله تعالى : (تماماً على الذي أحسن) في قوله : « تماماً » قولان .

أحدهما : أنها كلمة متصلة بما بعدها ؛ تقول : أعطيتك كذا تماماً على كذا ، وتماماً لكذا ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : أن قوله : « تماماً » كلمة قائمة بنفسها ، غير متصلة بما بعدها ؛

ـــ عن النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تموجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فاذا أراد الانسان ان يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه ، فانك إن تفتحه تلجه ، والصراط : الاسلام ، والسوران : حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم » وخرجه ابن كثير في « التفسير » ، ثم قال : إسناده حسن صحيح . وقوله : « تموجوا » قال القاري في « شرح المشكاة » : بتشديد الجيم من الاعوجاج ، كذا في نسخة السيد وغيره ، وفي نسخة : بتشديد الواو على حذف إحدى التاءين ، وهو تأكيد لما قبله ، أي : لا تميلوا إلى الأطراف . قلت : ووقع في « المسند » « ولاتتفرجوا » وهو تحريف .

والتقدير : آتينا موسى الكتاب تماماً ، أي : في دفعة واحدة ، لم نفرِّق إنزاله كما فُرِّق إنزال القرآن ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وفي المشار إليه بقوله : « أحسن » أربعة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل . ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه ، قاله ابن زيد . والثاني : تماماً على إحسان الله تعالى إلى موسى ؛ وعلى هذين القولين، يكون « الذي » بمعنى « ما » .

والقول الثاني : أنه إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ فالمعنى : تماماً للنعمة على إبراهيم الذي أحسن في طاعة الله ، وكانت نُبُوَّة موسى نعمة على إبراهيم ، لأنه من ولده ، ذكره الماوردي .

والقول الثالث : أنه كل محسن من الأنبياء ، وغيرهم . وقال مجاهد : تماماً على المحسنين ، أي : تماماً لكل محسن . وعلى هذا القول ، يكون « الذي » بمعنى « مَن » ، و« على » بمعنى لام الجر ؛ ومن هذا قول العرب : أتم عليه ، وأتم له . قال الراعي :

رعتـه أشهراً وخلا عليهـا [1]

أي : لها .

قال ابن قتيبة : ومثل هذا أن تقول : أوصي بمالي الذي غزا وحج ؛ تريد : للغازين والحاجّين .

---

(١) تمامه : فطار النيُّ فيهـا واستغارا . وهو في « أدب الكاتب » لابن قتيبة : ٤٠١ من أبيات يصف بها ناقة ذات سمن . قال الجواليقي : رعته ، أي : رعت هذه الناقة هذا النبات أشهراً ، وتخلت به ، لم يرعه غيرها . وطـار الني ، أي : ارتفع الشحم ، واستغـار ، أي : هبط فيها ودخل .

والقول الرابع : أنه موسى . ثم في معنى : « أحسن » قولان .

أحدهما : أحْسَنَ في الدنيا بطاعة الله عز وجل . قال الحسن ، وقتادة : تماماً لكرامته في الجنة إلى إحسانه في الدنيا . وقال الربيع : هو إحسان موسى بطاعته . وقال ابن جرير : تماماً لنعمنا عنده على إحسانه في قيامه بأمرنا ونهينا .

والثاني : أحْسَنَ من العلمِ وكُتُبِ اللهِ القديمةِ ؛ وكأنه زيد على ما أحسنه من التوراة ؛ ويكون « التمام » بمعنى الزيادة ، ذكره ابن الأنباري . فعلى هذين القولين ، يكون « الذي » بمعنى : « ما » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رزين ، والحسن ، وابن يعمر : « على الذي أحسنُ » ، بالرفع . قال الزجاج : معناه : على الذي هو أحسن الأشياء . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وأبو المتوكل ، وأبو العالية : « على الذي أُحْسِنَ » برفع الهمزة وكسر السين وفتح النون ؛ وهي تحتمل الإحسان ، وتحتمل العلم .

قوله تعالى : (وتفصيلاً لكل شيء) أي : تبياناً لكل شيء من أمر شريعتهم مما يحتاجون إلى علمه ، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء .

﴿ وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ) يعني القرآن ، (فاتبعوه واتقوا) أن تخالفوه (لعلكم ترحمون) . قال الزجاج : لتكونوا راجين للرحمة .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (أن تقولوا) سبب نزولها : أن كفار مكة قالوا : قاتل الله

اليهود والنصارى ، كيف كذَّبوا أنبياءهم ؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب ، لكنَّا أهدى منهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . قال الفراء : « أن » في موضع نصب في مكانين . أحدهما : أنزلناه لئلا تقولوا . والآخر : من قوله : واتقوا أن تقولوا . وذكر الزجاج عن البصريين ، أن معناه : أنزلناه ، كراهة أن تقولوا ؛ ولا يجيزون إضمار « لا » . فأما الخطاب بهذه الآية ، فهو لأهل مكة ؛ والمراد إثبات الحجة عليهم بانزال القرآن كي لايقولوا يوم القيامة : إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى ، وكنا غافلين عما فيهما . و « دراستهم » : قراءتهم الكتب . قال الكسائي : (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) لانعلم ما هي ، لأن كتبهم لم تكن بلُغتِنا ، فأنزل الله كتاباً بلغتهم لتنقطع حجتهم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (لكنَّا أهدى منهم) قال الزجاج : إنما كانوا يقولون هذا ، لأنهم مُدِلُّون بالأذهان والأفهام ، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم ، وهم أُمّيُّون لايكتبون . (فقد جاءكم بينة) أي : ما فيه البيان وقطع الشبهات . قال ابن عباس : (فقد جاءكم بينة) أي : حجة ، وهو النبي ، والقرآن ، والهدى ، والبيان ، والرحمة ، والنعمة . (فمن أظلم) أي : أكفر . (ممن كذب بآيات الله) يعني محمداً والقرآن . (وصدف عنها) : أعرض فلم يؤمن بها . وسوء العذاب : قبيحه .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

قوله تعالى: (هل ينظرون) أي : ينتظرون (إلا أن تأتيهم الملائكة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تأتيهم » بالتاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يأتيهم » بالياء . وهذا الإتيان لقبض أرواحهم . وقال مقاتل : المراد بالملائكة : ملك الموت وحده .

قوله تعالى : (أو يأتيَ ربُّكَ) قال الحسن : أو يأتي أمْرُ ربك[1] وقال الزجاج : أو يأتيَ إهلاكه وانتقامه ، إمّا بعذاب عاجل ، أو بالقيامة .

قوله تعالى : (أو يأتيَ بعض آيات ربك) وروى عبد الوارث إلا القزاز : بتسكين ياء « أو يأتي » ، وفتحها الباقون . وفي هذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنه طلوع الشمس من مغربها ، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ [2] ، وبه قال ابن مسعود . وفي رواية زرارة بن أوفى عنه ، وعبد الله ابن عمرو ، ومجاهد وقتادة ، والسدي . وقد روى البخاري ، ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ورآها الناس ، آمن مَن عليها ، فذلك حين لاينفع نفساً

(١) خرج ابن الجوزي هنا على مذهب السلف في هذا النقل .

(٢) « المسند » ٣/٣١ ، و « الطبري » ١٢/٢٤٧ ، و « الترمذي » : ٢/١٣٣ . وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف .

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » [1] . وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ، طُبع على كل قلب بما فيه ، [و] كفي الناس العمل » [2] .

والثاني : أنه طلوع الشمس والقمر من مغربها ، رواه مسروق عن ابن مسعود .

والثالث : أنه إحدى الآيات الثلاث ، طلوع الشمس من مغربها ، والدابة ، وفتح يأجوج ومأجوج ، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود .

والرابع : أنه طلوع الشمس من مغربها ، والدجّال ، ودابة الأرض ، قاله أبو هريرة ؛ والأول أصح . والمراد بالخير هاهنا : العمل الصالح ؛ وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان . وقال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل منه ، كما يقبل منه قبل الآية . وقيل : إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ، أن الملحدة والمنجمين ، زعموا أن ذلك لايكون ، فيريهم الله قدرته ، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق ، ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم : (فأْت بها من المغرب ، فبهت) [البقرة : ٢٥٨] .

---

(١) « المسند » رقم (٧١٦١) والبخاري ٨/٢٢٣ ، ومسلم ٢/١٩٤ ، وأبو داود ٤/١٦٣ وابن ماجه ٢/٢٣٥٢ . وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » ٣/٥٧ وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، والنسائي ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » والطبراني ، وابن أبي عدي .

(٢) « المسند » ٣/١٣٣ و « الطبري » ١٢/٢٥٣ وخرجه الهيثمي في « مجمع الزائد » ٥/٢٥٠ وقال : ورجال أحمد ثقات . وقال ابن كثير بعد أن ذكره ٢/١٩٥ : هذا الحديث حسن الاسناد ، ولم يخرجه أحد من الكتب الستة .

فصل

وفي قوله : (قل انتظروا إنا منتظرون) قولان .

أحدهما : أن المراد به التهديد ، فهو محكم .

والثاني : أنه أمر بالكف عن القتال ، فهو منسوخ بآية السيف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين فرّقوا دينهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « فرّقوا » مشددة . وقرأ حمزة ، والكسائي : « فارقوا » بألف . وكذلك قرؤوا في (الروم : ٣٢) ؛ فمن قرأ : « فرّقوا » ، أراد : آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض . ومن قرأ : « فارقوا » ، أراد : باينوا . وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة ، قاله أبو هريرة .

والثاني : أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي .

والثالث : اليهود ، قاله مجاهد .

والرابع : جميع المشركين ، قاله الحسن . فعلى هذا القول ، دينهم : الكفر الذي يعتقدونه ديناً ، وعلى ما قبله ، دينهم : الذي أمرهم الله به . والشِّيَع : الفرق والأحزاب . قال الزجاج : ومعنى « شيّعتُ » في اللغة : اتبعت . والعرب تقول : شاعكم السلام ، وأشاعكم ، أي : تبعكم .

قال الشاعر :

ألا يا نَخْلَةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ بَرُوْدِ الظِّلِّ شَاعَكُم السَّلامُ[1]

وتقول : أتيتك غداً ، أو شيعة ، أي : أو اليوم الذي يتبعه . فمعنى الشيعة : الذين يتبع بعضهم بعضاً ، وليس كلهم متفقين .

وفي قوله تعالى : (لستَ منهم في شيء) قولان .

أحدهما : لست من قتالهم في شيء ؛ ثم نسخ بآية السيف ، وهذا مذهب السدي .

والثاني : لست منهم ، أي : أنت بريء منهم ، وهم منك بُرَءاء ، إنما أمرهم إلى الله في جزائهم ، فتكون الآية محكمة .

﴿ مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقرأ يعقوب ، والقزاز عن عبد الوارث : « عَشْرٌ » بالتنوين ، « أمثالُها » بالرفع . قال ابن عباس : يريد : من عَمِلَها ، كتبت له عشر حسنات . (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا) جزاء (مثلها) . وفي الحسنة والسيئة هاهنا قولان .

أحدهما : أن الحسنة : قول لا إله إلا الله . والسيئة : الشرك ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، والنخعي .

والثاني : أنه عام في كل حسنة وسيئة . روى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغْفِر » . فان قيل :

(١) البيت غير منسوب في « أساس البلاغة » و « اللسان » : شيع .

إذا كانت الحسنة كلمة التوحيد ، فأي مثل لها حتى يجعل جزاءُ قائلها عشر أمثالها ؟ فالجواب : أن جزاء الحسنة معلوم القدر عند الله ، فهو يجازي فاعلها بعشر أمثاله ، وكذلك السيئة . وقد أشرنا إلى هذا في (المائدة) عند قوله : (فكأنما قتل الناس جميعاً) [المائدة : ٣٢] . فان قيل : المثل مذكَّر ، فلم قال : (عشر أمثالها) والهاء إنما تسقط في عدد المؤنث ؟ فالجواب : أن الأمثال خلقت حسنات مؤنَّثة ؛ وتلخيص المعنى : فله عشر حسنات أمثالها ، فسقطت الهاء من عشر ، لأنها عدد مؤنَّث ، كما تسقط عند قولك : عشر نعال ، وعشر جباب .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) قال الزجاج : أي : دلَّني على الدين الذي هو دين الحق . ثم فسَّر ذلك بقوله : (ديناً قيماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « قَيِّماً » مفتوحة القاف ، مشددة الياء . والقيم : المستقيم . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « قِيَماً » بكسر القاف وتخفيف الياء . قال الزجاج : وهو مصدر ، كالصِّغَر والكِبَر . وقال مكي : من خففه بناه على « فِعَل » وكان أصله أن يأتي بالواو ، فيقول : « قِوَماً » كما قالوا : عِوَض ، وحِوَل ، ولكنه شذ عن القياس . قال الزجاج : ونصب قوله : (ديناً قيماً) محمول على المعنى ، لأنه لما قال : « هداني » دل على عرَّفني ديناً ؛ ويجوز أن يكون على البدل من قوله : (إلى صراط مستقيم) ، فالمعنى : هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً . و « حنيفاً » منصوب على الحال من إبراهيم ، والمعنى : هداني ملَّة إبراهيم في حال حنيفيَّته .

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى : (قل إن صلاتي) يريد : الصلاة المشروعة . والنسك : جمع نسيكة . وفي النسك هاهنا أربعة أقوال .

أحدها : أنها الذبائح ؛ قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن قتيبة . والثاني : الدين ، قاله الحسن . والثالث : العبادة .

قال الزجاج : النسك كلُّ ما تُقُرِّب به إلى الله عز وجل ، إلا أن الغالب عليه أمر الذبح .

والرابع : أنه الدين ، والحج ، والذبائح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : (ومحياي ومماتي) الجمهور على تحريك ياء « محياي » ، وتسكين ياء « مماتي » . وقرأ نافع : بتسكين ياء « محياي » ، ونصب ياء « مماتي » ، ثم للمفسرين في معناه قولان .

أحدهما : أن معناه : لا يملك حياتي ومماتي إلا الله .

والثاني : حياتي لله في طاعته ، ومماتي لله في رجوعي إلى جزائه . ومقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده ، لا لغيره كما تشركون أنتم به .

قوله تعالى : (وأنا أول المسلمين) قال الحسن ، وقتادة : أول المسلمين من هذه الأمة .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

قوله تعالى : (قل أغير الله أبغي رباً) سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ : ارجع عن هذا الأمر ، ونحن لك الكُفلاء بما أصابك من تبعة ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (ولا تكسبُ كل نفس إلا عليها) أي : لا يُؤْخذُ سواها بعملها . وقيل : المعنى : إلا عليها عقاب معصيتها ، ولها ثواب طاعتها .

(ولا تزر وازرة وزر أُخرى) قال الزجاج : لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى . والمعنى : لا يؤخذ أحد بذنب غيره . قال أبو سليمان : ولما ادَّعت كل فرقة من اليهود والنصارى والمشركين أنهم أولى بالله من غيرهم ، عرفهم أنه الحاكم بينهم بقوله : (فيُنبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ونظيره (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) [الحج : ١٧] .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) قال أبو عبيدة : الخلائف : جمع خليفة .

قال الشماخ :

تُصيبُهُمُ وتُخْطِئُني المنايا   وأُخْلَفُ في رُبُوعٍ عَنْ رُبوعِ(١)

(١) ديوانه : ٥٨ و « مجاز القرآن » : ١/٢٠٩ ، والطبري : ١٢/٢٨٨ والقرطبي : ٧/١٥٨ ـــ

وللمفسرين فيمن خلفوه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم خلفوا الجن الذين كانوا سكان الأرض ؛ قاله ابن عباس .

والثاني : أن بعضهم يخلف بعضاً ؛ قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن أمة محمد خلفت سائر الأمم ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي : في الرزق ، والعلم ، والشرف ، والقوة ، وغير ذلك (ليبلُوَكم) أي : ليختبركم ، فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب .

قوله تعالى : (إن ربك سريع العقاب) فيه قولان .

أحدهما : أنه سماه سريعاً ، لأنه آتٍ ، وكل آتٍ قريبٌ .

والثاني : أنه إذا شاء العقوبة ، أسرع عقابه .

★ ★ ★

ـــ و « اللسان » ، و « والتاج » : ربع . والربوع : جمع ربع ، وهو جماعة الناس الذين ينزلون ربما يسكنونه ، يقول : أبقى في قوم بعد قوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

فصل في نزولها

روى العوفي ، وابن أبي طلحة ، وأبو صالح عن ابن عباس ، أن سورة (الأعراف) من المكي ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وجابر بن زيد ، وقتادة . وروي عن ابن عباس ، وقتادة أنها مكية ، إلا خمسَ آيات ؛ أولها قوله تعالى : (وَاسْأَلهم عن القرية) . وقال مقاتل : كلها مكية ، إلا قوله : (واسألهم عن القرية) إلى قوله : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) [الاعراف : ١٦٣ - ١٧٢] فانهن مدنيات .

﴿ آلمص ﴾

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (المص) قد ذكرنا في أول سورة (البقرة) كلاماً مجملاً في الحروف المقطعة أوائلَ السور ، فهو يعم هذه أيضاً . فأما مايختص بهذه الآية ففيه سبعة أقوال .

أحدها : أن معناه : أنا الله أعلم وأفصل ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس .

والثاني : أنه قَسَمٌ أقسم الله به ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنها اسم من أسماء الله تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أن الألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، والصاد مفتاح اسمه « صادق » ، قاله أبو العالية .

والخامس : أن (المص) اسم للسورة ، قاله الحسن .

والسادس : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والسابع : أنها بعض كلمة . ثم في تلك الكلمة قولان .

أحدهما : المصوّر ، قاله السدي . والثاني : المصير إلى كتاب أُنزل إليك ، ذكره الماوردي .

﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (كتاب أُنْزِلَ إليك) قال الأخفش : رفع الكتاب بالابتداء . ومذهب الفراء أن الله اكتفى في مفتَتَح السور ببعض حروف المعجم عن جميعها ، كما يقول القائل : « ا ب ت ث » ثمانية وعشرون حرفاً ؛ فالمعنى : حروف المعجم : كتاب أنزلناه إليك . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يرتفع الكتاب باضمار : هذا الكتاب . وفي الحرج قولان .

أحدهما : أنه الشك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه الضيق ، قاله الحسن ، والزجاج . وفي هاء « منه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ؛ فعلى هذا ، في معنى الكلام قولان . أحدهما : لايضيقنّ صدرك بالإبلاغ ، ولا تخافنّ ، قاله الزجاج . والثاني : لاتشُكّنّ أنه من عند الله .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى مضمر ، وقد دل عليه الإنذار ، وهو التكذيب ، ذكره ابن الأنباري . قال الفراء : فمعنى الآية : لايضيقنّ صدرك أن كذبوك .
قال الزجاج : وقوله تعالى : (لتنذر به) مقدَّم ؛ والمعنى : أُنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، فلا يكن في صدرك حرج منه . (وذكرى) يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض ؛ فأما النصب ؛ فعلى قوله : أُنزل إليك لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ، أي : ولتذكّرَ به ذكرى، لأن في الإنذار معنى التذكير .
ويجوز الرفع على أن يكون : وهو ذكرى ، كقولك : وهو ذكرى للمؤمنين .
فأما الخفض ، فعلى معنى : لتنذر ، لأن معنى « لتنذر » : لأن تنذر ؛ المعنى : للانذار والذكرى ، وهو في موضع خفض .

﴿ إِتَّبِعُوا مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم) إن قيل : كيف خاطبه بالإفراد في الآية الأولى ، ثم جمع بقوله : « اتبعوا » ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لما علم أن الخطاب له ولأمته ، حسن الجمع لذلك المعنى .

والثاني : أن الخطاب الأول خاص له ؛ والثاني محمول على الإنذار ، والإنذار في طريق القول ، فكأنه قال : لتقول لهم منذراً : (اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم) ، ذكرهما ابن الأنباري .

والثالث أن الخطاب الثاني للمشركين ، ذكره جماعة من المفسرين ؛ قال : والذي أُنزل إليهم القرآن . وقال الزجاج : الذي أُنزل : القرآن وما أتى عن النبي ﷺ ، لأنه مما أُنزل عليه ، لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ،

وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر : ٧] . (ولا تتبعوا من دونه أولياء) أي : لاتتولوا مَنْ عدل عن دين الحق ؛ وكلُّ من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل المذهب.

وقوله تعالى : (قليلاً ماتذكرون) ما : زائدة مؤكِّدة ؛ والمعنى : قليلاً تتذكرون. قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « تذّكّرون » مشددة الذال والكاف . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « تذكّرون » خفيفة الذال مشددة الكاف . قال أبو علي : من قرأ « تذّكرون » بالتشديد ، أراد « تتذكرون » فأدغم التاء في الذال ، وإدغامها فيها حسن ، لأن التاء مهموسة ، والذال مجهورة ؛ والمجهور أزيد صوتاً من المهموس وأقوى ؛ فادغام الأنقص في الأزيد حسن . وأما حمزة ومن وافقه ، فانهم حذفوا التاء التي أدغمها هؤلاء ، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة . وقرأ ابن عامر : « يتذكرون » بياء وتاء ، على الخطاب للنبي ﷺ ؛ والمعنى : قليلاً مايتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكم من قرية أهلكناها) « كم » تدل على الكثرة ، و « رب » : موضوعة للقلة . قال الزجاج : المعنى : وكم من أهل قرية ، فحذف الأهل ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقوله تعالى : (فجاءها بأسنا) محمول على لفظ القرية ؛ والمعنى : فجاءهم بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ؛ إما ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون . قال ابن قتيبة : بأسنا : عذابنا . وبياتاً : ليلاً . وقائلون : من القائلة نصف النهار . فان قيل : إنما أتاها البأس قبل الإهلاك ، فكيف يقدَّم الهلاك ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الهلاك والبأس يقعان معاً ، كما تقول : أعطيتني فأحسنت ؛ وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله ، وإنما وقعا معاً ، قاله الفراء .

والثاني : أن الكون مضمر في الآية ، تقديره : أهلكناها ، وكان بأسنا قد جاءها ، فأُضمر الكون ، كما أُضمر في قوله : (واتبعوا ماتتلوا الشياطين) [البقرة: ١٠٢] ، أي : ماكانت الشياطين تتلوه . وقوله تعالى : (إن يسرق) [يوسف : ٧٧] ، أي : إن يكن سرق .

والثالث : أن في الآية تقديماً وتأخيراً ، تقديره : وكم من قرية جاءها بأسنا بياتاً ، أو هم قائلون فأهلكناها ، كقوله تعالى : (إني متوفيك ورافعك إليَّ) [آل عمران : ٥٥] ، أي : رافعك ومتوفيك ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أو هم قائلون) قال الفراء : فيه واو مضمرة ؛ والمعنى : فجاءها بأسنا بياتاً ، أو وهم قائلون ، فاستثقلوا نسقاً على نسق [1] .

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فما كان دعواهم) قال اللغويون : الدعوى هاهنا بمعنى الدعاء والقول . والمعنى : ماكان قولهم وتداعيهم إذ جاءهم العذاب إلا الاعتراف بالظلم . قال ابن الأنباري : وللدعوى في الكلام موضعان .

أحدها : الإدعاء . والثاني : القول والدعاء .

(١) وتمام كلام الفراء في « معاني القرآن » ٣٧٢ : ولو قيل لكان جائزاً ، كما تقول في الكلام : آتيتني والياً ، أو وأنا معزول ، وإن قلت : أو أنا معزول ، فأنت مضمر للواو .

قال الشاعر :

إذا مَذِلَتْ رِجْلي دعوتُكِ أشْتفي بدَعْواكِ مِنْ مَذْلٍ بها فيهُون (١)

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم) يعني : الأمم يُسألون : هل بلّغكم الرُّسُلُ ، وماذا أجبتم ؟ ويسأل الرسل : هل بلّغتم ، وماذا أُجبتم ؟ . (فلنقصنّ عليهم) أي : فلنُخبرنّهم بما عملوا بعلم منا (وما كنا غائبين) عن الرسل والأمم . وقال ابن عباس : يوضع الكتاب ، فيتكلم بما كانوا يعملون .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (والوزن يومئذ الحق) أي : العدل . وإنما قال : « موازينه » لأن « من » في معنى جميع ، يدل عليه قوله : (فأولئك) . وفي معنى (يظلمون) قولان .

أحدهما : يجحدون . والثاني : يكفرون .

قال الفراء : والمراد بموازينه : وزنه . والعرب تقول : هل لك في درهم بميزان درهمك ، ووزن درهمك ، ويقولون : داري بميزان دارك ، ووزن دارك ؛ ويريدن : حذاء دارك .

(١) البيت لكثير عزة ، ديوانه : ٢/٢٤٥ ، و « الطبري » : ١٢/٣٠٤ ، و « نهاية الأرب » : ٢/١٢٥ ، واللسان : مذل . ومذلت رجله مذلاً بفتح وسكون ، ومذلت : خدرت ، وكانوا يزعمون أن المرء إذا خدرت رجله ، ثم دعا باسم من أحب ، زال خدرها .

قال الشاعر :

قَدْ كنتُ قَبْلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ عندي لكلِّ مُخاصِمٍ ميزانُه [1]

يعني : مثل كلامه ولفظه .

فصل

والقول بالميزان مشهور في الحديث ، وظاهر القرآن ينطق به . وأنكرت المعتزلة ذلك ، وقالوا : الأعمال أعراض ، فكيف توزن ؟ فالجواب : أن الوزن يرجع إلى الصحائف ، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الناس يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلاً ، كُلُّ سِجِلٍّ مدُّ البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يارب ؛ فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظُلم عليك اليوم ، فيُخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتوضع السجِلاَّت في كفة ، والبطاقة في كفة ؛ قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » أخرجه أحمد في « مسنده » ، والترمذي [2] .

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل الطويل الأكول

---

(١) في « اللسان » : والميزان : المقدار ، أنشد ثعلب :

قد كنت . . . .

(٢) « المسند » ١١/١٩٧ ، و « سنن الترمذي » ٣/٣٦٧ ، وابن ماجه ١/١٤٣٧ ، والحاكم في « المستدرك » ١/٥٢٩ . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

الشروب ، فلا يزن جناح بعوضة »[1] ، فعلى هذا يوزن الإنسان . قال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات في ميزان ، له لسان وكِفتان . فأما المؤمن ، فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ، وأما الكافر ، فيؤتى بعمله في أقبح صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فيخف وزنه[2] . وقال الحسن : للميزان لسان وكفتان . وجاء في الحديث : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه إياه ؛ فقال : يا إلهي ، من يقدر أن يملأْ كفتيه حسنات ؟ فقال : ياداود ، إني إذا رضيت عن عبدي ، ملأْتها بتمرة . وقال حذيفة : جبريل صاحب الميزان يوم القيامة ، فيقول له ربه : زن بينهم ، ورُدَّ من بعضهم على بعض ؛ فيرد على المظلوم من الظالم ماوجد له من حسنة . فان لم تكن له حسنة ، أخذ من سيئات المظلوم ، فرد على سيئات الظالم ، فيرجع وعليه مثل الجبال .

فان قيل : أليس الله يعلم مقادير الأعمال ، فما الحكمة في وزنها ؟ فالجواب أن فيه خمسة حكم .

إحداها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا . والثانية : إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى . والثالثة : تعريف العباد مالهم من خير وشر . والرابعة : إقامة الحجة عليهم . والخامسة : الإعلام بأن الله عادل لا يظلم . ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب ، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه .

---

(١) ذكره ابن كثير في « التفسير » ٣/١٠٧ من طريق ابن أبي حاتم عن أبي هريرة بلفظ : « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها » . وروى البخاري ٨/٣٢٤ ، ومسلم ٤/٢١٤٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة » وقال : « اقرؤوا : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) » [الكهف : ١٠٥] .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » بأطول مما هنا ، ونسبه إلى البيهقي في « شعب الايمان » .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد مكنّاكم في الأرض) فيه قولان .

أحدهما : مكنّاكم إياها . والثاني : سهّلنا عليكم التصرف فيها .

وفي المعايش قولان .

أحدهما : ما تعيشون به من المطاعم والمشارب .

والثاني : ما تتوصّلون به إلى المعايش ، من زراعة ، وعمل ، وكسب .

وأكثر القراء على ترك الهمز في « معايش » وقد رواها خارجة عن نافع مهموزة . قال الزجاج : وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ ، لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة ، نحو صحيفة وصحائف ؛ فصحيفة من الصحف ؛ والياء زائدة ، فأما معايش ، فمن العيش ؛ فالياء أصلية .

قوله تعالى : (قليلاً ما تشكرون) أي : شكركم قليل . وقال ابن عباس : يريد أنكم غير شاكرين .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فيه ثمانية أقوال .

أحدها : ولقد خلقناكم في ظهر آدم ، ثم صورناكم في الأرحام ، رواه عبد الله بن الحارث عن ابن عباس .

والثاني : ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ، وصورناكم في أرحام النساء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : « ولقد خلقناكم »، يعني آدم ، « ثم صورّناكم »، يعني ذريته من بعده رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : « ولقد خلقناكم »، يعني آدم ، « ثم صورناكم » في ظهره ، قاله مجاهد .

والخامس : « خلقناكم » نطفاً في أصلاب الرجال ، وترائب النساء ، « ثم صوّرناكم » عند اجتماع النطف في الأرحام ، قاله ابن السائب .

والسادس : « خلقناكم » في بطون أُمهاتكم ، « ثم صورناكم » فيما بعد الخلق بشق السمع والبصر ، قاله معمر .

والسابع : « خلقناكم »، يعني آدم خلقناه من تراب ، « ثم صورناكم »، أي : صوّرناه ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة . قال ابن قتيبة : فجعل الخلق لهم إذ كانوا منه ؛ فمن قال : عنى بقوله « خلقناكم » آدم ، فمعناه : خلقنا أصلكم ؛ ومن قال : صورنا ذريته في ظهره ، أراد إخراجهم يوم الميثاق كهيئة الذر .

والثامن : « ولقد خلقناكم » يعني الأرواح ، « ثم صورناكم » يعني الأجساد ، حكاه القاضي أبو يعلى في « المعتمد » . وفي « ثم » المذكورة مرتين قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الواو ، قاله الأخفش . والثاني : أنها للترتيب ، قاله الزجاج .

﴿ قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

قوله تعالى : (ما منعك ألا تسجد) « ما » استفهام ، ومعناها الإنكار . قال الكسائي : « لا » هاهنا زائدة . والمعنى : ما منعك أن تسجد ؟ . وقال الزجاج : موضع « ما » رفع . والمعنى : أي شيء منعك من السجود ؟ و « لا » زائدة

مؤكِّدة ؛ ومثله : (لئلا يعلم أهل الكتاب) [الحديد : ٢٩] . قال ابن قتيبة : وقد تزاد « لا » في الكلام . والمعنى : طرحُها لإباء في الكلام ، أو جحد ، كهذه الآية . وإنما زاد « لا » لأنه لم يسجد . ومثله : (أنها إذا جاءت لايؤمنون) [الانعام: ١٠٩] على قراءة من فتح « أنها » ، فزاد « لا » لأنهم لم يؤمنوا ؛ ومثله : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) [الأنبياء : ٩٥] . وقال الفراء : « لا » هاهنا جحد محض ، وليست بزائدة ، والمنع راجع إلى تأويل القول ، والتأويل : من قال لك : لاتسجد ؛ فأحل المنع محل القول ، ودخلت بعده « أن » ليدل على تأويل القول الذي لم يتصرح لفظه . وقال ابن جرير : في الكلام محذوف ، تقديره : ما منعك من السجود ، فأحوجك أن لا تسجد ؟ . قال الزجاج : وسؤال الله تعالى لإبليس « ما منعك » توبيخ له ، وليُظهر أنه معاند ، ولذلك لم يتب ، وأتى بشيء في معنى الجواب ، ولفظه غير جواب ، لأن قوله : (أنا خير منه) إنما هو جواب ، أيكما خير ؟ ولكن المعنى : منعني من السجود فضلي عليه . ومثله قولك للرجل : كيف كنت ؟ فيقول : أنا صالح ؛ وإنما الجواب : كنت صالحاً ، فيجيب بما يُحتاج إليه وزيادة . قال العلماء : وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص ، وخفي عليه فضل الطين على النار ؛ وفضله من وجوه .

أحدها : أن من طبع النار الطيش والالتهاب والعجلة ، ومن طبع الطين الهدوء والرزانة .

والثاني : أن الطين سبب الإنبات والإيجاد ، والنار سبب الإعدام والإهلاك .

والثالث : أن الطين سبب جمع الأشياء ، والنار سبب تفريقها .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاهبط منها) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى السماء ، لأنه كان فيها ، قاله الحسن .

والثاني : إلى الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : (فما يكون لك أن تتكبر فيها) إن قيل : فهل لأحد أن يتكبر في غيرها ؟ فالجواب : أن المعنى : ما للمتكبر أن يكون فيها ، وإنما المتكبر في غيرها . وأما الصاغر ، فهو الذليل . والصغار : الذل . قال الزجاج : استكبر إبليس بابائه السجود ، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك .

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال أنظرني) أي أمهلني وأخرني (إلى يوم يبعثون) ، فأراد أن يعبر قنطرة الموت ؛ وسأل الخلود ، فلم يجبه إلى ذلك ، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم . وقد بين مدة إمهاله في (الحجر) بقوله : (إلى يوم الوقت المعلوم) [الحجر : ٣٨] . وفي ما سأل الإمهال له قولان .

أحدهما : الموت . والثاني : العقوبة . فان قيل : كيف قيل له : (إنك من المنظرين) وليس أحد أُنظِر سواه ؟ فالجواب : أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم ، فهو منهم .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

قوله تعالى : (فبما أغويتني) في معنى هذا الإغواء قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإضلال ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

الثاني : أنه بمعنى الإهلاك ، ومنه قوله : (فسوف يلقون غياً) [مريم : ٥٩] ، أي : هلاكاً ، ذكره ابن الأنباري . وفي معنى « فبما » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القسم ، أي : فباغوائك لي .

والثاني : أنها بمعنى الجزاء ، أي : فبأنك أغويتني ، ولأجل أنك أغويتني (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) . قال الفراء ، والزجاج : أي على صراطك . ومثله قولهم : ضُرب زيد الظهر والبطن . وفي المراد بالصراط هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه طريق مكة ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وسعيد بن جبير ؛ كأن المراد صدُّهم عن الحج .

والثاني : أنه الإسلام ، قاله جابر بن عبد الله ، وابن الحنفية ، ومقاتل .

والثالث : أنه الحق ، قاله مجاهد .

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) فيه سبعة أقوال .

أحدها : « من بين أيديهم » أشككهم في آخرتهم ، « ومن خلفهم » أرغبهم في دنياهم ، « وعن أيمانهم » أي : من قِبل حسناتهم ، « وعن شمائلهم » من قِبل سيئاتهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : مثلُه ، إلا أنهم جعلوا « من بين أيديهم » الدنيا ، « ومن خلفهم » الآخرة ، قاله النخعي ، والحكم بن عتيبة .

والثالث : مثل الثاني ، إلا أنهم جعلوا « وعن أيمانهم » من قِبل الحق أصدُّهم عنه ، « وعن شمائلهم » من قبل الباطل أردُّهم إليه ، قاله مجاهد ، والسدي .

والرابع : « من بين أيديهم » من سبيل الحق ، « ومن خلفهم » من سبيل

الباطل ، « وعن أيمانهم » من قبل آخرتهم ، « وعن شمائلهم » من أمر الدنيا ، قاله أبو صالح .

والخامس : « من بين أيديهم » « وعن أيمانهم » من حيث يبصرون ، « ومن خلفهم » « وعن شمائلهم » من حيث لا يبصرون ، نقل عن مجاهد أيضاً .

والسادس : أن المعنى : لأتصرفن لهم في الإضلال من جميع جهاتهم ، قاله الزجاج ، وأبو سليمان الدمشقي . فعلى هذا ، يكون ذكر هذه الجهات ، للمبالغة في التأكيد .

والسابع : « من بين أيديهم » فيما بقي من أعمارهم ، فلا يقدمون فيه على طاعة ، « ومن خلفهم » فيما مضى من أعمارهم ، فلا يتوبون فيه من معصية ، « وعن أيمانهم » من قبل الغنى ، فلا ينفقونه في مشكور ، « وعن شمائلهم » من قبل الفقر ، فلا يمتنعون فيه من محظور ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) فيه قولان .

أحدها : موحِّدين ، قاله ابن عباس .

والثاني : شاكرين لنعمتك ، قاله مقاتل . فإن قيل : من أين علم إبليس ذلك ؟ فقد أسلفنا الجواب عنه في سورة (النساء) .

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال اخرج منها مذؤوماً) وقرأ الأعمش : « مذوماً » بضم الذال

من غير همز. قال الفراء : الذَّأْمُ : الذَّمُّ؛ يقال : ذأَمْتُ الرجلَ ، أذأَمُه ذأْماً ؛ وذممتُه ، أذُمُّه ذمّاً ؛ وذِمتُه ، أذيمُه ذَيْماً ؛ ويقال : رجل مذؤوم، ومذموم، ومَذيم ، بمعنى . قال حسان بن ثابت :

وأقاموا حتى أُبيروا جميعاً في مَقامٍ وكُلُّهم مَذؤوم [1]

قال ابن قتيبة : المذؤوم : المذموم بأبلغ الذم . والمدحور : المقصى المبعَد . وقال الزجاج : معنى المذؤوم كمعنى المذموم ،والمدحور : المبعد من رحمة الله . واللام من « لأملأن » : لام القسم ؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء ، كأنه قيل له : من تبعك ، أُعذبْه ، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد . فلام « لأملأن » هي لام القسم ، ولام « لَمن تبعك » توطئة لها . فأما قوله : « منهم » فقال ابن الأنباري : الهاء والميم عائدتان على ولد آدم، لأنه حين قال: (ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم) [الاعراف:١١] كان مخاطباً لولد آدم ، فرجع إليهم ، فقال : (لَمن تبعك منهم) فجعلهم غائبين ، لأن مخاطبتهم في ذا الموضع توقع لَبْساً ؛ والعرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب . ومن قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) خطاب لآدم ، قال : أعاد الهاء والميم على ولده ، لأن ذكره يكفي من ذكرهم ؛ والعرب تكتفي بذكر الوالد من ذكر الأولاد إذا انكشف المعنى وزال اللبس . قال الشاعر :

أرى الخَطَفى بَذَّ الفرزدقُ شِعْرَهُ ولكنَّ خيراً من كُلَيبٍ مُجاشِعُ

أراد : أرى ابن الخطفى ، فاكتفى بالخطفى من ابنه .

قوله تعالى : (لأملأن جهنم منكم) يعني أولاد آدم المخالفين وقرناءهم من الشياطين .

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٢/١٥٠ ، وفيها : « حتى أبيحوا . . . وكلهم مذموم » والبيت من قصيدة يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (فوسوس لهما الشيطان) قيل : إن الوسوسة : إخفاء الصوت . قال ابن فارس : الوسواس : صوت الحلي ، ومنه وسواس الشيطان . و « لهما » بمعنى « إليهما » ، (ليبدي لهما) أي : ليظهر لهما (ماووري عنهما) أي : ستر . وقيل : إن لام « ليبدي » لام العاقبة ؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتهما ، ولم تكن الوسوسة لظهورها .

قوله تعالى : (إلا أن تكونا ملكين) قال الأخفش ، والزجاج : معناه : مانهاكما إلا كراهةَ أن تكونا ملكَين . وقال ابن الأنباري : المعنى : إلا أن لاتكونا ، فاكتفى بـ « أن » من « لا » فأسقطها . فان قيل : كيف انقاد آدم لإبليس ، مستشرفاً إلى أن يكون ملَكاً ، وقد شاهد الملائكة ساجدة له ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه عرف قربهم من الله ، واجتماع أكثرهم حول عرشه ، فاستشرف لذلك ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : أن المعنى : إلا أن تكونا طويلَي العمر مع الملائكة (أو تكونا من الخالدين) لاتموتان أبداً ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقد روى يعلى بن حكيم عن ابن كثير : « أن تكونا ملِكين » بكسر اللام ، وهي قراءة الزهري .

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ

وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقاسمهما) قال الزجاج : حلف لهما ، فدلاّهما في المعصية بأن غرّهما . قال ابن عباس : غرّهما باليمين ، وكان آدم لايظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً .

قوله تعالى : (فلما ذاقا الشجرة) أي : فلما ذاقا ثمر الشجرة . قال الزجاج : وهذا يدل على أنهما إنما ذاقاها ذواقاً ، ولم يبالغا في الأكل . والسوأة كناية عن الفرج ، لا أصل له في تسميته . ومعنى (طفقا) أخذا في الفعل ؛ والأكثر : طفِق يَطْفَقُ ؛ وقد رويت : طفقَ يَطْفِقُ ، بكسر الفاء ، ومعنى (يخصفان) يجعلان ورقة على ورقة ، ومنه قيل للذي يرقع النعل : خصاف .

وفي الآية دليل على أن إظهار السوأة قبيح من لدن آدم ؛ ألا ترى إلى قوله : (ليبدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما) فانهما بادرا يستتران لقبح التكشف . وقيل : إنما سميت السوأةُ سوأةً ، لأن كشفها يسوء صاحبها . قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فروجهما ، لايرى أحدهما عورة الآخر ؛ فلما أصابا الخطيئة ، بدت لهما سوءاتهما . وقرأ الحسن : « سوأتُهما » على التوحيد ؛ وكذلك قرأ : « يِخِصّفان » بكسر الياء والخاء مع تشديد الصاد . وقرأ الزهري : بضم الياء وفتح الخاء مع تشديد الصاد . وفي الورق قولان .

أحدهما : ورق التين ، قاله ابن عباس .

والثاني : ورق الموز ، ذكره المفسرون . وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله : (قال فيها تحيون) يعني الأرض . واختلف القراء في تاء « تخرجون » ؛ فقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو : بضم التاء وفتح الراء ، هاهنا ؛ وفي الروم : (وكذلك تُخرجون) [الروم : ١٩] . وفي الزخرف : (كذلك تُخرجون) [الزخرف : ١١] . وفي الجاثية : (لا يُخرَجون منها) [الجاثية : ٣٥] . وقرأهن حمزة ، والكسائي : بفتح التاء وضم الراء . وفتح ابن عامر التاء في (الأعراف) فقط . فأما التي في (الروم) (إذا أنتم تخرجون) [الروم : ٢٥] ، وفي (سأل سائل) (يوم يخرجون) [المعارج : ٤٣] فمفتوحتان من غير خلاف .

﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً) سبب نزولها : أن ناساً من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . وقيل : إنه لما ذكر عري آدم ، منّ علينا باللباس . وفي معنى (أنزلنا عليكم) ثلاثة أقوال .

أحدها : خلقنا لكم . والثاني : ألهمناكم كيفية صنعه . والثالث : أنزلنا المطر الذي هو سبب نبات ما يتخذ لباساً . وأكثر القراء قرؤوا : « وريشاً » . وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وزرّ بن حبيش ، وقتادة ، والمفضل ، وأبان عن عاصم : « ورياشاً » بألف . قال الفراء : يجوز أن تكون الرياش جمع الريش . ويجوز أن تكون بمعنى الريش كما قالوا : لِبس ، ولباس .

قال الشاعر :

فلما كَشَفْنَ اللِّبْسَ عنه مَسَحْنَهُ بأطراف طَفْل زانَ غَيْلاً مُوَشَّما [١]

قال ابن عباس ، ومجاهد : « الرياش » : المال ؛ وقال عطاء : المال والنعيم . وقال ابن زيد : الريش : الجمال ؛ وقال معبد الجهني : الريش : الرزق ؛ وقال ابن قتيبة : الريش والرياش : ماظهر من اللباس . وقال الزجاج : الريش : اللباس وكل ماستر الإنسان في جسمه ومعيشته . يقال : تريَّش فلان ، أي : صار له مايعيش به . أنشد سيبويه :

رياشي منكمُ وهوايَ مَعْكُمْ وإن كانَتْ زيارتُكم لِماما [٢]

وعلى قول الأكثرين : الريش والرياش بمعنى . قال قطرب : الريش والرياش واحد . وقال سفيان الثوري : الريش : المال ، والرياش : الثياب .

قوله تعالى : (ولباس التقوى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة : « ولباسُ التقوى » بالرفع . وقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بنصب اللباس . قال الزجاج : من نصب اللباس ، عطف به على الريش ؛ ومن رفعه ، فيجوز أن يكون مبتدأً ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار : هو ؛ المعنى : وهو لباس التقوى ، أي : وستر العورة لباس المتقين . وللمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال .

---

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالي ، ديوانه ١٤ ، و « معاني القرآن » للفراء : ١/٣٧٥ ، و « الطبري » : ١٢/٣٦٤ ، و « المخصص » ٤/٣٥ ، و « اللسان » « لبس » و « طفل » . الطفل : البنان الناعم ، أراد : مسحنه بأطراف بنان طفل . والغيل : الساعد الريان الممتلىء . والموشم : عليه الوشم . والوشم : زينة الجاهلية ، وقد أبطلها الاسلام ، ولعن فاعلها .

(٢) البيت لجرير ، ديوانه ٥٠٦ يمدح هشام بن عبد الملك ، وأنشده سيبويه ٢/٤٥ ونسبه للراعي . واللمام : الشيء اليسير ، وهو أيضاً : الزيادة في النوم ، وأصله من ألم بالمنزل : إذا نزل به ثم رحل .

أحدها : أنه السمت الحسن ، قاله عثمان بن عفان ؛ ورواه الذيّال بن عمرو عن ابن عباس . والثاني : العمل الصالح ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الإيمان ، قاله قتادة ، وابن جريج ، والسدي ؛ فعلى هذا ، سمي لباس التقوى ، لأنه يقي العذاب . والرابع : خشية الله تعالى ، قاله عروة بن الزبير . والخامس : الحياء ، قاله معبد الجهني ، وابن الأنباري . والسادس : ستر العورة للصلاة ، قاله ابن زيد . والسابع : أنه الدرع ، وسائر آلات الحرب ، قاله زيد بن علي . والثامن : العفاف ، قاله ابن السائب . والتاسع : أنه مايُتَّقى به الحر والبرد ، قاله ابن بحر . والعاشر : أن المعنى : مايَلْبَسه المتقون في الآخرة ، خير مما يلبسه أهل الدنيا ، رواه عثمان ابن عطاء عن أبيه .

قوله تعالى : (ذلك خير) قال ابن قتيبة : المعنى : ولباس التقوى خير من الثياب ، لأن الفاجر ، وإن كان حسن الثوب ، فهو بادي العورة ؛ و « ذلك » زائدة .

قال الشاعر في هذا المعنى :

إنِّي كأنِّي أرَى مَنْ لاحَياءَ لَه ... وَلا أمَانَةَ وَسْطَ القَوْمِ عُرْيانا

قال ابن الأنباري : ويقال : لباس التقوى ، هو اللباس الأول ، وإنما أعاده لما أخبر عنه بأنه خير من التعرّي ، إذ كانوا يتعبدون في الجاهلية بالتعرّي في الطواف .

قوله تعالى : (ذلك من آيات الله) قال مقاتل : يعني : الثيابُ والمالُ من آيات الله وصنعه ، لكي يذّكروا ، فيعتبروا في صنعه .

﴿ يَابَنِي آدَمَ لايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاتَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (يابني آدم لايفتننكم الشيطان) قال المفسرون : هذا الخطاب للذين كانوا يطوفون عراةً ؛ والمعنى : لايخدعنكم ولا يُضلنكم بغروره ، فيزيّن لكم كشف عوراتكم ، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره . وأُضيف الإخراج ونزع اللباس إليه ، لأنه السبب . وفي « لباسهما » أربعة أقوال .

أحدها : أنه النور ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وقد ذكرناه عن ابن منبه .

والثاني : أنه كان كالظُفُر ؛ فلما أكلا ، لم يبق عليهما منه إلا الظُفر ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وابن زيد .

والثالث : أنه التقوى ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه كان من ثياب الجنة ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : (ليريَهما سوءاتهما) أي : ليري كل واحد منهما سوأة صاحبه . (إنه يراكم هو وقبيله) قال مجاهد : قبيله : الجن والشياطين . قال ابن عباس : جعلهم الله يَجرون من بني آدم مجرى الدم ، وصدور بني آدم مساكن لهم ، فهم يرون بني آدم ، وبنو آدم لايرونهم .

قوله تعالى : (إنا جعلنا الشياطين أولياء الذين لايؤمنون) قال الزجاج : سلّطناهم عليهم ، يزيدون في غيّهم . وقال أبو سليمان : جعلناهم موالين لهم .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة) فيمن عني بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة . والفاحشة : كشف العورة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، والسدي .

والثاني : أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام وتلك الفاحشة ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنهم المشركون ؛ والفاحشة : الشرك ، قاله الحسن ، وعطاء . قال الزجاج : فأعلمهم عز وجل أنه لايأمر بالفحشاء ، لأن حكمته تدل على أنه لايفعل إلا المستحسن . والقسط : العدل . والعدل : مااستقر في النفوس أنه مستقيم لاينكره مميِّز ، فكيف يأمر بالفحشاء ، وهي ماعظم قبحه ؟ ! .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فيه أربعة أقوال .

أحدها : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد ، فصلُّوا فيه ، ولا يقولنَّ أحدكم : أصلي في مسجدي ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، واختاره ابن قتيبة .

والثاني : توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة ، أمراً بالجماعة لها ، ذكره الماوردي . وفي قوله : (وادعوه) قولان .

أحدهما : أنه العبادة . والثاني : الدعاء . وفي قوله : (مخلصين له الدين) قولان .

أحدهما : مُفْردين له العبادة . والثاني : موحِّدين غير مشركين .

وفي قوله : (كما بدأكم تعودون) ثلاثة أقوال .

أحدها : كما بدأكم سعداء وأشقياء ، كذلك تبعثون ، روى هذا المعنى

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والقرظي ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء .

والثاني : كما خُلقتم بقدرته ، كذلك يعيدكم ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وابن زيد ، والزجاج ، وقال : هذا الكلام متصل بقوله : (فيها تحيون وفيها تموتون) [الاعراف: ٢٥] .

والثالث : كما بدأكم لا تملكون شيئاً ، كذلك تعودون ، ذكره الماوردي .

﴿ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (فريقاً هدى) قال الفراء : نصب الفريق بـ « تعودون » . وقال ابن الأنباري : نصب « فريقاً » و « فريقاً » على الحال من الضمير الذي في « تعودون » ، يريد : تعودون كما ابتدأ خلقكم مختلفين ، بعضكم سعداء ، وبعضكم أشقياء .

قوله تعالى : (حق عليهم الضلالة) أي : بالكلمة القديمة ، والإرادة السابقة .

﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

قوله تعالى : (يابني آدم خذوا زينتكم) سبب نزولها : أن ناساً من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تعلّق على فرجها سيوراً ، وتقول :

اليومَ يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ   وَمَا بَدا مِنْهُ فَلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية[1] قاله ابن عباس . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حجوا ، فأفاضوا من منى ، لايصلح لأحد منهم في دينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبيه ، فيلقيهما حتى يقضي طوافه ، فنزلت هذه الآية . وقال الزهري: كانت العرب تطوف بالبيت عراةً ، إلا الحمس ، قريشٌ وأحلافها ، فمن جاء من غيرهم ، وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس ، فان لم يجد من يُعيره من الحمس ، ألقى ثيابه وطاف عرياناً ، فان طاف في ثياب نفسه ، جعلها حراماً عليه إذا قضى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية . وفي هذه الزينة قولان .

أحدهما : أنها الثياب . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه ورد في ستر العورة في الطواف ، قاله ابن عباس ، والحسن في جماعة . والثاني : أنه ورد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد ، والزجاج . والثالث : أنه ورد في التزين بأجمل الثياب فى الجمع والأعياد ، ذكره الماوردي .

والثاني : أن المراد بالزينة : المشط ، قاله أبو رزين .

قوله تعالى : (وكلوا واشربوا) قال ابن السائب : كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دَسَماً ، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً ، تعظيما لحجهم ، فنزل قوله : (وكلوا واشربوا) . وفي قوله : (ولا تسرفوا) أربعة أقوال .

أحدها : لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تأكلوا حراماً ، فذلك الإسراف ، قاله ابن زيد .

---

(١) مسلم في « صحيحه » ٤/٢٣٢٠ من طريق غندر عن شعبة ، و « الطبري » ١٢/٣٩٠ . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣١٩ ـ ٣٢٠ من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة ، ولكن قال : نزلت هذه الآية : (قل من حرَّم زينة الله) . ثم قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

والثالث : لا تشركوا ، فمعنى الإسراف هاهنا : الإشراك ، قاله مقاتل .

والرابع : لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة ، قاله الزجاج .

ونُقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، فقال علي : قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا . قال : ماهي ؟ قال : قوله تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) . قال النصراني : ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب ، فقال : قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعوِّدوا كل بدن ما اعتاد » [1] . فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

قال المصنف : هكذا نقلتُ هذه الحكاية ، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايثبت . وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب « لقط المنافع في الطب » .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل من حرَّم زينة الله) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

---

(١) ذكره الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » وقال : لايصح رفعه إلى النبي ﷺ ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره . نعم عند ابن أبي الدنيا في الصمت من جهة وهب بن منبه قال : أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية ، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت . وللخلال من حديث عائشة : « الأزم دواء ، والمعدة داء ، وعودوا بدنا ما اعتاد » . وأورد الغزالي في « الاحياء » من المرفوع : « البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء ، وعودوا كل بدن بما اعتاد » . وقال مخرجه : « لم أجد له أصلاً » .

أحدها : أن المشركين عيَّروا المسلمين، إذ لبسوا الثياب في الطواف، وأكلوا الطيبات ، فنزلت ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم كانوا يُحرِّمون أشياء أحلَّها الله، من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : نزلت في طوافهم بالبيت عراةً ، قاله طاووس ، وعطاء .

وفي زينة الله قولان .

أحدهما : أنها ستر العورة ؛ فالمعنى : من حرم أن تلبسوا في طوافكم مايستركم ؟ .

والثاني : أنها زينة اللباس . وفي الطيبات قولان .

أحدهما : أنها الحلال . والثاني : المستلذ . ثم في ما عني بها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها البحائر ، والسوائب ، والوصائل، والحوامي التي حرَّموها، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : أنها السَّمْنُ ، والألبان ، واللحم ، وكانوا حرَّموه في الإحرام ، قاله ابن زيد . والثالث : الحرث ، والأنعام ، والألبان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة) قال ابن الأنباري : « خالصة » نَصبٌ على الحال من لام مضمرة ، تقديرها : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة ، وهي لهم في الآخرة خالصة ، فحذفت اللام لوضوح معناها ، كما تحذف العرب أشياء لايُلبِس سقوطُها .

قال الشاعر :

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْنِي شَاحِبًا ... كأنَّكَ يَحْمِيكَ الطَّعَامَ طَبِيبُ

تَتَابُعُ أحداثٍ تَخَرَّمْنَ إخوتي ... فشيَّبن رأسِي، والخُطُوبُ تُشِيبُ

أراد : فقلت لها : الذي أكسبني ما ترين ، تتابعُ أحداث ، فحذف لانكشاف المعنى .
قال المفسرون : إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات ، فأكلوا ولبسوا ونكحوا ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين ، وليس للمشركين فيها شيء .
وقيل : خالصة لهم من ضرر أو إثم . وقرأ نافع : « خالصةٌ » بالرفع . قال الزجاج :
ورفعُها على أنه خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب ؛ والمعنى : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الدنيا ، خالصةٌ يوم القيامة .

قوله تعالى : (كذلك نفصّل الآيات) أي : هكذا نبيّنها .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل إنما حرّم ربيَ الفواحش) قرأ حمزة : (ربيْ الفواحشَ) باسكان الياء . (ما ظهر منها وما بطن) فيه ستة أقوال .

أحدها : أن المراد بها الزنا ، ما ظهر منه : علانيته ، وما بطن : سرّه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثاني : أن ما ظهر : نكاح الأمهات ، وما بطن : الزنا ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال علي بن الحسين .

والثالث : أن ما ظهر : نكاح الأبناء نساء الآباء ، والجمع بين الأختين ، وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، وما بطن : الزنا ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أن ما ظهر : الزنا ، وما بطن : العزل ، قاله شريح .

والخامس : أن ما ظهر : طواف الجاهلية عراة ، وما بطن : الزنا ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه عامٌّ في جميع المعاصي . ثم في « ما ظهر منها وما بطن» قولان .

أحدهما : أن الظاهر : العلانية ، والباطن : السر ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أن ماظهر : أفعال الجوارح ، والباطن : اعتقاد القلوب ، قاله الماوردي .

وفي الإثم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذنب الذي لايوجب الحدَّ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والفرَّاء .

والثاني : المعاصي كلها ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الخمر ، قاله الحسن ، وعطاء . قال ابن الأنباري : أنشدنا رجل في مجلس ثعلب بحضرته ، وزعم أن أباعبيدة أنشده :

نَشْرَبُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً وَنَرى المُتْكَ بيننا مُسْتَمَاراً[1]

فقال أبو العباس : لا أعرفه ، ولا أعرف الإثم : الخمر ، في كلام العرب . وأنشدنا رجل آخر :

شَرِبْتُ الإثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الإِثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

قال أبو بكر : وما هذا البيت معروفاً أيضاً في شعر من يحتج بشعره ، وما رأيت أحداً من أصحاب الغريب أدخل الإثم في أسماء الخمر ، ولا سمَّتها العرب بذلك في جاهلية ولا إسلام .

فان قيل : إن الخمر تدخل تحت الإثم ، فصواب ، لا لأنه اسم لها .

فان قيل : كيف فصل الإثم عن الفواحش ، وفي كل الفواحش إثم ؟

فالجواب : أن كل فاحشة إثم ، وليس كل إثم فاحشة ، فكان الإثم كل فعل مذموم ؛ والفاحشة : العظيمة . فأما البغي ، فقال الفراء : هو الاستطالة على الناس .

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » أثم ، و « التاج » متك . والمتك : الأترج .

قوله تعالى : (وأن تشركوا) قال الزجاج : موضع « أن » نصب ؛ فالمعنى : حرَّم الفواحش ، وحرَّم الشرك . والسلطان : الحجة .

قوله تعالى : (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) عام في تحريم القول في الدّين من غير يقين .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكل أمة أجل) سبب نزولها : أنهم سألوا النبي ﷺ العذاب ، فأُنزلت ، قاله مقاتل . وفي الأجل قولان .

أحدهما : أنه أجل العذاب . والثاني : أجل الحياة . قال الزجاج : الأجل : الوقت المؤقت . (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة) المعنى : ولا أقل من ساعة . وإنما ذكر الساعة ، لأنها أقل أسماء الأوقات .

﴿ يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم) قال الزجاج : أضمر : « فأطيعوهم » . وقد سبق معنى « إما » في سورة (البقرة:٣٨) ؛ والباقي ظاهر إلى قوله : (ينالهم نصيبهم من الكتاب) ففي معناه سبعة أقوال .

أحدها : ما قُدّر لهم من خير وشر ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثاني : نصيبهم من الأعمال ، فيُجزَون عليها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ما كُتِبَ عليهم من الضلالة والهدى ، قاله الحسن . وقال مجاهد ، وابن جبير : من السعادة والشقاوة .

والرابع : ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والأعمال ، قاله الربيع ، والقرظي ، وابن زيد .

والخامس : ما كتب لهم من العذاب ، قاله عكرمة ، وأبو صالح ، والسدي .

والسادس : ما أخبر الله تعالى في الكتب كلّها : أنه من افترى على الله كذباً ، اسودَّ وجهه ، قاله مقاتل .

والسابع : ما أخبر في الكتاب من جزائهم ، نحو قوله : (فأنذرتكم ناراً تلظّى) [الليل : ١٤] ، قاله الزجاج . فاذن في الكتاب خمسة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ . والثاني : كُتُبُ الله كلّها . والثالث : القرآن . والرابع : كتاب أعمالهم . والخامس : القضاء .

قوله تعالى : (حتى إذا جاءتهم رسلنا) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أعوان مَلَكِ الموت ، قاله النخعي . والثاني : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل . والثالث : ملائكة العذاب يوم القيامة .

وفي قوله : « يتوفّونهم » ثلاثة أقوال .

أحدها : يتوفّونهم بالموت ، قاله الأكثرون . والثاني : يتوفّونهم بالحشر

إلى النار يوم القيامة ، قاله الحسن . والثالث : يتوفَّونهم عذاباً ، كما تقول : قتلت فلاناً بالعذاب ، وإن لم يمت ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أين ما كنتم تدعون) أي : تعبدون (من دون الله) ، وهذا سؤال تبكيت وتقريع . قال مقاتل : المعنى : فليمنعوكم من النار . قال الزجاج : ومعنى (ضلّوا عنا) : بطلوا وذهبوا ، فيعترفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين . وقال غيره : ذلك الاعتراف يكون يوم القيامة .

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال ادخلوا) إن الله تعالى يقول لهم ذلك بواسطة الملائكة ، لأن الله تعالى لا يكلّم الكفار يوم القيامة . قال ابن قتيبة : و « في » بمعنى : « مع » .

وفي قوله : (قد خلت من قبلكم) قولان .

أحدهما : مضت إلى العذاب .

والثاني : مضت في الزمان ، يعني كفار الأمم الماضية .

قوله تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وهذه أُخُوَّةُ الدّين والملّة ، لا أُخُوَّةُ النسب . قال ابن عباس : يلعنون من كان قبلهم . قال مقاتل : كلما دخل أهل ملّة ، لعنوا أهل ملّتهم ، فيلعن اليهودُ اليهودَ ، والنصارى النصارى ، والمشركون المشركين ، والأتباع القادة ، ويقولون : أنتم ألقيتمونا هذا الملقى حين أطعناكم . وقال الزجاج : إنما تلاعنوا ، لأن بعضهم ضل باتباع بعض .

قوله تعالى : (حتى إذا ادّاركوا) قال ابن قتيبة : أي : تداركوا ، فأدغمت التاء في الدال ، وأُدخلت الألف ليَسْلَم السكون لما بعدها ، يريد : تتابعوا فيها واجتمعوا .

قوله تعالى : (قالت أُخراهم لأولاهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : آخر أمّة لأول أمّة ، قاله ابن عباس . والثاني : آخر أهل الزمان لأوّليهم الذين شرعوا له ذلك الدّين ، قاله السدي . والثالث : آخرهم دخولاً إلى النار ، وهم الأتباع ، لأوّلهم دخولاً ، وهم القادة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (هؤلاء أضلّونا) قال ابن عباس : شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلهاً .

قوله تعالى : (فآتهم عذاباً ضعفاً) قال الزجاج : أي : عذاباً مضاعفاً .

قوله تعالى : (قال لكلٍّ ضعف) أي : عذاب مضاعف ولكن لا تعلمون .

قرأ أبو بكر ، والمفضل عن عاصم : « يعلمون » ، بالياء . قال الزجاج : والمعنى : لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر . وقرأ الباقون : « تعلمون » بالتاء ، وفيها وجهان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب .

والثاني : لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك ، وقيل : إنما طلب الأتباع مضاعفة عذاب القادة ، ليكون أحد العذابين على الكفر ، والثاني على إغرائهم به ، فأجيبوا (لكلٍّ ضعف) أي : كما كان للقادة ذلك ، فلكم عذاب بالكفر ، وعذاب بالاتّباع . قوله : (فما كان لكم علينا من فضل) فيه قولان .

أحدهما : في الكفر ، نحن وأنتم فيه سواء ، قاله ابن عباس .

والثاني : في تخفيف العذاب ، قاله مجاهد .

﴿ وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (بما كنتم تكسبون) قال مقاتل : من الشرك والتكذيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين كذبوا بآياتنا) أي : بحججنا وأعلامنا التي تدل على توحيد الله ونبوّة الأنبياء ، وتكبّروا عن الإيمان بها (لا تُفَتّح لهم أبواب السماء) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : « تُفَتَّح » ؛ بالتاء ، وشددوا التاء الثانية . وقرأ أبو عمرو : « لا تُفْتَح » بالتاء خفيفة ، ساكنة الفاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « لا يُفْتَح » بالياء مضمومة خفيفة . وقرأ اليزيدي عن اختياره : « لا تَفتح » بتاء مفتوحة (أبوابَ السماء) بنصب الباء ، فكأنه أشار إلى أفعالهم . وقرأ الحسن : بياء مفتوحة ، مع نصب الأبواب ، كأنه يشير إلى الله عز وجل . وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول أبي موسى الأشعري ، والسدي في آخرين ، والأحاديث تشهد به[1] .

والثاني : لا تفتح لأعمالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والرابع : لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم ، قاله ابن جريج ، ومقاتل .

(١) انظر « مسند أحمد » : ٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، و « تفسير الطبري » ٤٢٤/١٢ ، وابن كثير ٢١٣/٢ .

وفي السماء قولان .

أحدهما : أنها السماء المعروفة ، وهو المشهور .

والثاني : أن المعنى : لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِياط) الجمل : هو الحيوان المعروف . فان قال قائل : كيف خص الجمل من دون سائر الدواب ، وفيها ما هو أعظم منه ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن ضرب المثل بالجمل يحصّل المقصود ؛ والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة ، كما لا يدخل الجمل في ثَقب الإبرة ، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه ، جاز ، والناس يقولون : فلان لا يساوي درهماً ، وهذا لا يغني عنك فتيلاً ، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل .

والثاني : أن الجمل أكبر شأناً عند العرب من سائر الدواب ، فانهم يقدِّمونه في القوّة على غيره ، لأنه يوقَر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب ، ولهذا عجَّبهم من خلق الإبل ، فقال : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) [الغاشية : ١٧] ، فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى . ذكر الجوابين ابن الأنباري . قال : وقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قرأ : « حتى يلج الجُمَّلُ » بضم الجيم وتشديد الميم ، وقال : هو القَلْسُ [١] الغليظ .

قال المصنف : وهي قراءة أبي رزين ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وأبي مجلز ، وابن يعمر ، وأبان عن عاصم . قال : وروى مجاهد عن ابن عباس : « حتى يلج الجُمَلُ » بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها .

(١) القلس ، بفتح القاف وسكون اللام : حبل غليظ من حبال السفن .

قلت : وهي قراءة قتادة ، وقد رويت عن سعيد بن جبير ، وأنه قرأ : « حتى يلج الجُمْل » بضم الجيم وتسكين الميم . قلت : وهي قراءة عكرمة .

قال ابن الأنباري : فالجُمَل يحتمل أمرين : يجوز أن يكون بمعنى الجُمَّلُ ، ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الحبال ، قيل في جمعها : جُمَلٌ ، كما يقال : حُجْرة ، وحُجَر ، وظُلمة ، وظُلَم . وكذلك من قرأ : « الجُمْل » يسوغ له أن يقول : الجُمْلُ ، بمعنى الجُمَّل ، وأن يقول : الجُمْل ، جمع جُمْلة ، مثل بُسرة ، وبُسْر . وأصحاب هذه القراءات يقولون : الحبل والحبال ، أشبه بالإبرة والخيوط من الجمال . وروى عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قرأ : « الجُمُل » بضم الجيم والميم ، وبالتخفيف ، وهي قراءة الضحاك ، والجحدري . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « الجَمْل » بفتح الجيم ، وبسكون الميم خفيفة .

قوله تعالى : (في سَمِّ الخياط) السم في اللغة : الثَّقب . وفيها ثلاث لغات : فتح السين ، وبها قرأ الأكثرون ، وضمها ، وبه قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وقتادة ، وابن محيصن ، وطلحة بن مصرف ، وكسرها ، وبه قرأ أبو عمران الجوني ، وأبو نهيك ، والأصمعي عن نافع . قال ابن القاسم : والخِياط : المِخْيَط ، بمنزلة اللحاف والملحف ، والقِرام والمقرم . وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو رزين ، وأبو مجلز : في « سم المِخْيَطِ » . وقال الزجاج : الخِياط : الإبرة ، وسَمُّها : ثقبها . والمعنى : أنهم لا يدخلون الجنة أبداً . قال ابن قتيبة : هذا كما يقال : لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب ، ويبيضّ القار .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المجرمين) أي : مثل ذلك نجزي الكافرين أنهم لا يدخلون الجنة .

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (لهم من جهنم مهاد) المهاد : الفراش .

وفي المراد بالغواشي ثلاثة أقوال .

أحدها : اللحف ، قاله ابن عباس ، والقرظي ، وابن زيد . والثاني : مايغشاهم من فوقهم من الدخان ، قاله عكرمة . والثالث : غاشية فوق غاشية من النار ، قاله الزجاج . قال ابن عباس : والظالمون هاهنا : الكافرون .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ) فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أهل بدر . روى الحسن عن علي رضي الله عنه أنه قال : فينا والله أهل بدر نزلت : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) . وروى عمرو بن الشريد عن عليّ أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، من الذين قال الله : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

والثاني : أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا . روى كثير النوّاء عن أبي جعفر قال : نزلت هذه الآية في علي ، وأبي بكر ، وعمر ، قلت لأبي جعفر : فأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية ، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في

الجاهلية شيء ، فلما أسلم هؤلاء، تحابوا ، فأخذت أبا بكرٍ الخاصرةُ ، فجعل عليٌّ يسخِّن يده ويكمِّد بها خاصرة أبي بكر ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أنهم عشرة من الصحابة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود ، قاله أبو صالح .

والرابع : أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها . روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « يخلُصُ المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، حتى إذا هذِّبوا ونُقّوا ، أذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفسي بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[1] . وقال ابن عباس : أول مايدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، تعرض لهم عينان ، فيشربون من إحدى العينين ، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره ممـا كان في الدنيا ، ثم يدخلون إلى العين الأخرى ، فيغتسلون منها ، فتُشرق ألوانهم ، وتصفو وجوههم ، وتجري عليهم نضرة النعيم .

---

(١) « البخاري » ٥/٧٠ ، و ١١/٣٤٦ « بشرح الفتح » ، و « الطبري » ١٤/٣٨ قال الحافظ ١١/٣٤٦ : قوله : « والذي نفس محمد بيده » هذا ظاهره أنه مرفوع كله ، وكذا في سائر الروايات ، إلا في رواية عفان عند الطبري ، قال : فانه جعل هذا من كلام قتادة ، فقال بعد قوله : « في دخول الجنة » قال : وقال قتادة : « والذي نفسي بيده لأحدهم أهدى ... » الخ وفي رواية شعيب بن إسحاق بعد قوله : « في دخول الجنة » قال : فوالذي نفسي بيده ... الخ فأبهم القائل ، فعلى رواية عفان يكون هو قتادة ، وعلى رواية غيره يكون هو النبي ﷺ ، وزاد محمد بن المنهال عند الاسماعيلي : قال قتادة : كان يقال : مايشبه بهم إلا أهل الجمعة إذا انصرفوا من جمعتهم ، وهكذا عند عبد الوهاب وروح . وفي رواية بشر بن خالد وعفان جميعاً عند الطبري قال : وقال بعضهم ... فذكره ، وكذا في رواية شعيب بن إسحاق ، ويونس ابن محمد ، والقائل : وقال بعضهم : هو قتادة ، ولم أقف على تسمية القائل .

فأما النزع ، فهو قلع الشيء من مكانه . والغل : الحقد الكامن في الصدر .
وقال ابن قتيبة : الغل : الحسد والعداوة .

قوله تعالى : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) قال الزجاج : معناه : هدانا لِما صيَّرنا إلى هذا . قال ابن عباس : يعنون ماوصلوا إليه من رضوان الله وكرامته . وروى عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه قال : تستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ منثور ، فيطوفون بهم كاطافتهم بالحميم جاء من الغيبة ، ويبشِّرونهم بما أعدَّ الله لهم ، ويذهبون إلى أزواجهم فيبشِّرونهنَّ ، فيستخفهنَّ الفرح ، فيقمن على أُسْكُفَّةِ الباب ، فيقلن : أنت رأيته ، أنت رأيته ؟ قال : فيجيء إلى منزله فينظر في أساسه ، فاذا صخر من لؤلؤ ، ثم يرفع بصره ، فلولا أن الله ذلَّله لذهب بصره ، ثم ينظر أسفل من ذلك ، فاذا هو بالسُّرر الموضونة ، والفرش المرفوعة ، والدرابي المبثوثة ، فعند ذلك قالوا : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) كلهم قرأ « وما كنَّا » باثبات الواو ، غير ابن عامر ، فانه قرأ « ما كنا لنهتديَ » بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام . قال أبو علي : وجه الاستغناء عن الواو ، أن القصة ملتبسة بما قبلها ، فأغنى التباسها به عن حرف العطف ، ومثله (رابعهم كلبهم) [الكهف : ٢٢] .

قوله تعالى : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً . (ونودوا أن تلك الجنة) قال الزجاج : إنما قال « تلكم » لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، فكأنه قيل لهم : هذه تلكم التي وُعدتم بها . وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر « أورِثْتُموها » غير مدغمة . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي « أورِتّموها » مدغمة ، وكذلك قرؤوا في (الزخرف : ٧٢) قال

أبو علي : من ترك الادغام ، فلتباين مخرج الحرفين ، ومن أدغم ، فلأن التاء والثاء مهموستان متقاربتان . وفي معنى « أورثتموها » أربعة أقوال .

أحدها : ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فأما الكافر فانه يرث المؤمنَ منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة »[١] فذلك قوله : (أورثتموها بما كنتم تعملون) . وقال بعضهم : لما سمى الكفار أمواتاً بقوله : (أمواتٌ غير أحياء) [النحل : ٢١] . وسمى المؤمنين أحياءً بقوله : (لتنذر من كان حياً) [يس : ٧٠][٢] أورث الأحياء الموتى .

والثاني : أنهم أورثوها عن الأعمال ، لأنها جُعلت جزاءً لأعمالهم ، وثواباً عليها ، إذ هي عواقبها ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : أن دخول الجنة برحمة الله ، واقتسامَ الدرجات بالأعمال . فلما كان يفسَّر نيلها لا عن عوض ، سميت ميراثاً . والميراث : ما أخذته عن غير عوض .

والرابع : أن معنى الميراث هاهنا : أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث .

---

(١) « الطبري » ٦/١٨ من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أولئك هم الوارثون) . وكذلك أورده ابن كثير ٣/٢٣٩ من رواية ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً . ورواه أحمد في « المسند » بنحوه ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠/٣٩٩ وذكر رواية أخرى له ، ثم قال : رواه أحمد ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح .

(٢) كذا الأصل « لتنذر » بالتاء ، وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، وأما قراءة حفص ، فبالياء « لينذر » .

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً) أي : من العذاب ؛ وهذا سؤال تقرير وتعيير . (قالوا نعم) . قرأ الجمهور بفتح العين في سائر القرآن ، وكان الكسائي يكسرها . قال الأخفش : هما لغتان .

قوله تعالى : (فأذَّن مؤذِّن بينهم) أي : نادى منادٍ . (أن لعنةُ الله) قرأ ابن كثير في رواية قنبل ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « أنْ لعنةُ الله) خفيفة النون ساكنة . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « أنّ » بالتشديد ، « لعنةَ الله » بالنصب . قال الأخفش : و « أنْ » في قوله : (أن تلكم الجنة) [الاعراف : ٤٣] وقوله : (أن لعنةُ الله) ، وقوله : (أن الحمد لله) [يونس : ١٠] ، و : (أن قد وجدنا) ، هي « أنّ » الثقيلة خففت .

قال الشاعر :

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ (١)

(١) قائله الأعشى ، وهو في ديوانه ٥٩ ، وسيبويه ١/٢٨٢ ، ٤٤٠ ، ٤٨٠ - ٢/١٢٣ ، و « الطبري » : ١٢/٤٤٤ ، و « أمالي الشجري » : ٢/٢ ، و « الانصاف » : ٨٩ ، و « الخزانة » : ٣/٥٤٧ - ٤/٣٥٦ . وهـذا البيت أنشده هكذا سيبويه ، وتبعه النحاة ، وهو ملفق من بيتين ، يقول الأعشى في قصيدته :

إِمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لا نِعَالَ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَنْتَعِلُ
في فتية كسيوف الهند قد علموا أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الحِيلَةِ الحِيَلُ

وأنشد أيضاً :

أُكاشِرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلاَنَا عَلَى مَا سَاءَ صَاحِبَهُ حَرِيْصُ[(١)]

ومعناه : أنه كلانا ؛ وتكون « أن قد وجدنا » في معنى : أي . قال ابن عباس : والظالمون هاهنا : الكافرون .

قوله تعالى : (الذين يصدّون عن سبيل الله) أي : أذن المؤذن أن لعنة الله على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، وهو الإسلام . (ويبغونها عوجاً) مفسَّر في (آل عمران : ٩٩) . (وهم بالآخرة) أي : وهم بِكَوْن الآخرة كافرون .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وبينهما حجاب) أي بين الجنة والنار حاجز ، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله : (فضرب بينهم بسور له باب) [الحديد : ١٣] ، فسمي هذا السور بالأعراف لارتفاعه . قال ابن عباس : الأعراف : هو السور الذي بين الجنة والنار ، له عرف كعرف الديك . وقال أبو هريرة : الأعراف : جبال بين الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يعني : على ذراها ، خِلقتها كخِلقة عرف الديك . قال اللغويون : الأعراف عند العرب : كل ماارتفع من الأرض وعلا ؛ يقال لكل عالٍ : عُرف ، وجمعه : أعراف .

---

(١) البيت غير منسوب في « سيبويه » ١/٤٤٠ ، و « الانصاف » لابن الأنباري : ٨٩ ، ١٨٣ ، و « أمالي ابن الشجري » ١/١٨٨ . وقوله : أكاشره : أضاحكه .

قال الشاعر :

كلُّ كِنازٍ لَحْمُهُ نِيَافِ كالعَلَمِ المُوفي على الأَعْرافِ [١]

وقال الآخر :

وَرِثْت بِنَاءَ آباءٍ كِرَامٍ عَلَوْا بالمَجْدِ أَعْرافَ البِنَاءِ

وفي « أصحاب الأعراف » قولان .

أحدهما : أنهم من بني آدم ، قاله الجمهور . وزعم مقاتل أنهم من أمة محمد ﷺ خاصة . وفي أعمالهم تسعة أقوال .

أحدها : أنهم قوم قُتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ، ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله ، وهذا مروي عن النبي ﷺ [٢] .

والثاني : أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تبلغ بهم حسناتهم دخول الجنة ، ولا سيئاتهم دخول النار ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، والشعبي ، وقتادة .

والثالث : أنهم أولاد الزنا ، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس .

والرابع : أنهم قوم صالحون فقهاء علماء ، قاله الحسن ، ومجاهد ؛ فعلى هذا يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة .

---

(١) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » : ١/٢١٥ ، و « الطبري » : ١٢/٤٥٠ ، و « غريب القرآن » : ١٦٨ . و « اللسان » : نوف . والكناز : المجتمع اللحم القويه ، والنياف : الطويل ، والعلم : الجبل .

(٢) « الطبري » : ١٢/٤٥٨ ، وفيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني وهو ضعيف ، وأورده ابن كثير في « التفسير » ٢/٢١٦ عن سعيد بن منصور ، ثم قال : ورواه ابن مردويه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به .

والخامس : أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم ، أو أمهاتهم دون آبائهم ، رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم .

والسادس : أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدّلوا دينهم ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والسابع : أنهم أنبياء ، حكاه ابن الأنباري .

والثامن : أنهم أولاد المشركين ، ذكره المنجوفي في تفسيره .

والتاسع : أنهم قوم عملوا لله ، لكنهم راؤَوا في عملهم ، ذكره بعض العلماء .

والقول الثاني : أنهم ملائكة ، قاله أبو مجلز ، واعتُرض عليه ، فقيل : إنهم رجال ، فكيف تقول : ملائكة ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا باناث . وقيل : معنى قوله : (وعلى الأعراف رجال) أي : على معرفة أهل الجنة من أهل النار ، ذكره الزجاج ، وابن الأنباري . وفيه بُعد وخلاف للمفسرين .

قوله تعالى : (يعرفون كلاً بسيماهم) أي : يعرف أصحابُ الأعراف أهل الجنة وأهل النار . وسيما أهل الجنة : بياض الوجوه ، وسيما أهل النار : سواد الوجوه ، وزرقة العيون . والسيما : العلامة . وإنما عرفوا الناس ، لأنهم على مكانٍ عالٍ يشرفون فيه على أهل الجنة والنار . (ونادَوا) يعني : أصحاب الأعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) . وفي قوله : (لم يدخلوها وهم يطمعون) قولان .

أحدها : أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يُذهَب بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها ، هذا قول السدي .

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا صرفت أبصارهم) يعني أصحاب الأعراف . والتلقاء : جهة اللقاء ، وهي جهة المقابلة . وقال أبو عبيدة : تلقاء أصحاب النار ، أي : حيالهم .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم) روى أبو صالح عن ابن عباس قال : ينادون : ياوليد بن المغيرة ، ياأبا جهل بن هشام ، ياعاص بن وائل ، ياأمية بن خلف ، ياأُبَيّ بن خلف ، ياسائر رؤساء الكفار ، ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا المال والولد . (وما كنتم تستكبرون) أي : تتعظّمون عن الإيمان .

﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) فيه قولان .

أحدها : أن أهل النار أقسموا أن أهل الأعراف داخلون النار معنا ، وأن الله لن يدخلهم الجنة ، فيقول الله لأهل النار : (أهؤلاء) يعني أهل الأعراف (الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة) رواه وهب بن منبه عن ابن عباس . قال حذيفة : بينا أصحاب الأعراف هنالك ، اطّلع عليهم ربهم فقال لهم : « ادخلوا الجنة فاني قد غفرت لكم »[1] .

والثاني : أن أهل الأعراف يرون في الجنة الفقراء والمساكين الذين كان الكفار يستهزؤون بهم ، كسلمان ، وصهيب ، وخبّاب ، فينادون الكفار : (أهؤلاء

(١) « الطبري » : ٤٥٢/١٢ .

الذين أقسمتم) وأنتم في الدنيا (لاينالهم الله برحمة) قاله ابن السائب . فعلى هذا ينقطع كلام أهل الأعراف عند قوله : (برحمة) ، ويكون الباقي من خطاب الله لأهل الجنة . وقد ذكر المفسرون في قوله : (ادخلوا الجنة) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف ، وقد ذكرناه .

والثاني : [أن] يكون خطاباً من الله لأهل الجنة .

والثالث : : أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة ، ذكرهما الزجاج . فعلى هذا الوجه الأخير ، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة : (ادخلوا الجنة) :اعلوا إلى القصور المشرفة ، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة ، لأنهم قد رأوهم في الجنة . وروى مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال : يؤتى بأصحاب الأعراف إلى نهر يقال له : الحياة ، عليه قضبان الذهب مكلّلة باللؤلؤ ، فيُغمسون فيه ، فيخرجون ، فتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، ويقال لهم : تمنّوا ماشئتم ، ولكم سبعون ضِعفاً ، فهم مساكين أهل الجنة .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) قال ابن عباس : لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة ، طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس ، فقالوا : يارب ، إن لنا قرابات من أهل الجنة ، فائذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم ، فنظروا إليهم وإلى ماهم فيه من النعيم فعرفوهم . ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم ، قد اسودّت وجوههم وصاروا خلقاً آخر ، فنادى أصحابُ النار أصحاب الجنة بأسمائهم ، وأخبروهم بقراباتهم ، فينادي الرجل أخاه : ياأخي قد احترقتُ فأغثني ؛

فيقول : (إن الله حرّمهما على الكافرين) . قال السدي : عنى بقوله : (أو مما رزقكم الله) الطعام . قال الزجاج : أعلمَ الله عز وجل أن ابن آدمَ غيرُ مستغنٍ عن الطعام والشراب ، وإن كان معذّباً .

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً) قال ابن عباس : هم المستهزئون . والمعنى : أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم . وقال أبو رَوْق : دينهم : عيدهم . وقال قتادة : (لهواً ولعباً) أي : أكلاً وشرباً . وقال غيره : هو مازيّنه الشيطان لهم من تحريم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، والمكاء ، والتصدية ، ونحو ذلك من خصال الجاهلية .

قوله تعالى : (فاليوم ننساهم) قال الزجاج : أي : نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا . و « ما » نسق على « كما » في موضع جر . والمعنى : وكجحدهم . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون المعنى : فاليوم نتركهم في النار على علم منا تركَ ناسٍ غافلٍ كما استعملوا في الإعراض عن آياتنا وهم ذاكرون مايستعمله من نسي وغفل .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب) يعني القرآن . (فصّلناه) أي : بيّنّاه

بإيضاح الحق من الباطل . وقيل : فصَّلناه فصولاً مرة بتعريف الحلال ، ومرة بتعريف الحرام ، ومرة بالوعد ، ومرة بالوعيد ، ومرة بحديث الأمم .

وفي قوله : (على علم) قولان .

أحدهما : على علم منا بما فصَّلناه . والثاني : على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه . وقرأ ابن السميفع ، وابن محيصن ، وعاصم ، والجحدري ، ومعاذ القارئ : « فضَّلناه » بضاد معجمة .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) قال ابن عباس : تصديق ما وُعدوا في القرآن . (يوم يأتي تأويله) وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه) أي : تركوه (من قبلُ) في الدنيا (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي : بالبعث بعد الموت .

قوله تعالى : (أو نُرَدُّ) قال الزجاج : المعنى : أو هل نُردُّ . وقوله : (فنعملَ) منصوب على جواب الفاء للاستفهام .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) اختلفوا أي يوم بدأ بالخلق على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم السبت . روى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي ، فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر [من] يوم الجمعة [في] آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل »[1] ، وهذا اختيار محمد بن إسحاق . قال ابن الأنباري : وهذا إجماع أهل العلم .

والثاني : يوم الأحد ، قاله عبد الله بن سلام ، وكعب ، والضحاك ، ومجاهد ، واختاره ابن جرير الطبري ، وبه يقول أهل التوراة .

والثالث : يوم الاثنين ، قاله ابن إسحاق ، وبهذا يقول أهل الإنجيل . ومعنى قوله : (في ستة أيام) أي : في مقدار ذلك ، لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها ، ولم تكن الشمس حينئذ . قال ابن عباس : مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة ، وبه قال كعب ، ومجاهد ، والضحاك ، ولا نعلم خلافاً في ذلك . ولو قال قائل : إنها كأيام الدنيا ، كان قوله بعيداً من وجهين .

أحدهما : خلاف الآثار . والثاني : أن الذي يتوهمه المتوهِّم من الإبطاء في

---

(١) « المسند » ٨٣٢٣ ، ومسلم ٢١٤٩/٤ . قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » ٦٩/١ بعد أن أورده : وهذا الحديث من غرائب « صحيح مسلم » ، وقد تكلم عليه علي بن المديني ، والبخاري وغير واحد من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب ، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي .

ستة آلاف سنة ، يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [يس : ٨٢] . فان قيل : فهلاً خلقها في لحظة ، فانه قادر ؟ فمنه خمسة أجوبه .

أحدها : أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ، ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أن التثبّت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغُ في تعظيمه عند الملائكة .

والثالث : أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قول : (كن فيكون)

والرابع : أنه علّم عباده التثبّت ، فاذا تثبّت من لايزلُ كان ذو الزّلل أولى بالتثبّت .

والخامس : أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق .

قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) قال الخليل بن أحمد : العرش : السرير ؛ وكل سرير للملك يسمى عرشاً ؛ وقلما يُجمع العرش إلا في اضطرار ؛ واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام . قال أُمية بن أبي الصلت :

مجِّدوا الله فَهْو لِلْمَجْدِ أَهْلٌ ربُّنا في السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيْرا

بالبناء الأعلى الذي سبق النّا س وسوّى فوق السَّماء سَرِيرَا

شَرْجَعاً لاينَالُهُ نَاظِرُ العَيْـ نِ تَرَى دُونَه المَلائِكَ صُوْرَا

وقال كعب : إن السموات في العرش كالقنديل معلّق بين السماء والأرض .

وروى إسماعيل بن أبي خالد عن سعد الطائي قال : العرش ياقوتة حمراء .
وإجماع السلف منعقد على أن لايزيدوا على قراءة الآية . وقد شذّ قوم فقالوا : العرش بمعنى الملك . وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوّز ، مع مخالفة الأثر ؛ ألم يسمعوا قوله تعالى : (وكان عرشه على الماء) [هود : ٧] أتراه كان المُلك على الماء ؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء ؟ وبعضهم يقول : استوى بمعنى استولى؛ ويحتج بقول الشاعر :

حتَّى استَوى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وبقول الشاعر أيضاً :

هُمَا استَوَيا بِفَضْلِهِما جَمِيْعاً عَلى عَرْشِ المُلوكِ بغَيْرِ زُورِ

وهذا منكر عند اللغويين . قال ابن الأعرابي : العرب لاتعرف استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم . قالوا : وإنما يقال : استولى فلان على كذا ، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ، ثم تمكن منه ؛ والله عز وجل لم يزل مستولياً على الأشياء ؛ والبيتان لايعرف قائلهما ، كذا قال ابن فارس اللغوي . ولو صحّا ، فلا حجة فيهما لما بيَّنَّا من استيلاء من لم يكن مستولياً . نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة .

قوله تعالى : (يغشي الليل النهار) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « يُغْشِي » ساكنة الغين خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يُغَشّي » مفتوحة الغين مشددة ؛ وكذلك قرؤوا في (الرعد : ٣) . قال الزجاج : المعنى : أن الليل يأتي على النهار فيغطيه ؛ وإنما لم يقل : ويغشي النهار الليل ، لأن في الكلام دليلاً عليه ؛ وقد قال في موضع آخر : (يكوّر الليل على النهار ، ويكوّر النهار على الليل) [الزمر : ٥] . وقال ابو علي : إنما لم يقل : يغشي

النهـار الليل ، لأنه معلوم من فحوى الكلام ، كقوله : (سرابيل تقيكم الحر) [النحل : ٨١] ، وانتصب الليل والنهـار ، لأن كل واحد منهما مفعول به . فأما الحثيث ، فهو السريع .

قوله تعالى : (والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ) قرأ الأكثرون : بالنصب فيهنَّ ، وهو على معنى : خلق السموات والشمس . وقرأ ابن عامر : « والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ » بالرفع فيهن هاهنا وفي (النحل : ١٢) ، تابعه حفص في قوله تعالى : (والنجوم مسخرات) في (النحل : ١٢) فحسب . والرفع على الاستئناف . والمسخرات : المذلَّلات لما يراد منهنَّ من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبّر لهنَّ .

قوله تعالى : (ألا له الخلق) لأنه خلقهم (والأمر) فله أن يأمر بما يشاء . وقيل : الأمر : القضاء .

قوله تعالى : (تبارك الله) فيه أربعة أقوال .

أحدها : تفاعل من البركة ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ وكذلك قال القتيبيُّ ، والزجاج . وقال أبو مالك : افتعل من البركة . وقال الحسن : تجيء البركة من قِبَله . وقال الفراء : تبارك : من البركة ؛ وهو في العربية كقولك : تقدس ربنا .

والثاني : أن تبارك بمعنى تعالى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وكذلك قال أبو العباس : تبارك : ارتفع ؛ والمتبارِك : المرتفِع .

والثالث : أن المعنى : باسمه يُتبرَّك في كل شيء ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أن معنى « تبارك » تقدس ، أي : تطهر ، ذكره ابن الأنباري أيضاً .

﴿ أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً) التضرع : التذلل والخضوع . والخُفية : خلاف العلانية . قال الحسن : كانوا يجتهدون في الدعاء ، ولا تسمع إلا همساً . ومن هذا حديث أبي موسى : « اربعوا على أنفسكم ، إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً »[١] .

وفي الاعتداء المذكور هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الاعتداء في الدعاء . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن يدعو على المؤمنين بالشر ، كالخزي واللعنة ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل . والثاني : أن يسأل مالا يستحقه من منازل الأنبياء ، قاله أبو مجلز . والثالث : أنه الجهر في الدعاء ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنه مجاوزة المأمور به ، قاله الزجاج .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) فيه ستة أقوال .

أحدها : لاتفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان . والثاني : لاتفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل . والثالث : لاتفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة . والرابع : لاتعصوا ، فيمسك الله المطر ، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها

---

(١) البخاري ٦/٩٤ ، ومسلم ٤/٢٠٧٦ . وقوله : « اربعوا على أنفسكم » : قال النووي : أي : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فان رفع الصوت إنما يفعله الانسان لبعد من يخاطبه ليسمعه . وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو سميع قريب ، وهو معكم بالعلم والاحاطة .

بالمطر والخصب . والخامس : لاتفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه . والسادس : لاتفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي .

وفي قوله : (وادعوه خوفاً وطمعاً) قولان . أحدهما : خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه . والثاني : خوفاً من الردّ وطمعاً في الإجابة .

قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) قال الفراء : رأيت العرب تؤنّث القريبة في النسب ، لايختلفون في ذلك ، فاذا قالوا : دارك منا قريب ، أو فلانة منا قريب ، من القرب والبعد ، ذكّروا وأنّثوا ، وذلك أنهم جعلوا القريب خلَفاً من المكان ، كقوله : (وما هي من الظالمين ببعيد) [هود : ٨٣] ، وقوله تعالى : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) [الأحزاب :٦٣] ، ولو أُنّث ذلك لكان صواباً . قال عروة :

عَشِيَّةَ لاعَفْرَاءُ مِنْكَ قريبةٌ فَتَدْنُو وَلا عَفْراءُ مِنْكَ بعيدُ[1]

وقال الزجاج : إنما قيل : « قريب » لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد ، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي . وقال الأخفش : جائز أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ

---

(١) « معاني القرآن » للفراء ٣٨١/١ ، و « الطبري » : ٤٨٨/١٢ ، وهو في « ديوان عروة بن حزام » وفي « تزيين الأسواق » ٨٤/١ و « سمط اللآلي » : ٤٠١ من شعر له ، صواب إنشاده على الباء :

عشية لا عفراءُ منكَ بعيــدةٌ فتسلو ولا عفراءُ منكَ قريبُ
واني لتغشـاني لذكراكِ فــترة لهـا بينَ جلدي والعظامِ دبيب

فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح) قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : « الرياح » على الجمع . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « الريح » على التوحيد . وقد يأتي لفظ التوحيد ، ويراد به الكثرة ، كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس ، ومثله : (إن الإنسان لفي خسر) [العصر : ٢] .

قوله تعالى : (نشراً) قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع : « نُشراً » بضم النون والشين ؛ أرادوا جمع نشور ، وهي الريح الطيبة الهبوب ، تهب من كل ناحية وجانب . قال أبو عبيدة : النُّشُر : المتفرقة من كل جانب . وقال أبو علي : يحتمل أن تكون النشور بمعنى المنشر ، وبمعنى المنتشر ، وبمعنى الناشر ؛ يقال : أنشر الله الريح ، مثل أحياها ، فنَشرت ، أي : حييت . والدليل على أن إنشار الريح إحياؤها قولُ الفقعسي :

وهبَّتْ له رِيحُ الجَنُوبِ وأُحْيِيَتْ له رَيْدَةٌ يُحيي المِيَاهَ نَسِيمُهَا [1]

ويدل على ذلك أن الريح قد وصفت بالموت .

قال الشاعر :

إنِّي لأَرْجُو أنْ تَمُوتَ الرِّيحُ فَأَقْعُدَ اليَوْمَ وَأَسْتَرِيحُ

والرَّيدة والريدانة : الريح . وقرأ ابن عامر ، وعبد الوارث ، والحسن البصري : « نُشْراً » بالنون مضمومة وسكون الشين ، وهي في معنى « نُشُراً » . يقال : كُتْب وكُتُب ، ورُسُل ورُسْل . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، والمفضل

---

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » : ريد ، والريدة : الريح اللينة .

عن عاصم : « نَشْراً » بفتح النون وسكون الشين . قال الفراء : النَّشْر : الريح الطيبة اللـيّنة التي تنشىء السحاب . وقال ابن الأنباري : النَّشْر : المنتشرة الواسعة الهبوب . وقال أبو علي : يحتمل النَّشْر أن يكون خلاف الطيّ ، كأنها كانت بانقطاعها كالمطويَّة . ويحتمل أن يكون معناها ماقاله أبو عبيدة في النشر : أنها المتفرقة في الوجوه ؛ ويحتمل أن يكون معناها : النشر الذي هو الحياة ، كقول الشاعر :

[حتَّى يقولَ النَّاسُ ممَّا رَأَوْا] ياعَجَباً لِلْميِّتِ النَّاشِرِ [1]

قال : وهذا هو الوجه . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وإبراهيم النخعي ، ومسروق ، ومورِّق العجلي : « نَشَراً » بفتح النون والشين . قال ابن القاسم : وفي النَّشَر وجهان .

أحدهما : أن يكون جمعاً للنشور ، كما قالوا : عَمود وعَمَد ، وإهاب وأهَب .

والثاني : أن يكون جمعاً ، واحده ناشر ، يجري مجرى قوله : غائب وغَيَبٌ ، وحافد وحَفَدٌ ؛ وكل القرّاء نوّن الكلمة . وكذلك اختلافهم في (الفرقان : ٤٨) و (النمل : ٦٣) . هذه قراءات من قرأ بالنون . وقد قرأ آخرون بالباء ؛ فقرأ عاصم إلا المفضل : « بُشْرى » بالباء المضمومة وسكون الشين مثل فُعْلى . قال ابن الأنباري : وهي جمع بشيرة ، وهي التي تبشِّر بالمطر . والأصل ضم الشين ، إلا أنهم استثقلوا الضمتين . وقرأ ابن خثيم ، وابن جذلم مثله ، إلا أنهما نوّنا الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : بضم الباء والشين ، وهذا على أنها جمع بشيرة . والرحمة هاهنا : المطر ؛ سماه رحمة لأنه كان بالرحمة . و « أقلّت » بمعنى حملت . قال الزجاج : السحاب : جمع سحابة . قال ابن فارس : سمي السحابَ لانسحابه في الهواء .

---

(١) البيت لأعشى قيس ، ديوانه : ١٨ من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينها .

قوله تعالى : (ثِقالاً) أي : بالماء . وقوله تعالى : (سقناه) ردَّ الكناية إلى لفظ السحاب ، ولفظه لفظُ واحدٍ . وفي قوله : « لبلد » قولان .

أحدهما : إلى بلد . والثاني : لإحياء بلد . والميْتُ : الذي لايُنْبَتُ فيه ، فهو محتاج إلى المطر . وفي قوله : (فأنزلنا به) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الكناية ترجع إلى السحاب . والثاني : إلى المطر ، ذكرهما الزجاج . والثالث : إلى البلد ، ذكره ابن الأنباري . فأما هاء (فأخرجنا به) فتحتمل الأقوال الثلاثة .

قوله تعالى : (كذلك نخرج الموتى) أي : كما أحيينا هذا البلد . وقال مجاهد : نحيي الموتى بالمطر كما أحيينا البلد الميْت به . قال ابن عباس : يرسل الله تعالى بين النفختين مطراً كمني الرجال ، فينبت الناس به في قبورهم كما نبتوا في بطون أُمهاتهم .

قوله تعالى : (لعلكم تذكَّرون) قال الزجاج : لعل : ترجٍ . وإنما خوطب العباد على مايرجوه بعضهم من بعض ؛ والمعنى : لعلكم بما بيَّناه لكم تستدلُّون على توحيد الله ، وأنه يبعث الموتى .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (والبلد الطيب) يعني الأرضَ الطيبةَ التربة ، (يخرج نباته) وقرأ ابن أبي عبلة : « يُخرِج » بضم الياء وكسر الراء ، « نباتَه » بنصب التاء ، (والذي خبُث لايخرج) كذلك أيضاً . وقد روى أبان عن عاصم : « لايُخرِج » بضم الياء وكسر الراء . والمراد بالذي خبث : الأرض السبخة .

قوله تعالى : (إلا نكدا) قرأ الجمهور : بفتح النون وكسر الكاف . وقرأ

أبو جعفر : « نَكَداً » بفتح الكاف . وقرأ مجاهد ، وقتادة ، وابن محيصن : « نَكْداً » باسكان الكاف . قال أبو عبيدة : قليلاً عسيراً في شدة ، وأنشد :

لاتُنْجِزُ الوَعْدَ إنْ وَعَدْتَ وإنْ أعْطَيْتَ أعْطَيْتَ تَافِهاً نَكِداً[1]

قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقَله انتفع به وبان أثره عليه ، فشُبِّه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه ؛ وعكسه الكافر .

﴿ لَقَدْ أرْسَلْنَا نُوحاً إلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ إنّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ . قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأنْصَحُ لَكُمْ وَأعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (اعبدوا الله) قال مقاتل : وحِّدوه ؛ وكذلك في سائر القصص بعدها .

قوله تعالى : (مالكم من إله غيره) قرأ الكسائي : « غيرِه » بالخفض . قال أبو علي : جعل غيراً صفة لـ « إله » على اللفظ .

قوله تعالى : (أُبلّغكم) قرأ أبو عمرو : « أُبْلِغكم » ساكنة الباء خفيفة اللام . وقرأ الباقون : « أُبَلِّغكم » مفتوحة الباء مشددة اللام .

قوله تعالى : (وأنصح لكم) يقال : نصحته ونصحت له ، وشكرته وشكرت له .

قوله تعالى : (وأعلم من الله مالا تعلمون) أي : من مغفرته لمن تاب ، وعقوبته

(١) « مجاز القرآن » ٢١٧/١ ، و « الطبري » : ٤٩٥/١٢ ، و « اللسان » : تفه .

لمن أصرَّ . وقال مقاتل : أعلمُ من نزول العذاب مالا تعلمونه ؛ وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم عُذِّبوا قبلهم .

﴿ أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أو عجبتم) قال الزجاج : هذه واو العطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام ، فبقيت مفتوحة . وفي الذِّكر قولان . أحدهما : الموعظة . والثاني : البيان .

وفي قوله : (على رجل منكم) قولان . أحدهما : أن « على » بمعنى : « مع » ، قاله الفراء . والثاني : أن المعنى : على لسان رجل منكم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (قوماً عمين) قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه .

﴿ وَإلَى عَادٍ أخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ أفَلاَ تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمِينٌ . أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . قَالُوا أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى عاد) المعنى : وأرسلنا إلى عاد (أخاهم هوداً) . قال الزجاج : وإنما قيل : أخوهم ، لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم . ويجوز أن يكون أخاهم لأنه من قومهم . وقال أبو سليمان الدمشقي : وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح ؛ وإنما سماه أخاهم ، لأنه كان نسيباً لهم ، وهو وهُم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام .

قوله تعالى : (إنا لنراك في سفاهة) قال ابن قتيبة : السفاهة : الجهل . وقال الزجاج : السفاهة : خِفَّة الحِلْم والرأي ؛ يقال : ثوب سفيه ، إذا كان خفيفاً . (وإنا لنظنك من الكاذبين) فكفروا به ، ظانّين ، لا مستيقنين . (قال يا قوم ليس بي سَفاهة) هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة ، فانه دفع ما سبّوه به من السفاهة بنفيه فقط .

قوله تعالى : (وأنا لكم ناصح أمين) قال الضحاك : أمين على الرسالة . وقال ابن السائب : كنت فيكم أميناً قبل اليوم .

قوله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) ذكّرهم النعمة حيث أهلك مَن كان قبلهم ، وأسكنهم مساكنهم . (وزادكم في الخلق بسطة) أي : طولاً وقوّة . وقال ابن عباس : كان أطولُهم مائةَ ذراع ، وأقصرُهم ستينَ ذراعاً . قال الزجاج : وآلاء الله : نعمه ؛ واحدها : إلى . قال الشاعر :

أبيَضُ لا يَرْهَبُ الهُزَالَ ولاَ يَقْطَعُ رِحْماً ولاَ يَخُونُ إلى[1]

ويجوز أن يكون واحدها « إلْياً » ، « وألى » .

قوله تعالى : (فائتنا بما تعدنا) أي : من نزول العذاب (إن كنت من الصادقين) في أن العذاب نازل بنا . وقال عطاء : في نبوّتك وإرسالك إلينا .

(١) البيت لأعشى قيس ديوانه : ٢٣٥ ، و « مجاز القرآن » : ٢١٨/١ ، و « اللسان » : ألا .

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال قد وقع) أي : (وجب عليكم من ربكم رجس وغضب) قال ابن عباس : عذاب وسخط . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرجز ؛ بالزاي ، والرجس ؛ بالسين : بمعنى واحد ، قلبت السين زاياً .

قوله تعالى : (أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعني : الأصنام.

وفي تسميتهم لها قولان . أحدهما : أنهم سمَّوها آلهة . والثاني : أنهم سمَّوها بأسماء مختلفة . والسلطان : الحجة . (فانتظروا) نزول العذاب (إني معكم من المنتظرين) الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى ثمود) قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلَّة مائها . قال ابن فارس : الثَّمد : الماء القليل الذي لا مادة له .

قوله تعالى : (هذه ناقة الله) في إضافتها إليه قولان . أحدهما : أن ذلك للتخصيص والتفضيل ، كما يقال : بيت الله . والثاني : لأنها كانت بتكوينه من غير سبب .

قوله تعالى : (لكم آية) أي : علامة تدل على قدرة الله ؛ وإنما قال : « لكم » لأنهم هم الذين اقترحوها ، وإن كانت آية لهم ولغيرهم .

وفي وجه كونها آية قولان .

أحدهما : أنها خرجت من صخرة ملساء ، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل ، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها .

والثاني : أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم ، وتسقيهم اللبن مكانه .

قوله تعالى : (فذروها تأكل في أرض الله) قال ابن الأنباري : ليس عليكم مؤنتها وعلفها . و « تأكل » مجزوم على جواب الشرط المقدر ، أي : إن تذروها تأكل .

قوله تعالى : (ولا تمسوها بسوء) ، أي : لا تصيبوها بعقر .

قوله تعالى : (وبوَّأكم في الأرض) أي : أنزلكم ؛ يقال : تبوأ فلان منزلاً : إذا نزله . وبوَّأتُهُ : أنزلته . قال الشاعر :

وبُوِّئتْ في صَمِيمِ مَعْشَرِهَا فَتَمَّ في قَوْمِها مُبَوَّؤُهَا[1]

أي : أنزلت من الكريم في صميم النسب ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : (تتخذون من سهولها قصوراً) السهل : ضد الحزن . والقصر :

---

(١) البيت لابراهيم بن هَرْمة في « مجاز القرآن » : ٢١٨/١ ، و « اللسان » : بوأ ، و « شواهد المغني » : ٢٨٠ .

ما شُيِّد وعلا من المنازل . قال ابن عباس : اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ، ونقبوا في الجبال للشتاء . قال وهب بن منبه : كان الرجل منهم يبني البنيان ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، ثم يجدِّده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ثم يجدده ، فتمر عليه مائة سنة ، فيخرب ؛ فأضجرهم ذلك ، فاتخذوا من الجبال بيوتاً.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقرأ ابن عامر (وقال الملأ) بزيادة واو ؛ وكذلك هي في مصاحفهم . ومعنى الآية : تكبَّروا عن عبادة الله . (للذين استضعفوا) يريد : المساكين . (لمن آمن منهم) بدل من قوله «للذين استضعفوا» لأنهم المؤمنون . (أتعلمون أن صالحاً مرسَل) هذا استفهام إنكار .

﴿ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فعقروا الناقة) أي : قتلوها . قال ابن قتيبة : والعقر يكون بمعنى : القتل ، ومنه قوله عليه السلام عند ذكر الشهداء : « من عقر جواده »[1] وقال ابن إسحاق : كَمَن لها قاتلها في أصل شجرة فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة

(١) رواه ابن ماجه ٢/٩٣٤ عن عمرو بن عبسة قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يارسول الله أي الجهاد أفضل ؟ قال : « من أهريق دمه وعقر جواده » قال في « الزوائد » : إسناده ضعيف لضعف محمد بن ذكوان .

ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكسر عُرقوبها ، ثم نحرها . قال الأزهري : العقر عند العرب : قطع عرقوب البعير ، ثم جعل العقر نحراً ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .

قوله تعالى : (وعَتَوا) قال الزجاج : جاوزوا المقدار في الكفر . قال أبو سليمان: عتوا عن اتّباع أمر ربهم .

قوله تعالى : (بما تعدنا) أي : من العذاب .

قوله تعالى : (فأخذَتهم الرجفة) قال الزجاج : الرجفة : الزلزلة الشديدة .

قوله تعالى : (فأصبحوا في دارهم) أي : في مدينتهم . فان قيل : كيف وحَّد الدار هاهنا، وجمعها في موضع آخر ، فقال : (في ديارهم) [هود : ٦٧] ؛ فعنه جوابان ، ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنه أراد بالدار : المعسكر ، أي : فأصبحوا في معسكرهم . وأراد بقوله : في ديارهم : المنازل التي ينفرد كل واحد منها بمنزل .

والثاني : أنه أراد بالدار : الديار ، فاكتفى بالواحد من الجميع ، كقول الشاعر:

كُلُوا في نِصْفِ بِطْنِكُم تَعِيشُوا

وشواهد هذا كثيرة في هذا الكتاب .

قوله تعالى : (جاثمين) قال الفراء : أصبحوا رماداً جاثماً . وقال أبو عبيدة : أي : بعضهم على بعض جُثوم . والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للابل . وقال ابن قتيبة : الجثوم : البروك على الرُكَب . وقال غيره : كأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال . وقال الزجاج : أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم . قال المفسرون : معنى « جاثمين » : بعضهم على بعض ، أي : إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَاتُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ . وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فتولى عنهم) يقول : انصرف صالح عنهم بعد عقر الناقة ، لأن الله تعالى أوحى إليه أنِ اخرُجْ من بين أظهرهم ، فاني مهلكهم . وقال قتادة : ذكر لنا أن صالحاً أسمع قومَه كما أسمع نبيكم قومَه ، يعني : بعد موتهم .

قوله تعالى : (أتأتون الفاحشة) يعني إتيان الرجال . (ما سبقكم بها من أحد) قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكَر على ذكَر في الدنيا حتى كان قوم لوط . وقال بعض اللغويين : لوط : مشتق من لطت الحوض : إذا ملسته بالطين . قال الزجاج وهذا غلط ، لأنه اسم أعجمي كاسحاق ، ولا يقال : إنه مشتق من السحق وهو البعد .

قوله تعالى : (إنكم لتأتون الرجال) هذا استفهام إنكار . والمسرف : المجاوز ما أُمر به . وقوله تعالى : (أخرجوهم من قريتكم) يعني : لوطاً وأتباعه المؤمنين (إنهم أُناس يتطهرون) قال ابن عباس : يتنزّهون عن أدبار الرجال وأدبار النساء .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فأنجيناه وأهله) في أهله قولان .

أحدهما : ابنتاه . والثاني : المؤمنون به . (إلا امرأته كانت من الغابرين) أي : الباقين في عذاب الله تعالى . قال أبو عبيدة : وإنما قال : « من الغابرين » لأن صفة النساء مع صفة الرجال تُذكَّر إذا أُشرك بينهما .

قوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً) قال ابن عباس : يعني : الحجارة . قال مجاهد : نزل جبريل ، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط ، ورفعها ، ثم قلبها ، فجعل أعلاها أسفلها ، ثم أُتبعوا بالحجارة .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى مدين) قال قتادة : مدين : ماء كان عليه قوم شعيب ، وكذلك قال الزجاج ، وقال : لا ينصرف ، لأنه اسم البقعة . وقال مقاتل : مدْيَن: هو ابن ابراهيم الخليل لصلبه . وقال أبو سليمان الدمشقي : مدين : هو ابن مديان بن ابراهيم ، والمعنى : أرسلنا إلى ولد مدين ، فعلى هذا : هو اسم قبيلة . وقال بعضهم : هو اسم للمدينة . فالمعنى : وإلى أهل مدين . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : مدين اسم أعجمي . فان كان عربياً ، فالياء زائدة ، من قولهم : مدن بالمكان : إذا أقام به .

قوله تعالى : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قال الزجاج : البَخْسُ : النقص والقلَّة ؛ يقال : بَخَسْتُ أَبْخَسُ ؛ بالسين ، وبخصت عينه ، بالصاد لاغير .

(ولا تفسدوا في الأرض) أي : لاتعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل ، وإرسال الرسل .

قوله تعالى : (إن كنتم مؤمنين) أي : مصدّقين بما أخبرتكم عن الله .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تقعدوا بكل صراط) أي : بكل طريق (توعِدون) مَن آمن بشعيب بالشر ، وتخوّفونهم بالعذاب والقتل . فان قيل : كيف أفرد الفعل ، وأخلاه من المفعول ؛ فهلاّ قال : توعِدون بكذا ؟ فالجواب : أن العرب إذا أخْلَتْ هذا الفعل من المفعول ، لم يدل إلا على شر ؛ يقولون : أوعدت فلاناً . وكذلك إذا أفردوا : وعدت من مفعول ، لم يدل إلا على الخير . قال الفراء : يقولون : وعدته خيراً ، وأوعدته شراً ؛ فاذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا : وعدته : في الخير ، وأوعدته : في الشر ؛ فاذا جاؤوا بالباء ، قالوا : وعدته بالشر . وقال الراجز :

أَوْعَدَنِي بِالسِّجْنِ والأَدَاهِمِ

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : إذا أرادوا أن يذكروا ماتهدَّدوا به مع أوعدت ، جاؤوا بالباء ، فقالوا : أوعدته بالضرب ، ولا يقولون : أوعدته الضرب . قال السدي : كانوا عشّارين . وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطريق .

قوله تعالى : (وتصدون عن سبيل الله) أي : تصرفون عن دين الله من آمن به . (وتبغونها عوجاً) مفسر في (آل عمران : ٩٩) .

قوله تعالى : (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم) قال الزجاج : جائز أن يكون المعنى : جعلكم أغنيـاء بعد أن كنتم فقراء ؛ وجائز أن يكون : كثر عددكم بعد أن كنتم قليلاً ، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار ، فكثّرهم .

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) أي : إن اختلفتم في رسالتي ، فصرتم فريقين ، مصدِّقين ومكذِّبين (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) بتعذيب المكذِّبين ، وإنجاء المصدِّقين (وهو خير الحاكمين) لأنه العدل الذي لايجور .

قوله تعالى : (أو لتعودُنَّ في ملتنا) يعنون ديننا ، وهو الشرك . قال الفراء : جعل في قوله : « لتعودن » لاماً كجواب اليمين ، وهو في معنى شرط ؛ ومثله في الكلام : والله لأضربنَّك أو تُقِرَّ لي ، فيكون معناه معنى : « إلا » ، أو معنى : « حتى » . (قال أو لو كنا كارهين) أي : أوَتجبروننا على ملتكم إن كرهناها ؟! والألف للاستفهام . فان قيل : كيف قالوا : « لتعودن » ، وشعيب لم يكن في كفر قط ، فيعود إليه ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً ، ثم آمن ، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه ، وغلَّبوا لفظهم على لفظه ، لكثرتهم ، وانفراده .

والثاني : أن المعنى : لتصيرُنّ إلى ملتنا ؛ فوقع العود على معنى الابتداء ، كما يقال : قد عاد عليَّ من فلان مكروه ، أي : قد لحقني منه ذلك ؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه . قال الشاعر :

فانْ تكنِ الأيَّامُ أحسنَّ مرةً إليَّ فقد عادتْ لهُنَّ ذُنوبُ

وقد شرحنا هذا في قوله : (وإلى الله تُرجع الأمور) في سورة (البقرة : ٢١٠) ، وقد ذكر معنى الجوابين الزجاج ، وابن الأنباري .

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّـنَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ . وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم) وذلك أن القوم كانوا يدّعون أن الله أمرهم بما هم عليه ، فلذلك سمّوه ملّةً . (وما يكون لنا أن نعود فيها) أي : في الملة ، (إلا أن يشاء الله) أي : إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها ، (وسع ربُّنا كل شيء علماً) قال ابن عباس : يعلم مايكون قبل أن يكون .

قوله تعالى : (على الله توكلنا) أي : فيما توعدتمونا به ، وفي حراستنا عن الضلال . (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) قال أبو عبيدة : احكم بيننا ، وأنشد :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُولاً بأنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ (١)

قال الفراء : وأهل عُمان يسمون القاضي : الفاتح والفتَّاح . قال الزجاج : وجائز أن يكون المعنى : أظهِر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وينكشف ؛ فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم .

قوله تعالى : (كأن لم يَغْنَوْا فيها) فيه أربعة أقوال .

أحدها : كأن لم يعيشوا في دارهم ، قاله ابن عباس ، والأخفش . قال حاتم طيىء :

غَنِينَا زَمَاناً بالتَّصَعْلُكِ وَالغِنَى فَكُلاًّ سَقَانَاه بكأسَيْهِما الدَّهْرُ (٢)

فَمَا زَادَنَا بَغْياً عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا،ولا أَزْرَى بأحْسَابِنَا الفَقْرُ (٣)

قال الزجاج : معنى غنينا : عشنا . والتصعلك : الفقر ، والعرب تقول للفقير : الصعلوك .

والثاني : كأن لم يتنعَّموا فيها ، قاله قتادة .

والثالث : كأن لم يكونوا فيها ، قاله ابن زيد ، ومقاتل .

---

(١) « مجاز القرآن » : ١ / ٢٢٠ ، و « اصلاح المنطق » : ١١٢ ، و « الطبري » : ١٢/٥٦٤ ، و « السمط » : ٩٢٧ و « القرطبي » : ١٣ / ٩٤ ، و « اللسان » و « التاج » فتح . وبنو عصم : رهط عمرو بن معديكرب الزبيدي . والبيت مختلف في عزوه ، انظر تعليق الراجكوتي في « سمط اللآلي » : ٩٢٧ .

(٢) البيتان في « ديوان حاتم » : ١١٩ ، و « الأغاني » : ١٧/٢٩٦، و« خزانة الأدب » للبغدادي ٢/١٦٣ .

(٣) في الديوان و « الخزانة » : « فما زادنا بأواً » والبأو : الكبر والفخر .

والرابع : كأن لم ينزلوا فيها ، قاله الزجاج . قال الأصمعي : المغاني : المنازل ؛ يقال : غنينا بمكان كذا ، أي : نزلنا به . وقال ابن قتيبة : كأن لم يقيموا فيها ، ومعنى : غنينا بمكان كذا : أقمنا . قال ابن الأنباري : وإنما كرر قوله : (الذين كذبوا شعيباً) للمبالغة في ذمهم ؛ كما تقول : أخوك الذي أخذ أموالنا ، أخوك الذي شتم أعراضنا .

قوله تعالى : (فتولى عنهم) فيه قولان .

أحدهما : أعرض . والثاني : انصرف . (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي) قال قتادة : أسمع شعيب قومَه ، وأسمع صالح قومَه ؛ كما أسمع نبيكم قومَه يوم بدر ؛ يعني : أنه خاطبهم بعد الهلاك . (فكيف آسى) أي : أحزن . وقال ابن إسحاق : أصاب شعيباً على قومه حزنٌ شديد ، ثم عاتب نفسه ، فقال : كيف آسى على قوم كافرين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية) قال الزجاج : يقال لكل مدينة : قرية ، لاجتماع الناس فيها . وقال غيره : في الآية اختصار ، تقديره : فكذبوه . (إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) وقد سبق تفسير البأساء والضراء في (الأنعام : ٤٢) ، وتفسير التضرع في هذه السورة [الاعراف : ٥٥] . ومقصود الآية : إعلام النبي ﷺ بسنَّة الله في المكذّبين ، وتهديد قريش .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ثم بَدّلنا مكان السيئةِ الحسنةَ) فيه قولان .

أحدهما : أن السيئة : الشدة ؛ والحسنة : الرخاء ، قاله ابن عباس .

والثاني : السيئة : الشر ؛ والحسنة : الخير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (حتى عَفوا) قال ابن عباس : كثروا ، وكثرت أموالهم . (وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء) فنحن مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم ، يعني : أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر ، وليس بعقوبة . (فأخذناهم بغتة) أي : فجأة بنزول العذاب (وهم لايشعرون) بنزوله ، حتى أهلكهم الله .

قوله تعالى : (لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض) قال الزجاج : المعنى : أتاهم الغيث من السماء ، والنبات من الأرض ، وجعل ذلك زاكياً كثيراً .

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أو أمن أهل القرى) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع : (أوْ أمن أهلُ) باسكان الواو . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : (أوَ أمن) بتحريك الواو . وروى ورش عن نافع : (أوَامِنَ) يدغم الهمزة ، ويلقي حركتها على الساكن .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (أو لم يهد للذين) وقرأ يعقوب : « نَهدِ » بالنون ، وكذلك في (طه : ١٢٨) ، و (السجدة : ٢٦) . قال الزجاج : من قرأ بالياء ، فالمعنى : أولم يبيّن الله لهم . ومن قرأ بالنون ، فالمعنى : أولم نبيّن . وقوله تعالى : (ونطبع) ليس بمحمول على « أصبناهم » ، لأنه لو حمل على « أصبناهم » لكان : ولطبعنا . وإنما المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي ، ولفظه لفظ المستقبل ، كما قال : (أن لو نشاء) ، والمعنى : لو شئنا . وقال ابن الأنباري : يجوز أن يكون معطوفاً على : أصبنا ، إذ كان بمعنى نُصيب ؛ فوُضع الماضي في موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال ، كما قال : (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) [الفرقان : ١٠] ، أي : إن يشأ ، يدل عليه قوله : (ويجعل لك قصوراً) ، قال الشاعر :

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً ... مِنِّي، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا[1]

أي : يدفنوا .

قوله تعالى : (فهم لايسمعون) أي : لايقبلون ، ومنه : « سمع الله لمن حمده » ، قال الشاعر :

دَعَوْتُ اللهَ حَتَّى خِفْتُ أَنْ لا ... يَكُونَ اللهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ[2]

---

(١) البيت لقعنب بن أم صاحب ، وهي أمه ، واسم أبيه ضمرة ، أحد بني عبد الله بن غطفان ، من شعراء العصر الأموي . وهو في « الحماسة » : ١٢/٤ ، و « شواهد المغني » للسيوطي : ٣٢٦ .

(٢) البيت غير منسوب في « اللسان » : سمع .

قوله تعالى : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) فيه خمسة أقوال .

أحدها : فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذّبون به يوم أقروا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم ، هذا قول أُبَيّ بن كعب .

والثاني : فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذّبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم ، فآمنوا كرهاً حيث أقروا بالألسن ، وأضمروا التكذيب ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثالث : فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل هلاكهم ، هذا قول مجاهد .

والرابع : فما كانوا ليؤمنوا بما كذّب به أوائلهم من الأمم الخالية ، بل شاركوهم في التكذيب ، قاله يمان بن رباب .

والخامس : فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذّبوا قبل رؤيتها .

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما وجدنا لأكثرهم) قال مجاهد : يعني : القرون الماضية . (من عهد) قال أبو عبيدة : أي : وفاء . قال ابن عباس : يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم حين أخرجهم من صلب آدم . وقال الحسن : العهد هاهنا : ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً .

قوله تعالى : (وإن وجدنا) قال أبو عبيدة : وما وجدنا أكثرهم إلا الفاسقين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ثم بعثنا من بعدهم) يعني : الأنبياء المذكورين .

قوله تعالى : (فظلموا بها) قال ابن عباس : فكذّبوا بها . وقال غيره : فجحدوا بها .

قوله تعالى : (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) « على » بمعنى الباء . قال الفراء : العرب تجعل الباء في موضع « على » ؛ تقول : رميت بالقوس ، وعلى القوس ، وجئت بحال حسنة ، وعلى حال حسنة . وقال أبو عبيدة : « حقيق » بمعنى : حريص . وقرأ نافع ، وأبان عن عاصم : (حقيق عليَّ) بتشديد الياء وفتحها ، على الاضافة . والمعنى : واجب عليَّ .

قوله تعالى : (قد جئتكم ببينة) قال ابن عباس : يعني : العصا . (فأرسل معي بني إسرائيل) أي : أطلق عنهم ؛ وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة . (فاذا هي ثعبان مبين) قال أبو عبيدة : أي : حية ظاهرة . قال الفراء : الثعبان : اعظم الحيات ، وهو الذكر . وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس : الثعبان : الحية الذكر .

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

قوله تعالى : (ونزع يده) قال ابن عباس : أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها، فاذا هي تبرق مثل البرق ، لها شعاع غلب نور الشمس ، فخرُّوا على وجوههم ؛ ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت . قال مجاهد : بيضاء من غير برص .

قوله تعالى : (فماذا تأمرون) قال ابن عباس : ما الذي تشيرون به عليَّ ؟ وهذا يدل على أنه من قول فرعون ، وأن كلام الملأِ انقطع عند قوله : (من أرضكم) . قال الزجاج : يجوز أن يكون من قول الملأْ ، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه ، أو خاطبوه وحده ؛ لأنه قد يقال للرئيس المطاع : ماذا ترون ؟.

قوله تعالى : (أَرْجِئْهُ) قرأ ابن كثير « أرجهؤ » مهموز بواو بعد الهاء في اللفظ . وقرأ أبو عمرو مثله ، غير أنه يضم الهاء ضمة ، من غير أن يبلغ بها الواو ؛ وكانا يهمزان : (مُرجَؤن)[التوبة:١٠٦] و (تُرجِىء) [الاحزاب: ٥١] .

وقرأ قالون والمسيّبي عن نافع « أرجهِ » بكسر الهاء، ولا يبلغ بها الياء، ولا يهمز. وروى عنه ورش : « أرجهي » يصلها بياء ، ولا يهمز بين الجيم والهاء . وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع ؛ وهي قراءة الكسائي . وقرأ حمزة : « أرجهْ » ساكنة الهاء غير مهموز ، وكذلك قرأ عاصم في غير رواية المفضل ، وقد روى عنه المفضل كسر الهاء من غير إشباع ولا همز ، وهي قراءة أبي جعفر ، وكذلك اختلافهم في سورة (الشعراء : ٣٦) . قال ابن قتيبة : أرْجِئْهُ : أخّره ؛ وقد يهمز ، يقال : أرجأت الشيء ، وأرجيته . ومنه قوله : (ترجي من تشاء منهن) [الاحزاب : ٥١] . قال الفراء : بنو أسد تقول : أرجيت الأمر ، بغير همز، وكذلك عامة قيس ؛ وبعض بني تميم يقولون : أرجأت الأمر ، بالهمز ، والقراء مولَعون بهمزها ، وترك الهمز أجود .

قوله تعالى : (وأرسل في المدائن) يعني مدائن مصر ، (حاشرين) أي : من يحشر السحرة إليك ويجمعهم . وقال ابن عباس : هم الشرط .

قوله تعالى : (يأتوك بكل ساحر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : (ساحرٍ) ، وفي (يونس : ٧٩) : (بكل ساحرٍ) ؛ وقرأ حمزة ، والكسائي : (سحّارٍ) في الموضعين ؛ ولا خلاف في (الشعراء : ٣٧) أنها : (سحّارٍ) .

قوله تعالى : (إن لنا لأجراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحفص عن عاصم : (إن لنا لأجراً) مكسورة الألف على الخبر ، وفي (الشعراء : ٤١) (آيِنّ) ممدودة مفتوحة الألف ، غير أن حفصاً روى عن عاصم في (الشعراء : ٤١) : (أإن) بهمزتين . وقرأ أبو عمرو : (آين لنا) ممدودة في السورتين . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بهمزتين في الموضعين .

قال أبو علي : الاستفهام أشبه بهذا الموضع ، لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر، وإنما استفهموا عنه .

قوله تعالى : (وإنكم لمن المقربين) أي : ولكم مع الأجر المنزلة الرفيعة عندي .

قوله تعالى : (سحروا أعين الناس) قال أبو عبيدة : غشّوْا أعين الناس وأخذوها . (واسترهبوهم) أي : خوّفوهم . وقال الزجاج : استدعَوا رهبتهم حتى رهبهم الناس .

قوله تعالى : (فاذا هي تلقّفُ) وقرأ عاصم : (تلقف) ساكنة اللام ، خفيفة القاف هاهنا وفي (طه : ٦٩) ، و (الشعراء : ٤٥) . وروى البزّيّ ، وابن فُلَيح عن ابن كثير : (تلقف) بتشديد التاء . قال الفراء : يقال : لقفْتُ الشيء ، فأنا ألقَفُه لَقْفاً ولَقَفاناً ؛ والمعنى : تبتلع .

قوله تعالى : (مايأفكون) أي : يكذبون ، لأنهم زعموا أنها حيّات .

قوله تعالى : (فوقع الحق) قال ابن عباس : استبان . (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر .

الإشارة إلى قصتهم

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً . أحدها : اثنان وسبعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : اثنان وسبعون ألفاً ، رُوي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل . والثالث : سبعون ، روي عن ابن عباس أيضاً . والرابع : اثنا عشر ألفاً ، قاله كعب . والخامس : سبعون ألفاً ، قاله عطاء ،

وكذلك قال وهب في رواية ، إلا أنه قال : فاختار منهم سبعة آلاف . والسادس : سبعمائة . وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه قال : كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيَّرين من سبعمائة ألف ، ثم إن فرعون اختار من السبعين الألف سبعمائة . والسابع : خمسة وعشرون ألفاً ، قاله الحسن . والثامن : تسعمائة ، قاله عكرمة . والتاسع : ثمانون ألفاً ، قاله محمد بن المنكدر . والعاشر : بضعة وثلاثون ألفاً ، قاله السدي . والحادي عشر : خمسة عشر ألفاً ، قاله ابن إسحاق . والثاني عشر : تسعة عشر ألفاً ، رواه أبو سليمان الدمشقي . والثالث عشر : أربع مائة ، حكاه الثعلبي . فأما أسماء رؤسائهم ، فقال ابن إسحاق : رؤوس السحرة ساتور ، وعاذور ، وحُطحُط ، ومُصَفَّى ، وهم الذين آمنوا ، كذا حكاه ابن ماكولا . ورأيت عن غير ابن إسحاق : سابوراً ، وعازوراً . وقال مقاتل : اسم أكبرهم شمعون . قال ابن عباس : ألقوا حبالاً غلاظاً ، وخشباً طوالاً ، فكانت ميلاً في ميل ، فألقى موسى عصاه ، فاذا هي أعظم من حبالهم وعصيهم ، قد سدت الأفق ، ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً ، فابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيِّهم ، وجعلت تأكل جميع ماقدرت عليه من صخرة أو شجرة ، والناس ينظرون ، وفرعون يضحك تجلُّداً ، فأقبلت الحيَّة نحو فرعون ، فصاح : ياموسى ، ياموسى ، فأخذها موسى ، وعرفت السحرة أن هذا من الله ، وليس هذا بسحر ، فخرُّوا سُجَّداً ، وقالوا آمنا برب العالمين فقال فرعون : إياي تعنون ؟ فقالوا : ربَّ موسى وهارون ، فأصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء . وقال وهب بن منبه : لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها ، فقتل بعضهم بعضاً ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً . وقال السدي : لقي موسى أمير السحرة ، فقال : أرأيت إن غلبتك

غداً ، أتؤمن بي ؟ فقال الساحر : لآتين غداً بسحر لايغلبه السحر ، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك . فإن قيل : كيف جاز أن يأمرهم موسى بالإلقاء ، وفعل السحر كفر ؟ فعنه ثلاثة أجوبة . أحدها : أن مضمون أمره : إن كنتم محقين فألقوا . والثاني : ألقوا على مايصح ، لا على مايفسد ويستحيل ، ذكرهما الماوردي . والثالث : إنما أمرهم بالإلقاء لتكون معجزته أظهر ، لأنهم إذا ألقوا ، ألقى عصاه فابتلعت ذلك ، ذكره الواحدي . فان قيل : كيف قال : (وأُلقي السحرة ساجدين) وإنما سجدوا باختيارهم ؟ فالجواب أنه لما زالت كل شبهة بما أظهر الله تعالى من أمره ، اضطرهم عظيم ماعاينوا إلى مبادرة السجود ، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن مارأوا من الآيات ، ذكره ابن الأنباري . قال ابن عباس : لما آمنت السحرة ، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (آمنتم به) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : « ءآمنتم به » بهمزة ومدة على الاستفهام . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أآمنتم به » فاستفهموا بهمزتين ، الثانية ممدودة . وقرأ حفص عن عاصم : « آمنتم به » على الخبر . وروى ابن الإخريط[1] عن ابن كثير : « قال فرعون وأمنتم به » فقلب همزة الاستفهام واواً ، وجعل الثانية مليَّنة بين بين . وروى قنبل عن القواس مثل رواية ابن الإخريط ، غير أنه كان يهمز بعد الواو . وقال أبو علي : همز بعد الواو ،

(١) في نسخة : أبو الاخريط .

لأن هذه الواو منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة « أَفَعَلْتُم » فحققها ولم يخففها .

قوله تعالى : (إن هذا لمكر مكرتموه) قال ابن السائب : لصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هـذا الموضع لتستولوا على مصر فتخرجوا منها أهلها (فسوف تعلمون) عاقبة ماصنعتم ، (لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو قطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى . قال ابن عباس : أول من فعل ذلك ، وأول من صلب ، فرعونُ .

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ . وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ . قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما تنقم منـا) أي : وما تكره منا شيئاً ، ولا تطعن علينا إلا لأنا آمنا . (ربنا أفرغ علينا صبراً) قال مجاهد : على القطع والصلب حتى لانرجع كفاراً (وتوفَّنا مسلمين) أي : مخلصين على دين موسى .

قوله تعالى : (أتذر موسى وقومه) هـذا إغراء من الملأ لفرعون . وفيما أرادوا بالفساد في الأرض قولان . أحدهما : قتل أبناء القبط ، واستحياء نسائهم ، كما فعلوا بني إسرائيل ، قاله مقاتل . والثاني : دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته .

قوله تعالى : (ويذرَكَ) جمهور القراء على نصب الراء ؛ وقرأ الحسن برفعها . قال الزجاج : من نصب « ويذرَكَ » نصبه على جواب الاستفهام بالواو ؛ والمعنى : أيكون منك أن تذر موسى وأن يذرك ؟ ومن رفعه جعله مستأنفاً ، فيكون المعنى : أتذر موسى وقومه ، وهو يذرك وآلهتك ؟ والأجود أن يكون معطوفاً على « أتذر » فيكون المعنى : أتذر موسى ، وأيَذَرَكَ موسى ؟ أي : أتطلق له هذا ؟ .

قوله تعالى : (وآلهتك) قال ابن عباس : كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً صغاراً ، وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا ربكم ورب هذه الأصنام ، فذلك قوله : (أنا ربكم الأعلى) [النازعات : ٢٤] . وقال غيره : كان قومه يعبدون تلك الأصنام تقرباً إليه . وقال الحسن : كان يعبد تيساً في السر . وقيل : كان يعبد البقر سراً . وقيل : كان يجعل في عنقه شيئاً يعبده . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وابن محيصن : « وإلاهتك » بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وبألف بعدها . قال الزجاج : المعنى : ويذرك وربوبيتك . وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الإلاهة : العبادة ؛ فالمعنى : ويذرك وعبادة الناس إياك . قال ابن قتيبة : من قرأ : « وإلاهتك » أراد : ويذرك والشمس التي تعبد ، وقد كان في العرب قوم يعبدون الشمس ويسمونها إلهةً . قال الأعشى :

فَمَا أَذْكُرُ الرَّهْبَ حَتَّى انْقَلَبْتُ ... قُبَيْلَ الإِلَهَةِ مِنْهَا قَرِيبَا

يعني الشمس . والرهب : ناقته . يقول : اشتغلت بهذه المرأة عن ناقتي إلى هذا الوقت .

قوله تعالى : (سَنُقَتِّلُ أبناءَهم) قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « سنقتّل » و « يقتّلون أبناءكم » [الاعراف : ١٤١] بالتشديد ،

وخففها نافع . وقرأ ابن كثير : « سَنَقْتُلُ » خفيفة ، و « يقتّلون » مشددة . وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لعلمه أنه لايقدر عليه . (وإنا فوقهم قاهرون) أي : عالون بالملك والسلطان . فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم ، فقال موسى : (استعينوا بالله واصبروا) على مايُفعل بكم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده) . وقرأ الحسن ، وهبيرة عن حفص عن عاصم : « يورّثها » بالتشديد . فأطمعهم موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم .

قوله تعالى : (والعاقبة للمتقين) فيها قولان . أحدهما : الجنة . والثاني : النصر والظفر .

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَاجِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) في هذا الأذى ستة أقوال .

أحدها : أن الأذى الأول والثاني أخذ الجزية ، قاله الحسن .

والثاني : أن الأول ذبح الأبناء ، والثاني إدراك فرعون يوم طلبهم ، قاله السدي .

والثالث : أن الأول أنهم كانوا يسخَّرون في الأعمال إلى نصف النهار ، ويرسلون في بقيته يكتسبون ، والثاني تسخيرهم جميع النهار بلا طعام ولا شراب ، قاله جويبر .

والرابع : أن الأول تسخيرهم في ضرب اللَّبِن ، وكانوا يعطونهم التبن الذي يخلطونه في الطين ؛ والثاني أنهم كلِّفوا ضرب اللَّبِن وجعلَ التبن عليهم ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن الأول قتل الأبناء ، واستحياء البنات ، والثاني تكليف فرعون إياهم مالا يطيقونه ، قاله مقاتل .

والسادس : أن الأول استخدامهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، والثاني إعادة ذلك العذاب .

وفي قوله : (من قبل أن تأتينا) قولان .

أحدها : تأتينا بالرسالة ، ومن بعد ماجئتنا بها ، قاله ابن عباس .

والثاني : تأتينا بعهد الله أنه سيخلِّصنا ،ومن بعد ما جئتنا به ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) قال الزجاج : عسى : طمع وإشفاق ، إلا أن ما يُطمِع اللهُ فيه فهو واجب .

قوله تعالى : (ويستخلفكم في الأرض) في هذا الاستخلاف قولان .

أحدهما : أنه استخلاف من فرعون وقومه . والثاني : استخلاف عن الله تعالى ، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه . وفي الأرض قولان .

أحدها : أرض مصر ،قاله ابن عباس . والثاني : أرض الشام ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فينظر كيف تعملون) قال الزجاج : أي : يراه بوقوعه منكم ، لأنه إنما يجازيهم على ما وقع منهم ، لا على ما علم أنه سيقع .

قوله تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) قال أبو عبيدة : مجازُه : ابتليناهم بالجدوب . وآل فرعون : أهل دينه وقومه . وقال مقاتل : هم أهل مصر .

قال الفراء : « بالسنين » أي : بالقحط والجدوب عاماً بعد عام . وقال الزجاج : السنون في كلام العرب : الجدوب ، يقال : مستهم السَّنة ، ومعناه : جدب السَّنة ، وشدة السَّنة . وإنما أخذهم بالضراء ، لأن أحوال الشدة ، تُرِقُّ القلوب ، وتُرغِّب فيما عند الله وفي الرجوع اليه . قال قتادة : أما السنون ، فكانت في بواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات ، فكان في أمصارهم وقراهم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يبس لهم كل شيء ، وذهبت مواشيهم ، حتى يبس نيل مصر ، فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت رباً كما تزعم ، فاملأْ لنا نيل مصر ، فقال غُدْوة يصبِّحكم الماء ، فلما خرجوا من عنده ، قال : أيَّ شيء صنعت ؟ أنا أقدر أن أجيء بالماء في نيل مصر غدوة أصبح ، فيكذِّبوني ؟ ! فلما كان جوف الليل ، اغتسل ، ثم لبس مِدرعة من صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر فقام في بطنه ، فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر أن تملأْ نيل مصر ماء ، فاملأْه ، فما علم إلا بخرير الماء لِما أراد الله به من الهلكة . قلت : وهذا الحديث بعيد الصحة ، لأن الرجل كان دهريا لا يثبت إلهاً . ولو صح ، كان إقراره بذلك كاقرار إبليس ، وتبقى مخالفته عناداً .

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَآئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاذا جاءتهم الحسنة) وهي الغيث والخصب وسعة الرزق والسلامة (قالوا لنا هذه) أي : نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه . (وإن تصبهم سيئة) وهي القحط والجدب والبلاء (يطَّيَّروا بموسى ومن معه) أي : يتشاءموا بهم . وكانت العرب تزجر

الطير ، فتتشاءم بالبارح ، وهو الذي يأتي من جهة الشمال ، وتتبرك بالسانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين .

قوله تعالى : (ألا إنما طائرهم عند الله) قال أبو عبيدة : « ألا » تنبيه وتوكيد ومجاز . « طائرهم » حظهم ونصيبهم . وقال ابن عباس « ألا إنما طائرهم عند الله » أي : إن الذي أصابهم من الله . وقال الزجاج : المعنى : ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وُعدوا به في الآخرة ، لا ماينالهم في الدنيا .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا مهما) قال الزجاج : زعم النحويون أن أصل « مهما » ماما ، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء ليختلف اللفظ ، ف« ما » الأولى هي « ما » الجزاء ، و « ما » الثانية هي التي تزاد تأكيداً للجزاء ، ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزاء إلا و « ما » تزاد فيه ، قال الله تعالى : (فاما تثقفنَّهم) [الانفال : ٥٧] كقولك : إن تثقفنهم ، وقال : (وإما تُعرضنَّ عنهم) [الاسراء : ٢٨] ، وتكون « ما » الثانية للشرط والجزاء ، والتفسير الأول هو الكلام ، وعليه استعمال الناس . قال ابن الأنباري : فعلى قول من قال : إن معنى « مه » الكف ، يحسن الوقف على « مه » ، والاختيار أن لا يوقف عليها دون « ما » لأنها في المصحف حرف واحد . وفي الطوفان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الماء . قال ابن عباس : أُرسل عليهم مطر دائم الليلَ والنهارَ ثمانية أيام ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو مالك ، ومقاتل ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ،

والثاني : أنه الموت ، روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ [1] ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، ووهب بن منبه ، وابن كثير .

والثالث : أنه الطاعون ، نقل عن مجاهد ، ووهب أيضاً . وفي القمَّل سبعة أقوال .

أحدها : أنه السوس الذي يقع في الحنطة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال به .

والثاني : أنه الدَّبى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء . وقال قتادة : القمَّل : أولاد الجراد . وقال ابن فارس : الدَّبى : الجراد إذا تحرك قبل أن تنبت أجنحته .

والثالث : أنه دواب سود صغار ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير . وقيل : هذه الدواب هي السوس .

والرابع : أنه الجعلان ، قاله حبيب بن أبي ثابت .

والخامس : أنه القمل ، ذكره عطاء الخراساني ، وزيد بن أسلم .

والسادس : أنه البراغيث ، حكاه ابن زيد .

والسابع : أنه الحَمنان ، واحدتها : حَمنانة ، وهي ضرب من القِردان ، قاله أبو عبيدة . وقرأ الحسن ، وعكرمة ، وابن يعمر : « القُمْل » برفع القاف وسكون الميم .

---

(١) « الطبري » ١٣/٥١ وفي سنده المنهال بن خليفة العجلي وهو ضعيف ، والحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس . وخرجه ابن كثير ٢/٢٤٠ من رواية ابن مردويه عن يحيى بن يمان به وقال : وهو حديث غريب .

وفي الدم قولان . أحدهما : أن ماءهم صار دماً ، قاله الجمهور . والثاني : أنه رعاف أصابهم ، قاله زيد بن أسلم .

الإشارة إلى شرح القصة

قال ابن عباس : جاءهم الطوفان ، فكان الرجل لايقدر أن يخرج إلى ضيعته ، حتى خافوا الغرق ، فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك يكشفه عنا ، ونؤمن بك ، ونرسل معك بني إسرائيل ؛ فدعا لهم ، فكشفه الله عنهم ، وأنبت لهم شيئاً لم ينبته قبل ذلك ، فقالوا : هذا ماكنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض ، فقالوا : ادع لنا ربك ، فدعا ، فكشف الله عنهم ، فأحرزوا زروعهم في البيوت ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجربة إلى الرحى ، فلا يرى منها ثلاثة أقفزة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فكُشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، ولم يكن شيء أشد منها ، كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتفور ، فتلقي أنفسها فيها ، فتفسد طعامهم وتطفىء نيرانهم ، وكانت الضفادع برِّية ، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة ، فسألوه ، فدعا لهم ، فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فجرت أنهارهم وقُلُبهم دماً ، فلم يقدروا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل في الماء العذب ، فاذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار مادخل فيه دماً ، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذبٌ لايقدر عليه ، فقال فرعون : أقسم بإلهي ياموسى لئن كشفتَ عنا الرجز لنؤمننَّ لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فدعا موسى ، فذهب الدم وعَذُبَ ماؤهم ، فقالوا : والله لانؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل .

قوله تعالى : (آيات مفصَّلات) قال ابن قتيبة : بين الآية والآية فصل . قال المفسرون : كانت الآية تمكث من السبت إلى السبت ، ثم يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية ، ثم تأتي الآية الأخرى . قال وهب بن منبه : بين كل آيتين أربعون يوماً . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات ، الجراد والقمّل والضفادع والدم .

وفي قوله : « فاستكبروا » قولان . أحدهما : عن الإيمان . والثاني : عن الانزجار .

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولما وقع عليهم الرجز) أي : نزل بهم العذاب . وفي هذا العذاب قولان .

أحدهما : أنه طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنه العذاب الذي سلّطه الله عليهم من الجراد والقُمَّل وغير ذلك ، قاله ابن زيد . قال الزجاج : « الرجز » : العذاب ، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب . ومعنى الرجز في العذاب : أنه المقلقل لشدته قلقلة شديدة متتابعة . وأصل الرجز في اللغة : تتابع الحركات ، فمن ذلك قولهم : ناقة رجزاء ، إذا كانت

ترتعد قوائمها عند قيامها . ومنه رجز الشعر ، لأنه أقصر أبيات الشعر ، والانتقالُ من بيت إلى بيت ، سريعٌ ، نحو قوله :

يَالَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبُّ فيها وَأَضَعْ

وزعم الخليل أن الرَّجَز ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث .

قوله تعالى : (بما عهد عندك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن معناه : بما أوصاك أن تدعوه به . والثاني : بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك . والثالث : بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن . والرابع : أن ذلك منهم على معنى القسم ، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم .

قوله تعالى : (إلى أجل هم بالغوه) أي : إلى وقت غرقهم . (إذا هم ينكثون) أي : ينقضون العهد .

قوله تعالى : (فانقمنا منهم) قال أبو سليمان الدمشقي : انتصرنا منهم باحلال نقمتنا بهم ، وتلك النقمة تغريقنا إياهم في اليم . قال ابن قتيبة : اليم : البحر بالسريانية .

قوله تعالى : (وكانوا عنها غافلين) فيه قولان .

أحدها : عن الآيات ، وغفلتهم : تركهم الاعتبار بها . والثاني : عن النقمة .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأورثنا القوم) يعني بني إسرائيل . (الذين كانوا يُستَضعفون) أي : يُستَذلون بذبح الأبناء ، واستخدام النساء ، وتسخير الرجال . (مشارق الأرض ومغاربها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشارق الشام ومغاربها ، قاله الحسن . والثاني : مشارق أرض الشام ومصر ، والثالث : أنه على إطلاقه في شرق الأرض وغربها .

قوله تعالى : (التي باركنا فيها) قال ابن عباس : بالماء والشجر .

قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى) وهي وعد الله لبني إسرائيل باهلاك عدوهم ، واستخلافهم في الأرض ، وذلك في قوله : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) [القصص : ٥] ، وقد بيَّنا علة تسمية ذلك كلّه في (آل عمران : ١٤٦) .

قوله تعالى : (بما صبروا) فيه قولان .

أحدها : على طاعة الله تعالى . والثاني على أذى فرعون .

قوله تعالى : (ودمَّرنا) أي : أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات والمزارع ، والدمار : الهلاك . (وما كانوا يعرشون) أي : يبنون . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يعرِشون » بكسر الراء هاهنا وفي (النحل : ٦٨) . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بضم الراء فيهما . وقرأ ابن أبي عبلة : « يُعرِّشون » بالتشديد . قال الزجاج : يقال : عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ : إذا بنى .

قوله تعالى : (يعكفون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، ويعقوب : « يَعْكُفُون » بضم الكاف . وقرأ حمزة ، والكسائي ،

والمفضل : بكسر الكاف . وقرأ ابن أبي عبلة : بضم الياء وتشديد الكاف . قال الزجاج : ومعنى (يعكفون على أصنام لهم) : يواظبون عليها ويلازمونها ، يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه : عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ . قال قتادة : كان أولئك القوم نزولاً بالرقة ، وكانوا من لخم . وقال غيره : كانت أصنامهم تماثيل البقر . وهذا إخبار عن عظيم جهلهم حيث توهموا جواز عبادة غير الله بعدما رأوا الآيات .

﴿ إِنَّ هٰؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن هؤلاء متبَّرٌ ماهم فيه) قال ابن قتيبة : مُهلَك . والتبار : الهلاك .

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال أغير الله أبغيكم إلٰهاً) أي : أطلب لكم ، وهذا استفهام إنكار . قال المفسرون ، منهم ابن عباس ، ومجاهد : العالَمون هاهنا : عالَمو زمانهم .

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإذ أنجيناكم) قرأ ابن عامر : « وإذ أنجاكم » على لفظ الغائب المفرد .

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) المعنى : وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة . قال ابن عباس : قال موسى لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة ، فلما فصل إلى ربه زاده عشراً ، فكانت فتنتهم في ذلك العشر . فان قيل : لم زيد هذا العشر ؟ فالجواب : أن ابن عباس قال : صام تلك الثلاثين ليلهن ونهارهن ، فلما انسلخ الشهر ، كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فأوحى الله تعالى إليه : لا كلمتك حتى يعود فوك على ما كان عليه ، أما علمت أن رائحة فم الصائم أحب إليَّ من ريح المسك ؟ وأمره بصيام عشرة أيام . وقال أبو العالية : مكث موسى على الطور أربعين ليلة ، فبلغنا أنه لم يُحدث حتى هبط منه .

فان قيل : مامعنى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقد عُلم ذلك عند انضمام العشر إلى الثلاثين ؟ .

فالجواب من وجوه . أحدها : أنه للتأكيد . والثاني : ليدل أن العشر ، ليالٍ ، لا ساعات . والثالث : لينفي تمام الثلاثين بالعشر أن تكون من جملة الثلاثين ، لأنه يجوز أن يسبق إلى الوهم أنها كانت عشرين ليلة فأُتمت بعشر . وقد بينا في سورة (البقرة : ٥١) لماذا كان هذا الوعد .

قوله تعالى : (وأصلحْ) قال ابن عباس : مُرهُم بالإصلاح . وقال مقاتل : ارفق .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَاآتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا) قال الزجاج ، أي : للوقت الذي وقّتنا له . (وكلّمه ربّه) أسمعه كلامه ، ولم يكن فيما بينه وبين الله عز وجل فيما سمع أحد . (قال رب أرني أنظر إليك) أي : أرني نفسك .

قوله تعالى : (قال لن تراني) تعلق بهذا نُفاة الرؤية وقالوا : « لن » لنفي الأبد ، وذلك غلط ، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله : (ولن يتمنّوه أبداً بما قدمت أيديهم) [البقرة : ٩٥] ثم أخبر عنهم بتمنّيه في النار بقوله : (يامالك ليقض علينا ربك) [الزخرف : ٧٧] ، ولأن ابن عباس قال في تفسيرها : لن تراني في الدنيا . وقال غيره : هذا جواب لقول موسى : « أرني » ، ولم يُرد : أرني في الآخرة ، وإنما أراد في الدنيا ، فأُجيب عما سأل . وقال بعضهم : لن تراني بسؤالك . وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية ، لأن موسى مع علمه بالله تعالى ، سألها ، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها ، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك ، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص ، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية ، ولو استحالت عليه لقال : « لا أُرى » ، ألا ترى أن نوحاً لما قال : (إن ابني من أهلي) [هود : ٤٥] أنكر عليه بقوله : (إنه ليس من أهلك) [هود : ٤٦] . ومما يدل على جواز الرؤية أنه علّقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل ، فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علّقه بمستحيل فقال : (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط) [الاعراف : ٤٠] .

قوله تعالى : (فان استقر مكانه) أي : ثبت ولم يتضعضع .

قوله تعالى : (فلما تجلَّى ربُّه) قال الزجاج : ظهر ، وبان . (جعله دَكّاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « دكّاً » منونة مقصورة هاهنا وفي (الكهف : ٩٨) . وقرأ عاصم : « دكّاً » هاهنا منوَّنة مقصورة ، وفي (الكهف : ٩٨) : « دكاء » ممدودة غير منونة . وقرأ حمزة ، والكسائي : « دكاء » ممدودة غير منونة في الموضعين . قال أبو عبيدة : « جعله دكّاً » أي : مندكّاً ، والدَّك : المستوي ؛ والمعنى : مستوياً مع وجه الأرض ، يقال : ناقة دكَّاء ، أي : ذاهبة السنام مستوٍ ظهرها . قال ابن قتيبة : كأن سنامها دُكَّ ، أي : التصق ، قال : ويقال : إن أصل دككتُ : دققتُ ، فأبدلت القاف كافاً لتقارب المخرجين . وقال أنس بن مالك في قوله : « جعله دكاً » : ساخ الجبل . قال ابن عباس : واسم الجبل : زبير ، وهو أعظم جبل بمدين ، وإن الجبال تطاولت ليتجلَّى لها ، وتواضع زبير فتجلى له .

قوله تعالى : (وخرَّ موسى صعقاً) فيه قولان .

أحدهما : مغشياً عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : ميتاً ، قاله قتادة ، ومقاتل ، والأول أصح ، لقوله : (فلما أفاق) وذلك لايقال للميت . وقيل : بقي في غشيته يوماً وليلة .

قوله تعالى : (سبحانك تبت إليك) فيما تاب منه ثلاثة أقوال .

أحدها : سؤاله الرؤية ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . والثاني : من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها . والثالث : اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا .

وفي قوله : (وأنا أول المؤمنين) قولان .

أحدها : أنك لن تُرى في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أول المؤمنين من بني إسرائيل ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (إني اصطفيتك) فتح ياء « إني » ابن كثير ، وأبو عمرو . وقرأ ابن كثير ، ونافع : « برسالتي » . قال الزجاج : المعنى : اتخذتك صفوة على الناس برسالاتي وبكلامي ، ولو كان إنما سمع كلام غير الله لما قال : « برسالاتي وبكلامي » لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء) في ماهية الألواح سبعة أقوال .

أحدها : أنها زبرجد ، قاله ابن عباس . والثاني : ياقوت ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : زمرُّد أخضر ، قاله مجاهد . والرابع : بَرَد ، قاله أبو العالية . والخامس : خشب ، قاله الحسن . والسادس : صخر ، قاله وهب بن منبه . والسابع : زمرد وياقوت ، قاله مقاتل . وفي عددها أربعة أقوال .

أحدها سبعة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : لوحان ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء . قال : وإنما سماها الله تعالى ألواحاً ، على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية ، كقوله : (وكنا لحكمهم شاهدين) [الانبياء : ٧٨] يريد داود ، وسليمان ، وقوله : (فقد صغت قلوبكما) [التحريم : ٤] . والثالث : عشرة ، قاله وهب . والرابع : تسعة ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (من كل شيء) قولان . أحدها : من كل شيء يُحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والواجب وغيره . والثاني : من الحِكَم والعِبَر .

قوله تعالى : (موعظة) أي : نهياً عن الجهل . (وتفصيلاً) أي : تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحدود والأحكام .

قوله تعالى : (فخذها بقوة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بجدٍ وحزم ، قاله ابن عباس . والثاني : بطاعة ، قاله أبو العالية . والثالث : بشكر ، قاله جويبر .

قوله تعالى : (وأْمر قومك يأخذوا بأحسنها) إن قيل : كأن فيها ماليس بحسن ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : يأخذوا بحسنها ، وكلها حسن ، قاله قطرب . وقال ابن الأنباري : ناب « أحسن » عن « حسن » كما قال الفرزدق :

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بنى لنا بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ[1]

أي : عزيزة طويلة . وقال غيره : « الأحسن » هاهنا صلة ، والمعنى : يأخذوا بها .

والثاني : أن بعض مافيها أحسن من بعض . ثم في ذلك خمسة أقوال .

أحدها : أنهم أُمروا فيها بالخير ونُهوا عن الشر ، فَفِعْلُ الخير هو الأحسن .

والثاني : أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض ، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر ، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسن ، ذكر القولين الزجاج . فعلى هذا القول، يكون المعنى : انهم يتبعون العزائم والفضائل ، وعلى الذي قبله، يكون المعنى : انهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة ، ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية .

والثالث : أحسنها : الفرائض والنوافل ، وأدونها في الحسن : المباح .

---

(١) ديوانه : ٢/١٥٥ .

والرابع : أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة ، فتصرف إلى الأشبه بالحق .

والخامس : أن أحسنها : الجمع بين الفرائض والنوافل .

قوله تعالى : (سأُريكم دار الفاسقين) فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها جهنم ، قاله الحسن ، ومجاهد . والثاني : أنها دار فرعون وقومه ، وهي مصر ، قاله عطية العوفي . والثالث : أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة ، يريهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة . والرابع : أنها مصارع الفاسقين ، قاله السدي . ومعنى الكلام : سأُريكم عاقبة من خالف أمري ، وهذا تهديد للمخالف ، وتحذير للموافق .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات . والثاني : أنها عامة ، وهو أصح . وفي الآيات قولان .

أحدهما : أنها آيات الكتب المتلوّة . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها : أمنعهم فهمها . والثاني : أمنعهم من الإيمان بها . والثالث : أصرفهم عن الاعتراض عليها بالإبطال .

والثاني : أنها آيات المخلوقات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها ، فيكون المعنى : أصرفهم عن التفكر والاعتبار بما خلقتُ . وفي معنى يتكبَّرون قولان .

أحدهما : يتكبَّرون عن الإيمان واتباع الرسول .

والثاني : يحقِرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم .

قوله تعالى : (وإن يروا سبيل الرُّشْدِ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « سبيل الرشد » بضم الراء خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي : « سبيل الرَّشَد » بفتح الراء والشين مثقلة .

قوله تعالى : (ذلك بأنَّهم) قال الزجاج : فعل الله بهم ذلك بأنهم (كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ، أي : كانوا في تركهم الإيمان بها والتدبر لها بمنزلة الغافلين . ويجوز أن يكون المعنى : وكانوا عن جزائها غافلين .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده) أي : من بعد انطلاقه إلى الجبل الميقات . (من حُلِيِّهم) قرأ ابن كثير ، نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « من حُليِّهم » بضم الحاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « حِليِّهم » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب : بفتحها وسكون اللام وتخفيف الياء . والحُليّ : جمع حَلْيٍ ، مثل ثَدْيٍ وثُدِيٍّ ، وهو اسم لما يُتحسَّن به من الذهب والفضة . قال الزجاج : ومن كسر الحاء من « حليهم » أتبع الحاء كسر اللام . والجسد : هو الذي لا يعقل ولا يميز ، إنما هو بمعنى الجثة فقط . قال ابن الأنباري : ذِكر الجسد دلالة على

عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثـال وصورة ، غير منضم إليهما روح ولا نفس . فـأما الخُوار ، فهو صوت البقرة ، يقـال : خارَتْ البقرة تَخُورُ ، وَجأَرَتْ تَجْأَرُ ؛ وقد نُقِلَ عن العرب أنهم يقولون في مثل صوت الإنسان من البهائم : رَغا البعير وجَرْجَرَ وهَدَرَ وَقَبْقَبَ ، وصَهَلَ الفرس وحَمْحَمَ ، وشَهَقَ الحمار وَنَهَقَ ، وشَحَجَ البغل ، وَثغَتْ الشاة وَيعَرَتْ ، وَثأَجَت النَّعْجَة ، وبَغَمَ (١) الظبي وَنزَبَ (٢) ، وَزأَرَ الأسدُ وَنهَتَ وَنأَتَ ، وَوعْوَعَ الذئب ، وَنهَم الفِيْلُ ، وَزَقحَ (٣) القِرْدُ ، وَضَبَحَ الثَّعْلَبُ ، وَعوى الكَلْبُ وَنبَحَ ، وَماءَ السِّنّور ، وَصأَت الفأرة ، وَنعَقَ الغُرَابُ معجمةَ الغين ، وزقأ الدّيك وَسقَعَ ، وَصفَرَ النسْرُ ، وَهدَرَ الحمام وَهدَلَ ، وَنقَضَت الضَّفَادِع ونقّت ، وَعزَفَت الجِنْ . قال ابن عباس : كان العجل إذا خار سجدوا ، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم . وفي رواية أبي صـالح عنه : أنه خار خورة واحدة ولم يُتبعها مثلها ، وبهذا قال وهب ، ومقاتل . وكان مجاهد يقول : خواره حفيف الريح فيه ؛ وهذا يدل على أنه لم يكن فيه روح . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو مجلز : « له جُوار » بجيم مرفوعة .

قوله تعالى : (ألم يروا أنه لا يُكلّمهم) أي : لا يستطيع كلامهم . (ولا يهديهم سبيلاً) أي : لا يبيّن لهم طريقاً إلى حجة . (اتخذوه) يعني اتخذوه إلهاً . (وكانوا ظالمين) قال ابن عباس : مشركين .

---

(١) في الأصل : نغم ، وهو تصحيف .

(٢) في الأصل : ترب ، وهو تصحيف .

(٣) في الأصل : رقح ، وهو تصحيف .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولما سُقِط في أيديهم) أي : ندموا . قال الزجاج : يقال للرجل النادم على مافعل ، المتحسر على مافرّط : قد سُقط في يده ، وأُسقط في يده . وقرأ ابن السميفع ، وأبو عمران الجوني : « سَقَطَ » بفتح السين . قال الزجاج : والمعنى : ولما سَقَط الندمُ في أيديهم ، يشبِّه مايحصل في القلب وفي النفس بما يُرى بالعين . قال المفسرون : هذا الندم منهم إنما كان بعد رجوع موسى .

قوله تعالى : (لئن لم يرحمنا ربنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « يرحمْنا ربُّنا » « ويغفرْ لنا » بالياء والرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ترحمنا » « وتغفر لنا » بالتاء ، « ربنا » بالنصب .

قوله تعالى : (غضبان أسِفاً) في الأسِف ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الحزين ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي . والثاني : الجزِع ، قاله مجاهد . والثالث : أنه الشديد الغضب ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج . وقال أبو الدرداء : الأسَف : منزلة وراء الغضب أشدّ منه .

قوله تعالى : (قال) أي : لقومه (بئسما خلفتموني من بعدي) فتح ياء « بعديَ » أهل الحجاز ، وأبو عمرو ؛ والمعنى : بئس ماعملتم بعد فراقي من عبادة العجل . (أعجِلتم أمر ربكم) قال الفراء : يقال : عجِلْتُ الأمر والشيء : سبقتُه ، ومنه هذه الآية . وأعجلته : استحثثته . قال ابن عباس : أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له ؟! قال الحسن : يعني وعْدَ الأربعين ليلة .

قوله تعالى : (وألقى الألواح) التي فيها التوراة . وفي سبب إلقائه إياها قولان .

أحدها : أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا العجل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه لما رأى فضائل غير أُمته من أمة محمد ﷺ اشتد عليه ، فألقاها ، قاله قتادة ، وفيه بُعد . قال ابن عباس : لما رمى بالألواح فتحطمت ، رُفع منها ستة أسباع ، وبقي سُبع .

قوله تعالى : (وأخذ برأس أخيه) في ما أخذ به من رأسه ثلاثة أقوال .

أحدها : لحيته وذؤابته . والثاني : شعر رأسه . والثالث : أُذنه . وقيل : إنما فعل به ذلك ، لأنه توهم أنه عصى الله بمُقامه بينهم وتركِ اللحوق به ، وتعريفِه ما أحدثوا بعده ليرجع إليهم فيتلافاهم ويردهم إلى الحق ، وذلك قوله : (مامنعك إذ رأيتهم ضلّوا . ألّا تتّبعن) [طه : ٩٢ ، ٩٣] .

قوله تعالى : (ابن أُمَّ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « قال ابن أُمَّ » نصباً . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الميم ، وكذلك في (طه : ٩٤) . قال الزجاج : من فتح الميم ، فلكثرة استعمال هذا الاسم ، ومن كسر ، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً ، ومن العرب من يقول : « يابن أمي » باثبات الياء . قال الشاعر :

يَاابْنَ أُمِّي وَيَاشُقَيِّقَ نَفْسِي أَنتَ خَلَّفْتَنِي لدهرٍ شديدِ [١]

وقال أبو علي : يحتمل أن يريد من فتح : « ياابن أم » أمّـا ، ويحذف الألف ، ومن كسر : « ابن أمي » فيحذف الياء . فان قيل : لم قال : « يا ابن أمَّ » ولم يقل : « ياابن أب » ؟ فالجواب أن ابن عباس قال : كان أخاه لأبيه وأمه ، وإنما قال له ذلك ليرفِّقه عليه . قال أبو سليمان الدمشقي : والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد . وقيل : كان لأمه دون أبيه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (إن القوم) يعني عبدة العجل . (استضعفوني) أي : استذلّوني . (فلا تُشمت بيَ الأعداء) قرأ عبد الله بن عباس ، ومالك بن دينار ، وابن عاصم : « فلا تَشْمَتْ » بتاء مفتوحة مع فتح الميم ، « الأعداءُ » بالرفع . وقرأ مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وأبو رجاء : « فلا تَشْمِتْ » بفتح التاء وكسر الميم ، « الأعداءَ » بالنصب . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة مثل ذلك ، إلا أنهما رفعا « الأعداء » . ويعني بالأعداء : عبدة العجل . (ولا تجعلني) في موجدتك وعقوبتك لي (مع القوم الظالمين) وهم عبدة العجل . فلما تبين له عُذْرُ أخيه (قال رب اغفر لي) .

قوله تعالى : (وذلّةٌ في الحياة الدنيا) فيها قولان .

أحدهما : أنها الجزية ، قاله ابن عباس . والثاني : ما أمروا به من قتل أنفسهم ، قاله الزجاج . فعلى الأول يكون ما أضيف إليهم من الجزية في حق أولادهم ، لأن

---

(١) البيت في « الطبري » : ١٣/١٢٩ ، و « أمالي اليزيـــدي » : ٩ ، و « جمهرة أشعار العرب » : ٢٦٢ ، و « اللسان » : شقق ، وهو لأبي زبيد حرملة بن المنذر الطائي من قصيدة يرثي ابن أخته اللجلاج ، ويقال : يرثي أخاه اللجلاج ، ويروى البيت :

ياابن خنسـاء شِقَّ نفسيَ يا لجلاجُ خلَّيتني لدهرٍ شديد

ورواية المصنف ، هي رواية النحاة جميعاً في كتبهم في « باب النداء » . وقوله : « شقيق » تصغير شقيق ، وهو الأخ .

أولئك قتلوا ولم يؤدّوا جزية . قال عطية : وهذه الآية فيما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء لتولّيهم متخذي العجل ورضاهم به .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المفترين) قال ابن عباس : كذلك أعاقب من اتخذ إلهاً دوني . وقال مالك بن أنس : مامن مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلّة ، وقرأ هذه الآية . وقال سفيان بن عيينة : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلّة تغشاه ، قال : وهي في كتاب الله تعالى . قالوا : وأين هي ؟ قال : أوما سمعتم قوله : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا) قالوا : ياأبا محمد ، هذه لأصحاب العجل خاصة ، قال : كلا ، أُتلوا مابعدها . (وكذلك نجزي المفترين) فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة .

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين عملوا السيئات) فيها قولان .

أحدها : أنها الشرك . والثاني : الشرك وغيره من الذنوب . (ثم تابوا من بعدها) يعني السيئات . وفي قوله : (وآمنوا) قولان .

أحدها : آمنوا بالله ، وهو يُخرَّج على قول من قال : هي الشرك .

والثاني : آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة . (إن ربك من بعدها) يعني السيئات .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب) وقرأ ابن عباس ، وأبو عمران

« سكتّت » بفتح السين وتشديد الكاف وبتاء بعدها ، « الغضبَ » بالنصب . وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، والجحدري « سُكِتَ » بضم السين وتشديد الكاف مع كسرها . وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وطلحة « سَكَنَ » بنون . قال الزجاج « سكت » بمعنى سكن ، يقال : سكت يسكت سَكْتاً : إذا سكن ، وسكت يسكت سكْتاً وسكوتاً : إذا قطع الكلام . قال : وقال بعضهم : المعنى : ولما سكت موسى عن الغضب ، على القلب ، كما قالوا : أدخلت القلنسوة في رأسي . والمعنى : أدخلت رأسي في القلنسوة ، والأول هو قول أهل العربية .

قوله تعالى : (أخذ الألواح) يعني التي كان ألقاها . وفي قوله : (وفي نسختها) قولان .

أحدهما : وفيما بقي منها ؛ قاله ابن عباس . والثاني : وفيما نُسخ فيها ؛ قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (للذين هم لربهم يرهبون) فيهم قولان .

أحدهما : أنه عام في الذين يخافون الله ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنهم أمة محمد ﷺ خاصة ، وهو معنى قول قتادة .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (واختار موسى قومه) المعنى : اختار من قومه ، فحُذف

« من »، تقول العرب : اخترتك القوم، أي : اخترتك من القوم ، وأنشدوا :

مِنَّا الذي اختِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحةً وجُوداً إذا هبَّ الرِّياحُ الزَّعازِعُ (١)

هذا قول ابن قتيبة ، والفراء ، والزجاج . وفي هذا الميقات أربعة أقوال .

أحدها : أنه الميقات الذي وَقَّتَهُ الله لموسى ليأخـذ التوراة ، أُمر أن يأتيَ معه بسبعين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال نوف البِكَالي .

والثاني : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله تعالى لموسى ، وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوَ ربهم ، فدعَوْا فقالوا : اللهم أعطنا مالم تعط أحداً قبلنا ، ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك ، وأخذتهم الرجفة ؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى ، لأن بني إسرائيل قالوا له : إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك ، فخذ معك طائفة منا ليسمعوا كلامه فيؤمنوا فتذهب التهمة ، فأوحى الله إليه أن اختر من خيارهم سبعين ، ثم ارتقِ بهم على الجبل أنت وهارون ، واستخلف يوشع بن نون ، ففعل ذلك ؛ قاله وهب بن منبه .

والرابع : أنه ميقات وَقَّتَهُ الله لموسى ليلقاه في ناس من بني إسرائيل ، فيعتذر إليه من فِعْل عبدة العجل ؛ قاله السدي . وقال ابن السائب : كان موسى لا يأتي ربه إلا باذن منه .

فأما الرجفة فهي الحركة الشديدة . وفي سبب أخذها إياهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه ادعاؤهم على موسى قتل هارون ؛ قاله علي بن أبي طالب .

---

(١) البيت للفرزدق ، ديوانه : ٥١٦ ، و « النقائض » : ٦٩٦ ، و « سيبويه » : ١٨/١ ، و « الكامل » : ٣٢/١ ، و « أمالي ابن الشجري » : ١٨٦/١ ، و « الخزانة » : ٦٦٩/٣ ، و « اللسان » : خير . وعنى بهذا البيت أباه غالباً ، وهو أحد أجواد بني تميم .

والثاني : اعتداؤهم في الدعاء ، وقد ذكرناه في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنهم لم ينهَوْا عبدة العجل ولم يرضَوْا ؛ نُقل عن ابن عباس . وقال قتادة ، وابن جريج : لم يأمروهم بالمعروف ، ولم ينهَوْهم عن المنكر ، ولم يزايلوهم .

والرابع : أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى ، فلما سمعوه قالوا : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) [البقرة : ٥٥] ؛ قاله السدي وابن إسحاق .

قوله تعالى : (قال رب لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإيَّاي) قال السدي : قام موسى يبكي ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم (لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي) قال الزجاج : لو شئت أمتَّهم قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة . وقيل : لو شئتَ أهلكتهم من قبل خروجنا وإياي ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني .

قوله تعالى : (أتُهلِكُنا بما فعل السفهاء منا) قال المبرّد : هذا استفهام استعطاف ، أي : لا تُهلكْنا . وقال ابن الأنباري : هذا استفهام على تأويل الجحد ، أراد : لستَ تفعلُ ذلك . و « السفهاء » هاهنا : عبدة العجل . وقال الفراء : ظن موسى أنهم أُهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل . وإنما أُهلكوا بقولهم : (أرنا الله جهرة) .

قوله تعالى : (إن هي إلا فتنتك) فيها قولان .

أحدهما : أنها الابتلاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وأبو العالية .

والثاني : العذاب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

قوله تعالى : (أنت وليُّنا) أي : ناصرنا وحافظنا .

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (واكتب لنا) أي : حقق لنا وأوجب (في هذه الدنيا حسنة) وهي الأعمال الصالحة (وفي الآخرة) المغفرة والجنة (إنا هُدْنا إليك) أي : تبنا ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي . وقال ابن قتيبة : ومنه (الذين هادوا) [البقرة : ٦٢] كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء . وقرأ أبو وجزة السعدي : « إنا هِدنا » بكسر الهاء . قال ابن الأنباري : المعنى : لانتغيَّر ؛ يقال : هاد يهود ويهيد .

قوله تعالى : (قال عذابي أُصيبُ به من أشاء) . وقرأ الحسن البصري ، والأعمش ، وأبو العالية : « من أساء » بسين غير معجمة مع النصب .

قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) في هذا الكلام أربعة أقوال .

أحدها : أن مخرجه عام ومعناه خاص ، وتأويله : ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد ﷺ ، لقوله تعالى : (فسأكتبها الذين يتقون) ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا ، والخصوص في الآخرة ؛ وتأويلها : ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا ، البرَّ والفاجر ، وفي الآخرة هي للمتقين خاصة ، قاله الحسن ، وقتادة . فعلى هذا ، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزق ويُدفع عنه ، كقوله في حق قارون : (وأحسنْ كما أحسن إليك) [القصص : ٧٧] .

والثالث : أن الرحمة : التوبة ، فهي على العموم ، قاله ابن زيد .

والرابع : أن الرحمة تَسَع كل الخلق ، إلا أن أهل الكفر خارجون منها ، فلو قدِّر دخولهم فيها لوسعتهم ، قاله ابن الأنباري . قال الزجاج : وسعت كل شيء في الدنيا [1] . (فسأكتبها للذين يتقون) في الآخرة . قال المفسرون : معنى « فسأكتبها » : فسأوجبها . وفي الذين يتقون قولان .

أحدهما : أنهم المتقون للشرك ، قاله ابن عباس . والثاني : للمعاصي ، قاله قتادة . وفي قوله : (ويؤتون الزكاة) قولان .

أحدهما : أنها زكاة الأموال ، قاله الجمهور .

والثاني : أن المراد بها طاعة الله ورسوله ، قاله ابن عباس والحسن ، ذهبا

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢١٠٨/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إنَّ لله مائةَ رحمة ، أنزل منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والانس ، والبهائم والهوامِّ ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحشُ على ولدها ، وأخَّرَ الله تسعاً وتسعين رحمة ، يرحم بها عباده يوم القيامة » .

إلى أنها العمل بما يزكّي النفس ويطهّرها . وقال ابن عباس ، وقتادة : لما نزلت (ورحمتي وسعت كل شيء) قال إبليس : أنا من ذلك الشيء ، فنزعها الله من إبليس ، فقال : (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فقالت اليهود : نحن نتّقي ، ونؤتي الزكاة ، ونؤمن بآيات ربنا ، فنزعها الله منهم ، وجعلها لهذه الأمة ، فقال : (الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ) . وقال نَوفٌ : قال الله تعالى لموسى : أجعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً ، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهور قلوبكم ، يقرؤها الرجل منكم ، والمرأة ، والحر ، والعبد ، والصغير ، والكبير . فأخبر موسى قومه بذلك ، فقالوا: لا نريد أن نصليَ إلا في الكنائس والبِيَع ، ولا أن تكون السكينة إلا في التابوت ، ولا أن نقرأ التوراة إلا نظراً ، فقال الله تعالى : (فسأكتبها للذين يتقون) إلى قوله : « المفلحون » . وفي هؤلاء المذكورين في قوله : (للذين يتقون ويؤتون الزكاة) إلى قوله : (المفلحون) قولان .

أحدها : أنهم كل من آمن بمحمد ﷺ ، وتبعه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه محمد ﷺ ، قاله السدي ، وقتادة . وفي تسميته بالأمي قولان .

أحدهما : لأنه لا يكتب . والثاني : لأنه من أُمّ القرى .

قوله تعالى : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم) أي : يجدون نعته ونبوّته .

قوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف) قال الزجاج : يجوز أن يكون مستأنفاً ، ويجوز أن يكون « يجدونه مكتوباً عندهم » أنه يأمرهم بالمعروف . قال ابن عباس : المعروف : مكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام . والمنكر : عبادة الأوثان ، وقطع الأرحام . وقال مقاتل : المعروف : الإيمان ، والمنكر : الشرك . وقال غيره : المعروف: الحق ، لأن العقول تعرف صحته ، والمنكر : الباطل ، لأن العقول تنكر صحته .

وفي الطيبات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الحلال ، والمعنى : يُحل لهم الحلال . والثاني : أنها ما كانت العرب تستطيبه . والثالث : أنها الشحوم المحرَّمة على بني إسرائيل . والرابع : ما كانت العرب تحرِّمه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

وفي الخبائث ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحرام ، والمعنى : ويحرِّم عليهم الحرام .

والثاني : أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله ، كالحيات ، والحشرات .

والثالث : ما كانوا يستحلُّونه من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .

قوله تعالى : (ويضع عنهم إصرهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي « إصرهم » . وقرأ ابن عامر « آصارهم » ممدودة الألف على الجمع . وفي هذا الإصر قولان .

أحدهما : أنه العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، قاله ابن عباس .

والثاني : التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت ، وأكل الشحوم والعروق ، وغير ذلك من الأمور الشاقة ، قاله قتادة . وقال مسروق : لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب ، فيصبح وقد كُتب على باب بيته : إن كفارته أن تنزِع عينيك ، فينزِعُهما .

قوله تعالى : (والأغلال التي كانت عليهم) قال الزجاج : ذِكر الأغلال تمثيل ، ألا ترى أنك تقول : جعلت هذا طوقاً في عنقك ، وليس هناك طوق ،

إنما جعلت لزومه كالطوق . والأغلال : أنه كان عليهم أن لا يُقبَل منهم في القتل دية ، وأن لا يملوا في السبت ، وأن يَقْرِضُوا ما أصاب جلودهم من البول .

قوله تعالى : (فالذين آمنوا بـه) يعني بمحمد ﷺ (وعزَّروهُ) وروى أبان « وعَزَروه » بتخفيف الزاي . وفي المعنى قولان .

أحدهما : نصروه وأعانوه ، قاله مقاتل .

والثاني : عظّموه ، قاله ابن قتيبة . والنور الذي أنزل معه : القرآن ، سماه نوراً ، لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون . وفي قوله « معه » قولان.

أحدهما : أنها بمعنى « عليه » .

والثاني : بمعنى أُنزل في زمانه . قال قتادة : أما نصره ، فقد سُبقتم إليه ، ولكن خيركم من آمن به واتبع النور الذي أُنزل معه .

قوله تعالى : (الذي يؤمن بالله وكلماته) في الكلمات قولان .

أحدهما : أنها القرآن ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : كلماته : آياته .

والثاني : أنها عيسى بن مريم ، قاله مجاهد ، والسدي .

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) فيه قولان .

أحدهما : يدعون إلى الحق . والثاني : يعملون به .

قوله تعالى : (وبه يعدلون) قال الزجاج : وبالحق يحكمون . وفي المشار إليهم بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، قاله ابن عباس ، والسدي . والثاني : أنهم مَن آمن بالنبي ﷺ مثل ابن سلام وأصحابه ، قاله

ابن السائب. والثالث: أنهم الذين تمسكوا بالحق في زمن أنبيائهم، ذكره الماوردي.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى: (وقطّعناهم) يعني قوم موسى، يقول: فرّقناهم (اثنتي عشرة أسباطاً) يعني أولاد يعقوب، وكانوا اثني عشر ولداً، فولد كل واحد منهم سبطاً. قال الفراء: وإنما قال « اثنتي عشرة » والسبط ذكَر، لأن بعده « أُمماً » فذهب بالتأنيث إلى الأمم، ولو كان « اثني عشر » لتذكير السبط، كان جائزاً. وقال الزجاج: المعنى: وقطّعناهم اثنتي عشرة فرقة، « أسباطاً » نعت « فرقة » كأنه يقول: جعلناهم أسباطاً، وفرّقناهم أسباطاً، فيكون « أسباطاً » بدلاً من « اثنتي عشرة » و « أُمماً » من نعت أسباط. والأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل ليُفصل بين ولد إسماعيل وبين ولد إسحاق. وقال أبو عبيدة: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، واحدهم: سبط. ويقال: من أي سبط أنت؟ أي: من أي قبيلة وجنس؟

قوله تعالى: (فانبجست منه) قال ابن قتيبة: انفجرت؛ يقال: تبجّس الماء، كما يقال: تفجّر؛ والقصة مذكورة في سورة (البقرة: ٥٨ ـ ٦٠).

قوله تعالى : (نغفرْ لكم خطاياكم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « نغفر لكم خطيئاتكم » بالتاء مهموزة على الجمع . وقرأ أبو عمرو « نغفر لكم خطاياكم » مثل : قضاياكم ، ولا تاء فيها . وقرأ نافع « تُغفَر » بالتاء مضمومة « خطيئاتُكم » بالهمز وضم التاء ، على الجمع ، وافقه ابن عامر في « تُغفَر » بالتاء المضمومة ، لكنه قرأ « خطيئتُكم » على التوحيد .

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَايَسْبِتُونَ لَاتَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

قوله تعالى : (واسألهم) يعني أسباط اليهود ، وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرِّرهم على قديم كفرهم ، ومخالفة أسلافهم الأنبياء ، ويخبرهم بما لا يُعلم إلا بوحي . وفي القرية خمسة أقوال .

أحدها : أنها أيلة ، رواه مُرّة عن ابن مسعود ، وأبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها مَدْيَن ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنها ساحل مدين ، روي عن قتادة .

والرابع : أنها طبرية ، قاله الزهري .

والخامس : أنها قرية يقال لها : مقنا ، بين مدين وعينونا ، قاله ابن زيد . ومعنى (حاضرة البحر) مجاورة البحر وبقربه وعلى شاطئه . (إذ يَعْدُون) قال الزجاج : أي : يَظلمون ، يقال : عدا فلان يعدو عُدْواناً وعَداءً وعَدْواً وعُدُوّاً : إذا ظلم ، وموضع « إذ » نصب ؛ والمعنى : سلهم عن وقت عَدْوِهم في السبت . (إذ تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب أيضاً بـ « يَعْدُونَ » والمعنى : سلهم إذ عَدَوْا

في وقت الإتيان . (شُرَّعاً) أي : ظاهرة . (كذلك نبلوهم) أي : مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم بفسقهم . ويحتمل على بعد أن يكون المعنى (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) كذلك ، أي : لاتأتيهم شُرَّعاً ؛ ويكون (نبلوهم) مستأنفاً . وقرأ الحسن ، والأعمش ، وأبان ، والمفضل عن عاصم : « يُسبِتون » بضم الياء .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ قالت أُمَّةٌ منهم) قال المفسرون : افترق أهل القرية ثلاث فرق ؛ فرقة صادت وأكلت ، وفرقة نهت وزجرت ، وفرقة أمسكت عن الصيد ، وقالت للفرقة الناهية : (لم تعظون قوماً الله مهلكهم) لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين ، فقالت الفرقة الناهية : (معذرةٌ إلى ربكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « معذرةٌ » رفعاً ، أي : موعظتُنا إياهم معذرةٌ ، والمعنى أن الأمر بالمعروف واجب علينا ، فعلينا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله . وقرأ حفص عن عاصم : « معذرةً » نصباً ، وذلك على معنى نعتذر معذرةً . (ولعلهم يتقون) أي : وجائز أن ينتفعوا بالموعظة فيتركوا المعصية .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فلما نسوا ماذكِّروا به) يعني : تركوا ما وُعظوا به (أنجينا

الذين ينهَوْن عن السوء) وهم الناهون عن المنكر . والذين ظلموا هم المعتدون في السبت .

قوله تعالى : (بعذاب بئيس) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي : « بئيس » على وزن فعيل ، فالهمزة بين الباء والياء . وقرأ نافع : « بِيسٍ » بكسر الباء من غير همز . وقرأ ابن عامر كذلك ، إلا أنه همز . وروى خارجة عن نافع : « بَيْسٍ » بفتح الباء من غير همز ، على وزن « فَعْلٍ » . وروى أبو بكر عن عاصم : « بَيْأَسٍ » على وزن « فَيْعَلٍ » . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأيوب : « بَيْآسٍ » على وزن « فَيْعالٍ » . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، ومعاذ القارىء : « بَئِسٍ » بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن « نَعِسٍ » . وقرأ الضحاك ، وعكرمة : « بَيِّسٍ » بتشديد الياء مثل « قيّم » . وقرأ أبو العالية ، وأبو مجلز : « بَئِسَ » بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن « فَعِلَ » . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو رجاء : « بائسٍ » بألف ومدّة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن « فاعِلٍ » . قال أبو عبيدة : البئيس : الشديد ، وأنشد :

حَنَقاً عليَّ وما تَرَى لي فيهمُ أثراً بَئيسا[1]

وقال الزجاج : يقال : بَئُس يبأس بأساً ، والعاتي : الشديد الدخول في الفساد ، المتمرد الذي لايقبل موعظة . وقال ابن جرير : « فلما عتوا » أي : تمردوا فيما نُهوا عنه ؛ وقد ذكرنا في سورة (البقرة : ٦٥) قصة مسخهم . وكان الحسن البصري يقول : والله مالحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين .

قوله تعالى : (وإذ تأذّن ربك) فيه أربعة أقوال .

---

(١) البيت لذي الإصبع العدواني ، وهو في « الأغاني » : ٣/١٠٢ ، ١٠٣ ، و « مجاز القرآن » لأبي عبيدة : ١/٢٣١ ، و « الطبري » : ١٣/٢٠١ .

أحدها : أعلم ، قاله الحسن ، وابن قتيبة ، وقال : هو من آذنتك بالأمر . وقال ابن الأنباري : « تأذن » بمعنى آذن ؛ كما يقال : تعلَّمْ أن فلاناً قائم ، أي : اعلم . وقال أبو سليمان الدمشقي : أي : أعلم أنبياء بني إسرائيل . والثاني : حتم ، قاله عطاء . والثالث : وعد ، قاله قطرب . والرابع : تألَّى ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ليبعثن عليهم) أي : على اليهود . وقال مجاهد : على اليهود والنصارى بمعاصيهم . (من يسومهم) أي : يولّيهم (سوء العذاب) . وفي المبعوث عليهم قولان . أحدهما : أنه محمد ﷺ ، وأمته ، قاله ابن عباس . والثاني : العرب ، كانوا يجبونهم الخراج ، قاله سعيد بن جبير ، قال : ولم يجْبِ الخراجَ نبيٌّ قط إلا موسى ، جباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أُمسك إلى النبي ﷺ . وقال السدي : بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم . وفي سوء العذاب أربعة أقوال .

أحدها : أخذ الجزية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : المسكنة والجزية ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الخراج ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير . والرابع : أنه القتال حتى يُسلموا ، أو يُعطوا الجزية .

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقطّعناهم في الأرض أُمماً) قال أبو عبيدة : فرّقناهم فِرقاً . قال ابن عباس : هم اليهود ، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة . وقال مقاتل : هم بنو إسرائيل . وقيل : معناه : شتات أمرهم وافتراق كلمتهم . (منهم الصالحون) وهم المؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام . (ومنهم دون ذلك) وهم الكفار . وقال ابن جرير : إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يُبعث عيسى ، وقبل ارتدادهم .

قوله تعالى : (وبلوناهم) أي : اختبرناهم (بالحسنات) وهي الخير ، والخصب ، والعافية ، (والسيئات) وهي الجدب ، والشر ، والشدائد ؛ فالحسنات والسيئات تحث على الطاعة ، أما النعم فلطلب الازدياد منها ، وخوف زوالها ، والنقمُ فلكشفها ، والسلامة منها . (لعلهم يرجعون) أي : لكي يتوبوا .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فخلف من بعدهم) أي : من بعد الذين وصفناهم . (خَلْفٌ) وقرأ الجوني ، والجحدري : « خَلَفٌ » بفتح اللام . قال أبو عبيدة : الخَلْفُ والخَلَفُ واحد ؛ وقوم يجعلون المحرَّك اللام ، للصالح ، والمسكَّن ، لغير الصالح . وقال ابن قتيبة : الخَلْفُ : الرديء من الناس ومن الكلام ، يقال : هذا خَلْفٌ من القول . وقال ابن الأنباري : أكثر ماتستعمل العرب الخَلْفَ ، باسكان اللام ، في الرديء المذموم ، وتفتح اللام في الفاضل الممدوح . وقد يوقع الخَلْفُ على الممدوح ، والخلَفُ على المذموم ؛ غير أن المختار ماذكرناه . وفي المراد بهذا الخَلْف ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود ، قاله ابن عباس ، وابن زيد . والثاني : النصارى . والثالث : أن الخَلْف من أمة محمد ﷺ ، والقولان عن مجاهد .

فان قيل : الخَلْف واحد ، فكيف قال : « يأخذون » وكذلك قال في (مريم : ٥٩) « أضاعوا » ؟ فقد ذكر ابن الأنباري عنه جوابين .

أحدهما : أن الخَلْف : جمع خالف ، كما أن الرَّكب : جمع راكب ، والشَّرْب : جمع شارب .

والثاني : أن الخَلْف مصدر يكون للاثنين والجميع ، والمذكر والمؤنث .

قوله تعالى : (ورثوا الكتاب) أي : انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف ، فيخرج في الكتاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوراة . والثاني : الإنجيل . والثالث : القرآن .

قوله تعالى : (يأخذون عرض هذا الأدنى) أي : هذه الدنيا ، وهو مايعرض لهم منها . وقيل : سماه عرضاً ، لقلة بقائه . قال ابن عباس : يأخذون ما أحبوا من حلال أو حرام . وقيل : هو الرِّشوة في الحكم . وفي وصفه بالأدنى قولان .

أحدهما : أنه من الدُّنُوِّ . والثاني : أنه من الدناءة .

قوله تعالى : (سيُغفَرُ لنا) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : إنا لانؤاخَذ ، تمنّياً على الله الباطلَ .

والثاني : أنه ذنْب يغفره الله لنا ، تأميلاً لرحمة الله تعالى .

وفي قوله : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) قولان .

أحدهما : أن المعنى : لايشبعهم شيء ، فهم يأخذون لغير حاجة ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم أهل إصرار على الذنوب ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) قال ابن عباس : وكّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، فقالوا الباطل ، وهو ما أوجبوا على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يتوبون منها ، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار .

قوله تعالى : (ودرسوا ما فيه) معطوف على « ورثوا » . ومعنى « درسوا ما فيه » : قرؤوه ، فكأنه قال : خالفوا على علم . (والدار الآخرة) أي : ما فيها من الثواب (خير للذين يتقون أفلا يعقلون) أن الباقي خير من الفاني . قرأ ابن عامر ، ونافع ، وحفص عن عاصم : بالتاء ، والباقون : بالياء .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ

قوله تعالى : (والذين يُمسِّكون بالكتاب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم « يمسِّكون » مشددة ، وقرؤوا (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) مخففة [الممتحنة : ١٠] وقرأهما أبو عمرو بالتشديد . وروى أبو بكر عن عاصم أنه خففهما . ويقال : مسَّكتُ بالشيء ، وتمسكت به ، واستمسكت به ، وامتسكت به . وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرِّفوه ، منهم [عبد الله] بن سلام وأصحابه . قال ابن الأنباري : وخبر « الذين » : « إنا » وما بعده ، وله ضمير مقدر بعد « المصلحين » تأويله : والذين يمسِّكون بالكتاب إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم ، ولهذه العلة وَعَدَهُم حفظَ الأجر بشرطٍ ، إذ كان منهم من لم يصلح . قال : وقال بعض النحويين : المصلحون يرجعون على الذين ، وتلخيص المعنى عنده : والذين يمسِّكون بالكتاب ، وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجرهم ، فأظهرت كنايتهم بالمصلحين ، كما يقال : عليٌّ لقيتُ الكسائي ، وأبو سعيد رويت عن الخدري ، يراد : لقيتُهُ ورويتُ عنه . **قال الشاعر** :

فيارَبَّ لَيلى أنتَ في كُلِّ مَوطِنٍ وأنتَ الذي في رَحْمةِ الله أطْمَعُ[1]

أراد في رحمته ، فأظهر ضمير الهاء .

﴿ وَإذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) أي : واذكر لهم إذ نتقنا الجبل ، أي : رفعناه . قال مجاهد : أُخرج الجبل من الأرض ، ورفع فوقهم كالظُّلَّة ، فقيل لهم : لتؤمنُنَّ أو ليقعنَّ عليكم . وقال قتادة : نزلوا في أصل جبل ، فرُفع فوقهم ، فقال : لتأخُذُنَّ أمري ، أو لأرمينكم به .

قوله تعالى : (وظنوا أنَّه واقع بهم) فيه قولان .

أحدهما : أنه الظن المعروف . والثاني : أنه بمعنى اليقين . وباقي الآية مفسر في سورة (البقرة : ٦٣) .

﴿ وَإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم) روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان » ـ ونعمان قريب من عرفة ـ ذكره ابن قتيبة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذَّر ، ثم كلمَّهم قبَلاً ، وقال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كُنَّا

---

(١) البيت غير منسوب في « مغني اللبيب » : ٢١٠ .

عن هذا غافلين)[١] ومعنى الآية : وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم . فقوله « من ظهورهم » بدل من « بني آدم » . وقيل : إنما قال : « من ظهورهم » ولم يقل : من ظهر آدم ، لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض ، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه ، وقد أُخرجوا من ظهره . وقوله تعالى : (ذُرِّيَّاتِهم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي « ذُرِّيَّتَهُم » على التوحيد . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ذُرِّيَّاتِهِم » على الجمع . قال أبو علي : الذُّرِّية تكون جمعاً ، وتكون واحداً .

وفي قوله : « وأشهدهم على أنفسهم » ثلاثة أقوال .

أحدها : أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم ، قاله مقاتل .

والثاني : دلَّهم بخلقه على توحيده ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : (ألست بربكم) والمعنى : وقال لهم : ألست بربكم ؟ وهذا سؤال تقرير . قالوا : بلى شهدنا أنك ربنا . قال السدي : قوله « شهدنا » خبر

---

(١) « المسند » ١٥١/٤ وهو في « مجمع الزوائد » ٢٥/٧ وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، ونقله ابن كثير في « التفسير » عن أحمد وقال : وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب « التفسير » من « سننه » عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ، ورواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً . وأخرجه الحاكم في « مستدركه » من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر به ، وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد ابن جبير فوقفه ، وكذا رواه اسماعيل بن علية ، ووكيع عن ربيعة بن كلثوم بن جبر عن أبيه به ، وكذا رواه العوفي ، وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، فهذا أكثر وأثبت .

من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم . ويحسن الوقف على قوله « بلى » لأن كلام الذرية قد انقطع . وزعم الكلبي أن الذرية لما قالت « بلى » قال الله للملائكة « اشهدوا » فقالوا « شهدنا » . وروى أبو العالية عن أُبَيِّ بن كعب قال : جمعهم جميعاً ، فجعلهم أزواجاً ، ثم صوَّرهم ، ثم استنطقهم ، ثم قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) أنك إلهنا . قال : فاني أُشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأُشهد عليكم أباكم آدم (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) لم نعلم بهذا . وقال السدي : أجابته طائفة طائعين ، وطائفة كارهين تقيةً .

قوله تعالى : (أن يقولوا) قرأ أبو عمرو « أن يقولوا » ، « أو يقولوا » بالياء فيهما . وقرأ الباقون بالتاء فيهما . قال أبو علي : حجة أبي عمرو قوله : « وإذ أخذ ربك » وقوله « قالوا بلى » ، وحجة من قرأ بالتاء أنه قد جرى في الكلام خطاب « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » . ومعنى قوله : « يقولوا » : لئلا يقولوا ، ومثله : (أن تميد بكم) [لقمان : ١٠] . وفي قوله : (إنا كنا) قولان .

أحدهما . أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار .

والثاني : أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق . قال المفسرون : وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلَّفين من الميثاق ، واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار : إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره ، ونسيانهم لا يُسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي ﷺ الصادق . وإذا ثبت هذا بقول الصادق ، قام في النفوس مقام الذِّكر ، فالاحتجاج به قائم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكُنَّا ذُرِّيَّة من بعدهم) فاتَّبعنا منهاجهم على جهلٍ منَّا بآلهيتك (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) في دعواهم أن معك إلهاً ، فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا ، إذ أذكرهم أخذ الميثاق على كل واحد منهم . وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر ، وركَّب فيهم عقولا وأفهاماً عرفوا بها ما عرض عليهم . وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية : إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفاً ، ومعنى إشهادهم على أنفسهم : اضطرارهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين . ولما عرفوا ذلك ودعاهم كلُّ ما يرون ويشاهدون إلى التصديق ، كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهِدين على أنفسهم بصحته ، كما قال : (شاهدين على أنفسهم بالكفر) [التوبة : ١٧] يريدهم بمنزلة الشاهدين ، وإن لم يقولوا : نحن كفرة ، كما يقول الرجل : قد شهدتْ جوارحي بصدقك ، أي : قد عرفْته . ومن هذا الباب قوله : (شهد الله) [آل عمران : ١٩] أي : بيَّن وأعلم وقد حكى نحو هذا القول ابن الأنباري ، والأول أصح ، لموافقة الآثار .(١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك نُفصِّل الآيات) أي : وكما بيَّنا في أخذ الميثاق الآيات ، ليتدبَّرها العباد فيعملوا بموجبها . (ولعلهم يرجعون) أي : ولكي يرجعوا عمَّا هم عليه من الكفر إلى التوحيد .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

قوله تعالى : (واتل عليهم) قال الزجاج : هذا نسق على ما قبله ، والمعنى :

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ في تفسير هذه الآية .

أتل عليهم إذ أخذ ربك ، (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) وفيه ستة أقوال .

أحدها : أنه رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن أبر ، قاله ابن مسعود . وقال ابن عباس : بلعم بن باعوراء . وروي عنه : أنه بلعام بن باعور ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي . وروى العوفي عن ابن عباس أن بلعماً من أهل اليمن . وروى عنه ابن أبي طلحة أنه من مدينة الجبَّارين .

والثاني : أنه أُميَّة بن أبي الصلت ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسعيد ابن المسيب ، وأبو روق ، وزيد بن أسلم ، وكان أمية قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسِل رسولاً ، ورجا أن يكون هو ، فلما بُعث النبي ﷺ ، حسده وكفر .

والثالث : أنه أبو عامر الراهب ، روى الشعبي عن ابن عباس قال : الأنصار تقول : هو الراهب الذي بُني له مسجد الشِّقاق ، وروي عن ابن المسيب نحوه .

والرابع : أنه رجل كان في بني إسرائيل ، أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، وكانت سمجة دميمة ، فقالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا الله لها ، فلما علمت أن ليس في بني إسرائيل مثلها ، رغبت عن زوجها وأرادت غيره ، فلما رغبت عنه ، دعا الله أن يجعلها كلبة نبَّاحَةً ، فذهبت منه فيها دعوتان ، فجاء بنوها وقالوا : ليس بنا على هذا صبر أن صارت أمُّنا كلبةً نبَّاحةً يعيِّرنا الناس بها ، فادع الله أن يردَّها إلى الحال التي كانت عليها أولاً ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، فذهبت فيها الدعوات الثلاث ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، والذي روي لنا في هذا الحديث « وكانت سَمِجَة » بكسر الميم ، وقد روى سيبويه عن العرب أنهم يقولون : رجل سَمْج : بتسكين الميم ، ولم يقولوا : سَمِج ؛ بكسرها .

والخامس : أنه المنافق ، قاله الحسن .

والسادس : أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أُعطيَه من اليهود والنصارى والحنفاء ، قاله عكرمة . وفي الآيات خمسة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

والثاني : أنها كتاب من كتب الله عز وجل . روى عكرمة عن ابن عباس قال : هو بلعام، أوتي كتاباً فانسلخ منه .

والثالث : أنه أوتي النُّبُوَّةَ ، فَرَشاهُ قومه على أن يسكت ، ففعل وتركهم على ما هم عليه ، قاله مجاهد ، وفيه بُعد ، لأن الله تعالى لا يصطفي لرسالته إلا معصوماً عن مثل هذه الحال .

والرابع : أنها حُجج التوحيد ، وفهم أدلّته .

والخامس : أنها العلم بكتب الله عز وجل . والمشهور في التفسير أنه بلعام، وكان من أمره على ما ذكره المفسرون أن موسى عليه السلام غزا البلد الذي هو فيه ، وكانوا كفاراً ، وكان هو مجاب الدعوة ، فقال ملكهم : ادع على موسى ، فقال : إنه من أهل ديني ، ولا ينبغي لي أن أدعوَ عليه ، فأمر الملك أن تنحت خشبة لصَلبه ، فلما رأى ذلك ، خرج على أتان له ليدعوَ على موسى ، فلما عاين عسكرهم ، وقفت الأتان فضربها ، فقالت : لم تضربني ، وهذه نار تتوقّد قد منعتني أن أمشي ؟ فارجع ، فرجع إلى الملك فأخبره ، فقال : إما أن تدعوَ عليهم ، وإما أن أصلبك ، فدعا على موسى باسم الله الأعظم أن لا يدخل المدينة ، فاستجاب الله له ، فوقع موسى وقومه في التيه بدعائه ، فقال موسى : ياربِّ ، بأي ذنب وقعنا في التيه ؟ فقال : بدعاء بلعم . فقال : يارب ، فكما سمعت دعاءه عليَّ ، فاسمع دعائي عليه ، فدعا اللهَ أن ينزع منه الاسم الأعظم ، فنُزع منه . وقيل: إن بلعام أمر قومه أن

يزيِّنوا النساء ويرسلوهنَّ في العسكر ليَفشو الزنا فيهم ، فيُنصروا عليهم . وقيل : إن موسى قتله بعد ذلك . وروى السدي عن أشياخه أن بلعم أتى إلى قومه متبرِّعاً ، فقال : لا ترهبوا بني إسرائيل ، فانكم إذا خرجتم لقتالهم ، دعوتُ عليهم فهلكوا ، فكان فيما شاء عندهم من الدنيا ، وذلك بعد مضي الأربعين سنة التي تاهوا فيها ، وكان نبيهم يوشع ، لا موسى .

قوله تعالى : (فانسلخ منها) أي : خرج من العلم بها .

قوله تعالى : (فأَتْبعه الشيطان) قال ابن قتيبة : أدركه . يقال : اتَّبعتُ القوم : إذا لحقتَهم ، وتبعتُهم : سرتُ في أثرهم وقرأ طلحة بن مصرِّف : « فاتَّبعه » بالتشديد . وقال اليزيدي : أتْبعه واتَّبعه : لغتان . وكأن « أتْبعه » خفيفة بمعنى : قفاه ، و « اتَّبعه » مشددة : حذا حذوه . ولا يجوز أن تقول : أتبعناك ، وأنت تريد : اتَّبعناك ، لأن معناها : اقتدينا بك . وقال الزجاج : يقال : تبع الرجل الشيء واتَّبعه بمعنى واحد . قال الله تعالى : (فمن تَبِعَ هُدَايَ) [البقرة : ٣٨] وقال : (فأتبعهم فرعونُ) [يونس : ٩٠] .

قوله تعالى : (فكان من الغاوين) فيه قولان .

أحدهما : من الضالين ، قاله مقاتل . والثاني : من الهالكين الفاسدين ، قاله الزجاج .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو شئنا لرفعناه بها) في هاء الكناية في « رفعناه » قولان .

أحدهما : أنها تعود إلى الإنسان المذكور ، وهو قول الجمهور ؛ فيكون المعنى : ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه .

والثاني : أنها تعود إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا ، وهذا المعنى مروي عن مجاهد . وقال الزجاج : لو شئنا لحُلْنا بينه وبين المعصية .

قوله تعالى : (ولكنه أخلد إلى الأرض) أي : ركن إلى الدنيا وسكن . قال الزجاج : يقال : أخلد وخلد ، والأول أكثر في اللغة . والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا ، لأن الدنيا هي الأرض بما عليها . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنه رَكَن إلى أهل الدنيا ، ويقال : إنه أرضى امرأته بذلك ، لأنها حملته عليه . وقيل : أرضى بني عمه وقومه .

والثاني : أنه ركن إلى شهوات الدنيا ؛ وقد بُيِّن ذلك بقوله : (واتَّبع هواه) والمعنى أنه انقاد لما دعاه إليه الهوى . قال ابن زيد : كان هواه مع قومه . وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى .

قوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) معناه : أن هذا الكافر ، إن زجرتَه لم ينزجر ، وإن تركتَه لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب ، فانه إن طُرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً ، وإن تُرك وربض كان أيضاً لاهثاً ، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة ؛ فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثاً ؛ وإنما شبهه بالكلب اللاهث ، لأنه أخسُّ الأمثال على أخس الحالات وأبشعها . وقال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب ، فانه يلهث في حال راحته وحال كلاله ، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته ، فقال : إن

وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله رابضاً لهث . قال المفسرون : زُجِرَ في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم ينزجر ، وخاطبته أتانه فلم ينته ، فضُرِب له هذا المثل ولسائر الكفار ؛ فذلك قوله : (ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا) لأن الكافر إن وعظتَه فهو ضال ، وإن تركتَه فهو ضال ؛ وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأته رسول ولا بيِّنة .

قوله تعالى : (فاقصص القصص) قال عطاء : قصَصَ الذين كفروا وكذَّبوا أنبياءهم .

﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ . مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ساء مثلاً) يقال : ساء الشيء يسوء : إذا قَبُح ، والمعنى : ساء مثلاً مثل القوم ، فحُذِف المضاف ، فنُصب « مثلاً » على التمييز .

قوله تعالى : (وأنفسَهم كانوا يظلمون) أي : يضُرُّون بالمعصية .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد ذرأنا) أي : خلقنا . قال ابن قتيبة : ومنه ذرية الرجل ، إنما هي الخلق منه ، ولكن همزها يتركه أكثر العرب .

قوله تعالى : (لجهنم) هذه اللام يسميها بعض أهل المعاني لام العاقبة ، كقوله : (ليكون لهم عدواً وحزناً) [القصص : ٨] ومثله قول الشاعر :

أَمْوالُنَا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعزّيه بموت ابنه ، فقال :

تعزَّ أميرَ المؤمنينَ فإنَّه لما قدْ ترَى يُغْذَى الصَّغِيرُ ويُولَدُ

وقد أخبر الله عز وجل في هذه الآية بنفاذ علمه فيهم أنهم يصيرون إليها بسبب كفرهم .

قوله تعالى : (لهم قلوب لا يفقهون بها) لمّا أعرض القوم عن الحق والتفكر فيه ، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يُبصر ولم يسمع . وقال محمد بن القاسم النحوي : أراد بهذا كله أمر الآخرة ، فإنهم يعقلون أمر الدنيا .

قوله تعالى : (أولئك كالأنعام) شبَّههم بالأنعام لأنها تسمع وتبصر ولا تعتبر ، ثم قال : (بل هم أضل) لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ماتبصره ، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند ، فيُقدِم على النار ، (أولئك هم الغافلون) عن أمر الآخرة .

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى) سبب نزولها أن رجلاً دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمنَ ، فقال أبو جهل : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فأنزل الله هذه الآية ، قاله مقاتل . فأما الحسنى ، فهي تأنيث الأحسن . ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى ، وليس المراد أن فيها ماليس

بحسن . وذكر الماوردي أن المراد بذلك مامالت إليه النفوس من ذكره بالعفو والرحمة دون السخط والنقمة . وقوله : (فادعوه بها) أي : نادوه بها ، كقولك : يا الله ، يارحمن .

قوله تعالى : (وذروا الذين يُلْحِدُون في أسمائه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يُلحِدُون » بضم الياء ، وكذلك في (النحل : ١٠٣) و (السجدة) [فصلت ٤٠] . وقرأ حمزة : « يَلحَدون » بفتح الحاء والياء فيهن ، ووافقه الكسائي ، وخلف في (النحل : ١٠٣) . قال الأخفش : أَلْحَدَ ولَحَدَ : لغتان ؛ فمن قرأ بهما أراد الأخذ باللغتين ، فكأن الإلحاد : العدول عن الاستقامة . وقال ابن قتيبة : يجورون عن الحق ويعدلون ؛ [فيقولون : اللات والعزى ومناة وأشباه ذلك] ومنه لَحْدُ القبر ، لأنه في جانب . قال الزجاج : ولا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يسمِّ به نفسه ، فيقول : ياجواد ، ولا يقول : ياسخي ؛ ويقول : ياقوي ، ولا يقول : ياجلد ، ويقول : يارحيم ، ولا يقول : يارفيق ، لأنه لم يصف نفسه بذلك . قال أبو سليمان الخطابي : ودليل هذه الآية أن الغلط في أسمائه والزيغ عنها إلحادٌ ، ومما يُسمع على ألسنة العامة قولهم : ياسبحانُ ، يابرهانُ ، وهذا مهجور مستهجن لاقدوة فيه ، وربما قال بعضهم : يارب طه ويس . وقد أنكر ابن عباس على رجل قال : يارب القرآن . وروي عن ابن عباس أن إلحادهم في أسمائه أنهم سمَّوا بها أوثانهم ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزَّى من العزيز ، ومناة من المنَّان .

فصل

والجمهور على أن هذه الآية محكمة ، لأنها خارجة مخرج التهديد ، كقوله : (ذرني

ومن خلقت وحيداً) [المدثر : ١١]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله : (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) يقتضي الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) أي : يعملون به، (وبه يعدلون) أي : وبالعمل به يعدلون . وفيمن أُريد بهذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون باحسان من هذه الأمة، قاله ابن عباس . وكان ابن جريج يقول : ذُكر لنا أن النبي ﷺ قال : « هذه أُمتي، بالحق يأخذون ويعطون ويقضون » [1] . وقال قتادة : بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال : « هذه لكم وقد أُعطي القومُ مثلها » [2] ثم يقرأ : (ومن قوم موسى أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون) [الاعراف : ١٥٩] .

والثاني : أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب .

والثالث : أنهم الأنبياء . والرابع : أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين كذّبوا بآياتنا) قال أبو صالح عن ابن عباس : هم أهل مكة . وقال مقاتل : نزلت في المستهزئين من قريش .

قوله تعالى : (سنستدرجهم) قال الخليل بن أحمد : سنطوي أعمارهم في اغترار

---

(١) « الطبري » : ١٣/٢٨٦، وابن كثير : ٢/٢٦٩، وخرجه السيوطي في « الدر المنثور » : ٣/١٤٩، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » : ٣/١٤٩ ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وعبد بن حميد .

منهم . وقال أبو عبيدة : الاستدراج : أن يُتدرج إلى الشيء في خُفية قليلاً قليلاً ولا يُهجم عليه ، وأصله من الدَّرَجة ، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مَرقاة مرقاة ؛ ومنه : دَرَجَ الكتابَ : إذا طواه شيئاً بعد شيء ؛ ودرج القوم : إذا ماتوا بعضُهم في إثر بعض . وقال اليزيدي : الاستدراج : أن يأتيه من حيث لايعلم . وقال ابن قتيبة : هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لايعلمون ، ولا يباغتهم به ولا يجاهرهم . وقال الأزهري : سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لايحتسبون ؛ وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطهم به ويركنون إليه ، ثم يأخذهم على غرَّتهم أغفل مايكونون . قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة .

وفي قوله : (من حيث لايعلمون) قولان .

أحدهما : من حيث لايعلمون بالاستدراج . والثاني : بالهلكة .

قوله تعالى : (وأُملي لهم) الإملاء : الإمهال والتأخير .

قوله تعالى : (إن كيدي متين) قال ابن عباس : إن مَكري شديد . وقال ابن فارس : الكيد : المكر ؛ فكل شيء عالجته فأنت تَكيدُه . قال المفسرون : مكر الله وكيده : مجازاة أهل المكر والكيد على نحو ما بينا في سورة (البقرة : ١٥) و (آل عمران : ٥٤) من ذِكر الاستهزاء والخداع والمكر .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (أولم يتفكروا مابصاحبهم من جِنَّة) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ ، علا على الصفا ليلة ، ودعا قريشاً فخذاً فخذاً : يابني فلان ، يابني فلان ، يابني فلان ، فحذَّرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوِّت حتى الصباح ، فنزلت هذه الآية [1] ، قاله الحسن ، وقتادة . ومعنى الآية : أولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم من جِنة ، أي : جنون ، فحثَّهم على التفكر في أمره ليعلموا أنه بريء من الجنون . (إن هو) أي : ماهو (إلا نذير) أي : مخوِّف (مبين) يبيِّن طريق الهدى . ثم حثهم على النظر المؤدِّي إلى العلم فقال : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) ليستدلوا على أن لها صانعاً مدبِّراً ؛ وقد سبق بيان الملكوت في سورة (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) قرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ ، والجحدري : « آجالهم » . ومعنى الآية : أولم ينظروا في الملكوت وفيما خلق الله من الأشياء كلِّها ، وفي أنْ عسى أن تكون آجالهم قد قربت فيهلِكوا على الكفر ، ويصيروا إلى النار (فبأي حديث بعده يؤمنون) يعني القرآن وما فيه من البيان . ثم ذكر سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال : (من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « ونذرهم » بالنون والرفع . وقرأ أبو عمرو : بالياء والرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ويذرْهُم » بالياء مع الجزم خفيفة . فمن قرأ بالرفع ، استأنف ، ومن جزم « ويذرْهم » عطفَ على موضع الفاء . قال سيبويه : وموضعها جزْم ؛ فالمعنى : من يضلل الله يَذَرْه ؛ وقد سبق في سورة (البقرة : ١٥) معنى الطغيان والعَمَه .

---

(١) « الطبري » : ١٣/٢٨٩ ، وابن كثير : ٢/٢٧٠ . وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (يسألونك عن الساعة) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن قوماً من اليهود قالوا : يامحمد ، أخبرنا متى الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن قريشاً قالت : يامحمد ، بيننا وبينك قرابة ، فبيِّن لنا متى الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [١] . وقال عروة : الذي سأله عن الساعة عتبة بن ربيعة . والمراد بالساعة هاهنا التي يموت فيها الخلق .

قوله تعالى : (أيان مرساها) قال أبو عبيدة : أي : متى مُرساها ؟ أي : منتهاها . ومرسا السفينة : حيث تنتهي . وقال ابن قتيبة : « أيّان » بمعنى : متى ؛ و « متى » بمعنى : أيّ حين ، ونرى أن أصلها : أيّ أوانٍ ؛ فحذفت الهمزة [والواو] ، وجعل الحرفان واحداً ، ومعنى الآية : متى ثبوتها ؟ يقال : رسا في الأرض ، أي : ثبت ، ومنه قيل للجبال : رواسي . قال الزجاج : ومعنى الكلام : متى وقوعها ؟

قوله تعالى : (قل إنما علمها عند ربي) أي : قد استأثر بعلمها (لايُجَلّيها) أي : لايظهرها في وقتها (إلا هو) .

قوله تعالى : (ثقلت في السموات والأرض) فيه أربعة أقوال .

---

(١) قال أبو جعفر الطبري (١٣/٢٩٣) والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن قوماً سألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله هـذه الآية ، وجائز أن يكون كانوا من قريش ، وجائز أن يكون كانوا من اليهود ، ولا خبر بذلك عندنا يجوّز قطع القول على أيّ ذلك كان .

أحدها : ثَقُل وقوعها على أهل السموات والأرض، قاله ابن عباس، ووجهه أن الكلَّ يخافونها، محسنهم ومسيئهم.

والثاني : عظُم شأنها في السموات والأرض ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، وابن جريج .

والثالث : خفي أمرها ، فلم يُعلم متى كونها ، قاله السدي .

والرابع : أن « في » بمعنى « على » فالمعنى : ثقلت على السموات والأرض ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (لاتأتيكم إلا بغتة) أي . فجأة [1] .

قوله تعالى : (كأنك حَفِيٌّ عنها) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه من المقدَّم والمؤخَّر ، فتقديره : يسألونك عنها كأنك حفي ، أي : بَرٌّ بهم ، كقوله : (إنه كان بي حفياً) [مريم : ٤٧] . قال العوفي عن ابن عباس ، وأسباط عن السدي : كأنك صديق لهم .

والثاني : كأنك حفي بسؤالهم ، مجيب لهم . قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : كأنك يعجبك سؤالهم . وقال خصيف عن مجاهد : كأنك تحبُّ أن يسألوك عنها . وقال الزجاج : كأنك فَرِح بسؤالهم .

والثالث : كأنك عالم بها ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول ابن زيد ، والفراء .

---

(١) روى البخاري ١٣/٧٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وهو جزء من حديث طويل ، يدل على أن الساعة تأتي بغتة . وقوله : « يليط حوضه » بفتح أوله من الثلاثي ، وبضمه من الرباعي ، والمعنى : يصلحه بالطين والمدر ، فيسد شقوقه ، ليملأه ويسقي منه دوابه .

والرابع : كأنك استحفيت السؤال عنها حتى علمتها ، قاله ابن أبي نجيح عن مجاهد . وقال عكرمة : كأنك سؤول عنها . وقال ابن قتيبة : كأنك معنيّ بطلب علمها . وقال ابن الأنباري : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : يسألونك عنها كأنك حفيّ بها ، والحفيُّ في كلام العرب : المعنيُّ .

قوله تعالى : (قل إنما علمها عند الله) أي : لايعلمها إلا هو (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) قال مقاتل في آخرين : المراد بالناس هاهنا أهل مكة . وفي قوله : « لايعلمون » قولان . أحدهما : لايعلمون أنها كائنة ، قاله مقاتل . والثاني : لايعلمون أن هذا مما استأثر الله بعلمه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ قُلْ لاأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلّا ماشَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لاأملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً) سبب نزولها أن أهل مكة قالوا : يامحمد ، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو ، فنشتري فتربح ، وبالأرض التي تريد أن تجدب ، فترتحل عنها إلى ما قد أخصب ؟ فنزلت هذه الآية ، روي عن ابن عباس . وفي المراد بالنفع والضر قولان .

أحدهما : أنه عامّ في جميع ماينفع ويضر ، قاله الجمهور .

والثاني : أن النفع : الهدى ، والضّر : الضلالة ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (إلا ماشاء الله) أي : إلا ماأراد أن أملكه بتمليكه إياي ؛ ومن هو على هذه الصفة فكيف يعلم علم الساعة ؟ .

قوله تعالى : (ولو كنت أعلم الغيب) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لو كنت أعلم بجدب الأرض وقحط المطر قبل كون ذلك لهيَّأت لسنة الجدب مايكفيها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لو كنت أعلم ما أربح فيه إذا اشتريته لاستكثرت من الخير ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ، قاله مجاهد .

والرابع : لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب لأَجبت عنه . (وما مسني السوء) أي : لم يلحقني تكذيب ، قاله الزجاج . فأما الغيب ، فهو كل ما غاب عنك . ويخرج في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العمل الصالح . والثاني : المال . والثالث : الرزق .

قوله تعالى : (وما مسنيَ السوء) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفقر ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه كل مايسوء ، قاله ابن زيد . والثالث : الجنون ، قاله الحسن . والرابع : التكذيب ، قاله الزجاج . فعلى قول الحسن ، يكون هذا الكلام مبتدأ ، والمعنى : وما بي من جنون إنما أنا نذير ، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني بالنفس : آدم ،

وبزوجها : حواء . ومعنى (ليسكن إليها) : ليأنس بها ويأوي إليها . (فلما تغشَّاها) أي : جامعها . قال الزجاج : وهذا أحسن كناية عن الجماع . والحمل ، بفتح الحاء : ماكان في بطن ، أو أخرجته شجرة . والحمل ، بكسر الحاء : مايُحمل . والمراد بالحمل الخفيف : الماء .

قوله تعالى : (فمرَّتْ به) أي : استمرَّت به ، قعدت وقامت ولم يُثقلها . وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وابن عباس ، والضحاك : « فاستمرت به » . وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، والجوني : « استمارَّت به » بزيادة ألف . وقرأ عبد الله ابن عمرو ، والجحدري : « فمارَّت به » بألف وتشديد الراء . وقرأ أبو العالية ، وأيوب ، ويحيى بن يعمر : « فَمَرَتْ به » خفيفة الراء ، أي : شكّت وتمارت أحملت ، أم لا ؟ (فلما أثقلت) ، أي : صار حملها ثقيلاً . وقال الأخفش : صارت ذا ثقل . يقال : أثمرنا ، أي : صرنا ذوي ثمر .

قوله تعالى : (دعَوا الله ربهما) يعني آدم وحواء (لئن آتيتنا صالحاً) وفي المراد بالصالح قولان .

أحدهما : أنه الإنسان المشابه لهما ، وخافا أن يكون بهيمة ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه الغلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

شرح السبب في دعائهما

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء ، فقال : مايدريك ما في بطنكِ ، لعله كلب أو خنزير أو حمار ؛ وما يدريك من أين يخرج ، أيشق بطنك ، أم يخرج من فيك ، أو من منخريك ؛ فأحزنها ذلك ، فدعوا الله حينئذ ، فجاء إبليس

فقال : كيف تجدينك ؟ قالت : ما أستطيع القيام إذا قعدت ، قال : أفرأيت إن دعوتُ الله ، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم ، أتسمينه باسمي ؟ قالت : نعم . فلما ولدته سويّاً ، جاءها إبليس فقال : لم لاتُسمّينه بي كما وعدتني ؟ فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث ، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث ، فسمته : عبد الحارث ، وقيل : عبد شمس برضى آدم ، فذلك قوله : (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء)[1] . قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « شركاء » بضم الشين والمدّ ، جمع شريك . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « شِرْكاً » مكسورة الشين على المصدر ، لا على الجمع . قال أبو علي : من قرأ « شِرْكاً » حذف المضاف ، كأنه أراد : جعلا له ذا شِرك ، وذوي شريك ؛ فيكون المعنى : جعلا لغيره شِركاً ، لأنه إذا كان التقدير : جَعلا له ذوي شِرك ، فالمعنى : جعلا لغيره شِركاً ؛ وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ « شركاء » . وقال غيره : معنى « شركاء » : شريكاً ، فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) [آل عمران : ١٧٣] . والمراد بالشريك : إبليس ، لأنهما أطاعاه في الاسم ، فكان الشرك في الطاعة ، لا في العبادة ؛ ولم

---

(١) « الطبري » : ١٣/٣٠٧ - ٣٠٨ . ثم قال الطبري عقبه : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء ، وأقسما لئن أعطاهما مافي بطن حواء صالحاً ، ليكونان لله من الشاكرين ، والصلاح قد يشمل معاني كثيرة ، منها الصلاح في استواء الخلق ، ومنها الصلاح في الدين ، والصلاح في العقل والتدبير ، وإذ كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض ، ولا فيه من العقل دليل ، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال : إنهما قالا : لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح .

يقصدا أن الحارثَ ربُّهما ، لكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما ؛ وقد يُطلَق العبد على من ليس بمملوك . قال الشاعر :

وإني لَعبدُ الضَّيف مادَامَ ثَاوياً   وما فيَّ إلا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ العَبْدِ [1]

وقال مجاهد : كان لايعيش لآدم ولد ، فقال الشيطان : إذا وُلد لكما ولد فسمياه عبد الحارث ، فأطاعاه في الاسم ، فذلك قوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما)[2] ، هذا قول الجمهور ، وفيه قول ثان ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أشرك آدم ، إن أول الآية لَشكر ، وآخرها مَثَل ضربه الله لمن يعبده في قوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) . وروى قتادة عن الحسن ، قال : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوَّدوهم ونصَّروهم [3] . وروي عن الحسن ، وقتادة قالا : الضمير في قوله : « جعلا له شركاء » عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم ، لا إلى آدم وحواء . وقيل : الضمير راجع إلى الولد الصالح ، وهو السليم الخَلْق ، فالمعنى : جعل له ذلك الولدُ شركاء . وإنما قيل : « جعلا » لأن حواء كانت تلد في كل

---

(١) البيت المقنع الكندي وهو في « الحماسة » ٣/١١٨٠ ، و « الأمالي » ١/٢٧٧ ، ورواية الشطر الثاني فيها : « وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا » .

(٢) « الطبري » : ١٣/٣١٢ ، وابن كثير : ٢/٢٧٥ من طريق ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب .

(٣) « الطبري » : ١٣/٣١٥ ، وابن كثير : ٢/٢٧٥ وقال : وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ماحملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله وورعه ، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب ، أو وهب بن منبه ، وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، إلا اننا برئنا من عهدة المرفوع والله اعلم .

بطن ذكراً وأنثى . قال ابن الأنباري : الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء . فتأويل الآية : فلما آتاهما صالحاً ، جعل أولادُهُما له شركاء ، فحذف الأولاد وأقامها مقامهم كما قال : (واسأل القرية) [يوسف : ٨٢] . وذهب السدي إلى أن قوله :(فتعالى الله عما يشركون) في مشركي العرب خاصة ، وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

قوله تعالى : (أيشركون مالا يخلق شيئاً) قال ابن زيد : هذه لآدم وحواء حيث سمّيا ولدهما عبد شمس ، والشمس لاتخلق شيئاً . وقال غيره : هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام ، وهي لاتخلق شيئاً . وقوله : (وهم يُخلَقون) أي : وهي مخلوقة . قال ابن الأنباري : وإنما قال : « ما » ثم قال : « وهم يُخلَقون » لأن « ما » تقع على الواحد والاثنين والجميع ؛ وإنما قال : « وهم » وهو يعني الأصنام ، لأن عابديها ادّعَوا أنها تعقل وتميّز ، فأجريت مجرى الناس ، فهو كقوله : (رأيتهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] ، وقوله : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) [النمل : ١٨] ، وقوله : (وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤٠] ، قال الشاعر :

تَمَزَّزْتُها والدِّيكُ يَدْعُو صَباحَهُ إِذَا مَابَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتصوَّبُوا

وأنشد ثعلب لعبدة بن الطبيب :

إِذْ أَشْرَفَ الدِّيْكُ يَدْعُو بَعْضَ أُسْرَتِه

لَدَى الصَّبَاحِ وَهُمْ قَوْمٌ مَعَازِيْلُ[1]

---

(١) البيت في « المفضليات » : ١٤٣ من قصيدة قالها بعد وقعة القادسية حين التقى المسلمون بالفرس في وقعة بابل سنة ١٣ ، فهزموهم وتتبعوهم إلى المدائن . والمعازيل : العزل من السلاح .

لمّا جعله يدعو ، جعل الدّيكة قوماً ، وجعلهم معازيل ، وهم الذين لاسلاح معهم ، وجعلهم أُسرة ؛ وأسرة الرجل : رهطه وقومه .

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا يستطيعون لهم نصراً) يقول : إن الأصنام لاتستطيع نصر مَنْ عبدها ، ولا تمنع مِن نفسها .

﴿ وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدَى لايَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أدَعَوْتُمُوهُمْ أمْ أنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن تدعوهم) فيه قولان .

أحدها : أنها ترجع إلى الأصنام ، فالمعنى : وإن دعوتم أيها المشركون أصنامكم إلى سبيل رشاد لا يتبعوكم ، لأنهم لا يعقلون .

والثاني : أنها ترجع إلى الكفار ، فالمعنى : وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين إلى الهدى ، لا يتَّبعوكم ، فدعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء ، لأنهم لا ينقادون إلى الحق . وقرأ نافع « لا يَتْبعوكم » بسكون التاء .

﴿ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ألَهُمْ أرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أمْ لَهُمْ أيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أمْ لَهُمْ أعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ . إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله) يعني الأصنام (عبادٌ أمثالكم) في أنهم مسخَّرون مذلَّلون لأمر الله . وإنما قال « عباد » وقال (فادعوهم) ، وإن كانت الأصنام جماداً ، لما بيَّنا عند قوله : (وهم يُخلقون) .

قوله تعالى : (فليستجيبوا لكم) أي : فليجيبوكم (إن كنتم صادقين) أنَّ لكم عندهم نفعاً وثواباً . (ألهم أرجل يمشون بها) في المصالح (أم لهم أيد يبطشون بها) في دفع ما يؤذي . وقرأ أبو جعفر « يبطُشون » بضم الطاء هاهنا وفي (القصص : ١٩) و (الدخان : ١٦) . (أم لهم أعين يبصرون بها) المنافع من المضار (أم لهم آذان يسمعون بها) تضرعكم ودعاءكم ؛ وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين ، وتوبيخ لهم حيث عبدوا مَنْ هم أفضل منه . (قل ادعوا شركاءكم) قال الحسن : كانوا يخوِّفونه بآلهتهم ، فقال الله تعالى : « قل ادعوا شركاءكم » ، (ثم كيدوني) أنتم وهم (فلا تنظرون) أي : لا تؤخِّروا ذلك . وكان ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي يقرؤون « ثم كيدون » بغير ياء في الوصل والوقف . وقرأ أبو عمرو ، ونافع في رواية ابن حماد بالياء في الوصل . وروى ورش ، وقالون ، والمسيّبي بغير ياء في الوصل ، ولا وقف . فأما « تنظرون » فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصل والوقف . (إن وَلِيّيَ الله) أي: ناصري (الذي نزّل الكتاب) وهو القرآن ، أي : كما أيَّدني بانزال الكتاب ينصرني .

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذين تدعون من دونه) يعني الأصنام (لا يستطيعون نصركم) أي : لا يقدرون على منعكم ممن أرادكم بسوء ، ولا يمنعون أنفسهم من سوء أريد بهم .

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا) في المراد بهؤلاء قولان .

أحدهما : أنهم الأصنام . ثم في قوله : (وتراهم ينظرون إليك) قولان . أحدهما يواجهونك ، تقول العرب : داري تنظر إلى دارك ، (وهم لا يبصرون) لأنه ليس فيهم أرواح . والثاني : وتراهم كأنهم ينظرون إليك ، لأن لهم أعيناً مصنوعة ، فأسقط كاف التشبيه ، كقوله : (وترى الناس سكارى) [الحج : ٢] أي : كأنهم سكارى ، (وهم لا يبصرون) في الحقيقة . وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم ، لأنهم على هيئة بني آدم .

والقول الثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (خذ العفو) العفو : الميسور ، وقد سبق شرحه في سورة (البقرة : ٢١٩) . وفي الذي أمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال .

أحدها : أخلاق الناس ، قاله ابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد [١] فيكون

---

(١) « الطبري » : ١٣/٣٢٦ - ٣٢٧ ، وابن كثير : ٢/٢٧٧ . وروى البخاري في « صحيحه » ٨/٢٢٩ عن عبد الله بن الزبير (خذ العفو وأمر بالعرف) قال : ما أنزل الله [أي هذه الآية] إلا في أخلاق الناس . وروى البخاري أيضاً ٨/٢٢٩ أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن ابن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شباناً ، فقال عيينة لابن أخيه : ياابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هِيْ ياابن الخطاب ، فوالله ماتعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همّ به ، فقال له الحر : —

المعنى : إقبل الميسور من أخلاق الناس ، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء .

والثاني : أنه المال ، وفيه قولان . أحدهما : أن المراد بعفو المال : الزكاة ، قاله مجاهد في رواية الضحاك . والثاني : أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة ، ثم نُسخت بالزكاة ، روي عن ابن عباس[١] .

والثالث : أن المراد به : مساهلة المشركين والعفو عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ، قاله ابن زيد[٢] .

قوله تعالى : (وأْمر بالعرف) أي : بالمعروف .

وفي قوله : (وأعرض عن الجاهلين) قولان .

أحدهما : أنهم المشركون ، أمر بالإعراض عنهم ، ثم نُسخ ذلك بآية السيف

والثاني : أنه عام فيمن جهل ، أُمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم ، وإن وجب عليه الإنكار عليهم . وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة ، وعند بعضهم أن وسطها محكم ، وطرفيها منسوخان على ما بيّنا .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾

ـــ يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : (خذ العفو وأْمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين ، والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله .

(١) « الطبري » : ١٣/٣٢٨ .

(٢) وقال الطبري ١٣/٣٢٩ : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : معناه : خذ العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم ، وقال : أمر بذلك النبي ﷺ في المشركين .

قوله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) قال ابن زيد : لما نزلت « خذ العفو » قال النبي ﷺ « يارب كيف بالغضب » ؟ فنزلت هذه الآية [1].

فأما قوله « وإما » فقد سبق بيانه في سورة (البقرة) في قوله : (فاما يأتينكم مني هدى) [البقرة : ٣٨] ، وقال أبو عبيدة : ومجاز الكلام : وإما تستخفَنَّك منه خفة وغضب وعَجَلَة . وقال السدي : النزغ : الوسوسة وحديث النفس . قال الزجاج : النزغ : أدنى حركة تكون ، تقول : قد نزغته : إذا حركته . وقد سبق معنى الاستعاذة .

قوله تعالى : (إذا مسهم طيف) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : « طيف » بغير ألف . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : « طائف » بألف ممدوداً مهموزاً . وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، والجحدري ، والضحاك : « طَيِّفٌ » بتشديد الياء من غير ألف . وهل الطائف والطيف بمعنى واحد ، أم يختلفان ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما بمعنى واحد ، وهما ماكان كالخيال والشيء يُلم بك ، حكي عن الفراء . وقال الأخفش : الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف ، قال الشاعر :

أَلا يالَقَوْمٍ لِطَيْفِ الخَيَال أَرَّقَ مِنْ نَازِحٍ ذي دَلالِ [2]

والثاني : أن الطائف : مايطوف حول الشيء ، والطيف : اللَّمة والوسوسة

---

(١) « الطبري » : ١٣/٣٣٣ ، وابن كثير : ٢/٢٧٨ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/١٥٤ عن ابن جرير الطبري . وابن زيد : هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

(٢) البيت لأمية بن عائذ في شرح « أشعار الهذليين » ٢/٤٩٤ ، قال السكري : الطيف : ماجاء في المنام ، يقول : هذا الخيال جاء من امرأة نازحة ذات دلال ، والدلال : الشكل والهيئة الحسنة ، والنازح : البعيد ، والأرق : أن يغمض عينه مرة ويفتحها أخرى ، ويروى : « يؤرق » أي : يسهر غيره .

والخَطْرة ، حكي عن أبي عمرو وروي عن ابن عباس أنه قال : الطائف : اللَّمة من الشيطان ، والطيف : الغضب . وقال ابن الأنباري : الطائف : الفاعل من الطيف ؛ والطيف عند أهل اللغة : اللَّمم من الشيطان ؛ وزعم مجاهد أنه الغضب .

قوله تعالى : (تذكَّروا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : تذكَّروا الله إذا همُّوا بالمعاصي فتركوها ، قاله مجاهد .

والثاني : تفكَّروا فيما أُوضح الله لهم من الحجة ، قاله الزجاج .

والثالث : تذكَّروا غضب الله ؛ والمعنى : إذا جرَّأهم الشيطان على مالا يحل ، تذكَّروا غضب الله ، فأمسكوا ، فاذا هم مبصرون لمواضع الخطأ بالتفكر .

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإخوانهم) في هذه الهاء والميم قولان .

أحدها : أنها عائدة على المشركين ؛ فتكون هذه الآية مقدَّمة على التي قبلها ، والتقدير : وأعرض عن الجاهلين ، وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين (يمدُّونهم في الغَيِّ) قرأ نافع : « يُمدونهم » بضم الياء وكسر الميم . والباقون : بفتح الياء وضم الميم . قال أبو علي : عامة ماجاء في التنزيل فيما يُحمَد ويُستَحب : أمددت ، على أفعلت ، كقوله : (أتمدونن بمال) [النمل : ٣٦] (أنما نمدهم به من مال) [المؤمنون : ٥٥] (وأمددناهم بفاكهة) [الطور : ٢٢] ، وما كان على خلافه يجيء على : مددت ؛ كقوله : (ويمدهم في طغيانهم) [البقرة : ١٥] ؛ فهذا يدل على أن الوجه فتح الياء ، إلا أن وجه قراءة نافع بمنزلة (فبشِّرهم بعذاب أليم) [التوبة : ٣٤] . قال المفسرون : « يمدونهم في الغي » أي : يزيِّنونه لهم ،

ويريدون منهم لزومه ؛ فيكون معنى الكلام : إن الذين اتَّقَوا إذا جرَّهم الشيطان إلى خطيئة ، تابوا منها ، وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدُّونهم في الغي ، هذا قول الأكثرين من العلماء . وقال بعضهم : الهاء والميم ترجع إلى الشياطين ، وقد جرى ذكرهم لقوله : « من الشيطان » ؛ فالمعنى : وإخوان الشياطين يَمدُّونهم.

والثاني : أن الهاء والميم ترجع إلى المتقين ؛ فالمعنى : وإخوان المتقين من المشركين ، وقيل : من الشياطين يمدونهم في الغي ، أي : يريدون من المسلمين أن يدخلوا معهم في الكفر ، ذكر هذا القول جماعة منهم ابن الأنباري . فان قيل : كيف قال : « وإخوانهم » وليسوا على دينهم ؟ فالجواب : أنا إن قلنا : إنهم المشركون ، فجائز أن يكونوا إخوانهم في النسب ، أو في كونهم من بني آدم ، أو لكونهم يظهرون النصح كالإخوان ؛ وإن قلنا : إنهم الشياطين ، فجائز أن يكونوا لكونهم مصاحبين لهم ، والقول الأول أصح .

قوله تعالى : (ثم لايقصرون) وقرأ الزهري ، وابن أبي عبلة : « لايقصِّرون » بالتشديد . قال الزجاج : يقال : أقصر يُقْصِر ، وقصّر يقصِّر . قال ابن عباس : لا الإنس يقصِّرون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تُقصِر عنهم ؛ فعلى هذا يكون قوله : « يقصرون » من فعل الفريقين ، وهذا على القول المشهور ؛ ويخرّج على القول الثاني أن يكون هذا وصفاً للاخوان فقط .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا لم تأتهم بآية) يعني به المشركين . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : إذا لم تأتهم بآية ، سألوها تعنتاً ، قاله ابن السائب .

والثاني : إذا لم تأتهم بآية لإبطاء الوحي ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (لولا اجتبيتها) قولان .

أحدهما : هلاَّ افتعلتها من تلقاء نفسك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، والفراء ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين ، وحكي عن الفراء أنه قال : العرب تقول : اجتبيت الكلام ، واختلقته ، وارتجلته : إذا افتعلته من قبل نفسك .

والثاني : هلاَّ طلبتها لنا قبل مسألتك ؟ ذكره الماوردي ؛ والأول أصح .

قوله تعالى : (قل إنما أتَّبع مايوحى إليَّ من ربي) أي : ليس الأمر لي .

قوله تعالى : (هذا بصائر من ربكم) يعني القرآن . قال أبو عبيدة : البصائر بمعنى الحجج والبرهان والبيان ، واحدتها : بصيرة . وقال الزجاج : معنى البصائر : ظهور الشيء وبيانه .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة ، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم ، فنزلت هذه الآية[1] ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن المشركين كانوا يأتون رسول الله إذا صلى ، فيقول بعضهم لبعض : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن المسيب .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ١٥٥/٣ عن ابن مردويه من رواية ابن عباس .

والثالث : أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئاً ، قرأ هو ، فنزلت هذه الآية ، قاله الزهري .

والرابع : أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت ، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه : كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والخامس : أنها نزلت تأمر بالإنصات للامام في الخطبة يوم الجمعة ، روي عن عائشة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومجاهد ، وعمرو بن دينار في آخرين [1] .

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (واذكر ربك في نفسك) في هذا الذكر أربعة أقوال .

أحدها : أنه القراءة في الصلاة ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا ، أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار .

والثاني : أنه القراءة خلف الإمام سراً في نفسه ، قاله قتادة .

والثالث : أنه ذِكْرُ الله باللسان .

والرابع : أنه ذِكر الله باستدامة الفكر ، لا يغفل عن الله تعالى ، ذكر القولين الماوردي . وفي المخاطب بهذا الذِكر قولان .

أحدها : أنه المستمع للقرآن ، إما في الصلاة ، وإما من الخطيب ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه خطاب النبي ﷺ ، ومعناه عام في جميع المكلفين .

---

(١) قال الطبري ١٣/٣٥٢ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الامام وكان من خلفه ممن يأتم به يسمعه ، وفي الخطبة .

قوله تعالى : (تضرعاً وخيفة) التضرع : الخشوع في تواضع ؛ والخيفة : الحذر من عقابه .

قوله تعالى : (ودون الجهر من القول) الجهر : الإعلان بالشيء ؛ ورجل جهير الصوت : إذا كان صوته عالياً . وفي هذا نص على أنه الذِّكر باللسان ؛ ويحتمل وجهين . أحدهما : قراءة القرآن . والثاني : الدعاء ، وكلاهما مندوب إلى إخفائه [1] ، إلا أن صلاة الجهر قد بُيّن أدبها في قوله : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) [الاسراء : ١١٠] . فأما الغدوُّ فهو جمع غُدوة ؛ والآصال جمع أُصُل ، والأُصُل جمع أصيل ؛ فالآصال جمع الجمع ، والآصال : العشيات . وقال أبو عبيدة : هي ما بين العصر إلى المغرب ؛ وأنشد :

لَعَمْري لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَه وأقْعُدُ في أفيائه بالأصائلِ [2]

وروي عن ابن عباس أنه قال : يعني بالغدوّ : صلاةَ الفجر ؛ والآصال : صلاة العصر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين عند ربك) يعني الملائكة . (لايستكبرون) أي : لايتكبّرون ويتعظّمون (عن عبادته) وفي هذه العبادة قولان .

---

(١) روى البخاري ٦/٩٤ ، ومسلم ٤/٢٠٧٦ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي ﷺ : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » واللفظ لمسلم .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في « ديوان الهذليين » : ١/١٤١ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٣٩ ، و « الأغاني » : ٦/٥٧ ، و « الخزانة » : ٢/٤٧٩ ، ٥٦٤ .

أحدهما : الطاعة . والثاني : الصلاة والخضوع فيها .

وفي قوله : (ويسبحونه) قولان .

أحدهما : ينزّهونه عن السوء . والثاني : يقولون : سبحان الله .

قوله تعالى : (وله يسجدون) أي : يصلّون . وقيل : سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا : أنسجد لما تأمُرنا ؛ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً منكم ، لايتكبّرون عن عبادة الله . وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ويقول : ياويله ، أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار »[1] .

★ ★ ★

(١) رواه مسلم ١/٨٧ ، وابن ماجه ١/٣٣٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/١٥٨ وزاد نسبته للبيهقي .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

وهي مدنية بإجماعهم . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن فيها سبع آيات مكيات ، أولها : (وإذ يمكر بك الذين كفروا) [الانفال : ٣٠] .

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » ، فأما المشيخة ، فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان ، فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم ، فانا كنا لكم ردءاً ؛ فأبوا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت سورة (الأنفال) ، رواه عكرمة عن ابن عباس [1] .

---

(١) « الطبري » : ١٣/٣٦٨ ، ورواه أبو داود في « سننه » ٣/١٠٢ رقم (٢٧٣٧) مع اختلاف يسير ، وكذلك البيهقي ٦/٢٩١ - ٢٩٢ ، والحاكم ٢/١٣١ - ١٣٢ ، وقال : ــــ

والثاني : أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر ، فقال : يارسول الله ، هبه لي ، فنزلت هذه الآية ، رواه مصعب بن سعد عن أبيه [١] . وفي رواية أخرى عن سعد قال : قتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه فأتيت به رسول الله ، فقال : « اذهب فاطرحه في القَبَض » فرجعت ، وبي مالا يعلمه إلا الله ؛ فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت سورة (الأنفال) ، فقال : « اذهب فخذ سيفك » [٢] .

وقال السدي : اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السيف ، فسألوا النبي ﷺ ، فأخذه النبي ﷺ منهم ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله ﷺ ، ليس لأحد منها شيء ، فسألوه أن يعطيهم منها شيئاً ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي المراد بالأنفال ستة أقوال :

ـــ صحيح ، وأقره الذهبي ، وخرجه ابن كثير في « تفسيره » ٢/٢٨٤ وزاد نسبته إلى النسائي ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وذكره السيوطي في « الدر » ٣/١٥٩ وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ .

(١) « الطبري » : ١٣/٣٧٦ ، ورواه مسلم ١٢/٥٣ ـ ٥٤ بأطول منه ، وخرجه ابن كثير في « تفسيره » ٢/٢٨٣ ، ورواه البيهقي في « السنن الكبرى » ٦/٢٩١ .

(٢) « المسند » ٣/٧٨ ، و « الطبري » ١٣/٣٧٣ ، و « الأموال » لأبي عبيد (٣٠٣) وهو ضعيف لانقطاعه ، فان محمد بن عبيد الله الثقفي أبو عون لم يدرك سعداً ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في خلال الخبر : قتلت سعيد بن العاص ، وقال غيره : العاص بن سعيد . قال أبو عبيد : هذا عندنا هو المحفوظ . وفي « الاصابة » ٣/٣٦ ، وأخرج البغوي من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد قال : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير ، وقتلت أنا سعيد ابن العاص ، قال الحافظ ابن حجر : كذا فيه ، والصواب : العاص بن سعيد بن العاص ، فانه قتل يوم بدراً كافراً ، أما سعيد بن العاص بن أمية ، فانه مات قبل بدر مشركاً .

أحدها : أنها الغنائم ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك ، وأبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين . وواحد الأنفال : نَفَل ، قال لبيد :

إنَّ تقوىٰ ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذنِ اللهِ ريْثي وعَجَلْ (١)

والثاني : أنها مانفَّله رسول الله ﷺ القاتلَ من سلَبِ قتيله .

والثالث : أنها ماشذ من المشركين إلى المسلمين من عَبْد أو دابة بغير قتال ، قاله عطاء . وهذا والذي قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أنه الخُمس الذي أخذه رسول الله ﷺ من الغنائم ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه أنفال السرايا ، قاله علي بن صالح بن حيّ . وحكي عن الحسن قال : هي السرايا التي تتقدم أمام الجيوش .

والسادس : أنها زيادات يُؤْثِرُ بها الإمام بعضَ الجيش لما يراه من المصلحة ، ذكره الماوري . وفي « عن » قولان .

أحدهما : أنها زائدة ، والمعنى : يسألونك الأنفال ؛ وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وأبو العالية : « يسألونك الأنفال » بحذف « عن » .

والثاني : أنها أصل ، والمعنى : يسألونك عن الأنفال لمن هي ؟ أو عن حكم الأنفال ؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها مايتعلق بالقولين . وذُكر أنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم .

---

(١) ديوانه : ١٧٤ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٤٠ ، و « جمهرة الأشعار » : ٧ ، و « الطبري » : ١٣/٣٦٦ ، و « غريب القرآن » : ١٧٧ ، واللسان : نفل . وقوله : خير نفل ، هذه رواية الأصمعي ، وروى أبو عبيدة : خير النفل ، قال أبو الحسن : النفل : الفضل والعطية . والريث : مصدر رثت أريث : إذا أبطأت .

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية ، فقال بعضهم : إنها ناسخة من وجه ، منسوخة من وجه ، وذلك أن الغنائم كانت حراماً في شرائع الأنبياء المتقدمين ، فنسخ الله ذلك بهذه الآية ، وجعل الأمر في الغنائم إلى مايراه الرسول ﷺ ، ثم نسخ ذلك بقوله : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) [الانفال : ٤١] . وقال آخرون : المراد بالأنفال شيئان .

أحدهما : مايجعله الرسول ﷺ لطائفة من شجعان العسكر ومتقدميه ، يستخرج به نصحهم ، ويحرّضهم على القتال .

والثاني : مايفضُل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّة ، فغنمنا إبلاً ، فأصاب كلٌّ واحد منا اثنا عشر بعيراً ، ونَفَلَنا بعيراً بعيراً ؛ فعلى هذا هي محكمة ، لأن هذا الحكم باقٍ إلى وقتنا هذا .

فصل

ويجوز النَّفَل قبل إحراز الغنيمة ، وهو أن يقول الإمام : من أصاب شيئاً فهو له ، وبه قال الجمهور . فأما بعد إحرازها ، ففيه عن أحمد روايتان . وهل يستحق القاتل سَلَبَ المقتول إذا لم يشرطه له الإمام ؟ فيه قولان .

أحدهما : يستحقه ، وبه قال الأوزاعي ، والليث ، والشافعي .

والثاني : لايستحقه ، ويكون غنيمة للجيش ، وبه قال أبو حنيفة ، ومالك ؛ وعن أحمد روايتان كالقولين .

قوله تعالى : (قل الأنفال لله والرسول) يحكمان فيها ما أرادا ، (فاتقوا الله) بترك مخالفته (وأصلحوا ذات بينكم) قال الزجاج : معنى « ذات بينكم » حقيقة وصلكم . والبين : الوصل ؛ كقوله : (لقد تقطع بينكم) [الانعام : ٩٤] .

ثم في المراد بالكلام قولان . أحدهما : أن يَرُدَّ القويُّ على الضعيف ، قاله عطاء . والثاني : ترك المنازعة تسليماً لله ورسوله .

قوله تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله) أي : اقبلوا ما أُمرتم به في الغنائم وغيرها .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذ ذكر الله) قال الزجاج : إذا ذُكِرتْ عظمتُه وقدرتُه وما خوَّف به من عصاه ، فزعت قلوبهم ، قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما أَدْري وإني لأوجَلُ ... على أيِّنا تَعْدو المنيَّةُ أوَّلُ[1]

يقال : وجِل يَوْجَل ويَاجَل ويِيْجَل ويِيجَل ، هذه أربع لغات حكاها سيبويه . وأجودها : يَوْجَلُ . وقال السدي : هو الرجل يهمُّ بالمعصية ، فيذكر الله فينزع عنها .

قوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته) أي : آيات القرآن .

وفي قوله : (زادتهم إيماناً) ثلاثة أقوال .

أحدها : تصديقاً ، قاله ابن عباس . والمعنى : أنهم كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فيزدادوا إيماناً بزيادة الآيات .

والثاني : يقيناً ، قاله الضحاك .

(١) البيت لمعن بن أوس في « مجاز القرآن » : ١/٢٤٠ ، و « الاقتضاب » : ٤٦٣ و « شرح حماسة أبي تمام » المرزوقي ٣/١١٢٦ ، و « الحماسة البصرية » : ١٤١ ، و « الخزانة » : ٣/٥٠٥ .

والثالث : خشية الله ، قاله الربيع بن أنس . وقد ذكرنا معنى التوكل في (آل عمران : ١٢٢) .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (الذين يقيمون الصلاة) قال ابن عباس : يعني الصلوات الخمس. (ومما رزقناهم ينفقون) يعني الزكاة .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (أولئك هم المؤمنون حقاً) قال الزجاج : « حقاً » منصوب بمعنىً دلت عليه الجملة ، والجملة (أولئك هم المؤمنون) ، فالمعنى : أُحِقُّ ذلك حقاً . وقال مقاتل : المعنى : أولئك هم المؤمنون لا شك في إيمانهم كشكِّ المنافقين .

قوله تعالى : (لهم درجات عند ربهم) قال عطاء : درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ، والرزق الكريم : ما أُعدَّ لهم فيها .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (كما أخرجك ربك) في متعلَّق هذه الكاف خمسة أقوال .

أحدها : أنها متعلقة بالأنفال . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها : أن تأويله : امض لأمر الله في الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت في خروجك من بيتك وهم كارهون ، قاله الفراء . والثاني : أن الأنفال لله والرسول ﷺ بالحق الواجب ، كما

أخرجك ربك بالحق ، وإن كرهوا ذلك ، قاله الزجاج . والثالث : أن المعنى : يسألوك عن الأنفال مجادلة ، كما جادلوك في خروجك ، حكاه جماعة من المفسرين .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : (فاتقوا الله وأصلحوا) ، والمعنى : إن التقوى والاصلاح خير لكم ، كما كان إخراج الله نبيه محمداً خيراً لكم وإن كرهه بعضكم، هذا قول عكرمة .

والثالث : أنها متعلقة بقوله : (يجادلونك) ، فالمعنى : مجادلتهم إياك في الغنائم كاخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون ، قاله الكسائي .

والرابع : أنها متعلقة بقوله : (أولئك هم المؤمنون) ، والمعنى : وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، ذكره بعض ناقلي التفسير .

والخامس : أن « كما » في موضع قَسَم ، معناها : والذي أخرجك من بيتك ، قاله أبو عبيدة ، واحتج بأن « ما » في موضع « الذي » ومنه قوله : (وما خلقَ الذكرَ والأنثى) [الليل : ٣] قال ابن الأنباري : وفي هذا القول بُعْد ، لأن الكاف ليست من حروف الاقسام . وفي هذا الخروج قولان .

أحدهما : أنه خروجه إلى بدر ، وكره ذلك طائفة من أصحابه ، لأنهم علموا أنهم لايظفرون بالغنيمة إلا بالقتال .

والثاني : أنه خروجه من مكة إلى المدينة للهجرة .

وفي معنى قوله : « بالحق » قولان . أحدهما : أنك خرجت ومعك الحق . والثاني : أنك خرجت بالحق الذي وجب عليك .

وفي قوله : (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) قولان .

أحدهما : كارهون خروجك .

والثاني : كارهون صرف الغنيمة عنهم ، وهذه كراهة الطبع لمشقة السفر والقتال ، وليست كراهةً لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ((يجادلونك في الحق) يعني في القتال يوم بدر ، لأنهم خرجوا بغير عُدَّة ، فقالوا : هلاَّ أخبرتنا بالقتال لنأخذ العُدَّة ، فجادلوه طلباً للرخصة في ترك القتال . وفي قوله : (بعدما تبين) ثلاثة أقوال .

أحدها : تبيَّن لهم فرضُه . والثاني : تبيَّن لهم صوابُه . والثالث : تبيَّن لهم أنك لاتفعل إلا ما أُمِرتَ به . وفي « المجادلين » قولان .

أحدهما : أنهم طائفة من المسلمين ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله ابن زيد ، فعلى هذا ، يكون جدالهم في الحق الذي هو التوحيد ، لا في القتال . فعلى الأول ، يكون معنى قوله : (كأنما يساقون إلى الموت) أي : في لقاء العدو (وهم ينظرون) ، لأن أشد حال من يساق إلى الموت أن يكون ناظراً إليه ، وعالماً به . وعلى قول ابن زيد : كأنما يساقون إلى الموت حين يُدعَوْن إلى الإسلام لكراهتهم إياه .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) قال أهل التفسير : أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش ، حتى إذا دنا من بدر ، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فخرج في جماعة من أصحابه يريدهم ، فبلغهم ذلك فبعثوا عمرو ابن ضمضم الغفاري إلى مكة مستغيثاً ، فخرجت قريش للمنع عنها ، ولحق أبو سفيان

بساحل البحر ، ففات رسولَ الله ، ونزل جبريل بهذه الآية : (وإذ يعدكم الله) ، والمعنى : اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين . والطائفتان : أبو سفيان وما معه من المال ، وأبو جهل ومن معه من قريش ؛ فلما سبق أبو سفيان بما معه ، كتب إلى قريش : إن كنتم خرجتم لتُحرِزوا ركائبكم ، فقد أحرزتُها لكم . فقال أبو جهل : والله لانرجع . وسار رسول الله ﷺ يريد القوم ، فكره أصحابه ذلك وودُّوا أن لو نالوا الطائفة التي فيها الغنيمة دون القتال ؛ فذلك قوله : (وتَوَدُّونَ أن غير ذات الشوكة) أي : ذاتِ السلاح . يقال : فلان شاكي السلاحِ ؛ بالتخفيف ، وشاكٌّ في السلاح ؛ بالتشديد ، وشائك . قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة الحد ؛ يقال : ما أشد شوكةَ بني فلان ، أي : حَدَّهم . وقال الأخفش : إنما أنَّث « ذات الشوكة » لأنه يعني الطائفة .

قوله تعالى : (ويريد الله أن يحق الحق) في المراد بالحق قولان .

أحدهما : أنه الإسلام ، قاله ابن عباس في آخرين .

والثاني : أنه القرآن ، والمعنى : يُحِق ما أنزل إليك من القرآن .

قوله تعالى : (بكلماته) أي : بعِداتِه التي سبقت من إعزاز الدين ، كقوله : (ليظهره على الدين كله) [التوبة : ٣٣] .

قوله تعالى : (ويقطع دابر الكافرين) أي : يجتث أصلهم ؛ وقد بيَّنَّا ذلك في (الأنعام : ٤٥) .

قوله تعالى : (ليحق الحق) المعنى : ويريد أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق . وفي هذا الحق القولان المتقدمان . فأما الباطل ، فهو الشرك ؛ والمجرمون هاهنا : المشركون .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم) سبب نزولها ماروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر ، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف ، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة ، فاستقبل القبلة ، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز ماوعدتني ، اللهم أنجز ماوعدتني ، اللهم إنك إن تُهلِكْ هذه العصابةَ لاتُعبَدْ في الأرض أبداً » فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر الصديق فأخذ رداءه فردّاه به ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يانبي الله كذاك [١] مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ماوعدك ؛ وأنزل الله تعالى هذه الآية [٢] .

قوله تعالى : (إذ) قال ابن جرير : هي من صلة « يبطل » . وفي قوله : (تستغيثون) قولان .

أحدهما : تستنصرون . والثاني : تستجيرون . والفرق بينهما أن المستنصر يطلب الظفر ، والمستجير يطلب الخلاص . وفي المستغيثين قولان .

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ والمسلمون ، قاله الزهري .

والثاني : أنه رسول الله ﷺ ، قاله السدي . فأما الإمداد فقد سبق في

(١) هكذا وقع لجماهير رواة مسلم « كذاك » ، ولبعضهم : « كفاك » وكل بمعنى . وفي الطبري ، ومسند أحمد ، وتفسير ابن كثير : كفاك .

(٢) « الطبري » : ١٣/٤٠٩ ، ورواه مسلم ٣/١٣٨٤ مطولاً ، وأحمد في « المسند » رقم ٢٠٨ و ٢٢١ .

(آل عمران : ١٢٤) . وقوله : (بألف) قرأ الضحاك ، وأبو رجاء : «بآلاف» بهمزة ممدودة وبألف على الجمع . وقرأ أبو العالية ، وأبو المتوكل : «بألوف» برفع الهمزة واللام وبواو بعدها على الجمع . وقرأ ابن حَذْلَم[1] ، والجحدري : «بأُلُفٍ» بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف ، وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران : «بِيَلْفٍ» بياء مفتوحة وسكون اللام من غير واو ولا ألف . فأما قوله : (مُردِفين) فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : «مُردِفين» بكسر الدال . قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، والفراء : هم المتابعون . وقال أبو علي : يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكونوا مُردفين مثلهم ، تقول : أردفت زيداً دابتي ؛ فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الآية .

والثاني : أن يكونوا جاؤوا بعدهم ؛ تقول العرب : بنو فلان مُردوفونا ، أي : هم يجيؤون بعدنا . قال أبو عبيدة : مُردِفين : جاؤوا بعدُ . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : «مردَفين» بفتح الدال . قال الفراء : أراد : فُعِلَ ذلك بهم ، أي : إن الله أردف المسلمين بهم . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل الناجي ، وأبو مجلز : «مُرَدَّفين» بفتح الراء والدال مع التشديد . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران : «مُرُدِّفين» برفع الراء وكسر الدال . وقال الزجاج : يقال : ردفت الرجلَ : إذا ركبتُ خلفه ، وأردفتُه : إذا أركبتُه خلفي . ويقال : هذه دابة لاتُرادِف ، ولا يقال : لاتُردِف . ويقال : أردفتُ الرجلَ : إذا جئتَ بعده . فمعنى «مُردفين» يأتون فرقة بعد فرقة . ويجوز في اللغة : مُرَدِّفين ومُرْدِّفين ومُرِدِّفين ، فالدال مكسورة مشددة على كل حال ، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر . قال

---

(١) هو تميم بن حذلم الضبي أبو سلمة الكوفي .

سيبويه : الأصل مرتدفين ، فأدغمت التاء في الدال فصارت مُرَدِّفين لأنك طرحت حركة التاء على الراء ؛ وإن شئت لم تطرح حركة التاء ، وكسرت الراء لالتقاء الساكنين . والذين ضموا الراء ، جعلوها تابعة لضمة الميم . وقد سبق في (آل عمران) تفسير قوله : (وما جعله الله إلا بشرى) [آل عمران:١٢٦] ، وكان مجاهد يقول : ما أمد الله النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذُكرت في (الأنفال : ١٠) ، وما ذَكَر الثلاثةَ والخمسةَ إلا بشرى ، ولم يُمَدُّوا بها ؛ والجمهور على خلافه ، وقد ذكرنا اختلافهم في عدد الملائكة في (آل عمران : ١٢٦) .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾

قوله تعالى : (إذ يغشاكم النعاسُ أمنة منه) قال الزجاج : « إذ » موضعها نصب على معنى : وما جعله الله إلا بشرى ، في ذلك الوقت ، ويجوز أن يكون المعنى : اذكروا إذ يغشاكم النعاس . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « إذ يغشاكم » بفتح الياء وجزم الغين وفتح الشين وألف « النعاسُ » بالرفع . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « يُغَشِّيكم » بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة « النعاسَ » بالنصب . وقرأ نافع : « يُغْشِيكم » بضم الياء وجزم الغين وكسر الشين « النعاسَ » بالنصب . وقال أبو سليمان الدمشقي : الكلام راجع على قوله : (ولتطمئن به قلوبكم) إذ يغشاكم النعاس . قال الزجاج : و « أمنة » منصوب : مفعول له ، كقولك : فعلت ذلك حذر الشر . يقال : أمنتُ آمَنُ أمْناً وأماناً وأمَنَةً .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وأبو العالية ، وابن يعْمر ، وابن محيصن : « أمْنَةً منه » بسكون الميم .

قوله تعالى : (وينزِّلُ عليكم من السماء ماءً) قال ابن عباس : نزل النبي ﷺ يوم بدر ، وبينه وبين الماء رملة ، وغلبهم المشركون على الماء ، فأصاب المسلمينَ الظمأُ ، وجعلوا يصلّون محدِثين ، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة ، يقول : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلّون محدِثين ، فأنزل الله عليهم مطراً ، فشربوا وتطهَّروا ، واشتد الرمل حين أصابه المطر ، وأزال الله رجز الشيطان ، وهو وسواسه ، حيث قال : قد غلبكم المشركون على الماء . وقال ابن زيد : رجز الشيطان : كيده ، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة . وقال ابن الأنباري : ساءهم عدم الماء عند فقرهم إليه ، فأرسل الله السماء ، فزالت وسوسة الشيطان التي تُكسِب عذابَ الله وغضبه ، إذ الرجز : العذاب .

قوله تعالى : (وليربط على قلوبكم) الربط : الشد . و « على » في قول بعضهم صلة ، فالمعنى : وليربط قلوبكم . وفي الذي ربط به قلوبهم وقوّاها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الصبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنه الإيمان ، قاله مقاتل . والثالث : أنه المطر الذي أرسله يثبِّت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها .

قوله تعالى : (ويثبت به الأقدام) في هاء « به » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الماء ؛ فان الأرض كانت رَمِلة ، فاشتدت بالمطر ، وثبتت عليها الأقدام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي في آخرين .

والثاني : أنها ترجع إلى الربط ، فالمعنى : ويثبت بالربط الأقدام ، ذكره الزجاج .

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

قوله تعالى : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم) قال الزجاج : « إذ » في موضع نصب ، والمعنى : وليربط إذ يوحي . ويجوز أن يكون المعنى : واذكروا إذ يوحي . قال ابن عباس : وهذا الوحي إلهام .

قوله تعالى : (إلى الملائكة) وهم الذين أمدَّ بهم المسلمين . (أني معكم) بالعون والنصرة . (فثبّتوا الذين آمنوا) فيه أربعة أقوال .

أحدها : قاتلوا معهم ، قاله الحسن .

والثاني : بشّروهم بالنصر ؛ فكان الملَك يسير أمام الصف في صورة الرجل ، ويقول : أبشروا فإن الله ناصركم ، قاله مقاتل .

والثالث : ثبّتوهم بأشياء تُلقُونها في قلوبهم تقوى بها ، ذكره الزجاج .

والرابع : صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد ، ذكره الثعلبي . فأما الرعب ، فهو الخوف . قال السائب بن يسار : كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السُّوائيّ عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين كيف ؟ كان يأخذ الحصى فيرمي به الطَّست فيطِنُّ ، فيقول : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

قوله تعالى : (فاضربوا فوق الأعناق) في المخاطب بهذا قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة . قال ابن الأنباري : لم تعلم الملائكة أين تقصد بالضرب من الناس ، فعلّمهم الله تعالى ذلك .

والثاني : أنهم المؤمنون، ذكره جماعة من المفسرين . وفي معنى الكلام قولان .

أحدها : فاضربوا الأعناق ، و « فوق » صلة ، وهذا قول عطية ، والضحاك ، والأخفش ، وابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : « فوق » بمعنى « على » ، تقول : ضربته فوق الرأس ، وضربته على الرأس .

والثاني : اضربوا الرؤوس لأنها فوق الأعناق ، وبه قال عكرمة .

وفي المراد بالبنان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الأطراف ، قاله ابن عباس ، والضحاك . وقال الفراء : علَّمهم مواضع الضرب ، فقال : اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل . وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : البنان : أطراف الأصابع . قال ابن الأنباري : واكتفى بهذا من جملة اليد والرِّجل .

والثاني : أنه كل مَفْصِل ، قاله عطية ، والسدي .

والثالث : أنه الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء ، والمعنى : أنه أباحهم قتلهم بكل نوع ، هذا قول الزجاج . قال : واشتقاق البنان من قولهم : أبَنَّ بالمكان : إذا أقام به ؛ فالبنان به يُعتمَل كلُّ مايكون للاقامة والحياة .

قوله تعالى : (ذلك بأنهم شاقُّوا الله) « ذلك » إشارة إلى الضرب ، و « شاقوا » بمعنى : جانبوا ، فصاروا في شِقٍّ غيرِ شِقِّ المؤمنين .

قوله تعالى : (ذلكم فذوقوه) خطاب للمشركين ؛ والمعنى : ذوقوا هذا في عاجل الدنيا . وفي فتح « أنَّ » قولان .

أحدها : باضمار فعل ، تقديره : ذلكم فذوقوه واعلموا أن للكافرين .

والثاني : أن يكون المعنى : ذلك بأن للكافرين عذاب النار . فاذا ألقيت

الباء ، نصبت . وإن شئت ، جعلت « أن » في موضع رفع ؛ يريد : ذلكم فذوقوه، وذلكم أن للـكافرين عذاب النار ، هذا معنى قول الفراء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) الزحف : جماعة يزحفون إلى عدوهم ؛ قاله الليث . والتزاحف : التداني والتقارب ، قال الأعشى :

لِمَنِ الظَّعَائِنُ سَيْرُهُنَّ تَزَحُّفُ

قال الزجاج : ومعنى الكلام : إذا واقفتموهم للقتال فلا تُدبروا (ومن يولّهم) يوم حربهم (دبره) إلا أن يتحرف ليقاتل،أو يتحيز إلى فئة ؛ فـ « متحرِّفاً » و«متحيّزاً » منصوبان على الحال . ويجوز أن يكون نصبهما على الاستثناء ؛ فيكون المعنى : إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً . وأصل متحيز : مُتَحَيْوِز ؛ فأدغمت الياء في الواو .

قوله تعالى : (ومأواه جهنم) أي : مرجعه إليها ؛ ولا يدل ذلك على التخليد .

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : هذه خاصة في أهل بدر ، وهو مروي عن ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، والحسن ، وابن جبير ، وقتادة ، والضحاك . وقال آخرون : هي على عمومها في كل منهزم ؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً . وقال آخرون هي على عمومها ، غير أنها نسخت بقوله : (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) [الانفال:٦٦] فليس للمسلمين أن يفروا من مِثلَيهم ، وبه قال

عطاء بن أبي رباح . وروى أبو طالب عن أحمد أنه سئل عن الفرار من الزحف، فقال : لا يفر رجل من رجلين ؛ فان كانوا ثلاثة ، فلا بأس . وقد نُقل نحو هذا عن ابن عباس . وقال محمد بن الحسن : إذا بلغ الجيش اثني عشر ألفاً ، فليس لهم أن يفروا من عدوهم ، وإن كثُر عددهم . ونقل نحو هذا عن مالك ؛ ووجهه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما هُزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة »[١] إذا صبروا وصدقوا .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة إلا عاصماً « ولكنِ اللهُ قتلهم » « ولكنِ اللهُ رمى » بتخفيف النون ورفع اسم الله فيهما . وسبب نزول هذا الكلام أن أصحاب رسول الله ﷺ لما رجعوا عن بدر جعلوا يقولون : قتَلْنا وقتَلْنا ، هذا معنى قول مجاهد .

فأما قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت) ففي سبب نزوله ثلاثة أقوال .

أحدها : « أن النبي ﷺ قال لعلي : ناولني كفاً من حصباء ، فناوله ، فرمى به في وجوه القوم ، فما بقي منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة »[٢] . وقيل : أخذ قبضة من تراب ، فرمى بها ، وقال : « شاهت الوجوه » ؛ فما بقي مشرك إلا شُغل بعينه يعالج التراب الذي فيها ، فنزلت (وما رميت إذا رميت ولكن الله

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦١١) عن ابن عباس بلفظ : « لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » وقال : والصحيح أنه مرسل ، ورواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ولم يصححه ، لأنه يروى مسنداً ومرسلاً ومعضلاً . قال ابن القطان : لكن هذا ليس بعلة فالأقرب صحته .

(٢) « الطبري » : ١٣/٤٤٥ من رواية السدي ، وابن كثير ٢/٢٩٥ .

رمى) وذلك يوم بدر ؛ هذا قول الأكثرين . وقال ابن الأنباري : وتأويل شاهت : قبحت ؛ يقال : شاه وجهه يشوه شَوهاً وشُوهة ، ويقال : رجل أشوه، وامرأة شوهاء : إذا كانا قبيحين .

والثاني : أن أُبي بن خلف أقبل يوم أُحد إلى النبي ﷺ يريده ، فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله ﷺ ، فخلوا سبيله ، وطعنه النبي ﷺ بحربته ، فسقط أُبيٌّ عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه وهو يخور خُوَار الثور ، فقالوا : إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده ، لو كان الذي بي بأهل الحجاز لماتوا أجمعون ، فمات قبل أن يَقْدَم مكة ؛ فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه .

والثالث : أن رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحُقَيق وهو على فراشه ، فنزلت هذه الآية ، ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين .

قوله تعالى : (ولكن الله قتلهم) اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال .

أحدها : أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم . والثاني : أنه أضاف القتل إليه لأنه تولَّى نصرهم . والثالث : لأنه ساقهم إلى المؤمنين ، وأمكنهم منهم . والرابع : لأنه ألقى الرعب في قلوبهم . وفي قوله : (وما رميت إذ رميت) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : وما ظفرت أنت ولا أصبت ، ولكن الله أظفرك وأيدك ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : وما بلغ رميُك كفاً من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير ، إنما الله تولى ذلك ؛ قاله الزجاج .

والثالث : وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ؛ ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (وليُبلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسناً) أي : ليُنعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر . (إن الله سميع) لدعائهم (عليم) بنيَّاتهم .

قوله تعالى : (ذلكم) قال الزجاج : موضعه رفع ؛ والمعنى : الأمر ذلكم . وقال غيره : « ذلكم » إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن . (وأن الله) أي : واعلموا أن الله . والذي ذكرناه في فتح « أنَّ » في قوله : (وأن للكافرين عذاب النار) هو مذكور في فتح « أن » هذه .

قوله تعالى : (مُوَهِّنٌ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « مُوَهِّنٌ » بفتح الواو وتشديد الهاء منونة « كيدَ » بالنصب . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « موهنٌ » ساكنة الواو « كيدَ » بالنصب . وروى حفص عن عاصم « موهنُ كيدِ » مضاف . والموهن : المضعِف ، والكيد : المكر .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن تستفتحوا) في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن أصحاب رسول الله ﷺ استنصروا الله وسألوه الفتح ، فنزلت هذه الآية ؛ وهذا المعنى مروي عن أُبيِّ بن كعب ، وعطاء الخراساني .

والثاني : أن أبا جهل قال : اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أن المشركين أخذوا بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر ، فقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السدي .

والرابع : أن المشركين قالوا : اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمد ، فافتح بيننا وبينه بالحق ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة .

والخامس : أنهم قالوا بمكة : (اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ...) الآية [الأنفال:٣٢] ، فعذِّبوا يوم بدر ، قاله ابن زيد . فخرج من هذه الأقوال أن في المخاطَبين بقوله : « إن تستفتحوا » قولان .

أحدها : أنهم المؤمنون . والثاني : المشركون ؛ وهو الأشهر .

وفي الاستفتاح قولان .

أحدهما : أنه الاستنصار ؛ قاله ابن عباس ، والزجاج في آخرين . فان قلنا : إنهم المسلمون ، كان المعنى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر بالملائكة ؛ وإن قلنا : إنهم المشركون ؛ احتمل وجهين . أحدهما : إن تستنصروا فقد جاء النصر عليكم . والثاني : إن تستنصروا لأحب الفريقين إلى الله ، فقد جاء النصر لأحب الفريقين .

والثاني : أن الاستفتاح : طلب الحكم ، والمعنى : إن تسألوا الحكم بينكم وبين المسلمين ، فقد جاءكم الحكم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة . فأما قوله : (وإن تنتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب للمشركين على قول الجماعة .

وفي معناه قولان .

أحدها : إن تنتهوا عن قتال محمد ﷺ ، والكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : إن تنتهوا عن استفتاحكم ، فهو خير لكم ، لأنه كان عليهم ، لا لهم ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : (وإن تعودوا نعد) قولان .

أحدهما : وإن تعودوا إلى القتال ، نَعُدْ إلى هزيمتكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : وإن تعودوا إلى الاستفتاح ، نَعُدْ إلى الفتح لمحمد ﷺ ، قاله السدي .

قوله تعالى : (ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً) أي : جماعتكم وإن كثرت ، (وأن الله مع المؤمنين) بالعون والنصر . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « وإن الله » بكسر الألف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « وأن » بفتح الألف . فمن قرأ بكسر « أن » استأنف . قال الفراء : وهو أحب إليّ من فتحها . ومن فتحها ، أراد : ولأن الله مع المؤمنين .

قوله : تعالى (ولا تولَّوا عنه) فيه قولان .

أحدهما : لا تولَّوا عن رسول الله ﷺ .

والثاني : لا تولَّوا عن أمر رسول الله ﷺ (وأنتم تسمعون) ما نزل من القرآن ، روي القولان عن ابن عباس .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ . إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصيّ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في اليهود ، قريظة والنضير ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي ، ومقاتل .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم قالوا : سمعنا ، ولم يتفكَّروا فيما سمعوا ، فكانوا كمن لم يسمع ، قاله الزجاج .

والثاني : أنهم قالوا : سمعنا سماع من يقبل ، وليسوا كذلك ، حكي عن مقاتل .

قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في بني عبد الدار بن قصيّ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في المنافقين ، قاله ابن إسحاق ، والواقدي . والدواب : اسم كل حيوان يَدِبُّ ؛ وقد بيَّنا في سورة (البقرة : ١٨) معنى الصم والبكم ، ولم سمَّاهم بذلك .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : ولو علم فيهم صدقاً وإسلاماً . والثاني : لو علم فيهم خيراً في سابق القضاء . والثالث : لو علم أنهم يَصْلُحون . والرابع : لو علم أنهم يَصْغَوْنَ .

وفي قوله : (لأسمعهم) ثلاثة أقوال .

أحدها : لأسمعهم جواب كلّ ِمايسألون عنه ، قاله الزجاج . والثاني : لرزقهم الفهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والثالث : لأسمعهم كلام الموتى يشهدون بنبوّتك ، حكاه الماوردي . وفي قوله : (وهم معرضون) قولان .

أحدها : مكذّبون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وهم معرضون عما أسمعهم لمعاندتهم ، قاله الزجاج .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (استجيبوا) أي : أجيبوا .

قوله تعالى : (إذا دعاكم) يعني الرسول (لما يحييكم) وفيه ستة أقوال .

أحدها : أن الذي يحييكم : كلُّ ما يدعو الرسولُ إليه ، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس . وفي أفراد البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلّى قال : كنتُ أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أُجبه ، ثم أتيتُه فقلت : يارسول الله ، إني كنت أصلي ، فقال « ألم يقل الله : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ » قلت : بلى ، ولا أعود إن شاء الله . (١)

والثاني : أنه الحق ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث : أنه الإيمان ، رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال السدي .

(١) البخاري : ٨/١١٩ ، ٢٣١ دون قوله « قلت : بلى ولا أعود إن شاء الله » وهذه الزيادة إنما وردت عند أحمد في « المسند » : ١٨/٦٥ بترتيب الساعاتي ، والترمذي : ٢/١١١ من حديث أبي هريرة عن أبي بن كعب رضي الله عنهما .

والرابع : أنه اتباع القرآن ، قاله قتادة ، وابن زيد .

والخامس : أنه الجهاد ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن قتيبة : هو الجهاد الذي يحيي دينَهم ويعليهم .

والسادس : أنه إحياء أمورهم ، قاله الفراء. فيخرَّج في إحيائهم خمسة أقوال .

أحدها : أنه إصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .

والثاني : بقاء الذكر الجميل لهم في الدنيا ، وحياة الأبد في الآخرة .

والثالث : أنه دوام نعيمهم في الآخرة .

والرابع : أنه كونهم مؤمنين ، لأن الكافر كالميّت .

والخامس : أنه يحييهم بعد موتهم ، وهو على قول من قال : هو الجهاد ، لأن الشهداءَ أحياء ، ولأن الجهاد يُعِزُّهم بعد ذُلّهم ، فكأنَّهم صاروا به أحياءً .

قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وفيه عشرة أقوال .

أحدها : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثاني : يحول بين المؤمن وبين معصيته ، وبين الكافر وبين طاعته ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك والفراء .

والثالث : يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : المعنى : يحول بين المرء وعقله ، فبادروا الأعمال ، فانكم لا تأمنون زوال العقول ، فتحصُلون على ما قدمتم .

والرابع : أن المعنى : هو قريب من المرء ، لا يخفى عليه شيء من سرّه ، كقوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [ق : ١٦] وهذا معنى قول قتادة .

والخامس : يحول بين المرء وقلبه ، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا باذنه ، قاله السدي .

والسادس : يحول بين المرء وبين هواه ، ذكره ابن قتيبة .

والسابع : يحول بين المرء وبين مايتمنَّى بقلبه من طول العمر والنَّصر وغيره .

والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت ، فبادروا الأعمال قبل وقوعه .

والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعلمه ، فلا يضمر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به ، لايقدر على تغييبه عنه .

والعاشر : يحول بين مايوقعه في قلبه من خوف أو أمن ، فيأمن بعد خوفه ، ويخاف بعد أمنه ، ذكر معنى هذه الأقوال ابن الأنباري .

وحكى الزجاج أنهم لما فكَّروا في كثرة عدوِّهم وقلة عددهم ، فدخل الخوف قلوبهم ، أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوفِ الأمنَ ، ويبدل عدوَّهُ بالقوَّةِ الضعفَ ؛ وقد أعلمتْ هذه الآيةُ أن الله تعالى هو المقلِّب للقلوب ، المتصرِّف فيها [1] .

قوله تعالى : (وأنه إليه تحشرون) أي : للجزاء على أعمالكم .

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٤/٢٠٤٥ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء » ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك » .

وروى الترمذي ٢/٣٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت : يانبي الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء » . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قوله تعالى : (واتقوا فتنةً) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة ، قاله ابن عباس ، والضحاك. وقال الزبير بن العوام : لقد قرأناها زماناً ، وما نُرى أنّا من أهلها ، فاذا نحن المَعْنيُّون بها .

والثاني : أنها نزلت في رجلين من قريش ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، ولم يسمّهما .

والثالث : أنها عامة ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : في هذه الآية ، أمر الله المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وقال مجاهد : هذه الآية لكم أيضاً .

والرابع : أنها نزلت في علي ، وعمار ، وطلحة ، والزبير ، قاله الحسن . وقال السدي : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل .

وفي الفتنة هاهنا سبعة أقوال .

أحدها : القتال . والثاني : الضلالة . والثالث : السكوت عن إنكار المنكر . والرابع : الاختبار . والخامس : الفتنة بالأموال والأولاد . والسادس : البلاء . والسابع : ظهور البدع . فأما قوله : (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فقال الفراء : أمرهم ، ثم نهاهم ، وفيه طرف من الجزاء . وإن كان نهياً ، كقوله : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان) [النمل : ١٨] أمرهم ، ثم نهاهم ؛ وفيه تأويل الجزاء . وقال الأخفش : « لا تصيبن » ليس بجواب ، وإنما هو نهي

بعد نهي ؛ ولو كان جواباً ما دخلت النون . وذكر ابن الأنباري فيها قولين .

أحدهما : أن الكلام تأويله تأويل الخبر ، إذ كان المعنى : إن لا يتّقوها ، تُصِبْ الذين ظلموا ، أي: وغيرهم ، أي : لاتقع بالظالمين دون غيرهم ،لكنها تقع بالصالحين والظالمين ؛ فلما ظهر الفعل ظهور النهي ، والنهي راجع إلى معنى الأمر ، إذ القائل يقول : لا تقم ، يريد : دع القيام ، ووقع مع هذا جواباً للأمر ، أو كالجواب له ، فأُكِّد له شبه النهي ، فدخلت النون المعروف دخولها في النهي وما يضارعه .

والثاني : أنها نهي محض ، معناه : لا يقصدنّ الظالمون هذه الفتنة ، فيهلكوا ؛ فدخلت النون لتوكيد الاستقبال ، كقوله : « لا يحطمنَّكم » . وللمفسرين في معنى الكلام قولان .

أحدهما : لا تصيبن الفتنةُ الذين ظلموا .

والثاني : لا يصيبن عقاب الفتنة . فان قيل : فما ذنب مَن لم يظلم ؟ فالجواب : أنه بموافقته للأشرار ، أو بسكوته عن الإنكار ، أو بتركه للفرار ، استحق العقوبة [1] . وقد قرأ عليٌّ ، وابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب « لَتصيبنَّ الذين ظلموا » بغير ألف .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

---

(١) روى البخاري ٥/٩٤ ـ ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

قوله تعالى : (واذكروا إذْ أنتم قليلٌ) قال ابن عباس : نزلت في المهاجرين خاصة ، كانت عِدَّتُهم قليلةً ، وهم مقهورون في أرض مكة ، يخافون أن يستلبهم المشركون . وفي المراد بالناس ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله ابن عباس . والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبِّه . والثالث : أنهم المشركون الذين حضروا بدراً ، والمسلمون قليلون يومئذ ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (فآواكم) فيه قولان .

أحدهما : فآواكم إلى المدينة بالهجرة ، قاله ابن عباس ، والأكثرون .

والثاني : جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : (وأيدكم بنصره) قولان .

أحدهما : قوَّاكم بالملائكة يوم بدر ، قاله الجمهور . والثاني : عضدكم بنصره في بدر وغيرها ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي قوله : (ورزقكم من الطيبات) قولان .

أحدهما : أنها الغنائم التي أحلَّها لهم ، قاله السدي .

والثاني : أنها الخيرات التي مكَّنهم منها ، ذكره الماوردي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لاتخونوا الله والرسول) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر ؛ وذاك أن النبي ﷺ ، لما حاصر قريظة سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير ، على أن يسيروا إلى أرض الشام ، فأبى أن يعطيَهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبَوا ،

وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن ولده وأهله كانوا عندهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا : ماترى ، أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا ، فأطاعوه ، فكانت تلك خيانته ؛ قال أبو لبابة : فما زالت قدمايَ حتى عَرفتُ أني قد خنت الله ورسوله ، ونزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس ، والأكثرين . وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لاأذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليَّ ، فمكث سبعة أيام كذلك ، ثم تاب الله عليه ، فقال : والله لا أَحُلُّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يَحُلُّني ، فجاء فحلَّه بيده ، فقال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « يجزئك الثلث »[١].

والثاني : أن جبريل أتى رسولَ الله ﷺ فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « اخرجوا إليه واكتموا » ، فكتب إليه رجل من المنافقين : إن محمداً يريدكم ، فخذوا حذركم ، فنزلت هذه الآية ، قاله جابر بن عبد الله[٢].

والثالث : أنها نزلت في قتل عثمان بن عفان ، قاله المغيرة بن شعبة .

والرابع : أن قوماً كانوا يسمعون الحديث من رسول الله ﷺ ، فيفشونه حتى يبلغ المشركين ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي[٣] . وفي خيانة الله قولان .

---

(١) خبر أبي لبابة أخرجه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٣٤ وأخرج بعضه الطبري : ٤٨١/١٣ ، وابن هشام : ٢٣٦/٢ .

(٢) قال ابن كثير في « التفسير » بعد أن أورده عن ابن جرير : هـذا حديث غريب جداً ، وفي سنده وسياقه نظر .

(٣) قال أبو جعفر الطبري ٤٨٣/١٣ وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله ــــ

أحدهما : ترك فرائضه . والثاني : معصية رسوله . وفي خيانة الرسول قولان .
أحدهما : مخالفته في السرّ بعد طاعته في الظاهر . والثاني : ترك سنّته .

وفي المراد بالأمانات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الفرائض ، قاله ابن عباس . وفي خيانتها قولان . أحدهما : تنقيصها . والثاني : تركها .

والثاني : أنها الدّين ، قاله ابن زيد ؛ فيكون المعنى : لاتظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر .

والثالث : أنها عامة في خيانة كلّ مؤتمَن ، ويؤكّده نزولها في ماجرى لأبي لبابة .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) قال ابن عباس : هذا خطاب لأبي لبابة ، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة . فأما الفتنة ، فالمراد بها : الابتلاء والامتحان الذي يُظهر مافي النفس من اتّباع الهوى أو تجنّبه (وأن الله عنده أجر عظيم) خير من الأموال والأولاد .

ـــ نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانه أمانته ، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة ، وجائز أن تكون نزلت في غيره ، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته . وقال ابن كثير ٢/٣٠١ : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لابخصوص السبب عند الجماهير من العلماء .

قوله تعالى : (إن تتقوا الله) أي : بترك معصيته ، واجتناب الخيانة لله ورسوله .

قوله تعالى : (يجعل لكم فرقاناً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه المخرج ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن قتيبة ، والمعنى : يجعل لكم مخرجاً في الدِّين من الضلال .

والثاني : أنه النجاة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والسدي .

والثالث : أنه النصر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الفراء .

والرابع أنه هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل ، قاله ابن زيد، وابن إسحاق .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا) هذه الآية متعلقة بقوله : (واذكروا إذ أنتم قليل) [الاعراف : ٨٦] فالمعنى : أذكر المؤمنين ما مَنَّ الله به عليهم ، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا .

الإشارة إلى كيفية مكرهم

قال أهل التفسير : لما بويع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة ، أشفقت قريش أن يعلوَ أمره ، وقالوا : والله لكأنكم به قد كرَّ عليكم بالرجال ، فاجتمع جماعة من أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من

أهل نجد، سمعت ما اجتمعتم له، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا من رأيي نصحاً، فقالوا : ادخل، فدخل معهم، فقالوا : انظروا في أمر هذا الرجل، فقال بعضهم : احبسوه في وَثاق، وتربَّصوا به ريب المنون. فقال إبليس : ما هذا برأي، يوشك أن يثب أصحابه فيأخذوه من أيديكم. فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم. فقال : ما هذا برأي، يوشك أن يجمع عليكم ثم يسير إليكم. فقال أبو جهل : نأخذ من كل قبيلة غلاماً، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد، فيفرَّق دمه في القبائل، فما أظن هذا الحي من قريش يقوى على ضرب قريش كلِّها، فيقبلون العَقل ونستريح. فقال إبليس : هذا والله الرأي. فتفرَّقوا عن ذلك. وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة، وأمر علياً فبات في مكانه، وبات المشركون يحرسونه، فلما أصبح رسول الله ﷺ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لمَّا أصبحوا، فرأوا عليًّا، فقالوا : أين صاحبك؟ قال : لا أدري، فاقتصُّوا أثره حتى بلغوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت، فقالوا : لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت [1]. فأما قوله : (ليثبتوك) فقال ابن قتيبة : معناه : ليحبسوك. يقال : فلان مثبت وجعاً : إذا لم يقدر على الحركة. والمفسرين فيه قولان.

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٨٠ ـ ٤٨٣ قال فيه ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره ممن لا أتهم عن عبد الله بن عباس.
ورواه أحمد في « مسنده » رقم (٣٢٥١) مختصراً، وفي سنده عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وذكره الهيثمي في « المجمع » ٧/٢٧ مختصراً أيضاً وقال : رواه أحمد، والطبراني. وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقيه رجاله رجال الصحيح. وأورده السيوطي في « الدر » ٣/١٧٩ وزاد نسبته لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم في « الدلائل »، والخطيب، وهو في « الطبري » ١٣/٤٩٤ و ٤٩٧ مختصراً.

أحدها : ليثبتوك في الوَثاق ، قاله ابن عباس ، والحسن في آخرين .

والثاني : ليثبتوك في الحبس ، قاله عطاء ، والسدي في آخرين . وكان القومُ أرادوا أن يحبسوه في بيت ويشدوا عليه بابه ويلقوا إليه الطعام والشراب ، وقد سبق بيان المكر في (آل عمران : ٥٤) .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا) ذكر أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة ، وأنه لما سمع رسول الله ﷺ يذكر قصص القرون الماضية ، قال : لو شئت لقلت مثل هذا . وفي قوله : (قد سمعنا قولان .

أحدها : قد سمعنا منك ولا نطيعك .

والثاني : قد سمعنا قبل هـذا مثله ، وكان النضر يختلف إلى فارس تاجراً ، فيسمع العبّاد يقرؤون الإنجيل . وقد بين التحدّي كذب من قال : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) . وقد سبق معنى الأساطير في (الأنعام : ٢٥) .

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وإذ قالوا اللهم إن كان هـذا هو الحقَّ من عندك) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النضر أيضاً ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والسدي .

والثاني : أنها نزلت في أبي جهل ، فهو القائل لهذا ؛ قاله أنس بن مالك ، وهو مخرج في « الصحيحين »[١] .

والثالث : أنها نزلت في قريش ، قالوا هـذا ، ثم ندموا فقالوا : غفرانك اللهم ، فأنزل الله (وما كان اللهُ معذّبهم وهم يستغفرون) ، رواه أبو معشر عن يزيد ابن رومان ، ومحمد بن قيس . وفي المشار إليه بقوله : (إن كان هذا) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن . والثاني : كل ما يقوله رسول الله ﷺ من الأمر بالتوحيد وغيره . والثالث : أنه إكرام محمد ﷺ بالنبوة من بين قريش .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) في المشار إليه قولان .

أحدها : أهل مكة . وفي معنى الكلام قولان . أحدهما : وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم . قال ابن عباس : لم تُعذَّب قرية حتى يخرج نبيُّها والمؤمنون معه . والثاني : وما كان الله ليعذّبهم وأنت حي ؛ قاله أبو سليمان .

والثاني : أن المشار إليهم المؤمنون ، والمعنى : وما كان الله ليعذب المؤمنين بضرب من العذاب الذي أهلك به مَن قبلهم وأنت حي ؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي .

فصل

قال الحسن ، وعكرمة : هذه الآية منسوخة بقوله : (وما لهم ألاَّ يعذبَهم

---

(١) البخاري ٨/٢٣٢ ، ومسلم ٤/٢١٥٤ وأورده السيوطي في « الدر » ٣/١٨٠ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » عن أنس بن مالك .

الله) [الأنفال: ٣٤] ، وفيه بُعد ، لأن النسخ لا يدخل على الأخبار . وقال ابن أبزى : كان النبي ﷺ بمكة ، فأنزل الله عز وجل (وما كان الله ليعذّبَهم وأنت فيهم) فخرج إلى المدينة ، فأنزل الله (وما كان الله مُعذّبَهم وهم يستغفرون) وكان أولئك البقية من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم ألاّ يعذّبَهم الله) [(١)] . وجميع أقوال المفسرين تدل على أن قوله : (وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون) ، كلام مبتدأ من إخبار الله عز وجل . وقد روي عن محمد بن إسحاق أنه قال : هذه الآية من قول المشركين ، قالوا : والله إنّ الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله : (وما لهم ألاّ يعذّبَهم الله).

قوله تعالى : (وما كان الله معذّبَهم وهم يستغفرون) وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال .

أحدها : وما كان الله معذّب المشركين ، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، واختاره الزجاج

والثاني : وما كان الله معذّبَهم وهم يستغفرون الله ، فانهم كانوا يلبّون ويقولون : غفرانك ؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وفيه ضعف ، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول .

والثالث : وما كان الله معذّبَهم ، يعني المشركين ، وهم - يعني المؤمنين الذين بينهم - يستغفرون ؛ روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضحاك ، وأبو مالك . قال ابن الأنباري : وُصفوا بصفة بعضهم ، لأن المؤمنين بين أظهرهم ، فأوقع

---

(١) « الطبري » : ١٣/٥٠٩ ، ٥١٠ وأورده السيوطي في « الدر » ٣/١٨١ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

العموم على الخصوص ، كما يقال : قتل أهل المسجد رجلاً ، وأخذ أهل البصرة فلاناً ، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد .

والرابع : وما كان الله معذِّبهم وفي أصلابهم مَن يستغفر الله ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : فيكون معنى تعذيبهم : إهلاكهم ؛ فالمعنى : وما كان الله مهلكهم ، وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه ؛ فوصفهم بصفة ذراريهم ، وغُلِّبوا عليهم كما غُلِّب بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله .

والخامس : أن المعنى : لو استغفروا لما عذَّبهم الله ، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقّوا العذاب ؛ وهذا كما تقول العرب : ما كنتُ لأهينَك وأنت تكرمني ؛ يريدون : ما كنت لأهينك لو أكرمتني ؛ فأما إذ لست تكرمني ، فانك مستحقٌ لإهانتي ، وإلى هذا القول ذهب قتادة والسدي . قال ابن الأنباري : وهو اختيار اللغويين . وذكر المفسرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الاستغفار المعروف ؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى الصلاة ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، ومنصور عن مجاهد ، وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه بمعنى الإسلام ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما لهم ألا يعذبهم الله) هذه الآية أجازت تعذيبهم ، والأولى

نفت ذلك . وهل المراد بهذا : العذابُ الأولُ ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدها : أنه هو الأول ، إلا أن الأول امتنع بشيئين . أحدهما : كون النبي ﷺ فيهم . والثاني : كون المؤمنين المستغفرين بينهم ؛ فلما وقع التمييز بالهجرة ، وقع العذاب بالباقين يوم بدر ، وقيل : بل وقع بفتح مكة .

والثاني : أنهما مختلفان ، وفي ذلك قولان . أحدهما : أن العذاب الثاني قتلُ بعضِهم يوم بدر ، والأول استئصال الكُلِّ ؛ فلم يقع الأول لِما قد عُلِم من إيمان بعضهم ، وإسلام بعضِ ذراريهم ، ووقع الثاني . والثاني : أن العذاب الأول عذاب الدنيا . والثاني : عذاب الآخرة ؛ قاله ابن عباس ، فيكون المعنى : وما كان اللهُ معذِّبَ المشركين لاستغفارهم في الدنيا ، وما لهم ألا يعذبهم الله في الآخرة .

قوله تعالى : (وهم يصدون) قال الزجاج : المعنى : وهم يصدون (عن المسجد الحرام) أولياءه . وفي هاء الكناية في قوله : (وما كانوا أولياءه) قولان .

أحدها : أنها ترجع إلى « المسجد » ، وهو قول الجمهور . قال الحسن : إن المشركين قالوا : نحن أولياء المسجد الحرام ، فرد الله عليهم بهذا .

والثاني : أنها تعود إلى الله عز وجل ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (إنْ أولياؤُه) أي : ما أولياؤه (إلَّا المتقون) للشرك والمعاصي ، ولكنَّ أكثر أهل مكة لا يعلمون منَ الأولى ببيت الله .

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان صلاتُهم عند البيت) سبب نزولها أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفِّقون ويَصْفِرُون ويضعون خدودهم بالأرض ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عمر . فأما المكاء ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه الصَّفير ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة . قال ابن فارس : يقال : مكا الطائر [يمكو] مُكاءً : إذا صَفَر ، ويقال : مَكِيَتْ يده [تَمكى] مَكىً ، مقصور ، أي : غلُظت وخشُنت ، ويقال : تمكّى : إذا توضأ . وأنشدوا :

[إنَّكَ والجَوْرَ على سبيل] كالمُتَمَكّي بدمِ القتيلِ [(١)]

وسئل أبو سلمة بن عبد الرحمن عن المكاء ، فجمع كفَّيه ، وجعل يَصْفِر فيهما .

والثاني : أنه إدخال أصابعهم في أفواههم يخلطون به وبالتصدية على محمد ﷺ صلاته ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : أهل اللغة ينكرون أن يكون المكاء إدخالَ الأصابع في الأفواه ، وقالوا : لا يكون إلا الصفير . وفي التصدية قولان .

أحدهما : أنها التَّصفيق ، قاله [ابن] عمر ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . قال ابن قتيبة : يقال : صدَّى : إذا صفّق بيديه . قال الراجز :

ضنَّت بخَدٍّ وجلَتْ عَن خَدِّ وأنا مِنْ غَرْوِ الهوى أُصَدِّي [(٢)]

الغرو : العجب ، يقال : لاغرو من كذا ، أي : لاعجب .

والثاني : أن التصدية : صدُّهم الناس عن البيت الحرام ، قاله سعيد بن جبير . وقال ابن زيد : هو صدُّهم عن سبيل الله ودينه . وزعم مقاتل أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام ، قام رجلان من المشركين من بني عبد الدار عن

(١) البيت في « اللسان » مكا ، ونسبه إلى عنترة الطائي . وعنترة هذا : هو عنترة بن عُكبرة الطائي ، وعكبرة أم أمه ، وبها يعرف ، وهو عنترة بن الأخرس بن ثعلبة بن صبيح ابن معبد بن عدي بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معن بن عتود ، شاعر محسن وفارس . « المؤتلف والمختلف » ٢٢٥ .

(٢) « غريب القرآن » لابن قتيبة ١٧٩ وانظر ديوان بشار ٢/٢٢٢ ٢٢٣ .

عينه فيصفران ، ورجلان عن يساره فيصفقان ، فتختلط على النبي ﷺ صلاته وقراءته ، فقتلهم الله ببدر ، فذلك قوله : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بتوحيد الله .

فإن قيل : كيف سمى المكاءَ والتصديةَ صلاةً ؟

فعنه : جوابان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة ، ومشهور في كلام العرب أن يقول الرجل : زرت عبد الله ، فجعل جفائي صِلَتي ، أي : أقام الجفاء مقام الصلة ، قال الشاعر :

قُلْتُ له اطْعِمنِي عَمِيْمُ تَمْرَا   فَكَانَ تَمْرِي كَهْرَةً وَزَبْرا

أي : أقام الصياح عليَّ مقام التمر .

والثاني : أن من كان المكاء والتصديةُ صلاتَه ، فلا صلاة له ، كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء ، يريدون : مَنِ السخاء عيبه ، فلا عيب له ، قال الشاعر :

فتىً كَمُلَتْ خيراتُهُ غير أنَّه   جوادٌ فلا يُبقي من المال باقيا [1]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

---

(١) البيت للنابغة الجعدي ، ديوانه ١٧٣ طبع المكتب الاسلامي ، و « الحماسة » : ٩٦٩/٢ ، و « الخزانة » : ١٢/٢ ، و « شرح شواهد المغني » : ٢٠٩ .

أحدها : أنها نزلت في المطعِمين ببدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً يطعمون الناس الطعام ، كل رجل يطعم يوماً ، وهم : عتبة ، وشيبة ، ومُنبِّه ونُبَيه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَري [١] ، والنضر بن الحارث ، وأبو جهل ، وأخوه الحارث ، وحكيم بن حزام ، وأُبَيّ بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب ، قاله سعيد ابن جبير [٢] . وقال مجاهد : نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أُحُد .

والثالث : أنها نزلت في أهل بدر ، وبه قال الضحاك . فأما سبيل الله ، فهو دين الله .

قوله تعالى : (ثم تكون عليهم حسرة) أي : تكون عاقبة نفقتهم ندامة ، لأنهم لم يظفروا .

﴿ لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ليميز الله الخبيث من الطيب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ليميز » خفيفة . وقرأ حمزة ، والكسائي « ليميّز » بالتشديد وهما لغتان : مِزْتُه وميَّزتُه . وفي لام « ليميز » قولان .

---

(١) هو سعيد بن فيروز الطائي .

(٢) « الطبري » : ١٣/٥٣٠ .

أحدها : أنها متعلقة بقوله : « فسيُنفِقونَها » قاله ابن الأنباري .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : « إلى جهنم يحشرون » ، قاله ابن جرير الطبري .

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : ليميّز أهل السعادة من أهل الشقاء ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال السدي ، ومقاتل : يميز المؤمن من الكافر .

والثاني : ليميِّز العمل الطيب من العمل الخبيث ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : ليميز الإنفاق الطيب في سبيله ، من الانفاق الخبيث في سبيل الشيطان ، قاله ابن زيد ، والزجاج .

قوله تعالى : (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) أي : يجمع بعضه فوق بعض ، وهو قوله : (فيركمه) . قال الزجاج : الركم : أن يُجعَل بعضُ الشيء على بعض ، يقال : ركمت الشيء أركُمه رَكماً ؛ والركام : الاسم ؛ فمن قال : المراد بالخبيث : الكفار ، فانهم في النار بعضهم على بعض ؛ ومن قال : أموالهم ، فله في ذلك قولان .

أحدها : أنها أُلقيت في النار ليعذَّب بها أربابُها ، كما قال تعالى : (فتكوى بها جباهُهُم) [التوبة : ٣٥] .

والثاني : أنهم لمـّا عظـّموها في الدنيا ، أراهم هوانها بالقائها في النار كما تُلقى الشمس والقمر في النار ، ليَرى مَن عبدها ذُلـَّها .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل للذين كفروا) نزلت في أبي سفيان وأصحابه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : إن ينتهوا عن المحاربة، يُغْفَرْ لهم ماقد سلف من حربهم، فلا يُؤاخَذون به؛ وإن يعودوا إلى المحاربة، فقد مضت سنة الأولين في نصر الله أولياءه؛ وقيل : في قتل من قُتِل يوم بدر وأُسر.

والثاني : إن ينتهوا عن الكفر، يُغْفَر لهم ماقد سلف من الإثم؛ وإن يعودوا إليه، فقد مضت سُنَّةُ الأولين من الأمم السالفة حين أُخذوا بالعذاب المستأصِل. قال يحيى بن معاذ في هذه الآية : إنَّ توحيداً لم يعجِزْ عن هدم ماقبله من كفر، لايعجِزُ عن هدم مابعده من ذنب (١).

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) أي : شرك. وقال الزجاج : حتى لايفتن الناس فتنة كفر؛ ويدل عليه قوله : (ويكون الدين كله لله).

قوله تعالى : (فان انتهوا) أي : عن الكفر والقتال، (فان الله بما يعملون بصير) وقرأ يعقوب إلا روحاً « بما تعملون » بالتاء.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (وإن تولَّوا) أي : أعرضوا عن الإيمان وعادوا إلى القتال

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١١١/١ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلنا : يارسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال : « من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر ».

وروى مسلم أيضاً في « صحيحه » ١١٢/١ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ».

(فاعلموا أن الله مولاكم) أي : وليكم وناصركم . قال ابن قتيبة : (نعم المولى) أي : نعم الولي (ونعم النصير) أي : الناصر ، مثل قدير وقادر ، وسميع وسامع .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء) اختلفوا ، هل الغنيمة والفيء بمعنى واحد ، أم يختلفان ؟ على قولين .

أحدهما : أنهما يختلفان . ثم في ذلك قولان . أحدهما : أن الغنيمة : ما ظُهر عليه من أموال المشركين ، والفيء : ما ظُهر عليه من الأرضين ، قاله عطاء بن السائب . والثاني : أن الغنيمة : ما أُخذ عنوةً ، والفيء : ما أُخذ عن صلح ، قاله سفيان الثوري . وقيل : بل الفيء : ما لم يوجَف عليه بخيل ولا ركاب ، كالعشور ، والجزية ، وأموال المهادنة ، والصلح ، وما هربوا عنه .

والثاني : أنهما واحد ، وهما : كل ما نيل من المشركين ، ذكره الماوردي . وقال الزجاج : الأموال ثلاثة أصناف ؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب ، فقد سماه الله تعالى : أنفالاً وغنائم ؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب ، فقد سماه : فيئاً ؛ وما خرج من أموال المسلمين ، كالزكاة ، والنذر ، والقرب ، سماه : صدقة . وأما قوله : (من شيء) فالمراد به : كل ما وقع عليه اسم شيء . قال مجاهد : المِخْيَط من الشيء .

قوله تعالى : (فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ) وروى عبد الوارث : « خُمْسَهُ » بسكون الميم . وفي المراد بالكلام قولان .

أحدها : أن نصيب الله مستَحَقٌ يُصرف إلى بيته . قال أبو العالية : كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيقسم أربعة بين الناس ، ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة ؛ وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال .

والثاني : أن ذِكر الله هاهنا لأحد وجهين . أحدهما : لأنه المتحكِّم فيه ، والمالك له ، والمعنى : فأن للرسول خمسه ولذي القربى ، كقوله : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) [الانفال : ١] . والثاني : أن يكون المعنى : إن الخمس مصروف في وجوه القُرَب إلى الله تعالى ، وهذا قول الجمهور . فعلى هذا ، تكون الواو زائدة ، كقوله : (فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه) [الصافات : ١٠٣] المعنى : ناديناه ؛ ومثله كثير .

فصل

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة ؛ فأما الخمس الخامس ، فكيف يقسم ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يقسم منه لله وللرسول ولمن ذكر في الآية . وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية ، وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم .

والثاني : أنه مقسوم على خمسة أسهم : سهم للرسول ، وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل ، على ظاهر الآية ، وبه قال الجمهور .

والثالث : أنه يقسم على أربعة أسهم . فسهم الله عز وجل وسهم رسوله عائد على ذوي القربى ، لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئاً ، وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

فصل

فأما سهم الرسول ﷺ ، فانه كان يصنع فيه مابيَّنَّا . وهل سقط بموته ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : لم يسقط بموته ، وبه قال أحمد ، والشافعي في آخرين . وفيما يُصنَع به قولان . أحدهما : أنه للخليفة بعده ، قاله قتادة . والثاني : أنه يُصْرَفُ في المصالح ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : أنه يسقط بموته كما يسقط الصفيْ ، فيرجع إلى جملة الغنيمة ، وبه قال أبو حنيفة . وأما ذوو القربى ، ففيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم جميع قريش . قال ابن عباس : كنا نقول : نحن هم ؛ فأبى علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى .

والثاني : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثالث : أنهم بنو هاشم فقط ، قاله أبو حنيفة . وبماذا يستحقون ؟ فيه قولان .

أحدها : بالقرابة ، وإن كانوا أغنياء ، وبه قال أحمد ، والشافعي .

والثاني : بالفقر ، لا بالاسم ، وبه قال أبو حنيفة . وقد سبق في (البقرة : ١٧٧) معنى اليتامى والمساكين وابن السبيل . وينبغي أن تُعتبر في اليتيم أربعة أوصاف : موت الأب ، وإن كانت الأم باقية . والصِغَر ، لقوله عليه السلام : « لايُتْمَ بعد حُلُم » (١) . والإسلام ، لأنه مال للمسلمين . والحاجة ، لأنه مُعَدٌّ للمصالح .

(١) رواه أبو داود ٣/١٥٦ من حديث علي بن أبي طالب بلفظ : « لايتم بعد احتلام ، ولا صمات يوم إلى الليل » قال المنذري : في إسناده يحيى بن محمد المدني الجاري ، قال البخاري : يتكلمون فيه . وقال ابن حبان : يجب التنكب عما انفرد به من الروايات .

قوله تعالى : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) هو يوم بدر ، فُرق فيه بين الحق والباطل بنصر المؤمنين . والذي أُنزل عليه يومئذ قوله : (يسألونك عن الأنفال) [الانفال : ١] نزلت حين اختلفوا فيها ، فالمعنى : إن كنتم آمنتم بذلك ، فاصدروا عن أمر الرسول في هذا أيضاً .

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ أنتم بالعِدوة الدنيا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « بالعِدوة » و « العِدوة » العين فيهما مكسورة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بضم العين فيهما . قال الأخفش : لم يُسمع من العرب إلا الكسر . وقال ثعلب : بل الضم أكثر اللغتين . قال ابن السِّكِّيت : عُدوة الوادي وعِدوته : جانبه ؛ والجمع : عُدىً وعِدىً . والدنيا : تأنيث الأدنى ؛ وضدها : القصوى ، وهي تأنيث الأقصى ؛ وما كان من النعوت على « فُعلى » من ذوات الواو ، فان العرب تحوِّله إلى الياء ، نحو : الدنيا ، من : دنوت ؛ والعليا ، من : علوت ؛ لأنهم يستثقلون الواو مع ضم الأول ، وليس في هذا اختلاف ، إلا أن

ـــــ وقد حسنه النووي في « الأذكار » و « الرياض » وقال المناوي : وفي رواية للبزار « بعد حلم » كما هي رواية المصنف هنا . وفي « المقاصد الحسنة » للسخاوي : رواه أبو داود عن علي في حديث ، وقد أعله غير واحد ، وحسنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه ، لاسيما وهو عند الطبراني في « الصغير » من وجه آخر عن علي ، بل له شواهد عن جابر ، وأنس وغيرهما .

أهل الحجاز قالوا : القُصوى، فأظهروا الواو ، وهو نادر ؛ وغيرهم يقول: القصيا.
قال المفسرون : إذ أنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة ، وعدوُّكم بشفيره الأقصى من مكة ، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الصفة ، والركب : أبو سفيان وأصحابه . قال الزجاج : من نصب « أسفلَ » أراد : والركب مكاناً أسفلَ منكم ، ويجوز الرفع على معنى : والركب أشد تسفُّلاً منكم . قال قتادة : وكان المسلمون أعلى الوادي ، والمشركون أسفله .

وفي قوله : (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد) قولان .

أحدها : لو تواعدتم ، ثم بلغكم كثرتهم ، لتأخَّرتم عن الميعاد ، قاله ابن إسحاق .

والثاني : لو تواعدتم على الاجتماع في المكان الذي اجتمعتم فيه من عِدوتي وادي بدر لاختلفتم في الميعاد ، قاله أبو سليمان . وقال الماوردي : كانت تقع الزيادة والنقصان ، أو التقدم والتأخر من غير قصد لذلك .

قوله تعالى : (ولكنْ ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً) وهو إعزاز الإسلام ، وإذلال الشرك .

قوله تعالى : (ليَهلِكَ من هلك عن بينة) . وروى خلف عن يحيى : « ليُهلَكَ » بضم الياء وفتح اللام .

قوله تعالى : (ويحيى من حيٍّ عن بينة) قرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « من حيٍّ » بياء واحدة مشددة ، وهذه رواية حفص عن عاصم ، وقنبل عن ابن كثير . وروى شِبْلٌ عن ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : « حيي » بياءين ، الأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ، وهي قراءة نافع . فمن قرأ بياءين ، بيَّن ولم يُدغم . ومن أدغم ياء « حيي » فلاجتماع حرفين من جنس واحد . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : ليُقتَل من قُتل من المشركين عن حُجة ، ويبقى من بقي منهم عن حُجة .

والثاني : ليكفر من كفر بعد حُجة ، ويؤمن من آمن عن حُجة .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قوله تعالى : (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً) فيه قولان .

أحدهما : أن نبي الله ﷺ رأى عسكر المشركين في المنام قبل لقائهم في قلة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال مجاهد : لما أخبر أصحابه بأنه رآهم في المنام قليلاً ، كان ذلك تثبيتاً لهم . قال أبو سليمان الدمشقي : والكلام متعلق بما قبله ، فالمعنى : وإن الله لسميع لما يقوله أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ حدثتهم بما رأيتَ في منامك .

والثاني : إذ يريكهم الله بعينك التي تنام بها ، قاله الحسن[1] . قال الزجاج : وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب . ومعناه عندهم : إذ يريكهم الله في موضع منامك ، أي : بعينك ؛ ثم حذف الموضع ، وأقام المنام مقامه .

قوله تعالى : (لفشلتم) أي : لجبنتم وتأخرتم عن حربهم . وقال مجاهد : لفشل أصحابك ، ولرأوا ذلك في وجهك .

قوله تعالى : (ولتنازعتم في الأمر) أي : لاختلفتم في حربهم ، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم ، (ولكنَّ الله سلم) من المخالفة والفشل .

---

(١) قال ابن كثير : ٢/٣١٥ : وهذا القول غريب .

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ ﴾

قوله تعالى : (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً) قال مقاتل : صدّق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عدوهم قبل لقائهم ، بأن قلّلهم وقت اللقاء في أعينهم . وقال ابن مسعود : لقد قلّوا في أعيننا ، حتى قلت لرجل إلى جانبي : أتُراهم سبعين ؟ قال : أُراهم مائة ؛ حتى أخذنا رجلاً منهم ، فسألناه ، فقال : كنّا ألفاً . قال أبو صالح عن ابن عباس : استقلّ المسلمون المشركين ، والمشركون المسلمين ، فاجترأ بعضهم على بعض .

فان قيل : ما فائدة تكرير الرؤية هاهنا ، وقد ذكرت في قوله : (إذ يريكهم الله) ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الأولى كانت في المنام ، والثانية في اليقظة .

والثاني : أن الأولى للنبي ﷺ خاصة ، والثانية له ولأصحابه . فان قيل : تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى ، لمكان إعزازهم . فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنهم لو كثروا في أعينهم ، لم يقدموا عليهم ، فلم يكن قتال ؛ والقتال سبب النصر ، فقلّلهم لذلك .

والثاني : أنه قلّلهم لئلا يتأهّب المشركون كل التأهّب ؛ فاذا تحقق القتال ، وجدهم المسلمون غير مستعدين ، فظفروا بهم .

والثالث : أنه قلّلهم ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم ، فيغلبهم المسلمون ، فيكون ذلك آية للمشركين ومنبّهاً على نصرة الحق .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ

كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (إذا لقيتم فئةً فاثبتوا) الفئة : الجماعة . (واذكروا الله كثيراً) فيه قولان .

أحدهما : أنه الدعاء والنصر . والثاني : ذكر الله على الإطلاق .

قوله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا) قد سبق ذكر التنازع والفشل آنفاً .

قوله تعالى : (وتذهب ريحكم) وروى أبان : « ويذهبْ » بالياء والجزم . وفيه أربعة أقوال .

أحدها : تذهب شدَّتكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال السدي : حِدَّتكم وجدُّكم . وقال الزجاج : صولتكم وقوتكم .

والثاني : يذهب نصركم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : تتقطَّع دولتكم ، قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : يقال : هبَّت له ريح النصر : إذا كانت له الدولة . ويقال : له الريح اليوم ، أي : الدولة .

والرابع : أنها ريح حقيقة ، ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله فتضرب وجوه العدو ؛ ومنه قوله عليه السلام : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبور » [١] ، وهذا قول ابن زيد ، ومقاتل .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

---

(١) أحمد في « المسند » رقم (٢٩٨٤) ، والبخاري ٢/٤٣٢ ، ومسلم ٢/٦١٧ كلهم من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً) قال المفسرون : هم أبو جهل ومن خرج معه من مكة ، خرجوا ليدفعوا عن عيرهم التي كانت مع أبي سفيان ، ومعهم القيان والمعازف ، وهم يشربون الخمور . فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز مامعه ، كتب إليهم : إني قد أحرزت أموالكم فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لانفعل حتى نَرِدَ بدراً فنقيمَ ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابونا . فساروا إلى بدر ، فكانت الوقعة ؛ فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . فأما البطر ، فهو الطغيان في النعم ، وترك شكرها . والرياء : العمل من أجل رؤية الناس . وسبيل الله هاهنا : دينه .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَالَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم) قال عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش المسير إلى بدر ، ذكروا مابينهم وبين كنانة من الحرب ، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجيّ ، وكان من أشراف بني كنانة ، فقال لهم : (لاغالب لكم اليوم من الناس ، وإني جارٌ لكم) من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً . وفي المراد بأعمالهم هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : شركهم . والثاني : مسيرهم إلى بدر . والثالث : قتالهم لرسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (فلما تراءت الفئتان) أي : صارتا بحيث رأت إحداهما الأخرى .

وفي المراد بالفئتين قولان .

أحدهما : فئة المسلمين ، وفئة المشركين ، وهو قول الجمهور .

والثاني : فئة المسلمين ، وفئة الملائكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (نكص على عقبيه) قال أبو عبيدة : رجع من حيث جاء . وقال ابن قتيبة : رجع القهقرى . قال ابن السائب : كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة ، آخذاً بيد الحارث بن هشام ؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه ، فقال له الحارث : أفراراً من غير قتال ؟ فقال : (إني أرى مالا ترون) ؛ فلما هُزم المشركون ، قالوا : هَزَمَ الناسَ سراقةُ ، فبلغه ذلك ، فقال : والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم . قال قتادة : صدق عدو الله في قوله : (إني أرى مالا ترون) ، ذُكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة ، فعلم أنه لايد له بالملائكة ، وكذب عدو الله في قوله : (إني أخاف الله) ، والله مابه مخافة الله ، ولكن علم أنه لاقوّة له بهم . وقال عطاء : معناه : إني أخاف الله أن يهلكني . وقال ابن الأنباري : لما رأى نزول الملائكة ، خاف أن تكون القيامة ، فيكون انتهاء إنظاره ، فيقع به العذاب . ومعنى « نكص » رجع هارباً بخزي وذلّ . واختلفوا في قوله : (والله شديد العقاب) هل هو ابتداء كلام ، أو تمام الحكاية عن إبليس ، على قولين .

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ يقول المنافقون) قال ابن عباس : هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج . فأما الذين في قلوبهم مرض ، ففيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا قد تكلّموا بالإسلام بمكة ، فأخرجهم المشركون

معهم يوم بدر كُرهاً ؛ فلما رأوا قلَّة المسلمين وكثرة المشركين، ارتابوا ونافقوا، وقالوا : (غرَّ هؤلاءِ دينُهم) ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وإليه ذهب الشعبي في آخرين . وعدَّم مقاتل ، فقال : كانوا سبعة : قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبة بن الحجاج ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، والوليد بن عتبة ابن ربيعة .

والثاني : أنهم المشركون ، لما رأو قلة المسلمين ، قالوا : « غرَّ هؤلاءِ دينُهم » رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : أنهم قوم مرتابون ، لم يُظهروا عداوة النبي ﷺ ، ذكره الماوردي . والمرض هاهنا : الشك ، والإشارة بقوله : « هؤلاء » إلى المسلمين ؛ وإنما قالوا هذا ، لأنهم رأوا قلَّة المسلمين ، فلم يشكّوا في أن قريشاً تغلبهم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

قوله تعالى : (ولو ترى إذْ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ) قرأ الجمهور « يتوفى » بالياء . وقرأ ابن عامر « تتوفى » بتاءين . قال المفسرون : نزلت في الرهط الذين قالوا : « غرَّ هؤلاءِ دينهُم » . وفي المراد بالملائكة ثلاثة أقوال .

أحدها : ملك الموت وحده ، قاله مقاتل . والثاني : ملائكة العذاب ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والثالث : الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر ، ذكره الماوردي . وفي قوله : (يضربون وجوهَهم وأدبارَهم) أربعة أقوال .

أحدها : يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا ، وأدبارهم لما انهزموا .

والثاني : أنهم جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فالذين أمامهم ضربوا وجوههم ، والذين وراءهم ضربوا أدبارهم .

والثالث : يضربون وجوههم يوم القيامة إذا لقوهم ، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار .

والرابع : أنهم يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت بسياط من نار . وهل المراد نفس الوجوه والأدبار ، أم المراد ما أقبل من أبدانهم وأدبر ؟ فيه قولان .

وفي قوله : (وذوقوا عذاب الحريق) قولان .

أحدهما : أنه في الدنيا ؛ وفيه إضمار « يقولون »، فالمعنى : يضربون ويقولون ، كقوله : (وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا) [البقرة :١٢٧] أي : ويقولان . قال النابغة :

كأنكَ مِن جِمالِ بني أُقَيش يُقَعْقَعُ خَلْفَ رجلَيْه بِشَنِّ [(١)]

والمعنى : كأنك جمل من جمال لبني أقيش ، هذا قول الفراء وأبي عبيدة .

والثاني : أن الضرب لهم في الدنيا ، فاذا وردوا يوم القيامة إلى النار ، قال خزنتها : ذوقوا عذاب الحريق ، هذا قول مقاتل .

---

(١) « مجاز القرآن » : ١/٤٧ ، و « الكتاب » : ١/٣٢٧ ، و « الكامل » : ٣٣٩ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٢٠٠ ، و« اللسان » ، و« التاج » : قعقع ، و « الخزانة » : ٢/٣١٢ . وقعقع الشيء : صوت ، ويقولون : فلان يقعقع له بالشنان ، وهو مثل يضرب لمن يروعه ما لاحقيقة له ، وبنو أقيش : فخذ من أشجع ، ويقال : هم من عكل ، وإبلهم غير عتاق ، يضرب بنفارها المثل ، فجعل عيينة بن حصن المهجو كالجمل النافر لجبنه وخفته عند الفزع ، والشن : الجلد البالي .

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

قوله تعالى : (ذلك بما قدَّمت أيديكم) أي : بما كسبتم من قبائح أعمالكم. (وأنَّ الله ليس بظلاَّم للعبيد) [1] لا يظلم عباده بعقوبتهم على الكفر ، وإن كان كفرهم بقضائه ، لأنه مالكٌ ، فله التصرف في ملكه كما يشاء ، فيستحيل نسبة الظلم إليه .

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قوله تعالى : (كدأب آل فرعون) أي : كعادتهم . والمعنى : كذَّب هؤلاء كما كذَّب أولئك ، فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك . قال ابن عباس : أيقن آل فرعون أن موسى نبيُّ الله فكذَّبوه ، فكذلك هؤلاء في حق محمد ﷺ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى : (ذلك بأنَّ الله) أي : ذلك الأخذ والعقاب بأن الله (لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا) بالكفران وترك الشكر . قال مقاتل : والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة ، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ثم بعث فيهم محمداً ﷺ ، فلم يعرفوا المنعِم عليهم ، فغيَّر الله ما بهم . وقال السدي : كذَّبوا بمحمد ، فنقله الله إلى الأنصار . قال أبو سليمان الخطابي : والقوي يكون بمعنى القادر ، فمن قوي على شيء فقد قدر عليه ، وقد يكون معناه : التّامُّ القوَّة

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٤/١٩٩٤ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . . » الحديث .

الذي لا يستولي عليه العجز في حال ، والمخلوق ، وإن وُصف بالقُـوَّة ، فقوَّته متناهية ، وعن بعض الأمور قاصرة .

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

قوله تعالى : (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) أي : كذَّب أهل مكة بمحمد والقرآن ، كما كذب آل فرعون بموسى والتوراة ، وكذَّب مَنْ قبلهم بأنبيائهم . قال مكي بن أبي طالب : الكاف من « كدأب » في موضع نصب ، نعت لمحذوف تقديره : غيَّرنا بهم لما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ، ومثلها الآية الأولى ، إلا أن الأولى للعادة في العذاب ؛ تقديره : فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون .

قوله تعالى : (فأهلكناهم) يعني الأمم المتقدمة ، بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالريح ، فكذلك أهلكنا كفار مكة ببدر . وقال بعضهم : يعني بقوله : « فأهلكناهم » الذين أُهلكوا ببدر .

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) قال أبو صالح عن ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه .

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

قوله تعالى : (الذين عاهدت منهم) في « مِنْ » أربعة أقوال .

أحدها : أنها صلة ؛ والمعنى : الذين عاهدتهم .

الثاني : أنها للتبعيض ؛ فالمعنى : إن شر الدواب الكفار . وشرُّهم الذين عاهدت ونقضوا .

والثالث : أنها بمعنى « مع » ؛ والمعنى : عاهدت معهم .

والرابع : أنها دخلت ، لأن العهد أُخذ منهم .

قوله تعالى : (ثم ينقضون عهدهم في كل مَرَّة) أي : كلما عاهدتهم نقضوا.

وفي قوله : (وهم لا يتقون) قولان .

أحدهما : لا يتَّقون نقض العهد . والثاني : لا يتَّقون الله في نقض العهد . قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ؛ ثم عاهدوه الثانية ، فنقضوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق ، وكتب كعب ابن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ .

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاما تثقفَنَّهم) قال أبو عبيدة : مجازه : فان تثقفنَّهم . فعلى قوله ، تكون « ما » زائدة . وقد سبق بيان « فاما » في (البقرة : ٣٨) . قال ابن قتيبة : فمعنى « تثقفنهم » تظفر بهم . (فشرِّد بهم مَنْ خلفهم) أي : افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يتفرَّق به مَنْ وراءهم من أعدائك . قال : ويقال: شرِّد بهم ، أي : سمِّع بهم ، بلغة قريش . قال الشاعر :

أُطوِّف في الأباطح كُلَّ يوم مَخَافَةَ أن يُشرِّد بي حَكِيمُ[1]

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » : شرد . وأطوّف : أطوف ، وحكيم : رجل من بني سليم كانت قريش ولته الأخذ على أيدي السفهاء .

وقال ابن عباس : نَكِّل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد ، لعلهم يذكرون النكال فلا ينقضون العهد .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإمَّا تخافنَّ من قوم خيانةً) قال المفسرون : الخوف هاهنا بمعنى العلم ، والمعنى : إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانة ، وهي نقض عهد . وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة .

وفي قوله : (فانبذ إليهم على سواء) أربعة أقوال .

أحدها : فألقِ إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواءً ، هذا قول الأكثرين ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة ، وأبو عبيدة .

والثاني : فانبذ إليهم جهراً غير سرٍّ ، ذكره الفراء أيضاً في آخرين .

والثالث : فانبذ إليهم على مهل ، قاله الوليد بن مُسلم .

والرابع : فانبذ إليهم على عدل من غير حيف ، وأنشدوا :

فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأعداءِ حتَّى يُجيبُوكَ إلى السَّواءِ [1]

ذكره أبو سليمان الدمشقي .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تحسبنَّ الذين كفروا سبقوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « ولا تحسِبن » بالتاء وكسر السين ؛ إلا أن عاصماً فتح السين . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : بالياء وفتح السين . وفي الكافرين هاهنا قولان .

(١) البيت في « الطبري » غير منسوب ١٤/٢٧ ، والغُدُر بضمتين ، جمع غدور ، مثل صبور ، وهو القادر المستمرىء للغدر.

أحدهما : جميع الكفار ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين انهزموا يوم بدر ، ذكره محمد بن القاسم النحوي وغيره . و « سبقوا » بمعنى فاتوا . قال ابن الأنباري : وذلك أنهم أشفقوا من هلكة تنزل بهم في بعض الأوقات ؛ فلما سلموا منها ، قيل : لاتحسبنَّ أنهم فاتوا بسلامتهم الآن ، فانهم لايعجزونا ، أي : لايفوتونا فيما يستقبلون من الأوقات .

قوله تعالى : (إنهم لايُعجزون) قرأ الجمهور : بكسر الألف . وقرأ ابن عامر : بفتحها ؛ وعلى قراءته اعتراض . لقائل أن يقول : إذا كان قد قرأ « يحسبن » بالياء ، وقرأ « أنهم » بالفتح ، فقد أقرَّ على أنهم لايُعجزون ؛ ومتى علموا أنهم لايعجزون ، لم يلاموا . فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : المعنى : « لايحسبن الذين كفروا سبقوا » لايَحسبُنَّ أنهم يعجزون ؛ و « لا » زائدة مؤكدة . وقال أبو علي : المعنى : لايحسبنَّ الذين كفروا أنفسَهم سبقوا وآباءَهم سبقوا ، لأنهم لايفوتون ، فهم يُجزَون على كفرهم .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاتُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ) في المراد بالقوة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الرمي ، رواه عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ [1] . وقال

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١٣/٦٤ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » ورواه أبو داود في « سننه » رقم ٢٥١٥ ، وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ، والحاكم ٢/٣٢٨ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجه البخاري ، ووافقه الذهبي .

الحكم بن أبان : هي النبل . والثاني : ذكور الخيل ، قاله عكرمة . والثالث : السلاح ، قاله السدي ، وابن قتيبة . والرابع : أنه كل مايُتقوَّى به على حرب العدو من آلة الجهاد .

قوله تعالى : (ومن رباط الخيل) يعني ربطها واقتناءها للغزو ؛ وهو عام في الذكور والإناث في قول الجمهور . وكان عكرمة يقول : المراد بقوله : « ومن رباط الخيل » إناثها .

قوله تعالى : (ترهبون به) روى رويس ، وعبد الوارث « تُرَهِّبُون » بفتح الراء وتشديد الهاء ، أي : تخيفون وترعبون به عدو الله وعدوكم ، وهم مشركو مكة وكفار العرب .

قوله تعالى : (وآخرين من دونهم) أي : من دون كفار العرب . واختلفوا فيهم على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الجن . روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هم الجن ، وإن الشيطان لايخبّل أحداً في داره فرس عتيق »[1] . والثاني : أنهم بنو قريظة ، قاله مجاهد . والثالث : أهل فارس ، قاله السدي . والرابع : المنافقون ، قاله ابن زيد . والخامس : اليهود ، قاله مقاتل .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

---

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٢/٣٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله ابن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى : (وآخرين من دونهم لاتعلمونهم) قال : « هم الجن » ثم قال : ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد : قال رسول الله ﷺ : « لايخبل بيت فيه عتيق من الخيل » وقال : وهذا الحديث منكر لايصح إسناده ولا متنه .

قوله تعالى : (وإن جنحوا للسَّلْم) قرأ أبو بكر عن عاصم « للسِّلْم » بكسر السين . قال الزجاج : السَّلْم : الصلح والمسالمة . يقال : سَلْم وسِلْم وسَلَم في معنى واحد ، أي : إن مالوا إلى الصلح فمِل إليه . قال الفراء : إن شئت جعلت « لها » كناية عن السَّلْم لأنها تؤنث ، وإن شئت جعلتها للفَعْلَةِ ، كقوله : (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) [الأعراف:١٥٣] .

فان قيل : لم قال « لها » ولم يقل : « إليها » ؟

فالجواب : أن « اللام » و « إلى » تنوب كل واحدة منهما عن الأخرى . وفيمن أريد بهذه الآية قولان .

أحدها : المشركون ، وأنها نسخت بآية السيف . والثاني : أهل الكتاب .

فان قيل : إنها نزلت في ترك حربهم إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة ، فهي محكمة .

وإن قيل : نزلت في موادعتهم على غير جزية ، توجَّه النسخ لها بآية الجزية .

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإن يريدوا) قال مقاتل : يعني يهود قريظة (أن يخدعوك) بالصلح لتكف عنهم ، حتى إذا جاء مشركو العرب ، أعانوهم عليك (فانَّ حسبَك الله) . قال الزجاج : فان الذي يتولَّى كفايتك الله (هو الذي أيَّدك) أي : قوَّاك . وقال مقاتل : قوَّاك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر .

قوله تعالى : (وألَّف بين قلوبهم) يعني الأوس والخزرج ، وهم الأنصار ، كانت بينهم عداوة في الجاهلية ، فألَّف الله بينهم بالإسلام . وهذا من أعجب الآيات ، لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة ؛ فلو أن رجلاً لطم رجلاً ، لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره ، فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (حسبك الله ومن اتَّبَعَكَ) فيه قولان .

أحدهما : حسبُكَ اللهُ ، وحسبُ من اتَّبَعَكَ ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، ومقاتل ، والأكثرون .

والثاني : حسبُكَ اللهُ ومتَّبِعُوكَ ، قاله مجاهد . وعن الشعبي كالقولين . وأجاز الفراء والزجاج الوجهين . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون ، ثم أسلم عمر فصاروا أربعين ، فنزلت هذه الآية . قال أبو سليمان الدمشقي : هذا لايحفظ ، والسورة مدنية بإجماع ، والقول الأول أصح .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (حرِّض المؤمنين على القتال) قال الزجاج : تأويله : حُثَّهم .

وتأويل التحريض في اللغة : أن يحث الإنسان على الشيء حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه . والحارض : الذي قد قارب الهلاك .

قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) لفظُ هذا الكلام لفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، والمراد : يقاتلوا مائتين ، وكان هذا فرضاً في أول الأمر ، ثم نسخ بقوله : (الآن خفف الله عنكم) ففُرض على الرجل أن يثبت لرجلين ، فان زادوا جاز له الفرار . قال مجاهد : وهذا التشديد كان في يوم بدر . واتفق القراء على قوله (إن يكن منكم) فقرؤوا « يكن » بالياء ، واختلفوا في قوله : (وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً) ، وفي قوله : (فان تكن منكم مائةٌ صابرةٌ) فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : بالتاء فيهما . وقرأهما عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالياء . وقرأ أبو عمرو « يكن منكم مائة يغلبوا » بالياء ، « فان تكن منكم مائة صابرة » بالتاء . قال الزجاج : من أنَّث ، فللفظ المائة ؛ ومن ذكَّر ، فلأن المائة وقعت على عدد مذكر . وقال أبو علي : من قرأ بالياء ، فلأنه أريد منه المذكر ، بدليل قوله : « يغلبوا » ، وكذلك المائة الصابرة هم رجال ، فقرؤوها بالياء ، لموضع التذكير . فأما أبو عمرو ، فانه لما رأى صفة المائة مؤنثة بقوله : « صابرة » أنث الفعل ، ولما رأى « يغلبوا » مذكراً ، ذكَّر . ومعنى الكلام : إن يكن منكم عشرون صابرون يثبتون عند اللقاء ، يغلبوا مائتين ، لأن المؤمنين يحتسبون أفعالهم ، وأهل الشرك يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ، فاذا صدَقهم المؤمنون القتال لم يثبتوا ؛ وذلك معنى قوله : (لا يفقهون) .

قوله تعالى : (وعلم) وروى المفضل « وعُلِم » بضم العين « أن فيكم ضُعفاً » بضم الضاد . وقرأ عاصم ، وحمزة : بفتح الضاد . وكذلك خلافهم في (الروم : ٥٥) ، قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم . قال الزجاج : والمعنى في القراءتين

واحد ، يقال : هو الضَّعف والضُّعف ، والمَكث والمُكث ، والفَقر والفُقر ، وفي اللغة كثير من باب فَعْل وفُعْل ، والمعنى واحد . وقرأ أبو جعفر « وعلمَ أن فيكم ضُعَفاءَ » على فُعَلاءَ . فأما قوله : (باذن الله) فهو إعلام بأن الغلبة لا تقع إلا بارادته .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ما كان لنبيٍّ أن تكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض) روى مسلم في أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال : لما هزم الله المشركين يوم بدر ، وقُتل منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوّةً لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكِّنَني من فلان ، قريبٌ لعمر ، فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكِّنَ حمزة من أخيه فلان فيضربَ عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهَوِيَ رسول الله ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، فأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد ، غدوت إلى رسول الله ﷺ ، فاذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان . فقلت : يا رسول الله ، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فان وجدت بكاءً بكَيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت . فقال النبي ﷺ « أبكي الذي عرض عليَّ أصحابُك من الفداء . لقد عُرض عليَّ عذابكم

أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة ، فأنزل الله « ما كان لنبي أن يكون له أسرى » إلى قوله « عظيم » [١] .

وروي عن ابن عمر قال : لما أشار عمر بقتلهم ، وفاداهم رسول الله ﷺ ، أنزل الله تعالى « ما كان لنبي » إلى قوله « حلالاً طيباً » ، فلقي النبي ﷺ عمر، فقال « كاد يصيبنا في خلافك بلاء » [٢] . فأما الأسرى ، فهو جمع أسير ، وقد ذكرناه في (البقرة : ٨٥) . والجمهور قرؤوا « أن يكون » بالياء ،لأن الأسراء مذكَّرون . وقرأ أبو عمرو « أن تكون »، قال أبو علي : أنَّثَ على لفظ الأسرى، لأن الأسرى وإن كان المراد به التذكير والرجال فهو مؤنَّث اللفظ . والأكثرون قرؤوا « أسرى » وكذلك « لمن في أيديكم من الأسرى » . وقرأ أبو جعفر ، والمفضل « أسارى » في الموضعين ، ووافقهما أبو عمرو ، وأبان في الثاني . قال الزجاج : والإثخان في كل شيء : قُوَّة الشيء وشِدَّته . يقال : قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قُوَّته عليه . والمعنى : حتى يبالغ في قتل أعدائه . ويجوز أن يكون المعنى : حتى يتمكن في الأرض . قال المفسرون : معنى الآية : ما كان لنبي أن يحبس كافراً قدر عليه للفداء أو المن قبل الإثخان في الأرض . وكانت غزاة

---

(١) « الطبري » : ٦٣/١٤ ورواه أحمد في « المسند » رقم ٢٠٨ و ٢٢١ مطولاً ، ورواه مسلم في « صحيحه » ١٣٨٣/٣ - ١٣٨٥ كذلك مطولاً ، وقد رواه المؤلف من رواية مسلم مختصراً بمعناه ، وروى بعضه أبو داود في « سننه » رقم ٢٦٩٠ ، ورواه الترمذي ١٣٤/٢ مختصراً ، والواحدي في « أسباب النزول » مطولاً ١٣٧ - ١٣٨ ، وأورده ابن كثير في « التفسير » ٢٨٩/٢ من رواية أحمد بطوله ، وقال في آخره ، ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » ٢٠٢/٣ عن أبي نعيم في « الحلية » من طريق مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنه .

بدر أول قتال قاتله رسول الله ﷺ ، ولم يكن قد أثخن في الأرض بعد . (تريدون عرض الدنيا) وهو المال . وكان أصحاب النبي ﷺ قد فادوا يومئذ بأربعة آلاف أربعة آلاف . وفي قوله : (والله يريد الآخرة) قولان .

أحدهما : يريد لكم الجنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة ، ذكره الماوردي .

فصل

وقد روي عن ابن عباس ، ومجاهد في آخرين : أن هذه الآية منسوخة بقوله : (فإما منّاً بعدُ وإمّا فداءً) [محمد : ٤] ، وليس للنسخ وجه ، لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قِلّةٌ ؛ فلما كثروا واشتدّ سلطانُهم ، نزلت الآية الأخرى ، ويبيِّن هذا قولُه : (حتى يثخن في الأرض) .

﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لولا كتاب من الله سبق) في معناه خمسة أقوال .

أحدها : لولا أن الله كتب في أم الكتاب أنه سيُحِلُّ لكم الغنائم لمسّكم فيما تعجّلتم من المغانم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذابٌ عظيم ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل . وقال أبو هريرة : تعجّل ناس من المسلمين فأصابوا الغنائم ، فنزلت الآية .

والثاني : لولا كتاب من الله سبق أنّه لايعذّب من أتى ذنباً على جهالةٍ

لعوقبتم ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وابن جريج عن مجاهد . وقال ابن إسحاق : سبق أن لا أعذّب إلا بعدَ النهي ، ولم يكن نهاهم .

والثالث : لولا ماسبق لأهل بدر أن الله لايعذّبهم ، لعُذّبتم ، قاله الحسن ، وابن جبير ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

والرابع : لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ماعليه فتاب ، ذكره الزجاج .

والخامس : لولا القرآن الذي اقتضى غفران الصغائر ، لعُذّبتم ، ذكره الماوردي . فيخرج في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه كتاب مكتوب حقيقة . ثم فيه قولان . أحدهما أنه ماكتبه الله في اللوح المحفوظ . والثاني : أنه القرآن .

والثاني : أنه بمعنى القضاء .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فكلوا مما غنمتم) قال الزجاج : الفاء للجزاء . والمعنى : قد أُحلت لكم الفداء فكلوا . والحلال منصوب على الحال . قال مقاتل : إن الله غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حلّها ، رحيم بكم إذْ أحلّها لكم . فجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، وخبّاب بنَ الأرتّ يوم بدر على القبَض [1] ، وقسمها

(١) القبض بفتح القاف والباء . قال أبو عبيد القاسم بن سلام : القبض : الذي تجمع عنده الغنائم ، وقال غيره : بمعنى المقبوض ، وهو ماجمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

النبي ﷺ بالمدينة، وانطلق بالأسارى، فيهم العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب. وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلِّف أن يفدي ابني أخيه، فأدَّى عنهما ثمانين أوقية من ذهب. وقال النبي ﷺ: «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ماحييت أسأل قريشاً بكفَّيَّ. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل»؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري مايصيبني في وجهي هذا، فان حدث بي حدث، فهو لك ولولدك» فقال: ابنَ أخي، مَن أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم؛ وأمر ابني أخيه فأسلما. وفيهم نزلت: (قل لمن في أيديكم من الأسارى) الآية. وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في جميع من أُسر يوم بدر. وقال ابن زيد: لما بُعِثَ رسول الله ﷺ، أتاه رجالٌ، فقالوا: لولا أنَّا نخاف هؤلاء القوم لأسلمنا، ولكنَّا نشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فلما كان يوم بدر، قال المشركون: لايتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستحللنا ماله، فخرج أولئك القوم، فقُتلت طائفة منهم وأُسرت طائفة. فأما الذين قُتلوا، فهم الذين قال الله فيهم: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) [النحل: ٢٨]. وأما الذين أُسروا فقالوا: يارسول الله أنت تعلم أنا كنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وإنما خرجنا مع هؤلاء خوفاً منهم. فذلك قوله: (قل لمن في أيديكم من الأسارى) إلى قوله: (عليم حكيم). فأما قوله: (إن يعلم الله في قلوبكم خيراً) فمعناه إسلاماً وصدقاً (يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم) من الفداء. وفيه قولان.

أحدهما : أكثر مما أخذ منكم . والثاني : أحلُّ وأطيب . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن أبي عبلة : « مما أَخَذَ منكم » بفتح الخاء ؛ يشيرون إلى الله تعالى . وفي قوله : (ويَغْفِرْ لكم) قولان .

أحدهما : يغفر لكم كفركم وقتالكم رسول الله ، قاله الزجاج .

والثاني : يغفر لكم خروجكم مع المشركين ، قاله ابن زيد في تمام كلامه الأول .

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإن يريدوا خيانتك) يعني : إن أراد الأُسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام (فقد خانوا الله من قبل) إذ كفروا به قبل أسرهم . وقال ابن زيد : فقد خانوا بخروجهم مع المشركين ؛ وقد ذكرنا عنه أنها نزلت في قوم تكلَّموا بالإسلام . وقال مقاتل : المعنى : إن خانوك أمكنتك منهم فقتلتهم وأسرتهم كما أمكنتُك ببدر . قال الزجاج : (والله عليم) بخيانة إن خانوها ، (حكيم) في تدبيره عليهم ومجازاته إياهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) يعني : المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأموالهم وقومهم في نصرة الدين .

(والذين آووا ونصروا) يعني : الأنصار ، آووا رسولَ الله ، وأسكنوا المهاجرين ديارهم ، ونصروهم على أعدائهم . (أولئك بعضهم أولياء بعض) فيه قولان .

أحدهما : في النصرة . والثاني : في الميراث .

قال المفسرون : كانوا يتوارثون بالهجرة ، وكان المؤمن الذي لم يهاجر لايرث قريبه المهاجر ، وهو معنى قوله : (مالكم من وَلايتهم من شيء) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي : « وَلايتهم » بفتح الواو . وقرأ حمزة : بكسر الواو . قال الزجاج : المعنى : ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا . ومن كسر واو الولاية ، فهي بمنزلة الإمارة ؛ وإذا فتحت ، فهي من النصرة . وقال يونس النحوي : الوَلاية ، بالفتح ، لله عز وجل ، والوِلاية ، بالكسر ، من وُلّيت الأمر . وقال أبو عبيدة : الوَلاية ، بالفتح ، للخالق ؛ والوِلاية ، للمخلوق . قال ابن الأنباري : الوَلاية ، بالفتح ، مصدر الوليّ ، والوِلاية : مصدر الوالي ، يقال : وليّ بيّن الوَلاية ، ووالٍ بيّن الوِلاية ؛ فهذا هو الاختيار ؛ ثم يصلح في ذا مايصلح في ذا . وقال ابن فارس : الوَلاية ، بالفتح : النصرة ، وقد تكسر . والوِلاية ، بالكسر : السلطان .

فصل

وذهب قوم إلى أن المراد بهذه الولاية موالاة النصر والمودّة . قالوا : ونسخ هذا الحكم بقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) [التوبة : ٧١] . فأما القائلون بأنها ولاية الميراث ، فقالوا : نسخت بقوله : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) [الانفال : ٧٥] .

قوله تعالى : (وإن استنصروكم في الدين) أي : إن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فانصروهم ، إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد ، فلا تغدروا بأرباب العهد . وقال بعضهم : لم يكن على المهاجر أن ينصر مَن لم يهاجر إلا أن يستنصره .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) فيه قولان .

أحدهما : في الميراث ، قاله ابن عباس .

والثاني في النصرة ، قاله قتادة .

وفي قوله : (إلا تفعلوه) قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى الميراث ، فالمعنى : إلّا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه يرجع إلى التناصر . فالمعنى : إلا تتعاونوا وتتناصروا في الدين ، قاله ابن جريج . وبيانه : أنه إذا لم يتولَّ المؤمنُ المؤمنَ تولِّياً حقاً ، ويتبرأ من الكافر جداً ، أدَّى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين . فاذا هجر المسلم أقاربه الكفار ، ونصر المسلمين ، كان ذلك أدعى لأقاربه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك .

قوله تعالى : (وفساد كبير) قرأ أبو هريرة ، وابن سيرين ، وابن السميفع : « كثير » بالثاء .

قوله تعالى : (أولئك هم المؤمنون حقاً) أي : هم الذين حقّقوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة ، بخلاف من أقام بدار الشرك . والرزق الكريم : هو الحسن ، وذلك في الجنة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعدُ) أي : من بعد المهاجرين الأولين . قال ابن عباس : هم الذين هاجروا بعد الحديبية .

قوله تعالى : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) أي : في المواريث بالهجرة . قال ابن عباس : آخى النبي ﷺ بين أصحابه ، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فتوارثوا بالنسب .

قوله تعالى : (في كتاب الله) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ .

والثاني : أنه القرآن ـ وقد بيّن لهم قسمة الميراث في سورة (النساء : ١١ ، ١٢) .

والثالث : أنه حكم الله ، ذكره الزجاج .

★ ★ ★

سورة التوبة

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

فصل في نزولها

هي مدنية بإجماعهم ، سوى الآيتين اللتين في آخرها (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [التوبة : ١٢٨] فانها نزلت بمكة . روى البخاري في « صحيحه » من حديث البراء قال : آخر سورة نزلت (براءة) [1] . وقد نُقل عن بعض العرب أنه سمع قارئاً يقرأ هذه السورة ، فقال الأعرابي : إني لأحسب هذه من آخر مانزل من القرآن . قيل له : ومن أين علمت ؟ فقال : إني لأسمع عهوداً تُنبَذُ ، ووصايا تُنفَّذ .

فصل

واختلفوا في أول مانزل من (براءة) على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أول مانزل منها قوله : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) [التوبة : ٢٥] ، قاله مجاهد .

---

(١) البخاري : ٨/٢٢٧ .

والثاني : (انفروا خفافاً وثقالاً) [التوبة : ٤١] ، قاله أبو الضحى ، وأبو مالك .

والثالث : (إلّا تنصروه) [التوبة : ٤٠] ، قاله مقاتل . وهذا الخلاف إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة ، فانهم قد قالوا : نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة .

فصل

ولها تسعة أسماء . أحدها : سورة التوبة . والثاني : براءة ؛ وهذان مشهوران بين الناس . والثالث : سورة العذاب ، قاله حذيفة . والرابع : المُقَشْقِشَة ، قاله ابن عمر . والخامس : سورة البَحوث ، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين ، قاله المقداد بن الأسود . والسادس : الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين ، قاله ابن عباس . والسابع : المبعثِرة ، لأنها بعثرت أخبار الناس ، وكشفت عن سرائرهم ، قاله الحارث بن يزيد ، وابن إسحاق . والثامن : المثيرة ، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم ، قاله قتادة . والتاسع : الحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ، قاله الزجاج .

فصل

وفي سبب امتناعهم من كتابة التسمية في أولها ثلاثة أقوال .

أحدها : رواه ابن عباس ، قال : قلت لعثمان بن عفان : ماحملكم على أن عمدتم إلى (الأنفال) وهي من المثاني ، وإلى (براءة) وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ

إذا أُنزل عليه الشيء يدعو بعضَ مَن يكتب ، فيقول : « ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » ، وكانت (الأنفـال) من أوائل مانزل بالمدينة ، و (براءة) من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ؛ وقُبض رسول الله ﷺ ، ولم يُبيِّن لنا أنها منها ، فظننا أنها منها ؛ فمن ثَمَّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما : « بسم الله الرحمن الرحيم » [1] . وذُكر نحو هذا المعنى عن أُبَيِّ بن كعب . قال الزجاج : والشبه الذي بينهما ، أن في (الأنفال) ذكر العهود ، وفي (براءة) نقضها . وكان قتادة يقول : هما سورة واحدة .

والثاني : رواه محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي : لم لم تكتبوا في (براءة) « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقـال : يابنيَّ ، إن (براءة) نزلت بالسيف ، وإن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمانٌ . وسئل سفيان بن عيينة عن هذا ، فقال : لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت في المنافقين .

والثالث : أن رسول الله ﷺ ، لما كتب في صلح الحديبية « بسم الله الرحمن الرحيم » ، لم يقبلوها وردُّوها ، فما ردها الله عليهم ، قاله عبد العزيز بن يحيى المكي .

فصل

فأما سبب نزولها ، فقال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً بَنَتْها مع

---

(١) « المسند » ١/٣٩٩ ، وأبو داود ١/٢٩٠ ، والترمذي : ٢/١٣٤ وحسنه ، وابن أبي داود في « المصاحف » ٣١ ، والنحاس في « الناسخ والمنسوخ » ١٥٨ ، والحاكم ٢/٣٣٠ وصححه ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٠٧ وزاد نسبته إلى النسائي ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » ، وقد ضعف هذا الحديث الشيخ أحمد شاكر ، بل حكم عليه بأنه لا أصل له في تعليقه على « المسند » ، فانظره .

رسول الله ﷺ ، فأمره الله تعالى بالقاء عهودهم إليهم ، فأنزل (براءة) في سنة تسع ، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج في تلك السنة ، وبعث معه صدراً من (براءة) ليقرأها على أهل الموسم ، فلما سار ، دعا رسولُ الله ﷺ علياً ، فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر (براءة) وأذِّن في الناس بذلك » فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر ، فرجع أبو بكر فقال : يارسول الله ، أُنزِل في شأني شيء ؟ قال : « لا ، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني ، أما ترضى أنك كنتَ صاحبي في الغار ، وأنك صاحبي على الحوض » ؟ قال : بلى يارسول الله . فسار أبو بكر أميراً على الحج ، وسار عليٌّ ليؤذِّن بـ(براءة) .

فصل

وفي عدد الآيات التي بعثها رسول الله ﷺ من أول (براءة) خمسة أقوال .

أحدها : أربعون آية ، قاله عليٌّ عليه السلام . والثاني : ثلاثون آية ، قاله أبو هريرة . والثالث : عشر آيات ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والرابع : سبع آيات ، رواه ابن جريج عن عطاء . والخامس : تسع آيات ، قاله مقاتل .

فصل

فان توهَّم مُتَوهِّمٌ أن في أخذ (براءة) من أبي بكر ، وتسليمها إلى عليٍّ ، تفضيلاً لعليٍّ على أبي بكر ، فقد جهل ؛ لأن النبي ﷺ أجرى العرب في ذلك على عادتهم . قال الزجاج : وقد جرت عادة العرب في عقد عهدها ونقضها ، أن

يتولّى ذلك على القبيلة رجل منها ؛ وجائز أن تقول العرب إذا تلا عليها نقضَ العهد مَن ليس من رهط النبي ﷺ : هذا خلاف مانعرف فينا في نقض العهود ، فأزاح النبي ﷺ العلّة بما فعل . وقال عمرو بن بحر : ليس هذا بتفضيل لعليٍّ على أبي بكر ، وإنما عاملهم بعاداتهم المتعارفة في حَلّ العقد ، وكان لايتولّى ذلك إلا السيِّدُ منهم ، أو رجل من رهطه دَنِيّاً ، كأخ ، أو عم ؛ وقد كان أبو بكر في تلك الحَجة الإمام ، وعليٌّ يأتمُّ به ، وأبو بكر الخطيب ، وعليٌّ يسمع . وقال أبو هريرة : بعثني أبو بكر في تلك الحَجة مع المؤذِّنين الذين بعثهم يؤذِّنون بمنى : أن لايحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ؛ فأذَّن معنا علي بـ(براءة) وبذلك الكلام . وقال الشعبي : بعث رسولُ الله علياً يؤذِّن بأربع كلمات : « ألا لايحج بعد العام مشرك ، ألا ولا يطوف بالبيت عريان ، ألا ولا يدخل الجنة إلا مسلم ، ألا ومن كانت بينه وبين محمد مدَّة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسوله » .

فصل

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (براءة) قال الفراء : هي مرفوعة باضمار « هذه » ، ومثلُهُ (سورة أنزلناها) [النور : ٢] . وقال الزجاج : يقال : بَرِئْتُ من الرجل والدَّيْن براءةً ، وبرئتُ من المرض ؛ وبرأتُ أيضاً أبرأ بُرءاً ، وقد رووا : برأتُ أبرُؤُ بروءاً . ولم نجد في مالامه همزة : فَعَلْتُ أفعل ، إلا هذا الحرف . ويقال : بريت القلم ، وكل شيء نحتَّه : أبريه بَرْياً ، غير مهموز . وقرأ أبو رجاء ، ومورق ، وابن يعمر : « براءةً » بالنصب . قال المفسرون : والبراءة هاهنا : قطع الموالاة ،

وارتفاع العصمة، وزوال الأمان . والخطاب في قوله: (إلى الذين عاهدتم) لأصحاب رسول الله ﷺ، والمرادُ رسولُ الله ﷺ، لأنه هو الذي كان يتولّـى المعاهدة، وأصحابُه راضون؛ فكأنهم بالرضا عاهدوا أيضاً؛ وهذا عام في كل من عاهد رسولَ الله ﷺ. وقال مقاتل: هم ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة، وبنو مدلج، وبنو جَذِيمة.

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى: (فسيحوا في الأرض) أي: انطلقوا فيها آمنين لا يقع بكم مِنّا مكروه.

إن قال قائل: هذه مخاطبة شاهد، والآية الأولى إخبار عن غائب، فمنه جوابان.

أحدهما: أنه جائز عند العرب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب. قال عنترة:

شَطَّتْ مَزارُ العاشِقِينَ فأصبَحتْ عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ [1]

هذا قول أبي عبيدة.

والثاني: أن في الكلام إضماراً، تقديره: فقل لهم: سيحوا في الأرض، أي: اذهبوا فيها، وأقبلوا، وأدبروا، وهذا قول الزجاج.

واختلفوا فيمن جُعلت له هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال.

---

(١) البيت في شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٩، و «مجاز القرآن» ١/٢٣، و «مختار الشعر الجاهلي» ٣٧٠ من معلقته المشهورة، وقوله: شطت مزار العاشقين، يعني: شطت عبلة مزار العاشقين، أي: بعدت من مزارهم. وفي «شرح المعلقات»: حلت بأرض الزائرين، والزائرون: الأعداء، جعلهم يزأرون زئير الأسد، شبه وعيدهم بالزئير، يقول: نزلت الحبيبة بلاد أعدائي، فعسر عليَّ طلابها.

أحدها : أنها أمان لأصحاب العهد ، فمن كان عهده أكثر منها ، حُطَّ إليها ، ومن كان عهده أقل منها ، رفع إليها ، ومن لم يكن له عهد ، فأجله انسلاخ المحرَّم خمسون ليلة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : أنها للمشركين كافَّةً ، مَنْ له عهد ، ومَنْ ليس له عهد ، قاله مجاهد ، والزهري ، والقرظي .

والثالث : أنها أجل لمن كان رسول الله ﷺ قد آمنه أقلَّ من أربعة أشهر ، أو كان أمانه غير محدود ؛ فأما مَن لا أمان له ، فهو حرب ، قاله ابن إسحاق .

والرابع : أنها أمان لمن لم يكن له أمان ولا عهد ؛ فأما أرباب العهود ، فهم على عهودهم إلى حين انقضاء مُددهم ، قاله ابن السائب . ويؤكده ماروي أن علياً نادى يومئذ : ومَن كان بينه وبين رسول الله عهد ، فعهده إلى مدَّته . وفي بعض الألفاظ : فأجله أربعة أشهر . واختلفوا في مدة هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقوال .

أحدها : أنهـا الأشهر الحرم : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أولها يوم الحج الأكبر ، وهو يوم النحر ، وآخرهـا العاشر من ربيع الآخر ، قاله مجاهد ، والسدي ، والقرظي .

والثالث : أنها شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، لأن هذه الآية نزلت في شوال ، قاله الزهري . قال أبو سليمان الدمشقي : وهذا أضعف الأقوال ، لأنه لو كان كذلك ، لم يجز تأخير إعلامهم به إلى ذي الحجة ، إذ كان لايلزمهم الأمر إلا بعد الإعلام .

والرابع : أن أولها العاشر من ذي القعدة ، وآخرها العاشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم ، ثم صار في السنة الثانية في العشر

من ذي الحجة، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال: «إن الزمان قد استدار»[1]، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: (واعلموا أنكم غير معجزي الله) أي: وإن أجلتم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله.

قوله تعالى: (وأن الله مخزي الكافرين) قال الزجاج: الأجود فتح «أن» على معنى: اعلموا أن، ويجوز كسرها على الاستئناف. وهذا ضمان من الله نصرة المؤمنين على الكافرين.

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

---

(١) الحديث في «المسند» ٥/٣٧، والبخاري ٣/٤٥٩ و ٨/٢٤٤ و ١٠/٦، ومسلم رقم ١٦٧٩، وأبو داود رقم ١٩٤٧ ولفظه في البخاري ١٠/٦ عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أيّ شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فان دماءكم وأموالكم - قال محمد (ابن سيرين): وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، فكان محمد (ابن سيرين) إذا ذكره قال: صدق النبي ﷺ، ثم قال: (أي النبي ﷺ) «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت».

قوله تعالى : (وأذان من الله ورسوله) أي : إعلام ؛ ومنه أذان الصلاة . وقرأ الضحاك ، وأبو المتوكل ، وعكرمة ، والجحدري ، وابن يعمر : « وَإِذْنٌ » بكسر الهمزة وقصرها ساكنة الذال من غير ألف .

قوله تعالى : (إلى الناس) أي : للناس . يقال : هذا إعلام لك ، وإليك . والناس هاهنا عامّ في المؤمنين والمشركين . وفي يوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم عرفة ، قاله عمر بن الخطاب ، وابن الزبير ، وأبو جحيفة ، وطاووس ، وعطاء .

والثاني : يومُ النحر ، قاله أبو موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله ابن أبي أوفى ، وابن المسيب ، وابن جبير ، وعكرمة ، والشعبي ، والنخعي ، والزهري ، وابن زيد ، والسدي في آخرين . وعن علي ، وابن عباس ، كالقولين .

والثالث : أنه أيام الحج كلّها ، فعبَّر عن الأيام باليوم ، قاله سفيان الثوري . قال سفيان : كما يقال : يوم بعاث ، ويوم الجمل ، ويوم صفّين يراد به : أيام ذلك ، لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياماً . وعن مجاهد ، كالأقوال الثلاثة .

وفي تسميته بيوم الحج الأكبر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه سمّاه بذلك لأنه اتفق في سنة حج فيها المسلمون والمشركون ، ووافق ذلك عيدَ اليهود والنصارى ، قاله الحسن .

والثاني : أن الحج الأكبر : هو الحج ، والأصغر : هو العمرة ، قاله عطاء ، والشعبي .

والثالث : أن الحج الأكبر : القِران ، والأصغر : الإفراد ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (أن الله بريء) وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن يعمر : « إن الله » بكسر الهمزة . (من المشركين) أي : من عهد المشركين ، فحذف المضاف .

(ورسولُه) رفعٌ على الابتداء ، وخبره مضمر على معنى : ورسولُه أيضاً بريء .
وقرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وزيد عن يعقوب :
« ورسولَه » بالنصب . ثم رجع إلى خطاب المشركين بقوله : (فان تبتم) أي :
رجعتم عن الشرك ، (وإن تولَّيتم) عن الإيمان .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (إلا الذين عاهدتم من المشركين) قال أبو صالح عن ابن عباس :
فلما قرأ علي (براءة) ، قالت بنو ضمرة : ونحن مثلهم أيضاً ؟ قال : لا ، لأن
الله تعالى قد استثناكم ؛ ثم قرأ هذه الآية . وقال مجاهد : هم قوم كان بينهم وبين
رسول الله ﷺ عهد ومدة ، فأُمر أن يفي لهم . قال الزجاج : معنى الكلام :
وقعت البراءة من المعاهدين الناقضين للعهود ، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم ،
فليسوا داخلين في البراءة مالم ينقضوا العهد . قال القاضي أبو يعلى : وفصل الخطاب
في هذا الباب : أنه قد كان بين رسول الله ﷺ وبين جميع المشركين عهد عامٌّ ،
وهو أن لا يُصدَّ أحدٌ عن البيت ، ولا يُخافَ أحد في الشهر الحرام ، فجعل الله
عهدهم أربعة أشهر ؛ وكان بينه وبين أقوام منهم عهود إلى آجال مسمَّاة ، فأُمر بالوفاء
لهم ، وإتمام مدتهم إذا لم يُخش غدرهم .

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) فيها قولان .

أحدها : أنها رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنها الأربعة الأشهر التي جُعلت لهم فيها السياحة ، قاله الحسن في آخرين ، فعلى هذا ، سميت حُرُماً لأن دماء المشركين حرِّمت فيها .

قوله تعالى : (فاقتلوا المشركين) أي : مَن لم يكن له عهد (حيث وجدتموهم) قال ابن عباس : في الحلِّ والحرم والأشهر الحرم .

قوله تعالى : (وخذوهم) أي : ائسروهم ؛ والأخيذ : الأسير . (واحصروهم) أي : احبسوهم ؛ والحصر : الحبس . قال ابن عباس : إن تحصَّنوا فاحصروهم .

قوله تعالى : (واقعدوا لهم كل مرصد) قال الأخفش : أي : على كل مرصد ؛ فألقى « على » وأعمل الفعل ، قال الشاعر :

نُغـالي اللحمَ للأضيـافِ نيئـاً وُنرخِصُه إذا نَضِـجَ القُدُور [١]

المعنى : نغالي باللحم ، فحذف الباء كما حذف « على » . وقال الزجاج : « كل مرصد » ظرف ، كقولك : ذهبتُ مذهباً ، فلستَ تحتاج أن تقول في هذه إلا ما تقوله في الظروف ، مثل : خلف ، وقُدّام .

قوله تعالى : (فان تابوا) أي : من شركهم .

وفي قوله : (وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة) قولان .

أحدها : اعترفوا بذلك . والثاني : فعلوه .

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال .

---

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » و « أساس البلاغة » مادة على . قال أبو مالك : انغالي للحم : نشتريه غالياً ، ثم نبذله ونطعمه إذا نضج في قدورنا .

أحدها : أن حكم الأسارى كان وجوبَ قتلهم ، ثم نسخ بقوله : (فامّا منّاً بَعْدُ وإمّا فداءً) [محمد : ٤] ، قاله الحسن ، وعطاء في آخرين .

والثاني : بالعكس ، وأنه كان الحكم في الأسارى : أنه لايجوز قتلهم صبراً ، وإنما يجوز المن أو الفداء بقوله : (فاما مَنّاً بعدُ وإما فداءً) ثم نُسخ بقوله : (فاقتلوا المشركين) ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : أن الآيتين محكمتان ، والأسير إذا حصل في يد الإمام ، فهو مخيَّر ، إن شاءَ مَنَّ عليه ، وإن شاء فاداه ، وإن شاء قتله صبراً ، أيّ ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فعلَ ، هذا قول جابر بن زيد ، وعليه عامة الفقهاء ، وهو قول الإمام أحمد .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لايَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك) قال المفسرون : وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما أُمر به ونُهي عنه ، فأَجِرْه ، ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه .

وفي قوله : (ذلك بأنهم قوم لايعلمون) قولان .

أحدها : أن المعنى : ذلك الذي أمرناك به من أن يُعرَّفوا ويُجاروا لجهلهم بالعلم .

والثاني : ذلك الذي أمرناك به من ردّه إلى مأمنه إذا امتنع من الإيمان ، لأنهم قوم جهلة بخطاب الله .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (كيف يكون للمشركين عهد) أي : لايكون لهم ذلك ، (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم بنو ضمرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم قريش ، قاله ابن عباس أيضاً . وقال قتادة : هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبيُّ الله ﷺ زمن الحديبية ، فنكثوا وظاهروا المشركين .

والثالث : أنهم خزاعة ، قاله مجاهد . وذكر أهل العلم بالسِّيَر أن رسول الله ﷺ لما صالح سهيل بن عمرو في غزوة الحديبية ، كتب بينه وبينه : « هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض ، على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن بيننا عيبةً مكفوفةً ، وأنَّه مَنْ أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنَّه مَنْ أتى محمداً منهم بغير إذن وليه ردَّه إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردُّوه ، وأن محمداً يرجع عنَّا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا في قابل في أصحابه ، فيقيم بها ثلاثاً لايدخل علينا بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوفَ في القُرب » فوثبت خزاعة فقالوا : نحن ندخل في عهد محمد وعقده ، ووثبت بنو بكر فقالوا : نحن ندخل في عهد قريش وعقدها . ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح فبيَّتوا خزاعة ليلاً ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً . ثم إن قريشاً ندمت على ماصَنَعَتْ ، وعلموا أنَّ هذا نقضٌ للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وخرج قوم من خزاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصابهم ، فخرج إليهم وكانت غزاة الفتح . قال أبو عبيدة : الإسلال : السرقة ، والإغلال : الخيانة . قال ابن الأعرابي : وقوله : « وأن بيننا عيبة مكفوفة » مَثَل ، أراد : أنَّ صُلْحَنَا

مُحْكَم مُسْتَوْثَقٌ منه ، كأنه عيبة مشرجة . وزعم بعض المفسرين أن قوله : (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) نُسخ بقوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) [التوبة : ٥] .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَايَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (كيف وإن يظهروا عليكم) قال الزجاج : المعنى : كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم ، فحذف ذلك ، لأنه قد سبق ، قال الشاعر :

وخَبَّرْتُماني أنَّما الموتُ بالقُرى فكيفَ وهذي هضبةٌ وقليبُ [(١)]

أي : فكيف مات وليس بقرية ؟ ومثله قول الحطيئة :

فكيف ولم أعْلَمْهُمُ خذلوكُمُ على مُعظَمٍ ولا أديمَكُمُ قَدُّوا [(٢)]

أي : فكيف تلومونني على مدح قوم ؟ واستغنى عن ذكر ذلك ، لأنه قد جرى في القصيدة مايدل على ما أضمر . وقوله : (يظهروا) يعني : يقدروا ويظفروا .

وفي قوله : (لايرقبوا) ثلاثة أقوال .

أحدها : لايحفظوا . والثاني : لايخافوا ، قاله السدي . والثالث : لايراعوا ، قاله قطرب .

وفي الإلِّ خمسة أقوال .

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي من مرثيته الشهيرة النبيلة في « الأصمعيات » : ٩٩ ، و« طبقات فحول الشعراء » : ١٧٦ ، و « أمالي القالي » : ٢/١٥١ ، و « جمهرة أشعار العرب » : ١٣٥ ، و« معاني القرآن » للفراء : ١/٤٢٤ .

(٢) ديوانه ١٤٠ وفيه : على موطن ولا أديمكم قدّوا . وقوله : خذلوكم على معظم ، قال أبو عمرو : أي : لم يخذلوكم في أمر حدث . وقوله : ولا أديمكم قدوا ، أي : لم يقعوا في حسبكم .

أحدها : أنه القرابة ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، والسدي ، ومقاتل ، والفراء ، وأنشدوا :

إنَّ الوشاة كثيرٌ إن أطعتهمُ لايرقبون بنا إلّاً ولا ذِمَما

وقال الآخر :

لعَمْرُكَ إنَّ إلَّكَ مِنْ قُرَيش كالِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعامِ [(١)]

والثاني : أنه الجوار ، قاله الحسن .

والثالث : أنه الله تعالى ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة .

والرابع : أنه العهد ، رواه خصيف عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد ، وأبو عبيدة .

والخامس : أنه الحلف ، قاله قتادة . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعكرمة ، وأبو رجاء ، وطلحة بن مصرّف : « إيلاً » بياء بعد الهمزة . وقرأ ابن السميفع ، والجحدري : « ألاً » بفتح الهمزة وتشديد اللام . وفي المراد بالذمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها العهد ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك في آخرين .

والثاني : التذمم ممن لا عهد له ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد :

لايَرْقُبُونَ بِنَا إلّاً وَلا ذِمَمَا

والثالث : الأمان ، قاله اليزيدي ، واستشهد بقوله : « ويسعى بذمتهم أدناهم » [(٢)] .

---

(١) قائله حسان بن ثابت الأنصاري ، ديوانه : ٤٠٧ ، و«اللسان» : «ألل» وهو من أبيات هجا بها أبا سفيان قبل إسلامه . والسقب : هو ولد الناقة ساعة يولد ، والرأل : ولد النعام ، يقول : ماقرابتك في قريش إلا كقرابة الفصيل من ولد النعام ، أي : لست منهم في نسب .

(٢) «المسند» رقم : ٩٥٩ ، وأبو داود رقم : ٤٥٣٠ ، والنسائي ٨/٢٠ كلهم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو جزء من حديث طويل ، وسنده صحيح .

قوله تعالى : (يرضونكم بأفواههم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يرضونكم بأفواههم في الوفاء ، وتأبى قلوبهم إلا الغدر .

والثاني : يرضونكم بأفواههم في العِدَة بالإيمان ، وتأبى قلوبهم إلا الشرك .

والثالث : يرضونكم بأفواههم في الطاعة ، وتأبى قلوبهم إلا المعصية ، ذكرهنَّ الماوردي .

قوله تعالى : (وأكثرهم فاسقون) قال ابن عباس : خارجون عن الصِّدْق ، ناكثون للعهد .

﴿ إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً) في المشار إليهم قولان .

أحدها : أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم قوم من اليهود ، قاله أبو صالح . فعلى الأول ، آيات الله : حججه . وعلى الثاني : هي آيات التوراة . والثمن القليل : ماحصَّلوه بدلاً من الآيات . وفي وصفه بالقليل وجهان .

أحدها : لأنه حرام ، والحرام قليل . والثاني لأنه من عَرَض الدنيا الذي بقاؤه قليل . وفي قوله : (فصدوا عن سبيله) ثلاثة أقوال .

أحدها : عن بيته ، وذلك حين منعوا النبي ﷺ بالحديبية دخول مكة .

والثاني : عن دينه بمنع الناس منه . والثالث : عن طاعته في الوفاء بالعهد .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن نكثوا أيمانهم) قال ابن عباس : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ، فأمر رسول الله ﷺ أن يسير إليهم فينصر خزاعة ، وهم الذين همّوا بإخراج رسول الله ﷺ . فأما النكث ، فمعناه : النقض . والأيمان هاهنا : العهود . والطعن في الدّين : أن يعاب ، وهذا يوجب قتل الذميّ إذا طعن في الإسلام ، لأن المأخوذ عليه أن لا يطعن فيه .

قوله تعالى : (فقاتلوا أئمة الكفر) قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « أئمة » بتحقيق الهمزتين . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : بتحقيق الأولى وتليين الثانية . والمراد بأئمة الكفر : رؤوس المشركين وقادتهم . (إنهم لا أيمان لهم) أي : لا عهود لهم صادقة ؛ هذا على قراءة من فتح الألف ، وهم الأكثرون . وقرأ ابن عامر « لا إيمان لهم » بالكسر [1] ؛ وفيها وجهان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : أنه وصف لهم بالكفر ونفي الإيمان ، والثاني : لا أمان لهم ، تقول : آمنته إيماناً ، والمعنى : فقد بطل أمانكم لهم بنقضهم .

---

(١) قال أبو جعفر الطبري : والصواب من القراءة في ذلك الذي لا أستجيز القراءة بغيره ، قراءة من قرأ بفتح الألف ، دون كسرها ، لاجماع الحجة من القرأة على القراءة به ، ولاجماع أهل التأويل على ماذكرت من أن تأويله : لاعهد لهم ، والايمان التي بمعنى العهد ، لاتكون إلا بفتح الألف ، لأنها جمع يمين كانت على عقد كان بين المتوادعين .

وفي قوله : (لعلهم ينتهون) قولان .

أحدها : عن الشرك . والثاني عن نقض العهود .

وفي « لعل » قولان .

أحدها : أنها بمعنى الترجّي ، المعنى : ليرجى منهم الانتهاء ، قاله الزجاج .

والثاني : أنها بمعنى : « كي »، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ألا تقاتلون قوماً) قال الزجاج : هذا على وجه التوبيخ ، ومعناه الحضّ على قتالهم . قال المفسرون : وهذا نزل في نقض قريش عهد رسول الله ﷺ الذي عاهدهم بالحديبية حيث أعانوا على خزاعة .

وفي قوله : (وهمّوا باخراج الرسول) قولان .

أحدها : أنهم أبو سفيان في جماعة من قريش ، كانوا فيمن همّ باخراج النبي ﷺ من مكة .

والثاني : أنهم قوم من اليهود ، غدروا برسول الله ﷺ ، ونقضوا عهده وهمّوا بمعاونة المنافقين على إخراجه من المدينة .

قوله تعالى : (وهم بدؤوكم أول مرة) فيه قولان .

أحدها : بدؤوكم باعانتهم على حلفائكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : بالقتال يوم بدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أتخشَونهم) قال الزجاج : أتخشون أن ينالكم من قتالهم مكروه ؟! فمكروه عذاب الله أحق أن يُخشى إن كنتم مصدِّقين بعذابه وثوابه .

قوله تعالى : (ويشف صدور قوم مؤمنين) قال ابن عباس ، ومجاهد : يعني خزاعة .

قوله تعالى : (ويُذْهِبْ غيظ قلوبهم) أي : كَربها وَوجْدها بمعونة قريشٍ بني بكر عليها .

قوله تعالى : (ويتوبُ الله على من يشاء) قال الزجاج : هو مستأنف ، وليس بجواب « قاتِلوهم » . وفيمن عُنِي به قولان .

أحدهما : بنو خزاعة ، والمعنى : ويتوب الله على من يشاء من بني خزاعة ، قاله عكرمة .

والثاني : أنه عامّ في المشركين كما تاب على أبي سفيان ، وعكرمة ، وسهيل . (والله عليم) بنيَّات المؤمنين ، (حكيم) فيما قضى .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أم حسبتم أن تُتركوا) في المخاطب بهذا قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون ، خوطبوا بهذا حين شق على بعضهم القتال ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنهم قوم من المنافقين كانوا يسألون رسول الله ﷺ الخروج معه إلى الجهاد تعذيراً ، قاله ابن عباس . وإنما دخلت الميم في الاستفهام ، لأنه استفهام

معترض في وسط الكلام ، فدخلت لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ . قال الفراء : ولو أريد به الابتداء ، لكان إما بالألف ، أو بـ « هل » ، ومعنى الكلام : أن تُتركوا بغير امتحان يَبين به الصادق من الكاذب . (ولمّا يعلم الله) أي : ولم تجاهدوا فيعلم الله وجود ذلك منكم ؛ وقد كان يعلم ذلك غيباً ، فأراد إظهار ماعلم ليجازي على العمل .

فأما الوليجة ، فقال ابن قتيبة : هي البطانة من غير المسلمين ، وهو أن يتخذ الرجل من المسلمين دخيلاً من المشركين وخليطاً ووادّاً ؛ وأصله من الولوج . قال أبو عبيدة : وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة ، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وليجة فيهم .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَآتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ماكان للمشركين أن يعمروا مسجد الله) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « مسجد الله » على التوحيد ، « إنما يعمر مساجدَ الله » على الجمع . وقرأ عاصم ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي على الجمع فيهما . وسبب نزولها أن جماعة من رؤساء قريش أُسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيَّروهم بالشرك ، وجعل علي بن أبي طالب يوبِّخُ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقالوا : وهل لكم من محاسن ؟ قالوا :

نعم ، لنَحن أفضل منكم أجراً ؛ إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني ، فنزلت هذه الآية [١] ، قاله مقاتل في جماعة .

وفي المراد بالعِمارة قولان.

أحدها : دخوله والجلوس فيه . والثاني : البناء له وإصلاحه ؛ فكلاهما محظور على الكافر . والمراد من قوله : (ماكان للمشركين) أي : يجب على المسلمين منعُهم من ذلك . قال الزجاج : وقوله : (شاهدين) حال . المعنى : ماكانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر ، (أولئك حبطت أعمالهم) لأن كفرهم أذهب ثوابها .

فان قيل : كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر ، وهم يعتقدون أنهم على الصواب ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه قول اليهودي : أنا يهودي ، وقول النصراني : أنا نصراني ، قاله السدي .

والثاني : أنهم ثبَّتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ ، وهو حق لايخفى على مميِّز ، فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه .

والثالث : أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق ، وحرَّضوا على اتبِّاعه ، فلما آمنوا بهم وكذَّبوه ، دلُّوا على كفرهم ، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر ، لأن الشهادة هي تبيين وإظهار ، ذكرها ابن الأنباري .

فان قيل : ماوجه قوله : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الرسول ، والإيمانُ لايتم إلا به ؟ فالجواب : أن فيه دليلاً على الرسول ، لقوله : (وأقام الصلاة) أي : الصلاة التي جاء بها الرسول ، قاله الزجاج . فان قيل : (فعسى) ترجٍّ ، وفاعل هذه الخصال مهتدٍ بلا شك . فالجواب : أن « عسى »

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٣٩ .

من الله واجبة ، قاله ابن عباس . فان قيل : قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات . فالجواب : أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة ، كان من أهل عمارتها ؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج) في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : رواه مسلم في « صحيحه » من حديث النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ ، فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الاسلام إلا] أن أسقيَ الحاجَّ ، وقال الآخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد [الاسلام إلا] أن أَعْمُرَ المسجدَ الحرامَ ، وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وهو يوم الجمعة ، ولكني إذا صليت الجمعة ، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه ، فنزلت هذه الآية [1] .

---

(١) « الطبري » : ١٦٩/١٤ ، ومسلم : ٢٦/١٣ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢١٨/٣ وزاد نسبته لابي داود ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابي الشيخ ، وابن مردويه .

والثاني : أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نَعمُر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني[1] ، فنزلت هذه الآية[2] ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله الحرام ، والقيام على السقاية ، خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطية العوفي عن ابن عباس .

والرابع : أن علياً والعباس وطلحة ـ يعني سادن الكعبة ـ افتخروا ، فقال طلحة : أنا صاحب البيت ، بيدي مفتاحه ، ولو أشاء بتُّ فيه . وقال العباس : أنا صاحب السقاية ، والقائم عليها ، ولو أشاء بتُّ في المسجد . وقال علي : ما أدري ما تقولون ، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن ، والشعبي ، والقرظي .

والخامس : أنهم لما أُمروا بالهجرة قال العباس : أنا أسقي الحاج ، وقال طلحة : أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، قاله مجاهد . هكذا ذكر مجاهد ، وإنما الصواب عثمان بن طلحة ، لأن طلحة هذا لم يسلم .

والسادس : أن علياً قال للعباس : ألا تلحق بالنبي ﷺ ؟ فقال : ألستُ في أفضلَ من الهجرة ، ألست أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام ؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، قاله مُرَّة الهَمْداني ، وابن سيرين . قال الزجاج : ومعنى الآية : أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله ؟ فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه . قال الحسن : كان يُنبذ زبيبٌ ، فيسقُون

---

(١) العاني : الأسير .

(٢) « الطبري » ١٤/١٧٠ وعلي ابن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس .

الحاج في الموسم . وقال ابن عباس : عمارة المسجد : تجميره ، وتخليقه ، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك ، وسماهم ظالمين لشركهم .

قوله تعالى : (أعظم درجةً) قال الزجاج : هو منصوب على التمييز . والمعنى : أعظم من غيرهم درجة . والفائز : الذي يظفر بأمنيته من الخير . فأما النعيم ، فهو لين العيش ، والمقيم : الدائم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أنه لما أُمر المسلمون بالهجرة ، جعل الرجل يقول لأهله : إنا قد أُمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ، ومنهم من يتعلق به عياله وزوجته فيقولون : نَنْشُدك الله أن تَدَعنا إلى غير شيء ، فيرقّ قلبه فيجلس معهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه لما أمر الله المؤمنين بالهجرة ، قال المسلمون : يانبي الله ، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالفنا في الدين ، قطعنا آباءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وخربت ديارنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما قال العباس : أنا أسقي الحاج ، وقال طلحة : أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر ، نزلت هذه الآية والتي قبلها ، هذا قول قتادة ، وقد ذكرناه عن مجاهد .

والرابع : أن نفراً ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة ، فنهى الله عن ولايتهم ، وأنزل هذه الآية ، قاله مقاتل .

والخامس : أن النبي ﷺ لما أمر الناس بالجهاز لنصرة خزاعة على قريش ، قال أبو بكر الصديق : يارسول الله ، نعاونهم على قومنا ؟ فنزلت هـذه الآية ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم ...) الآية ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهـا نزلت في الذين تخلّفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن علي بن أبي طالب قدم مكة ، فقال لقـوم : ألا تهاجرون ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن سيرين .

والثالث : أنه لما نزلت الآية التي قبلها ، قالوا : يارسول الله ، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالَفنا في الدين ، قطعنا آباءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا ، وخربت ديارنا ، فنزلت هذه الآية ، ذكره بعض المفسرين في هـذه الآية ، وذكره بعضهم في الآية الأولى كما حكيناه عن ابن عباس . فأما العشيرة ، فهـم الأقارب الأدنون . وروى أبو بكر عن عاصم « وعشيراتُـكم » على الجمع . قال أبو علي : وجهه أن كل واحد من المخاطَبين له عشيرة ، فاذا جمعت قلت : عشيراتكم ؛ وحجة من أفرد : أن العشيرة واقعة على الجمع ، فاستغنى بذلك عن جمعهـا . وقال الأخفش : لا تكاد

العرب تجمع عشيرة : عشيرات ، إنما يجمعونها على عشائر . والاقتراف بمعنى الاكتساب . والتربص : الانتظار .

وفي قوله : (حتى يأتيَ الله بأمره) قولان .

أحدها : أنه فتح مكة ، قاله مجاهد والأكثرون ، ومعنى الآية : إن كان المُقام في أهاليكم ، وكانت الأموال التي اكتسبتموها (وتجارةٌ تخشون كسادها) لفراقكم بلدكم (ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم) من الهجرة ، فأقيموا غير مُثابين حتى تُفتح مكة ، فيسقط فرض الهجرة .

والثاني أنه العقاب ، قاله الحسن .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) أي : في أماكن . قال الفراء : وكل جمع كانت فيه ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان لم يُجْرَ[1] ، مثل ، صوامع ، ومساجد . وجُري « حنين » لأنه اسم لمذكّر ، وهو وادٍ بين مكة والطائف ، وإذا سمّيتَ ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكّر لا علّة فيه ، أجريته ، من ذلك : حنين ، وبدر ، وحِراء ، وثَبير ، ودابِق[2] . ومعنى الآية : أن الله عز وجل أعلمهم أنهم إنما يغلبون بنصر الله لا بكثرتهم . وفي عددهم يوم حنين أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا ستة عشر ألفاً ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : عشرة آلاف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

(١) إجراء الاسم عند الكوفيين : صرفه وتنوينه ، وعدم إجرائه : منع صرفه .
(٢) دابق : قرية من قرى حلب .

والثالث : كانوا اثني عشر ألفاً ، قاله قتادة ، وابن زيد ، وابن إسحاق ، والواقدي .

والرابع : أحد عشر ألفاً وخمسائة ، قاله مقاتل . قال ابن عباس : فقال ذلك اليوم سلمة بن سلامة بن وقش ، وقد عجب لكثرة الناس : لن تُغلَب اليوم من قِلَّة ، فساء رسولَ الله ﷺ كلامُه ، ووُكِلوا إلى كلمة الرجل ، فذلك قوله : (إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) . وقال سعيد بن المسيب : القائل لذلك أبو بكر الصديق . وحكى ابن جرير أن القائل لذلك رسول الله ﷺ . وقيل : بل العباس . وقيل : رجل من بني بكر .

قوله تعالى : (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) أي : برحبها . قال الفراء : والباء هاهنا بمنزلة « في » كما تقول : ضاقت عليكم الأرض في رحبها وبرحبها .

الإشارة إلى القصة

قال أهل العلم بالسيرة : لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، تآمر عليه أشراف هوازن وثقيف ، فجاؤوا حتى نزلوا أوطاس[١] ، وأجمعوا المسير إليه ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فلما التقَوا أعجبتهم كثرتُهم فهُزموا .

وقال البراء بن عازب : لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم ، فأقبلوا بالسهام ، فانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ[٢] . وبعضهم يقول :

---

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن .

(٢) البخاري : ٨/٢٤ ، ومسلم : ١٢/١٢١ .

ثبت مع رسول الله ﷺ يومئذ جماعة من أصحابه منهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والعباس ، وأبو سفيان بن الحارث .

وبعضهم يقول : لم يبق معه سوى العباس وأبي سفيان ، فجعل النبي يقول للعباس : « نادِ : يامعشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » فنادى ، وكان صيِّتاً ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها ، يقولون : يا لبيك ، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم ، فقال : « الآن حمي الوطيس ، أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ثم قال للعباس : « ناولني حَصَيات » فناوله ، فقال : « شاهت الوجوه » ورمى بها ، وقال : « انهزموا وربِّ الكعبة » ، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا [1] . وقيل : أخذ رسول الله ﷺ كفاً من تراب ، فرماهم به فانهزموا . وكانوا يقولون : ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه بالتراب [2] .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ثم أنزل الله سكينته) أي : بعد الهزيمة . قال أبو عبيدة : هي فَعِيلةٌ من السكون ، وأنشد :

---

(١) « مسند أحمد » رقم ١٧٧٥ بنحوه ، ورواه مسلم ١٢/١١٥ - ١١٧ بنحوه أيضاً . وذكره الطبري ١٤/١٨٢ - ١٨٣ ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٣/٣٢٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٢٤ - ٢٢٥ ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن سعد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) « مسند أحمد » ٥/٢٨٦ عن أبي عبد الرحمن الفهري ، والطبري في « التفسير » ١٤/١٨٥ ، وخرجه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦/١٨١ - [illegible] وقال : رواه البزار ، والطبراني ، ورجاله ثقات .

لله قَبْرٌ غَالَهـا ماذا يُجِنُّ لقد أَجَنَّ سكينةً وَوَقـارا (١)

وكذلك قال المفسرون : الأمن والطمأنينة .

قوله تعالى : (وأنزل جنوداً لم تروها) قال ابن عباس : يعني الملائكة .

وفي عددهم يومئذ ثلاثة أقوال .

أحدها : ستة عشر ألفاً ، قاله الحسن . والثاني : خمسة آلاف ، قاله سعيد ابن جبير . والثالث : ثمانية ، قاله مجاهد ، يعني: ثمانية آلاف . وهل قاتلت الملائكة يومئذ ، أم لا ؟ فيه قولان .

وفي قوله : (وعذَّب الذين كفروا) أربعة أقوال .

أحدها : بالقتل ، قاله ابن عباس ، والسدي . والثاني : بالقتل والهزيمة ، قاله ابن أبزى ، ومقاتل . والثالث : بالخوف والحذر ، ذكره الماوردي . والرابع : بالقتل ، والأسر ، وسبي الأولاد ، وأخذ الأموال ، ذكره بعض ناقلي التفسير .

قوله تعالى : (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أي : يوفِّقه للتوبة من الشرك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إنما المشركون نجس) قال أبو عبيدة : معناه : قذر . قال الزجاج : يقال لكل شيء مستقذَر : نَجَسٌ . وقال الفراء : لا تكاد العرب تقول : نِجْسٌ ، إلا وقبلها رِجْسٌ ، فاذا أفردوها قالوا : نَجَس .

---

(١) البيت لأبي عريف الكليبي في « مجاز القرآن » ١/٢٥٥ ، و « اللسان » : سكن .

وفي المراد بكونهم نجساً ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أنجاس الأبدان ، كالكلب والخنزير ، حكاه الماوردي عن الحسن ، وعمر بن عبد العزيز . وروى ابن جرير عن الحسن قال : من صافحهم فليتوضأ .

والثاني : أنهم كالأنجاس لتركهم ما يجب عليهم من غسل الجنابة ، وإن لم تكن أبدانهم أنجاساً ، قاله قتادة .

والثالث : أنه لما كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاسُ ، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس ، وهذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح .

قوله تعالى : (فلا يقربوا المسجد الحرام) قال أهل التفسير : يريد جميع الحرم . (بعد عامهم هذا) وهو سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر وقرئت (براءة) . وقد أخذ أحمد رضي الله عنه بظاهر الآية ، وأنه يحرم عليهم دخول الحرم ، وهو قول مالك ، والشافعي . واختلفت الرواية عنه في دخولهم غير المسجد الحرام من المساجد ، فروي عنه المنع أيضاً إلا لحاجة ، كالحرم ، وهو قول مالك . وروي عنه جواز ذلك ، وهو قول الشافعي . وقال أبو حنيفة : يجوز لهم دخول المسجد الحرام ، وسائر المساجد .

قوله تعالى : (وإن خفتم عيلة) وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وابن مسعود ، والشعبي ، وابن السميفع : « عايلة » . قال سعيد بن جبير : لما نزلت (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) شقَّ على المسلمين ، وقالوا : مَنْ يأتينا بطعامنا ؟ وكانوا يَقْدَمون عليهم بالتجارة ، فنزلت (وإن خفتم عيلة ..) الآية . قال الأخفش : العيلة : الفقر . يقال : عال يعيل عَيْلة : إذا افتقر . وأعال إعالة فهو

يُعيل : إذا صار صاحب عيال . وقال أبو عبيدة : العَيْلة هاهنا مصدر عالَ فلانٌ : إذا افتقر ، وأنشد :

وما يَـدري الفقيرُ متى غِنـاه وما يَـدري الغنيُّ متى يَعيل [1]

وللمفسرين في قوله : « وإنْ » قولان .

أحدهما : أنها للشرط ، وهو الأظهر .

والثاني : أنها بمعنى « وإذْ » ، قاله عمرو بن فايد . قالوا : وإنما خاف المسلمون الفقر ، لأن المشركين كانوا يحملون التجارات إليهم ، ويجيؤون بالطعام وغيره .

وفي قوله : (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم ، فكثر خيرهم ، قاله عكرمة .

والثاني : أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب ، قاله قتادة ، والضحاك .

والثالث : أن أهل نجد ، وجُرَشَ ، وأهل صنعاء أسلموا ، فحملوا الطعام إلى مكة على الظَّهْر ، فأغناهم الله به ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (إن الله عليم) قال ابن عباس : عليم بما يصلحكم ، (حكيم) فيما حكم في المشركين .

---

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح في « مجاز القرآن » لأبي عبيدة ١/٢٥٥ ، و « معاني القرآن » للفراء : ٢٥٥ ، و « جمهرة أشعار العرب » ١٢٥ ، و « اللسان » ، و « التاج » عيل ، وهو من قصيدته التي قالها في حرب بينه وبين قومه من الأوس وبني النجار من الخزرج ، قتل فيها أخوه ، وكانت عنده امرأته سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية ، فحذرت قومها مجيء أحيحة وقومه من الأوس ، فضربها حتى كسر يدها وطلقها ، وبعد هذا البيت قرين له :

وما تدري إذا أجْمعْتَ أمراً بأيِّ الأرض يـدركك المقيلُ

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) قال المفسرون : نزلت في اليهود والنصارى . قال الزجاج : ومعناها : لا يؤمنون بالله إيمان الموحِّدين ، لأنهم أقرُّوا بأنَّه خالقُهم وأنَّه له ولد ، وكذلك إيمانهم بالبعث لأنهم لا يقرُّون بأنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون . وقال الماوردي : إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه ، وهم لا يقرُّون بها ، فكانوا كمن لا يُقِرُّ به .

قوله تعالى : (ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُهُ) قال سعيد بن جبير : يعني الخمر والخنزير .

قوله تعالى : (ولا يدينون دين الحق) في الحق قولان .

أحدهما : أنه اسم الله ، فالمعنى : دين الله ، قاله قتادة .

والثاني : أنه صفة للدين ، والمعنى : ولا يدينون الدِّينَ الحقَّ [1] ؛ فأضاف الاسم إلى الصفة . وفي معنى « يدينون » قولان .

---

(١) قال ابن كثير ٣٤٧/٢ : فهم في نفس الامر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاؤوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً ، لقادهم ذلك إلى الايمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشروا به ، وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم .

أحدها : أنه بمعنى الطاعة ، والمعنى : لايطيعون الله طاعةَ حقٍّ ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أنه من : دان الرجل يدين كذا : إذا التزمه . ثم في جملة الكلام قولان .

أحدها : أن المعنى : لايدخلون في دين محمد ﷺ ، لأنه ناسخ لما قبله .

والثاني : لايعملون بما في التوراة من اتباع محمد ﷺ .

قوله تعالى : (حتى يعطوا الجزية) قال ابن الأنباري : الجزية : الخراج المجعول عليهم ؛ سميت جزية ، لأنها قضاء لما عليهم ؛ أُخذ من قولهم : جَزى يَجْزي : إذا قضى ؛ ومنه قوله تعالى : (لاتَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً) [البقرة : ٤٨] ، وقوله : « ولا تَجْزِي عن أحدٍ بعدَك »[1] . وفي قوله : (عن يدٍ) ستة أقوال .

أحدها : عن قهر ، قاله قتادة ، والسدي . وقال الزجاج : عن قهر وذُلٍّ .

والثاني : أنه النقد العاجل ، قاله شريك ، وعثمان بن مقسم .

والثالث : أنه إعطاء المبتدىء بالعطاء ، لا إعطاء المكافىء ، قاله ابن قتيبة .

والرابع : أن المعنى : عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم .

والخامس : عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية منهم إنعام عليهم ، حكاهما الزجاج .

والسادس : يؤدُّونها بأيديهم ، ولا ينفذونها مع رسلهم ، ذكره الماوردي .

---

(١) هو قطعة من حديث طويل ، فقد روى البخاري ١٠/١٥ ، ومسلم ٣/١٥٥٣ واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مانبدأ به في يومنا هذا (يعني يوم عيد الأضحى) نصلي ، ثم نرجع فننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح ، (يعني قبل صلاة العيد) فانما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك في شيء ، وكان أبو بردة بن نيار (خال البراء ابن عازب) قد ذبح (يعني قبل الصلاة) فقال : « عندي جذعة خير من سنة » فقال : اذبحها ولن تجزيَ عن أحد بعدك » .

قوله تعالى : (وهم صاغرون) الصاغر : الذليل الحقير .

وفي مايُكَلَّفونه من الفعل الذي يوجب صغارهم خمسة أقوال .

أحدها : أن يمشوا بها مُلَبَّبين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن لايُحمدوا على إعطائهم ، قاله سلمان الفارسي . والثالث : أن يكونوا قياماً والآخذ جالساً ، قاله عكرمة . والرابع : أن دفع الجزية هو الصغار . والخامس : أن إجراء أحكام الإسلام عليهم هو الصغار .

فصل

واختُلف في الذين تؤخذ منهم الجزية من الكفار ، فالمشهور عن أحمد : أنها لاتقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس ، وبه قال الشافعي . ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد : أنه من سُبي من أهل الأديان من العرب والعجم ، فالعرب إن أسلموا ، وإلا السيف ، وأولئك إن أسلموا ، وإلا الجزية ؛ فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل ، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط ، وهو قول أبي حنيفة ، ومالك .

فصل

فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية ، فهم أهل القتال . فأما الزَّمِنُ ، والأعمى ، والمفلوج ، والشيخ الفاني ، والنساء ، والصبيان ، والراهب الذي لايخالط الناس ، فلا تؤخذ منهم .

فصل

فأما مقدارها ، فقال أصحابنا : على الموسر : ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى المتوسط : أربعة وعشرون ، وعلى الفقير المعتمل : اثنا عشر ، وهو قول أبي حنيفة . وقال مالك : على أهل الذهب أربعة دنانير ، وعلى أهل الوَرِق أربعون درهماً ، وسواء في ذلك الغني والفقير . وقال الشافعي : على الغني والفقير دينار . وهل تجوز الزيادة والنقصان مما يؤخذ منهم ؟ نقل الأثرم عن أحمد : أنها تزاد وتنقص على قدر طاقتهم ، فظاهر هذا : أنها على اجتهاد الإمام ورأيه . ونقل يعقوب بن بختان[1] : أنه لايجوز للامام أن ينقص من ذلك ، وله أن يزيد .

فصل

ووقت وجوب الجزية : آخر الحول ، وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : تجب في أول الحول . فأما إذا دخلت سنة في سنة ، فهل تسقط جزية السنة الماضية ؟ عندنا لاتسقط . وقال أبو حنيفة : تسقط . فأما إذا أسلم ، فانها تسقط بالإسلام . فأما إن مات ؛ فكان ابن حامد يقول : لاتسقط . وقال القاضي أبو يعلى : يحتمل أن تسقط .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

---

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن بختان أحد تلامذة الامام أحمد ترجمته في « طبقات الحنابلة » ١/١٤٥ .

قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة : « عزيرُ ابن الله » بغير تنوين . وقرأ عاصم ، والكسائي ، ويعقوب ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : منوّناً . قال مكي بن أبي طالب : من نوّن عزيراً رفعه على الابتداء ، و « ابن » خبره . ولا يحسن حذف التنوين على هذا من « عزير » لالتقاء الساكنين . ولا تحذف ألف « ابن » من الخط ، ويكسر التنوين لالتقاء الساكنين . ومن لم ينون « عزيراً » جعله أيضاً مبتدأ ، و « ابن » صفة له ؛ فيُحذف التنوينُ على هذا استخفافاً لالتقاء الساكنين ، ولأن الصفة مع الموصوف كالشيء الواحد ، وتحذف ألف « ابن » من الخط ، والخبر مضمر تقديره : عزير بن الله نبيّنا وصاحبنا . وسبب نزولها أن سلاَم بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : كيف نتّبِعُكَ وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله ؟ فنزلت هذه الآية [1] ، قاله ابن عباس . وقال ابن عمر ، وابن جريج : إن القائل لذلك فنحاص . فأما العزير ، فقال شيخنا أبو منصور اللغوي : هو اسم أعجمي معرب ، وإن وافق لفظ العربية ، فهو عِبراني ؛ كذا قرأته عليه . وقال مكي بن أبي طالب : العزير عند كل النحويين : عربي مشتق من قوله : يعزِّروه . وقال ابن عباس : إنما قالوا ذلك ، لأنهم لما عملوا بغير الحق ، أنساهم الله التوراة ، ونسخها من صدورهم ، فدعا عزير اللهَ تعالى ؛ فعاد إليه الذي نُسخ من صدورهم ، ونزل نور من السماء فدخل جوفه ، فأذَّن في قومه فقال : قد آتاني الله التوراة ؛ فقالوا : ما أوتيها إلا لأنه ابن الله . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن بختنصر

---

(١) « الطبري » ١٤/٢٠٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢/٢٢٩ ، وزاد نسبته لابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس .

لما ظهر على بني إسرائيل ، وهدم بيت المقدس ، وقتل من قرأ التوراة ، كان عزير غلاماً ، فتركه . فلما توفي عزير ببابل ، ومكث مائة عام ، ثم بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل ، فقال : أنا عزير ؛ فكذّبوه وقالوا : قد حدّثنا آباؤنا أن عزيراً مات ببابل ، فان كنتَ عزيراً فأملل علينا التوراة ؛ فكتبها لهم ؛ فقالوا : هذا ابن الله .

وفي الذين قالوا هذا عن عزير ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم جميع بني إسرائيل ، روي عن ابن عباس . والثاني : طائفة من سلفهم ، قاله الماوردي . والثالث : جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وفيهم قولان .

أحدهما : فنحاص وحده ، وقد ذكرناه عن ابن عمر ، وابن جريج .

والثاني : الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس .

فان قيل : إن كان قولَ بعضهم ، فلِمَ أُضيف إلى جميعهم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة ، تقول العرب : جئت من البصرة على البغال ، وإن كان لم يركب إلا بغلاً واحداً .

والثاني : أن من لم يقله ، لم ينكره .

قوله تعالى : (وقالت النصارى المسيح ابن الله) في سبب قولهم هذا قولان .

أحدهما : لكونه ولد من غير ذكَر .

والثاني : لأنه أحيى الموتى ، وأبرأ الكُمْهَ والبُرص ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (المائدة : ١١٠) .

قوله تعالى : (ذلك قولهم بأفواههم) إن قال قائل : هذا معلوم ، فما فائدته ؟ فالجواب : أن المعنى : إنه قول بالفم ، لا بيانَ فيه ، ولا برهانَ ، ولا تحته معنى صحيح ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (يضاهون) قرأ الجمهور : من غير همز . وقرأ عاصم :

« يضاهئون » . قال ثعلب : لم يتابع عاصماً أحد على الهمز . قال الفراء : وهي لغة . قال الزجاج : « يضاهون » يشابهون قول مَن تقدَّمهم من كَفَرتهم ، فانما قالوه اتباعاً لمتقدِّميهم . وأصل المضاهاة في اللغة : المشابهة ؛ والأكثر ترك الهمز ؛ واشتقاقه من قولهم : امرأة ضهياء ، وهي التي لاينبت لها ثدي . وقيل : هي التي لاتحيض ، والمعنى : أنها قد أشبهت الرجال . قال ابن الأنباري : يقال : ضاهَيت ، وضاهأت : إذا شبَّهتَ . وفي (الذين كفروا) هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم عبدة الأوثان ، والمعنى : أن أولئك قالوا : الملائكة بنات الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم اليهود ، فالمعنى : أن النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، شابهوا اليهود في قولهم : عزير ابن الله ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : أنهم أسلافهم ، تابعوهم في أقوالهم تقليداً ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة . وفي قوله : (قاتلهم الله) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : لعنهم الله ، قاله ابن عباس . والثاني : قتلهم الله ، قاله أبو عبيدة . والثالث : عاداهم الله ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أنى يؤفكون) أي : من أين يصرفون عن الحق .

قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم) قد سبق في (المائدة : ٤٤) معنى الأحبار والرهبان . وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية ، فقال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه ، واذا حرموا عليهم شيئاً حرّموه »[1] . فعلى هذا المعنى : إنهم جعلوهم كالأرباب وإن لم يقولوا : إنهم أرباب .

---

(١) رواه الترمذي ٢/١٣٦ ، وقال : حديث حسن غريب ، لانعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . ورواه الطبري ١٤/٢١٠ ، ـــ

قوله تعالى : (والمسيحَ ابن مريم) قال ابن عباس : اتخذوه ربًّا.

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يريدون أن يطفئوا نور الله) قال ابن عباس : يخمدوا دين الله بتكذيبهم ، يعني : أنهم يكذبون به ويُعرضون عنه يريدون إبطاله بذلك. وقال الحسن وقتادة : نور الله : القرآن والإسلام . فأما تخصيص ذلك بالأفواه ، فلما ذكرنا في الآية قبلها . وقيل : إن الله تعالى لم يذكر قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا وهو زور .

قوله تعالى : (ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نُورَه) قال الفراء : إنما دخلت « إلا » ها هنا ، لأن في الإباء طرفاً من الجحد ، ألا ترى أن « أبيت » كقولك : « لم أفعل » ، و « لا أفعل » ، فكأنه بمنزلة قولك : ما ذهب إلا زيد ، قال الشاعر :

فَهَلْ لِيَ أُمٌّ غيرُها إن تركتُها أبى الله إلا أن أكُونَ لها ابنما [1]

وقال الزجاج : المعنى : ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره . قال مقاتل : « يتم نوره » أي : يظهر دينه .

ـــ من طرق عن عدي بن حاتم ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٣٠ ، وزاد نسبته لابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » .

(١) قائله المتلمس ، وهو في « معاني القرآن » للفراء ١/٤٣٣ ، من قصيدة له يرد فيها على من عير أمه مطلعها :

يعيرني أمي رجال ولا أرى أخا كرم إلا بأن يتكرما

وهي في « مختارات ابن الشجري » ٣١ . وقوله : ابنما ، أراد : ابنا ، فزاد الميم .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله) يعني محمداً ﷺ (بالهدى) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوحيد . والثاني : القرآن . والثالث : تبيان الفرائض . فأما دين الحق ، فهو الإسلام . وفي قوله : (ليظهرَه) قولان .

أحدها : أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ ، فالمعنى : ليعلّمه شرائع الدّين كلّها ، فلا يخفى عليه منها شيء ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها راجعة إلى الدّين . ثم في معنى الكلام قولان .

أحدها : ليظهر هذا الدّين على سائر الملل [1] . ومتى يكون ذلك ؟

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢٢١٥/٤ ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى (جمع) لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها مازويَ لي منها » . وروى الامام أحمد في « المسند » ١٠٣/٤ ، عن تميم الداري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز به الاسلام ، وذلاً يذل به الكفر » ، وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية . وروى أحمد في « المسند » ٤/٦ ، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الاسلام بعز عزيز أو ذل ذليل ، إما يعزهم الله عز وجل فيجعلهم من أهلها ، أو يذلهم فيدينون لها » . وروى مسلم ٢٢٣٠/٤ ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزّى ، فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لأظن حين أنزل الله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) أن ذلك تاماً ، قال : « إنه سيكون من ذلك ماشاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتَوفّى كلَّ من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لاخير فيه فيرجعون الى دين آبائهم » .

فيه قولان . أحدهما : عند نزول عيسى عليه السلام ، فانه يتبعه أهل كل دين ، وتصير المللُ واحدة ، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدَّوا الجزية ، قاله أبو هريرة ، والضحاك . والثاني : أنه عند خروج المهدي ، قاله السدي .

والقول الثاني : أن إظهار الدّين إنما هو بالحجج الواضحة ، وإن لم يدخل الناس فيه .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (إن كثيراً من الأحبار) الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وفي الباطل أربعة أقوال .

أحدها : أنه الظلم ، قاله ابن عباس . والثاني : الرشا في الحكم ، قاله الحسن . والثالث : الكذب ، قاله أبو سليمان . والرابع : أخذه من الجهة المحظورة ، قاله القاضي أبو يعلى . والمراد : أخذ الأموال ، وإنما ذكر الأكل ، لأنه معظم المقصود من المال . وفي المراد بسبيل الله هاهنا قولان .

أحدهما : الإيمان برسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنه الحق والحكم .

قوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت عامّة في أهل الكتاب والمسلمين ، قاله أبو ذر ، والضحاك .

والثاني : أنها خاصَّة في أَهل الكتاب ، قاله معاوية بن أبي سفيان .

والثالث : أنها في المسلمين ، قاله ابن عباس ، والسدي .

وفي الكنز المستحقّ عليه هذا الوعيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مالم تؤدَّ زكاته . قال ابن عمر : كل مال أُدِّيتْ زكاتُه وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز ، وكل مال لا تؤدَّى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض[1] ، وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور . فعلى هذا ، معنى الإنفاق : إخراج الزكاة .

والثاني : أنه مازاد على أربعة آلاف ، روي عن علي بن أبي طالب أنه قال : أربعة آلاف نفقة ، وما فوقها كنز .

والثالث : ما فضل عن الحاجة ، وكان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام ثم نُسخ بالزكاة .

فان قيل : كيف قال : « ينفقونها » وقد ذكر شيئين ؟ فعنه جوابان .

أحدها : أن المعنى : يرجع إلى الكنوز والأموال .

والثاني : أنه يرجع إلى الفضة ، وحُذف الذهب ، لأنه داخل في الفضة ، قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلفُ[2]

يريد : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راضٍ ، ذكر القولين الزجاج .

(١) أثر ابن عمر رواه الطبري ٢١٨/١٤ ، وإسناده صحيح . ورواه بمعناه مالك في « الموطأ » ٢٥٦/١ .

(٢) قائله عمرو بن امرىء القيس من بني الحارث بن الخزرج ، جاهلي قديم ، وهو جد عبد الله بن رواحة ، والبيت في « جمهرة أشعار العرب » ٢٣٧ ، وسيبويه ٣٧/١ (منسوباً لقيس بن الخطيم) وهو خطأ ، و « معاني القرآن » ٤٣٤/١ ، و « مجاز القرآن » ٢٥٨/١ ، و « الخزانة » ١٩٠/٢ .

وقال الفراء : إن شئت اكتفيت بأحد المذكورين ، كقوله : (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) [النساء : ١١٢] ، وقوله : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها) [الجمعة : ١١] ، وأنشد :

إني ضمنت لمن أتاني ماجنَى وأبي وكان وكنت غير غَدورِ [1]

ولم يقل : غدورين ، وإنما اكتفى بالواحد لاتفاق المعنى . قال أبو عبيدة : والعرب إذا أشركوا بين اثنين قصروا ، فخبَّروا عن أحدهما استغناءً بذلك ، وتحقيقاً ؛ لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ، ودخل معه في ذلك الخبر ، وأنشد :

فمن يكُ أمسى بالمدينة رحلُهُ فاني وقيَّارٌ بها لغريب [2]

والنصب في « قيار » أجود ، وقد يكون الرفع . وقال حسان بن ثابت :

إنَّ شرخَ الشباب والشَّعَرَ الأسـ ودَ مالم يُعَاص كان جُنُونا [3]

ولم يقل : يعاصيا .

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قوله تعالى : (يوم يحمى عليها في نار جهنم) أي : على الأموال . قال ابن

---

(١) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » : ٤٣٤/١ ، ونسبه سيبويه في « الكتاب » ٣٨/١ للفرزدق .

(٢) قائله ضابئ بن الحارث البرجي وهو في « الأصميات » ١٦ و « سيبويه » ٣٨/١ ، و « القرطبي » ٢٤٦/٦ ، و « شواهد المغني » ٢٩٣ و « الخزانة » ٢٢٣/٤ ، و « اللسان » ، و « التاج » : قيَر .

(٣) ديوانه ٤١٣ ، « و مجاز القرآن » ٢٥٨/١ ، و « القرطبي » ١٢٨/٨ ، و « الجمهرة » ٢٠٧/٢ « و اللسان » : شرخ ، والشرخ : الحد ، أي : غاية ارتفاعه ، يعني بذلك أقصى قوته ونضارته وعنفوانه .

مسعود : والله ما من رجل يُكوى بكنز ، فيوضعُ دينار على دينار ولا درهم على درهم ، ولكن يوسَّع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته [١] . وقال ابن عباس : هي حيَّة تنطوي على جنبيه وجبهته ، فتقول : أنا مالك الذي بخلت به .

قوله تعالى : (هذا ما كنزتم) فيه محذوف تقديره : ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي : عذاب ذلك .

فان قيل : لم خصَّ الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن ؟

فالجواب : أن هذه المواضع مجوَّفة ، فيصل الحر إلى أجوافها ، بخلاف اليد والرجل . وكان أبو ذرٍ يقول : بشِّر الكنَّازين بكيّ في الجباه وكيّ في الجنوب وكيٍ في الظهور، حتى يلتقي الحرُّ في أجوافهم [٢] . وجواب آخر:وهو أن الغنيَّ إذا رأى الفقير ، انقبض ؛ وإذا ضمه وإياه مجلس ، ازورّ عنه وولَّاه ظهره ، قاله أبو بكر الوراق .

---

(١) الطبري ١٤/٢٣٣ ، وذكره الهيثمي في « المجمع » ٧/٢٩ - ٣٠ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وأورده ابن كثير ٢/٣٥٢ من طريق ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً وقال : ولا يصح رفعه والله أعلم ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٣٣ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

(٢) « الطبري » ١٤/٢٣٠ ، وفي « صحيح مسلم » ٢/٦٩٠ ، عن الاحنف بن قيس قال : كنت في نفر من قريش ، فمر أبو ذر وهو يقول : « بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكي من قبل أقفائهم يخرج من جباههم ، قال: ثم تنحَّى فقعد ، قال : قلت من هذا ؟ قالوا : أبو ذر ، قال : فقمت إليه ، فقلت : ماشيء سمعتك تقول قبيلُ ، قال : ماقلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم ﷺ ... » وروى مسلم أيضاً ٢/٦٨٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . . . » .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن عدة الشهور عند الله) قال المفسرون : نزلت هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله ، فربما وقع حجهم في رمضان ، وربما وقع في شوال ، إلى غير ذلك ؛ وكانوا يستحلّون المحرَّم عاماً ، ويحرّمون مكانه صفر ، وتارة يحرّمون المحرَّم ويستحلّون صفر . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أن عدد شهور المسلمين التي تُعُبِّدوا بأن يجعلوه لسنتهم : اثنا عشر شهراً على منازل القمر ؛ فجعل حجهم وأعيادهم على هذا العدد ، فتارة يكون الحج والصوم في الشتاء ، وتارة في الصيف ، بخلاف مايعتمده أهل الكتاب ، فانهم يعملون على أن السنة ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وبعض يوم . وجمهور القراء على فتح عين « اثنا عشر » . وقرأ أبو جعفر : اثناعْشر ، وأحدعْشر ، وتسعةعْشر ، بسكون العين فيهن .

قوله تعالى : (في كتاب الله) أي : في اللوح المحفوظ . قال ابن عباس : في الإمام الذي عند الله ، كتبه (يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم) وفيها قولان .

أحدها : أنها رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، قاله الأكثرون . وقال القاضي أبو يعلى : إنما سماها حُرُماً لمعنيين . أحدهما : تحريم القتال فيها ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضاً . والثاني : لتعظيم انتهاك المحارم فيها أشدّ من تعظيمه في غيرها ، وكذلك تعظيم الطاعات فيها .

والثاني : أنها الأشهر التي أُجِّل المشركون فيها للسياحة ، ذكره ابن قتيبة .

قوله تعالى : (ذلك الدِّين القيِّم) فيه قولان .

أحدهما : ذلك القضاء المستقيم ، قاله ابن عباس .

والثاني : ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) اختلفوا في كناية « فيهنَّ » على قولين .

أحدهما : أنها تعود على الاثني عشر شهراً ، قاله ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى : لاتجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كفعل أهل النسيء .

والثاني : أنها ترجع إلى الأربعة الحرم ، وهو قول قتادة ، والفراء ؛ واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة : لثلاث ليال خَلَوْنَ ، وأيام خلون ؛ فاذا جُزتَ العشَرة قالوا : خلتْ ومضتْ ؛ ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هُنَّ ، وهؤلاء ؛ فاذا جزتَ العشرة ، قالوا : هي ، وهذه ؛ إرادةَ أن تُعرف سمة القليل من الكثير . وقال ابن الأنباري : العرب تعيد الهاء والنون على القليل من العدد ، والهاء والألف على الكثير منه ؛ والقلَّة : مابين الثلاثة إلى العشرة ، والكثرة : ماجاوز العشرة . يقولون : وجهتُ إليك أكبُشاً فاذبحْهُنَّ ، وكباشاً فاذبحها ؛ فلهذا قال : (منها أربعة حرم) ، وقال : (فلا تظلموا فيهن) لأنه يعني بقوله : « فيهن » الأربعة . ومن قال من المفسرين : إنه يعني بقوله : « فيهن » الاثني عشر ، فانه ممكن ؛ لأن العرب ربما جعلت علامة القليل للكثير ، وعلامة الكثير للقليل . وعلى قول من قال : ترجع « فيهن » إلى الأربعة ؛ يُخرَّج في معنى الظلم فيهن أربعة أقوال .

أحدها : أنه المعاصي ؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأشهر ، أن شأن المعاصي يعظُم فيها أشدَّ من تعظيمه في غيرها ، وذلك لفضلها على ماسواها ، كقوله : (وجبريل وميكال) [البقرة : ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة ، وقوله : (فاكهة ونخل ورمّان) [الرحمن : ٦٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الفاكهة ، وقوله : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) [البقرة : ١٩٧] وإن كان منهياً عنه في غير الحج ، وكما أُمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وإن كان مأموراً بالمحافظة على غيرها ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أن المراد بالظلم فيهنّ فعل النسيء ، وهو تحليل شهر محرَّم، وتحريم شهر حلال ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : أنه البداية بالقتال فيهن ؛ فيكون المعنى : فلا تظلموا أنفسكم بالقتال فيهن إلا أن تُبدَؤوا بالقتال ، قاله مقاتل .

والرابع : أنه ترك القتال فيهن ؛ فيكون المعنى : فلا تظلموا فيهن أنفسكم بترك المحاربة لعدوّكم ، قاله ابن بحر ، وهو عكس قول مقاتل . والسرُّ في أن الله تعالى عظّم بعض الشهور على بعض ، ليكون الكفُّ عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر) الجمهور على همز النسيء ومدّه وكسر سينه . وروى شبل عن ابن كثير : « النّسْءُ » على وزن النِسْع . وفي

رواية أخرى عن شبل : « النَّسِيْ » مشددة الياء من غير همز ، وهي قراءة أبي جعفر ؛ والمراد بالكلمة التأخير . قال اللغويون : النسيء : تأخير الشيء . وكانت العرب تحرِّم الأشهر الأربعة ، وكان هذا مما تمسَّكت به من ملة إبراهيم ؛ فربما احتاجوا إلى تحليل المحرَّم للحرب تكون بينهم ، فيؤخِّرون تحريم المحرَّم إلى صفر ، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضاً إلى الشهر الذي بعده ؛ ثم تتدافع الشهور شهراً بعد شهر حتى يستدير التحريم على السَّنة كلِّها ، فكأنهم يستنسؤون الشهر الحرام ويستقرضونه ، فأعلم الله عز وجل أن ذلك زيادة في كفرهم ، لأنهم أحلُّوا الحرام ، وحرَّموا الحلال (ليواطؤوا) أي : ليوافقوا (عدة ماحرَّم الله) فلا يخرجون من تحريم أربعة ، ويقولون : هذه بمنزلة الأربعة الحرم ، ولا يبالون بتحليل الحرام ، وتحريم الحلال . وكان القوم لايفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم ، قال الفراء : كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصَّدَرَ عن مِنىً ، قام رجل من بني كنانة يقال له : نُعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس الموسم ، فيقول : أنا الذي لا أُعابُ ولا أُجابُ ولا يُرَدُّ لي قضاء ؛ فيقولون : أنسئنا شهراً ؛ يريدون : أخِّر عنا حرمة المحرم ، واجعلها في صفر ، فيفعل ذلك . وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حُرُم لايُغِيرون فيها ، وإنما كان معاشهم من الإغارة ، فتستدير الشهور كما بيَّنَّا . وقيل : إنما كانوا يستحلُّون المحرَّم عاماً ، فاذا كان من قابل ردُّوه إلى تحريمه . قال أبو عبيد : والتفسير الأول أحب إليَّ ، لأن هذا القول ليس فيه استدارة . وقال مجاهد : كان أولَ من أظهر النسيء جنادةُ بن عوف الكناني ، فوافقت حَجةُ أبي بكر ذا القعدة ، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في ذي الحجة ، فذلك حين قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات

والأرض »[1] . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك نُعيم بن ثعلبة .

قوله تعالى : (يُضَل به الذين كفروا) وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « يَضِل » بفتح الياء وكسر الضاد ، والمعنى : أنهم يكتسبون الضلال به . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يُضَلْ » بضم الياء وفتح الضاد ، على مالم يُسم فاعله . وقرأ الحسن البصري ، ويعقوب إلا الوليد : « يُضِل » بضم الياء وكسر الضاد ؛ وفيه ثلاثة أوجه .

أحدها : يُضِلُ الله به . والثاني : يُضِلّ الشيطان به ، ذكرهما ابن القاسم . والثالث : يُضِلّ به الذين كفروا الناس ، لأنهم الذين سنّوه لهم . قال أبو علي : التقدير : يُضل به الذين كفروا تابعيهم . وقال ابن القاسم : الهاء في « به » راجعة إلى النسيء ، وأصل النسيء : المنسوء ، أي : المؤخَّر ، فينصرف عن « مفعول » إلى « فعيل » كما قيل : مطبوخ وطبيخ ، ومقدور وقدير ، قال : وقيل : الهاء راجعة إلى الظلم ، لأن النسيء كَشَفَ تأويل الظلم ، فجرى مجرى المظهَر ؛ والأول اختيارنا .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (مالكم إذا قيل لكم انفروا) قال المفسرون : لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك ، وكان في زمن عسرة وجدب وحرٍّ شديد ، وقد طابت الثمار ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٥/٣٧ ، والبخاري ١٠/٦ ، ومسلم رقم ١٦٧٩ وأبو داود رقم ١٩٤٧ عن أبي بكرة رضي الله عنه ، وقد أوردنا الحديث بطوله صفحة (٣٩٥) .

عَظُمَ ذلك على الناس وأحبوا المُقام ، فنزلت هذه الآية [١] . وقوله : « مالكم » استفهام معناه التوبيخ . وقوله : (انفروا) معناه : اخرجوا . وأصل النفر : مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك . وقوله : (اثّاقلتم) قال ابن قتيبة : أراد : تثاقلتم ، فأدغم التاء في الثاء ، وأحدثت الألف ليسكن مابعدها ، وأراد : قعدتم . وفي قراءة ابن مسعود ، والأعمش : « تثاقلتم » .

وفي معنى (إلى الأرض) ثلاثة أقوال .

أحدها : تثاقلتم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها ، قاله مجاهد .

والثاني : اطمأننتم إلى الدنيا ، قاله الضحاك .

والثالث : تثاقلتم إلى الإقامة بأرضكم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أرضيتم بالحياة الدنيا) أي : بنعيمها من نعيم الآخرة ، فما يُتمتَّع به في الدنيا قليل بالإضافة إلى مايتمتَّع به الأولياء في الجنة [٢] .

﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إلا تنفروا يعذبكم) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما حثَّهم

(١) « الطبري » ٢٥٣/١٤ ، عن مجاهد ، وذكره السيوطي في « الدر » ٢٣٧/٣ ، وزاد نسبته لسنيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٢٨٥٨) عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه ـ وأشار يحيى (أحد الرواة) بالسبابة ـ في اليم ، فلينظر بم ترجع » ، ورواه أحمد في « المسند » ٢٢٨/٤ ، والمعنى : ما الدنيا بالنسبة الى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ، ودوام الآخـــرة ودوام لذتها ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر .

على غزو الروم تثاقلوا ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال قوم : هذه خاصة فيمن استنفره رسول الله ﷺ فلم ينفر . قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه ، فأُمسك عنهم المطر فكان عذابهم [1] . وفي قوله : (ويستبدلْ قوماً غيركم) وعيد شديد في التخلُّف عن الجهاد ، وإعلام بأنه يستبدل لنصر نبيه قوماً غير متثاقلين . ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضروه ، كما لم يضرُرْه ذلك إذْ كان بمكة . وفي هاء « تضرُّوه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، والمعنى : لاتضروا الله بترك النفير ، قاله الحسن.

والثاني : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ ، فالمعنى : لاتضروه بترك نصره ، قاله الزجاج .

فصل

وقد روي عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، قالوا : نُسخ قوله : (إلا تنفروا يعذبْكم عذاباً أليماً) بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) [التوبة : ١٢٢] ، وقال أبو سليمان الدمشقي : ليس هذا من المنسوخ ، إذ لا تنافي بين الآيتين ، وإنما حكم كل آية قائم في موضعها . وذكر القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا : ليس ها هنا نسخ ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدوَّ ، ففرضٌ على الناس النفير إليهم ، ومتى استغنَوا عن إعانة مَن وراءهم ، عُذر القاعدون عنهم . وقال قوم هذا في غزوة تبوك ، ففُرِض على الناس النفير مع رسول الله ﷺ .

(١) رواه بنحوه أبو داود في « سننه » رقم (٢٥٠٦) وفي سنده نجدة بن نفيع وهو مجهول . وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٣٩ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وأبي الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » .

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إلا تنصروه) أي : بالنفير معه (فقد نصره الله) إعانةً على أعدائه ، (إذ أخرجه الذين كفروا) حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في قوله : (وإذ يمكر بك الذين كفروا) [الانفال : ٣٠] فأعلمهم أن نصره ليس بهم .

قوله تعالى : (ثاني اثنين) العرب تقول : هو ثاني اثنين ، أي : أحد الاثنين ، وثالث ثلاثة ، أي : أحد الثلاثة ، قال الزجاج : وقوله : (ثاني اثنين) منصوب على الحال ؛ المعنى : فقد نصره الله أحد اثنين ، أي : نصره منفرداً إلا من أبي بكر ، وهذا معنى قول الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر . وقال ابن جرير : المعنى : أخرجوه وهو أحد الاثنين ، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر . فأما الغار ، فهو ثقب في الجبل ، وقال ابن فارس : الغار : الكهف ، والغار : نبت طيّب الرّيح ، والغار : الجماعة من الناس ، والغاران : البطن والفرج ، وهما الأجوفان ، يقال : إنما هو عبد غارَيْه . قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَأَنَّ الفَتَى يَسْعَى لِغَارَيْهِ دَائِبَا (١)

قال قتادة : وهذا الغار في جبل بمكة يقال له : ثور . قال مجاهد : مكثا فيه ثلاثاً . وقد ذكرت حديث الهجرة في كتاب « الحدائق » . قال أنس بن مالك :

(١) البيت في « اللسان » غور غير منسوب .

أمر الله عز وجل شجرة فنبتت في وجه رسول الله ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا في فم الغار، فلما دنوا من الغار، عَجِل بعضهم لينظر، فرأى حمامتين، فرجع فقال: رأيت حمامتين على فم الغار، فعلمت أنه ليس فيه أحد[1]. وقال مقاتل: جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال: هذه قدم ابن أبي قحافة، والأخرى لا أعرفها، إلا أنها تشبه القدم التي في المقام. وصاحبه في هذه الآية أبو بكر، وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار، فقال له النبي ﷺ «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟[2].

وفي السكينة ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها الرحمة، قاله ابن عباس. والثاني: الوقار، قاله قتادة. والثالث: السكون والطمأنينة، قاله ابن قتيبة، وهو أصح.

وفي هاء «عليه» ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وحبيب بن أبي ثابت. واحتج مَن نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مطمئناً.

والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ، قاله مقاتل.

---

(١) ابن سعد في «الطبقات» ١/٢٢٩، عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس ابن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار: أمر الله شجرة... الحديث. وفي سنده ضعيف ومجهول. وفي مسند أحمد ٥/٨٧، من حديث ابن عباس «.... فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت»، وفي سنده عثمان الجزري لم يوثقه غير ابن حبان.

(٢) البخاري ٧/١٠، ومسلم ٤/١٨٥٤، دون قوله: وكان أبو بكر قد بكى لما مرَّ المشركون على باب الغار. وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبته لابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبي عوانة، وابن حبان، وابن المنذر، وابن مردويه.

والثالث : أن الهاء هاهنا في معنى تثنية ، والتقدير : فأنزل الله سكينته عليهما ، فاكتفى باعادة الذِّكر على أحدهما من إعادته عليهما ، كقوله : (والله ورسوله أحق أن يُرضوه) [التوبة : ٦٢] ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (وأيده) أي : قوّاه ، يعني النبي ﷺ بلا خلاف . (بجنود لم تروها) وهم الملائكة . ومتى كان ذلك ؟ فيه قولان .

أحدهما : يوم بدر ، ويوم الأحزاب ، ويوم حنين ، قاله ابن عباس .

والثاني : لما كان في الغار ، صَرفت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته ، قاله الزجاج .

فان قيل : إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في « أيده » ترجع إلى النبي ﷺ ، فكيف تفارقها هاء « عليه » وهما متفقتان في نظم الكلام ؟

فالجواب : أن كل حرف يُردُّ إلى الأليق به ، والسكينة إنما يَحتاج اليها المنزعج ، ولم يكن النبي ﷺ منزعجاً . فأما التأييد بالملائكة ، فلم يكن إلا للنبي ﷺ ونظير هذا قوله : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّروه وتوقِّروه) [الفتح : ٨] يعني النبي ﷺ ، (وتسبِّحوه) يعني الله عز وجل .

قوله تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) فيها قولان .

أحدهما : أن كلمة الكافرين الشرك ، جعلها الله السفلى لأنها مقهورة ، وكلمة الله وهي التوحيد ، هي العليا ، لأنها ظهرت ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أن كلمة الكافرين ما قدَّروا بينهم في الكيد به ليقتلوه ، وكلمة الله أنه ناصره ، رواه عطاء عن ابن عباس . وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، ويعقوب : « وكلمةَ الله » بالنصب .

قوله تعالى : (والله عزيز)) أي : في انتقامه من الكافرين (حكيم) في تدبيره .

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً) سبب نزولها أن المقداد جاء إلى رسول الله ﷺ ، وكان عظيماً سميناً ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي [١] . وفي معنى « خفافاً وثقالاً » أحد عشر قولاً .

أحدها : شيوخاً وشباباً ، رواه أنس عن أبي طلحة ، وبه قال الحسن ، والشعبي ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو صالح ، وشَمِرُ بن عطية ، وابن زيد في آخرين .

والثاني : رجّالةً وركباناً ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الأوزاعي .

والثالث : نِشاطاً وغير نِشاط ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، ومقاتل .

والرابع : أغنياء وفقراء ، روي عن ابن عباس . ثم في معنى هذا الوجه قولان . أحدهما : أن الخفاف : ذوو العسرة وقلّة العيال ، والثقال : ذوو العيال والميسرة ، قاله الفراء . والثاني : أن الخفاف : أهل الميسرة ، والثقال : أهل العسرة ، حكي عن الزجاج .

والخامس : ذوي عيال ، وغير عيال . قاله زيد بن أسلم .

والسادس : ذوي ضياع ، وغير ذوي ضياع ، قاله ابن زيد .

والسابع : ذوي أشغال ، وغير ذوي أشغال ، قاله الحكم .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي : ١٤١ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٣/٢٤٦ ، ونسبه لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

والثامن : أصحّـاء ، ومرضى ، قاله مرة الهمداني ، وجويبر .

والتاسع : عزّاباً ومتأهّلين ، قاله يمان بن رياب .

والعاشر : خفافاً إلى الطاعة ، وثقالاً عن المخالفة ، ذكره الماوردي .

والحادي عشر : خفافاً من السلاح ، وثقالاً بالاستكثار منه ، ذكره الثعلبي .

فصل

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافّة) [التوبة : ١٢٢] [(١)] . وقال السدي : نسخت بقوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) [التوبة : ٩١] [(٢)] .

قوله تعالى : (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) قال القاضي أبو يعلى : أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعاً ، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لايصلح للقتال ، فعليه الجهاد بماله ، بأن يعطيه غيره فيغزو به ، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً . وإن كان له مال وقوّة ، فعليه الجهاد بالنفس والمال . ومن كان معدِماً عاجزاً ، فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله ، لقوله : (ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) [التوبة : ٩١] .

(١) وقد ذهب إلى إحكام الآية ومنع النسخ جماعة ، منهم ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي ، وحكى القاضي أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا « ليس ها هنا نسخ ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو ، ففرض على الناس النفير إليهم ، ومتى استغنوا عن إعانة من وراءهم عذر القاعدون عنهم » .

(٢) أخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٤٦ ، من رواية ابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن السدي .

قوله تعالى : (ذلكم خير لكم) فيه قولان .

أحدهما : ذلكم الجهاد خير لكم من تركه والتثاقل عنه .

والثاني : ذلكم الجهاد خير حاصل لكم (إن كنتم تعلمون) مالكم من الثواب .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (لو كان عرضاً قريباً) قال المفسرون : نزلت في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك . ومعنى الآية : لو كان ما دُعوا إليه عَرَضاً قريباً . والعَرَض : كلُّ ماعرض لك من منافع الدنيا ، فالمعنى : لو كانت غنيمةً قريبة ، أو كان سفراً قاصداً ، أي : سهلاً قريباً ، لاتّبعوك طمعاً في المال (ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ) قال ابن قتيبة : الشقة : السفر ؛ وقال الزجاج : الشقة : الغاية التي تُقصَد ؛ وقال ابن فارس : الشقة : مصير إلى أرض بعيدة ، تقول : شقة شاقّة .

قوله تعالى : (وسيحلفون بالله) يعني المنافقين إذا رجعتم إليهم (لو استطعنا) وقرأ زائدة عن الأعمش ، والأصمعي عن نافع : « لوُ استطعنا » بضم الواو ، وكذا أين وقع ، مثل (لوُ اطّلعتَ عليهم) [الكهف : ١٨] ، كأنه لما احتيج إلى حركة الواو ، حركت بالضم لأنها أخت الواو ، والمعنى : لو قدرنا وكان لنا سَعَةٌ في المال . (يهلكون أنفسهم) بالكذب والنفاق (والله يعلم إنهم لكاذبون) لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا .

﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) كان ﷺ قد أذن لقوم من

المنافقين في التخلّف لمّا خرج إلى تبوك ، قال ابن عباس : ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين . قال عمرو بن ميمون : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من الأسارى ؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال مورّق : عاتبه ربّه بهذا . وقال سفيان بن عيينة : انظر إلى هذا اللطف ، بدأه بالعفو قبل أن يعيِّره بالذّنب . وقال ابن الأنباري : لم يخاطَب بهذا لجرم أجرمه ، لكنّ الله وقّره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله : (عفا الله عنك) كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه : عفا الله عنك ، ماصنعت في حاجتي ؟ ورضي الله عنك ، هلاّ زرتني .

قوله تعالى : (حتى يتبيَّن لك الذين صدقوا) فيه قولان .

أحدهما : أن معناه : حتى تعرف ذوي العذر في التخلّف ممن لاعذر له .

والثاني : لو لم تأذن لهم ، لقعدوا وبان لك كذبهم في اعتذارهم . قال قتادة : ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقوله : (فائذن لمن شئتَ منهم) [النور : ٦٢] .

﴿ لَايَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قوله تعالى : (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله) قال ابن عباس : هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل نبيّه ﷺ أنّ علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان .

فصل

وروي عن ابن عباس أنه قال : نسخت هذه الآية بقوله : (لم يذهبوا حتى يستأذنوه ...) إلى آخر الآية [النور : ٦٢] . قال أبو سليمان الدمشقي : وليس للنسخ هاهنا مدخل ، لإمكان العمل بالآيتين ، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود عن الجهاد من غير عذر ، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة ، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة ، ذهبوا من غير استئذانه .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أرادوا الخروج) يعني المستأذنين له في القعود .

وفي المراد بالعُدَّة قولان .

أحدهما : النية ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : السلاح ، والمركوب ، وما يصلح للخروج ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والانبعاث : الانطلاق . والتثبيط : ردُّك الإنسان عن الشيء يفعله .

قوله تعالى : (وقيل اقعدوا) في القائل لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أُلهموا ذلك خذلاناً لهم ، قاله مقاتل . والثاني : أن النبي ﷺ قاله غضباً عليهم . والثالث : أنه قول بعضهم لبعض ، ذكرها الماوردي .

وفي المراد بالقاعدين قولان .

أحدهما : أنهم القاعدون بغير عذر ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنهم القاعدون بعذر ، كالنساء والصبيان ، ذكره علي بن عيسى . قال الزجاج : ثم أعلم الله عز وجل لم كره خروجهم ، فقال : (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خَبالاً) والخبال : الفساد وذهاب الشيء . وقال ابن قتيبة : الخبال : الشر .

فان قيل : كأن الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل : (مازادوكم إلا خبالاً) ؟

فالجواب : أنه من الاستثناء المنقطع ، والمعنى : مازادوكم قوّة ، لكن أوقعوا بينكم خبالاً . وقيل : سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما خرج ، ضرب عسكره على ثنيَّة الوداع ، وخرج عبد الله بن أُبيّ ، فضرب عسكره على أسفل من ذلك ؛ فلما سار رسول الله ﷺ ، تخلَّف ابن أُبيّ فيمن تخلَّف من المنافقين ، فنزلت هذه الآية [1] .

قوله تعالى : (ولأوضعوا خلالكم) قال الفراء : الإيضاع : السير بين القوم . وقال أبو عبيدة : لأسرعوا بينكم ، وأصله من التخلل . قال الزجاج : يقال : أوضعت في السير : أسرعت .

قوله تعالى : (يبغونكم الفتنة) قال الفراء : يبغونها لكم . وفي الفتنة قولان .

أحدهما : الكفر ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٣/٤٤٧ : وأخرج ابن اسحاق ، وابن المنذر ، عن الحسن البصري قال : كان عبد الله بن أبيّ ، وعبد الله بن نبتل ، ورفاعة بن زيد ابن تابوت من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الاسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله تعالى : (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور . . .) الى آخر الآية ، وهي الآية التي بعد هذه .

والثاني : تفريق الجماعة ، وشتات الكلمة . قال الحسن : لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات بينكم .

قوله تعالى : (وفيكم سمّاعون لهم) فيه قولان .

أحدهما : عيون ينقلون إليهم أخباركم ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثاني : مَن يسمع كلامهم ويطيعهم ، قاله قتادة ، وابن إسحاق .

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

قوله تعالى : (لقد ابتغوا الفتنة) في الفتنة قولان .

أحدهما : الشر ، قاله ابن عباس . والثاني : الشرك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (من قبل) أي : مَن قبل غزوة تبوك .

وفي قوله : (وقلّبوا لك الأمور) خمسة أقوال .

أحدها : بَغَوْا لك الغوائل ، قاله ابن عباس . وقيل : إن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على طريقه ليلاً ليفتكوا به ، فسلّمه الله منهم .

والثاني : احتالوا في تشتّت أمرك وإبطال دينك ، قاله أبو سليمان الدمشقي . قال ابن جرير : وذلك كانصراف ابن أُبيّ يوم أُحد بأصحابه .

والثالث : أنه قولهم ماليس في قلوبهم .

والرابع : أنه ميلهم إليك في الظاهر ، وممالأة المشركين في الباطن .

والخامس . أنه حلفهم بالله (لو استطعنا لخرجنا معكم) ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي .

قوله تعالى : (حتى جاء الحق) يعني النصر (وظهر أمر الله) يعني الإسلام .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ قال للجَدِّ بن قيس : « ياجَدُّ ، هل لك في جِلاد بني الأصفر ، لعلك أن تغنم بعض بنات الأصفر » ، فقال : يارسول الله ، ائذن لي فأقيم ، ولا تفتني ببنات الأصفر . فأعرض عنه ، وقال : « قد أذنت لك » ، ونزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [1] . وهذه الآية وما بعدها إلى قوله : (إنما الصدقات) في المنافقين .

قوله تعالى : (ومنهم) يعني المنافقين (من يقول ائذن لي) أي : في القعود عن الجهاد ، وهو الجد بن قيس . وفي قوله : (ولا تفتنّي) أربعة أقوال .

أحدها : لاتفتنّي بالنساء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : لاتُكسبني الإثم بأمرك إيّايَ بالخروج وهو غير متيسِّر لي ، فآثم بالمخالفة ، قاله الحسن ، وقتادة ، والزجاج .

والثالث : لاتكفّرني بإلزامك إيّايَ الخروج ، قاله الضحاك .

والرابع : لاتصرفني عن شغلي ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : (ألا في الفتنة سقطوا) في هذه الفتنة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الحرج ، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : الإثم ، قاله قتادة ، والزجاج . والرابع : العذاب في جهنم ، ذكره الماوردي .

---

(١) أورده السيوطي في « الدر » ٢٤٨/٣ ، من رواية محمد بن إسحاق ، وابن المنذر ، والبيهقي في « الدلائل » من طريقه عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم .

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن تصبك حسنة) أي : نصر وغنيمة . والمصيبة : القتل والهزيمة . (يقولوا قد أخذنا أمرنا) أي : عَمِلنا بالحزم فلم نخرج . (ويتولَّوْا وهم فرحون) بمصابك وسلامتهم .

قوله تعالى : (إلا ما كتب الله لنا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ماقضى علينا ، قاله ابن عباس .

والثاني : مابيَّن لنا في كتابه من أنَّا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا ، أو نقتل فتكون الشهادةُ حسنى لنا أيضاً ، قاله الزجاج .

والثالث : لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ماكتب الله لنا من النصر الذي وُعدنا ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (هو مولانا) أي : ناصرنا .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل هل تربَّصون بنا) أي : تنتظرون . والحسنيان : النصر والشهادة . (ونحن نتربَّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) في هذا العذاب قولان .

أحدهما : الصواعق ، قاله ابن عباس . والثاني : الموت ، قاله ابن جُرَيج .

قوله تعالى : (أو بأيدينا) يعني : القتل .

﴿ قُلْ أنفِقُوا طَوْعاً أوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (أنفقوا طوعاً أو كرهاً) سبب نزولها أن الجدّ بن قيس قال للنبي ﷺ لما عرض عليه غزو الروم : إذا رأيت النساء افتتنت ، ولكن هذا مالي أعينك به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس[1] . قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه معنى الشرط والجزاء ، المعنى : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يُتقبَّل منكم . ومثله في الشعر قول كثيِّر :

أسيئي بنا أو أحسني لاملومةً لدَينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ[2]

لم يأمرها بالإساءة ، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدها . قال الفراء : ومثله (استغفر لهم أو لاتستغفر لهم) [التوبة : ٨٠] .

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلَّا أنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ إلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما منعهم أن تُقبلَ منهم نفقاتُهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تقبل » بالتاء . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يقبل »

---

(١) « الطبري » ١٤/٢٩٤ ، وفي سنده انقطاع .

(٢) البيت لكثير عزة ديوانه ١/٥٣ ، من قصيدته المشهورة ، و « الطبري » ٢/٢٩٤ ، و ١٤/٢٩٣ ، و « معاني القرآن » للفراء : ١/٤٤١ ، يقال : قلاه يقليه قلى ، فهو مقلي : كرهه وأبغضه ، وتقلى : تبغض ، أي : استعمل من الفعل أو القول مايدعو الى بغضه .

بالياء . قال أبو علي : من أنَّث ، فلأن الفعل مسند إلى مؤنَّث في اللفظ ؛ ومن قرأ بالياء ، فلأنه ليس بتأنيث حقيقي ، فجاز تذكيره ؛ كقوله : (فمن جاءه موعظة من ربه) [البقرة : ٢٧٥] . وقرأ الجحدري : « أن يَقبل » بياء مفتوحة ، « نفقاتِهم » بكسر التاء . وقرأ الأعمش : « نفقتهم » بغير ألف ، مرفوعة التاء . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء : « أن يَقبل » بالياء « نفقتهم » بنصب التاء على التوحيد .

قوله تعالى : (إلا أنَّهم كفروا بالله) قال ابن الأنباري : « أن » هاهنا مفتوحة ، لأنها بتأويل المصدر مرتفعة بـ « منعهم » ، والتقدير : وما منعهم قبول النفقة منهم إلا كفرهم بالله .

قوله تعالى : (إلا وهم كسالى) قد شرحناه في سورة (النساء : ١٤٢) .

قوله تعالى : (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم يعدُّون الإنفاق مغرماً .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلا تعجبك أموالهم) أي : لاتستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد . وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة . فعلى هذا ، في الآية تقديم وتأخير ، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها .

والثاني : أنها على نظمها ، والمعنى : ليُعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، فهي لهم عذاب ، وللمؤمنين أجر ، قاله ابن زيد .

والثالث : أن المعنى : ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله ، قاله الحسن . فعلى هذا ، ترجع الكناية إلى الأموال وحدها .

والرابع : ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم ، ذكره الماوردي . فعلى هذا تكون في المشركين .

قوله تعالى : (وتزهق أنفسهم) أي : تخرج ، يقال : زهق السهم : إذا جاوز الهدف .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) أي : مؤمنون ، و (يَفْرَقون) بمعنى يخافون . فأما الملجأ ، فقال الزجاج : الملجأ واللَّجأ مقصور مهموز ، وهو المكان الذي يُتحصن فيه . والمغارات : جمع مِغارة ، وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان ، أي : يستتر فيه . وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : « أو مُغارات » بضم الميم ؛ لأنه يقال : أغرت وغُرت : إذا دخلتَ الغور . وأصل مدَّخَل : مدتخل ، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالاً ، لأن التاء مهموسة ، والدال مجهورة ، والتاء والدال من مكان واحد ، فكان الكلام من وجه واحد أخفَّ . وقرأ أُبيٌّ ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « أو مُتَدَخَّلاً » برفع الميم ، وبتاء ودال مفتوحتين ، مشددة الخاء . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : « مُندخَلاً » بنون بعد الميم المضمومة . وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، ويعقوب : « مدخلاً » بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها . قال الزجاج : من قال : « مَدْخلاً » فهو من دخل يدخل مدخلاً ؛ ومن قال : « مُدْخلاً » فهو من أدخلته مُدخلاً ، قال الشاعر :

الحمد لله مُمْسَانا ومُصْبَحَنَا بالخير صبَّحنا رَبِّي ومسَّانا [1]

ومعنى مُدَّخل ومُدْخل : أنهم لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم (لولَّوا) إليه ، أي : إلى أحد هذه الأشياء (وهم يجمحون) أي : يسرعون إسراعاً لا يرد فيه وجوهَهم شيء . يقال : جمح وطمح : إذا أسرع ولم يردَّ وجهه شيء ؛ ومنه قيل : فرس جموح للذي إذا حمل لم يرده اللجام .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات) فيمن نزلت فيه قولان .

أحدهما : أنه ذو الخويصرة التميمي ، قال للنبي ﷺ يوماً : اعدل يارسول الله ، فنزلت هذه الآية [2] . ويقال : أبو الخواصر . ويقال : ابن ذي الخويصرة .

والثاني : أنه ثعلبة بن حاطب ، كان يقول : إنما يعطي محمد من يشاء ، فنزلت هذه الآية . قال ابن قتيبة : « يلمزك » يعيبك ويطعن عليك . يقال : همزت فلاناً ولمزته : إذا اغتبته وعبته ؛ والأكثرون على كسر ميم « يلمزك » . وقرأ يعقوب ، ونظيف عن قنبل ، وأبان عن عاصم ، والقزاز عن عبد الوارث : « يلمزون » [التوبة:٧٩] و« يلمزك » و « لاتلمزوا » [الحجرات:١١] بضم الميم فيهن . وقرأ ابن السميفع : « يلامزك » مثل : يفاعلك . وقد رواها حماد بن سلمة عن ابن كثير . قال أبو علي الفارسي : وينبغي أن تكون فاعلت في هذا من واحد ، نحو : طارقت النعل ، وعافاه الله ، لأن هذا لايكون من النبي ﷺ . وقرأ الأعمش : « يلمّزك » بتشديد الميم من

(١) البيت لامية بن أبي الصلت في « الاغاني » ٤/١٢٩ ، و « اللسان » مسا .

(٢) « الطبري » : ١٤/٣٠٣ وإسناده صحيح ، وقصة ذو الخويصرة معراة عن سبب النزول رواها البخاري في « صحيحه » ٦/٤٥٥ ، ومسلم ٧/١٦٥ من طريق الزهري عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري .

غير ألف ، مثل : يفعّلك . قال الزجاج : يقال : لمزت الرجل ألمِزه وألمُزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذلك : همزته أهمزه ، قال الشاعر :

إذا لقيتُكَ تُبْدِي لي مُكَاشَرَةً وإن تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ[1]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ . إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أي : قنعوا بما أُعطوا . (إنا إلى الله راغبون) في الزيادة ، أي : لكان خيراً لهم . وهذا جواب « لو » ، وهو محذوف في اللفظ .

ثم بيَّن المستحق للصدقات بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) اختلفوا في صفة الفقير والمسكين على ستة أقوال .

أحدها : أن الفقير : المتعفف عن السؤال ، والمسكين : الذي يسأل وبه رَمَق ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، والزهري ، والحكم ، وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : أن الفقير : المحتاج الذي به زمانة ، والمسكين : المحتاج الذي لا زمانة به ، قاله قتادة .

---

(١) البيت لزياد الأعجم في « الطبري » ١٤/٣٠١ ، و « مجاز القرآن » ١/٢٦٣ ، و « شواهد الكشاف » ١٥٢ ، و « إصلاح المنطق » ٤٧٥ ، و « الجمهرة » لابن دريد ٣/١٨ ، و « المقاييس » ٦/٦٦ ، و « اللسان » : همز .

والثالث : الفقير : المهاجر ، والمسكين : الذي لم يهاجر ، قاله الضحاك بن مزاحم ، والنخعي .

والرابع : الفقير : فقير المسلمين ، والمسكين : من أهل الكتاب ، قاله عكرمة .

والخامس : أن الفقير : من له البُلْغَة من الشيء ، والمسكين : الذي ليس له شيء ، قاله أبو حنيفة ، ويونس بن حبيب ، ويعقوب بن السكّيت ، وابن قتيبة . واحتجوا بقول الراعي :

أمّا الفقيرُ الذي كانتْ حَلُوبَتُه وفقَ العيال فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ (١)

فسماه فقيراً ، وله حلوبة تكفيه وعياله . وقال يونس : قلت لأعرابي : أفقير أنت ؟ قال : لا والله ، بل مسكين ؛ يريد : أنا أسوأ حالاً من الفقير .

والسادس : أن الفقير أمسُّ حاجةً من المسكين ، وهذا مذهب أحمد ، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفَقار ، والمسكنة مأخوذة من السكون والخشوع ، وذلك أبلغ . قال ابن الأنباري : ويروى عن الأصمعي أنه قال : المسكين أحسن حالاً من الفقير . وقال أحمد بن عبيد : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، لأن الفقير أصله في اللغة : المفقور الذي نزعت فَقرة من فِقَرِ ظهره ، فكأنه انقطع ظهره من شدة الفقر ؛ فصُرف عن مفقور إلى فقير ، كما قيل : مجروح وجريح ، ومطبوخ وطبيخ ، قال الشاعر :

---

(١) ديوانه ٥٥ ، و « إصلاح المنطق » ٣٢٦ ، و « الاقتضاب » ١١٤ ، والحلوبة : الناقة التي تحلب ، وقوله : وفق العيال ، أي : لها لبن قدر كفايتهم لافضل فيه عنهم . وقيل : قدر مايقوتهم ، وكل شيء طابق شيئاً فهو وفق له . والسبد : الشعر . وقيل : الوبر . فاذا قيل : ماله سبد ولا لبد ، فمعناه : ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ، يكنى بها عن الابل والغنم .

لَمّا رأى لُبَدَ النُّسُورِ تطايَرَتْ رَفَعَ القَوادِمَ كالفقيرِ الأعزلِ[1]

قال : ومن الحجة لهذا القول قوله : (وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) [الكهف : ٧٩] ، فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالاً ؛ قال : وهو الصحيح عندنا .

قوله تعالى : (والعاملين عليها) وهم السعاة لجباية الصدقة ، يُعْطَوْنَ منها بقدر أُجُور أمثالهم ، وليس ما يأخذونه بزكاة .

قوله تعالى : (والمؤلَّفةِ قلوبهم) وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألَّفهم على الإسلام بما يعطيهم ، وكانوا ذوي شرف ، وهم صنفان : مسلمون ، وكافرون . فأما المسلمون ، فصنفان ؛ صنف كانت نيَّاتُهم في الإسلام ضعيفة ، فتألَّفهم تقويةً لنيَّاتِهم ، كعُيَيْنَة بن حصن ، والأقرع ؛ وصنف كانت نياتهم حسنة ، فأُعطوا تألُّفاً لعشائرهم من المشركين ، مثل عدي بن حاتم . وأما المشركون ، فصنفان ؛ صنف يقصدون المسلمين بالأذى ، فتألَّفهم دفعاً لأذاهم ، مثل عامر بن الطفيل ؛ وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام ، تألَّفهم بالعطية ليؤمنوا ، كصفوان بن أُمية . وقد ذكرت عدد المؤلفة في كتاب « التلقيح » . وحكمهم باقٍ عند أحمد في رواية ، وقال أبو حنيفة ، والشافعي : حكمهم منسوخ . قال الزهري : لا أُعلم شيئاً نسخَ حكم المؤلَّفة قلوبهم .

قوله تعالى : (وفي الرقاب) قد ذكرناه في سورة (البقرة : ١٧٧) .

---

(١) البيت للبيد ، ديوانه ٢٧٤ ، و « اللسان » : فقر ، و « معجم البلدان » ٦/٢٧٨ ، و « معجم مقاييس اللغة » ٤/٩٠ ، و « الحيوان » ٦/٣٢٦ ، وقوله : كالفقير ، ويروى : كالمقير ، ويروى : كالكسير . والأعزل : المائل الذنب توصف به الخيل . والقوادم : أربع ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة : قادمة ، والفقير : المكسور الفقار ، وهي ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب .

قوله تعالى : (والغارمين) وهم الذين لزمهم الدَّين ولا يجدون القضاء ؛ قال قتادة : هم ناس عليهم دَيْنٌ من غير فساد ولا إسراف ولا تبذير ، وإنما قال هذا ، لأنه لا يؤمَن في حق المفسد إذا قُضِيَ دَيْنُه أن يعود إلى الاستدانة لذلك ؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه ، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية .

قوله تعالى : (وفي سبيل الله) يعني : الغزاة والمرابطين . ويجوز عندنا [1] أن يعطى الأغنياء منهم والفقراء ، وهو قول الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يعطى إلا الفقير منهم . وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج ، أم لا ؟ فيه عن أحمد روايتان .

قوله تعالى : (وابن السبيل) هو المسافر المنقطع به ، وإن كان له مال في بلده ؛ قاله مجاهد ، وقتادة ، وأبو حنيفة ، وأحمد . فأما إذا أراد أن ينشىء سفراً ، فهل يجوز أن يعطى ؟ قال الشافعي : يجوز ، وعن أحمد مثله ؛ وقد ذكرنا في سورة (البقرة : ١٧٧) فيه أقوالاً عن المفسرين .

قوله تعالى : (فريضة من الله) يعني أن الله افترض هذا .

فصل

وحدُّ الغنى الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا بأحد شيئين : أن يكون مالكاً لخمسين درهماً ، أو عِدلها من الذهب ، سواء كان ذلك يقوم بكفايته ، أو لا يقوم . والثاني : أن يكون له كفاية ، إما من صناعة ، أو أجرة عقار ، أو عروض

(١) أي : عند الحنابلة .

للتجارة يقوم ربحها بكفايته . وقال أبو حنيفة : الاعتبار في ذلك أن يكون مالكاً لنصاب تجب عليه فيه الزكاة . فأما ذوو القربى الذين تحرم عليهم الصدقة ، فهم بنو هاشم ، وبنو المطلب . وقال أبو حنيفة : تحرم على ولد هاشم ، ولا تحرم على ولد المطلب . ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبني المطلب ويأخذ عمالته منها ، خلافاً لأبي حنيفة . فأما موالي بني هاشم وبني المطلب ، فتحرم عليهم الصدقة ، خلافاً لمالك . ولا يجوز أن يعطيَ صدقته مَنْ تلزمه نفقتُه ؛ وبه قال مالك ، والثوري . وقال أبو حنيفة والشافعي : لايعطي والداً وإن علا ، ولا ولداً وإن سفل ، ولا زوجه ، ويعطي مَنْ عَداهم . فأما الذميُّ ؛ فالأكثرون على أنه لايجوز إعطاؤه . وقال عبيد الله بن الحسن : إذا لم يجد مسلماً ، أعطى الذمي . ولا يجب استيعاب الأصناف ، ولا اعتبار عدد من كل صنف ؛ وهو قول أبي حنيفة ، ومالك ؛ وقال الشافعي : يجب الاستيعاب من كل صنف ثلاثة .

فأما إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تُقصر فيه الصلاة ، فلا يجوز له ذلك ، فان نقلها لم يُجزئه ؛ وهو قول مالك ، والشافعي . وقال أبو حنيفة : يكره نقلها ، وتجزئه . قال أحمد : ولا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهماً . وقال أبو حنيفة : أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم ، وإن أعطيته أجزأك . فأما الشافعي ، فاعتبر مايدفع الحاجةَ من غير حدّ . فان أعطى من يظنه فقيراً ، فبان أنه غني ، فهل يجزىء ؟ فيه عن أحمد روايتان .

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن خِذام بن خالد ، والجُلاس بن سويد ، وعبيد بن هلال في آخرين ، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم لبعض : لاتفعلوا ، فانا نخاف أن يبلغه فيقع بنا ، فقال الجلاس : بل نقول ماشئنا ، فانما محمد أُذنٌ سامعة ، ثم نأتيه فيصدّقنا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من المنافقين يقال له : نَبْتَل بن الحارث ، كان ينم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين ، فقيل له : لاتفعل ؛ فقال : إنما محمد أُذن ، مَنْ حدّثه شيئاً ، صدقه ؛ نقول ماشئنا ، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا ، فنزلت هذه الآية ؛ قاله محمد بن إسحاق [١] .

والثالث : أن ناساً من المنافقين منهم جلاس بن سويد ، ووديعة بن ثابت ، اجتمعوا ، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر ابن قيس ، فحقروه ، فتكلموا وقالوا : لئن كان مايقوله محمد حقاً ، لنحن شر من الحمير ، فغضب الغلام ، وقال : والله إن مايقوله محمد حق ، وإنكم لشرٌ من الحمير ؛ ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره ، فدعاهم فسألهم ، فحلفوا أن عامراً كاذب ، وحلف عامر أنهم كذبُوا ، وقال : اللهم لا تفرّق بيننا حتى تبيّنَ صدق الصادق ، وكذب الكاذب ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) ، قاله السدي [٢] . فأما الأذى ، فهو عيبه ونقل حديثه . ومعنى (أُذُنٌ) يقبل كل ماقيل

(١) « الطبري » ١٤/٣٢٥ ، و « أسباب النزول » للواحدي ١٤٣ ، وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي ١٤٣ عن السدي ، ووأورده « الطبري » ١٤/٣٢٩ ، ٣٣٠ عن قتادة سبباً لنزول الآية التي بعدها (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) ، وأورده السيوطي كذلك في « الدر » ٣/٢٥٣ عن قتادة من طريق ابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وعن السدي من طريق ابن أبي حاتم .

له . قال ابن قتيبة : الأصل في هذا أن الأُذُنَ هي السامعة ، فقيل لكل من صدَّق بكل خبر يسمعه : أُذُنٌ . وجمهور القراء يقرؤون (هو أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ) بالتثقيل . وقرأ نافع « هو أُذْنٌ قل أُذْنُ خير » باسكان الذال فيهما . ومعنى « أُذُنُ خيرٍ لكم » أي : أذن خير ، لا أُذُنُ شرّ ؛ يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشرّ إذا سمعه . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة « أُذُنٌ » بالتنوين « خيرٌ » بالرفع . والمعنى : إن كان كما قلتم ، يسمع منكم ويصدِّقكم ، خيرٌ لكم من أن يكذِّبكم . قال أبو علي : يجوز أن تطلق الأذن على الجملة ، كما قال الخليل : إنما سميت النابُ من الإبل ، لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلّها به ، فأجرَوا على الجملة اسم الجارحة لإرادتهم كثرة استعماله لها في الإصغاء بها .

ثم بيَّن ممن يقبل ، فقال (يؤمنُ بالله ويؤمنُ للمؤمنين) قال ابن قتيبة : الباء واللام زائدتان ؛ والمعنى : يصدِّق اللهَ ويصدِّقُ المؤمنين . وقال الزجاج : يسمع ماينزّله الله عليه ، فيصدِّق به ، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به . (ورحمةٌ) أي : وهو رحمة ، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين . وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . قال أبو علي : المعنى : أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ . والمعنى : مستمعُ خيرٍ ورحمةٍ .

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال ابن السائب : نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع النبي ﷺ ، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم ، ويحلفون ويعتلّون . وقال مقاتل : منهم عبد الله بن أُبيّ ، حلف لايتخلّف

عن رسول الله ﷺ ، ولَيكونَنَّ معه على عدوّه . وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم مانطقوا بالعيب . وحكى الزجاج عن بعض النحويين أنه قال : اللام في « ليرضوكم » بمعنى القسم ، والمعنى : يحلفون بالله لكم لنرضينّكم . قال : وهذا خطأٌ ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ماقالوا ماحكي عنهم ليُرضُوا باليمين ، ولم يحلفوا أنهم يُرضُون في المستقبل . قلت : وقول مقاتل يؤكد ماأنكره الزجاج ، وقد مال إليه الأخفش .

قوله تعالى : (واللهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضُوه) فيه قولان .

أحدهما : بالتوبة والإنابة . والثاني : بترك الطعن والعيب .

فان قيل : لم قال : « يُرضُوه » ولم يقل : يرضوهما ؟ فقد شرحنا هذا عند قوله : (ولا ينفقونها في سبيل الله) [التوبة : ٣٤] .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (ألم يعلموا) روى أبو زيد عن المفضل « ألم تعلموا » بالتاء . (أنهُ من يُحادِدِ الله) فيه قولان .

أحدهما : من يخالف الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : من يعادي الله ، كقولك : من يُجانِبِ اللهَ ورسولَه ، أي : يكون في حدٍّ ، واللهُ ورسولُه في حدٍّ .

قوله تعالى : (فأنَّ له نارَ جهنَّم) قرأ الجمهور : « فأن » بفتح الهمزة . وقرأ أبو رزين ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : بكسرها . فمن كسر ، فعلى الاستئناف بعد الفاء ، كما تقول : فله نار جهنم . ودخلت « إنّ » مؤكدة . ومن قال :

« فأَنَّ له » فانما أعاد « أنَّ » الأولى توكيداً ؛ لأنه لما طال الكلام ، كان إعادتها أوكد .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يحذر المنافقون) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المنافقين كانوا يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ، ويقولون : عسى الله أن لايفشي سرَّنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والثاني : أن بعض المنافقين قال : لوددت أني جُلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي [(1)] .

والثالث : أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به ، فأخبره جبريل عليه السلام ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن كيسان .

وفي قوله : (يحذر المنافقون) قولان .

أحدهما : أنه إخبار من الله عز وجل عن حالهم ، قاله الحسن ، وقتادة ، واختاره ابن القاسم .

والثاني : أنه أمر من الله عز وجل لهم بالحذر ، فتقديره : ليحذر المنافقون ، قاله الزجاج . قال ابن الأنباري : والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر ، فيقولون : يرحم الله المؤمن ، ويعذب الكافر ؛ يريدون : ليرحم وليعذب ، فيسقطون اللام ، ويُجْرُونَه مجرى الخبر في الرفع ، وهم لاينوون إلا الدعاء ؛ والدعاء مضارع للأمر .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٤٣ .

قوله تعالى : (قل استهزؤوا) هذا وعيد خرج مخرج الأمر تهديداً .

وفي قوله : (إن الله مخرج ماتحذرون) وجهان .

أحدهما : مظهر ماتُسرُّون . والثاني : ناصر مَنْ تخذلون ، ذكرهما الماوردي .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ . لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولئن سألتهم) في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : أن جَدَّ بنَ قيس ، ووديعة بن خذام ، والجُهَير بن حُمَير ، كانوا يسيرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك ، فجعل رجلان منهم يستهزآن برسول الله ﷺ ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء ، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون به ويضحكون ؛ فقال لعمار بن ياسر « اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه ، وقل لهم : أحرقكم الله » فلما سألهم ، وقال : أحرقكم الله ؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن ، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ، وقال الجُهَير : والله ماتكلَّمت بشيء ، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم ؛ فنزل قوله : (لاتعتذروا) يعني جَدَّ بن قيس ، ووديعة (إن يُعْفَ عن طائفة منكم) يعني الجهير (نعذِّبْ طائفة) يعني الجَدَّ ووديعة ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من المنافقين قال : مارأيت مثل قرائنا هؤلاء ، ولا أرغبَ بطوناً ، ولا أكذبَ ، ولا أجبنَ عند اللقاء ؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ فقال له عوف بن مالك : كذبت ، لكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ؛

فذهب ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ؛ فجاء ذلك الرجل ، فقال : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، هذا قول ابن عمر ، وزيد بن أسلم ، والقرظي .

والثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن كان مايقول هذا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير ؛ فأعلم الله نبيه ماقالوا ، ونزلت (ولئن سألتهم) ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أن رجلاً من المنافقين قال : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا ، وما يُدريه ما الغيب ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والخامس : أن ناساً من المنافقين قالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات ؛ فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبي الله ﷺ : « احبسوا علي الرَّكب » ، فأتاهم ، فقال : « قلتم كذا وكذا » ، فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [1] .

والسادس : أن عبد الله بن أُبيّ ، ورهطاً معه ، كانوا يقولون في رسول الله وأصحابه مالا ينبغي ، فاذا بلغ رسولَ الله ﷺ قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى : (قل) لهم (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ، قاله الضحاك .

فقوله : (ولئن سألتَهم) أي : عما كانو فيه من الاستهزاء (ليقولُنّ إنما كنا نخوض ونلعب) أي : نلهو بالحديث . وقوله : (قد كفرتم) أي : قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان ؛ وهذا يدل على أن الجِدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء .

قوله تعالى : (إن يُعْفَ عن طائفة منكم) قرأ الأكثرون « إن يُعْفَ »

---

(١) « الطبري » ١٤/٣٣٤ ، و « أسباب النزول » للواحدي ١٤٣ ـ ١٤٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٣/٢٥٤ من رواية ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

بالياء ، « تُعَذَّبْ » بالتاء . وقرأ عاصم غير أبان « إن نَعْفُ » ، « نُعَذِّبْ » ، بالنون فيهما ونصب « طائفةً » ، والمعنى : إن نعف عن طائفة منكم بالتوفيق للتوبة ، نعذِّب طائفةً بترك التوبة . وقيل : الطائفتان هاهنا ثلاثة ؛ فاستهزأ اثنان ، وضحك واحد . ثم أنكر عليهم بعض ماسمع . وقد ذكرنا عن ابن عباس أسماء الثلاثة ، وأن الضاحك اسمه الجُهَيْر ، وقال غيره : هو مَخْشِيُّ بن حُمَيِّر . وقال ابن عباس ومجاهد : الطائفة : الواحد فما فوقه . وقال الزجاج : أصل الطائفة في اللغة : الجماعة ؛ ويجوز أن يقال للواحد : طائفة ، يراد به : نفس طائفة . قال ابن الأنباري : إذا أريد بالطائفة الواحد ، كان أصلها طائفاً ، على مثال : قائم وقاعد ، فتدخل الهاء للمبالغة في الوصف ، كما يقال : راوية ، علاّمة ، نسّابة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مافُرِغ من تنزيل (براءة) حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء .

﴿ اَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ . كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ

رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) قال ابن عباس : بعضهم على دين بعض . وقال مقاتل : بعضهم أولياء بعض ، (يأمرون بالمنكر) وهو الكفر ، (وينهون عن المعروف) وهو الإيمان .

وفي قوله : (ويقبضون أيديهم) أربعة أقوال .

أحدها : يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد . والثاني : عن كل خير ، قاله قتادة . والثالث : عن الجهاد في سبيل الله . والرابع : عن رفعها في الدعاء الى الله تعالى ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) قال الزجاج : تركوا أمره ، فتركهم من رحمته وتوفيقه . قال : وقوله : (هي حسبهم) أي : هي كفاية ذنوبهم ، كما تقول : عذَّبتُك حسبَ فِعلك ، وحسبُ فلان مانزل به ، أي : ذلك على قدر فعله . وموضع الكاف في قوله : (كالذين من قبلكم) نصب ، أي : وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم . وقال غيره : رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم ، وشبَّههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية .

قوله تعالى : (فاستمتعوا بخلاقهم) قال ابن عباس : استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا . وقال الزجاج : بحظهم من الدنيا .

قوله تعالى : (وخضتم) أي : في الطعن على الدّين وتكذيب نبيكم كما خاضوا . (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا) لأنها لم تُقبل منهم ، وفي الآخرة ، لأنهم لايثابون عليها ، (وأولئك هم الخاسرون) بفوت الثواب وحصول العقاب .

قوله تعالى : (وقوم إبراهيم) قال ابن عباس : يريد نمرود بن كنعان (وأصحاب مدين) يعني قوم شعيب . (والمؤتفكات) قرى لوط . قال الزجاج : وهم جمع مؤتفكة ، ائتفكت بهم الأرض ، أي : انقلبت . قال : ويقال : إنَّهم جميع من أُهلك ، [كما] يقال للهالك : انقلبت عليه الدنيا .

قوله تعالى : (أتتهم) يعني هذه الأمم (رسلُهم بالبيّنات) فكذَّبوا بها ، (فما كان الله ليظلمهم) قال ابن عباس : ليُهلكهم حتى يبعث فيهم نبياً ينذرهم ، والمعنى أنهم أُهلكوا باستحقاقهم .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أي : بعضهم يوالي بعضاً ، فهم يد واحدة ، يأمرون بالإيمان ، وينهون عن الكفر .

قوله تعالى : (في جنات عدن) قال أبو عبيدة : في جنات خُلْد ، يقال : عَدَنَ فلان بأرض كذا ، أي : أقام ؛ ومنه : المَعْدِنُ ، وهو في مَعْدِن صدق ، أي : في أصل ثابت . قال الأعشى :

وإن تَستضيفوا إلى حِلْمه تُضافوا إلى راجح قد عَدَنْ [1]

---

(١) ديوانه ١٧ ، و « مجاز القرآن » ١/٢٦٤ ، و « الطبري » ١٤/٣٥٠ ، و « اللسان » وزن . واستضاف إليه : لجأ إليه عند الحاجة .

أي : رزين لايُستخف . قال ابن عباس : جنات عدن ، هي بُطنان الجنة ، وبُطنانها : وسطها ، وهي أعلى درجة في الجنة ، وهي دار الرحمن عز وجل ، وسقفها عرشه ، خلقها بيده ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محدقة بها .

قوله تعالى : (ورضوان من الله أكبر) قال ابن عباس : أكبر مما يوصف . وقال الزجاج : أكبر مما هم فيه من النعيم .

فان قيل : لم كان الرضوان أكبر من النعيم ؟ فعنه جوابان .

أحدها : أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب ، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب . وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : ياأهل الجنة ، هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لانرضى ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أفلا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أُحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم أبداً »[1] .

والثاني : أن الموجِب للنعيم الرضوان ، والموجَب ثمرة الموجِب ، فهو الأصل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين) أما جهاد الكفار ، فبالسيف . وفي جهاد المنافقين قولان .

أحدها : أنه باللسان ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، والربيع بن أنس .

والثاني : جهادهم باقامة الحدود عليهم ، روي عن الحسن ، وقتادة .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ١١/٣٦٣ - ٣٦٤ ، ومسلم ٤/٢١٧٦ .

فـان قيل : إذا كان رسول الله ﷺ قد أمر بجهادهم وهو يعلم أعيـانهم ، فكيف تركهم بين أظهر أصحابه فلم يقتلهم ؟

فالجواب : أنه إنما أُمر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها ، فأمـا من إذا أُطلع على كفره ، أنكر وحلف وقال : إني مسلم ، فانه أُمر أن يأخذه بظاهر أمره ، ولا يبحث عن سِرّه .

قوله تعالى : (واغلظ عليهم) قال ابن عباس : يريد شدة الانتهار لهم ، والنظر بالبغضة والمقت . وفي الهاء والميم من « عليهم » قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس .

والثاني : إلى المنافقين ، قاله مقـاتل .

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَاقَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قوله تعالى : (يحلفون بالله ماقالوا) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ ذكر المنافقين فعابهم ؛ فقال الجُلاس بن سويد : إن كان مايقول على إخواننـا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير . فقال عامر بن قيس : والله إنه لصادق ، ولأنتم شرٌّ من الحمير ؛ وأخبر رسولَ الله ﷺ بذلك ، فأتى الجلاسُ فقال : ماقلت شيئاً ، فحلفا عند المنبر ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وذهب إلى نحوه الحسن ، ومجاهد ، وابن سيرين .

والثاني : أن عبد الله بن أُبيّ قال : والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل ، فسمعه رجل من المسلمين ، فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ماقال ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والثالث : أن المنافقين كانوا إذا خلَوْا ، سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه ، وطعنوا في الدين ؛ فنقل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك ، فحلفوا ماقالوا شيئاً ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك . فأما كلمة الكفر ، فهي سبُّهم رسول الله ﷺ ، وطعنهم في الدين . وفي سبب قوله : (وهمّوا بما لم ينالوا) أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في ابن أُبيّ حين قال : لئن رجعنا إلى المدينة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : أنها نزلت فيهم حين همُّوا بقتل رسول الله ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، قال : والذي همَّ رجل يقال له : الأسود . وقال مقاتل : هم خمسة عشر رجلاً ، همُّوا بقتله ليلة العقبة .

والثالث : أنه لما قال بعض المنافقين : إن كان مايقول محمد حقاً ، فنحن شرٌّ من الحمير ؛ وقال له رجل من المؤمنين : لأنتم شرٌّ من الحمير ، همَّ المنافق بقتله ؛ فذلك قوله : (وهمّوا بما لم ينالوا) ، هذا قول مجاهد .

والرابع : أنهم قالوا في غزوة تبوك : إذا قدمنا المدينة ، عقدنا على رأس عبد الله بن أُبيّ تاجاً نباهي به رسول الله ﷺ ؛ فلم ينالوا ماهمُّوا به .

قوله تعالى : (وما نقموا إلا أن أغناهم الله) قال ابن قتيبة : أي : ليس ينقمون شيئاً ، ولا يتعرفون من الله إلا الصنع ، ومثله قول الشاعر :

مَانَقَمَ النَّاسُ مِنْ أُمَيَّةَ إلاَّ أَنَّهُمْ يَحْلُمونَ إنْ غَضِبُوا [1]

---

(١) البيتان لعبد الله بن قيس الرقيات ديوانه : ٤ ، و « الكامل » : ٦٤٨ و« طبقات فحول الشعراء » ـــ

وأنَّهم سَادَةُ المُلُوكِ وَلا تَصْلُحُ إلّا عَلَيْهِمُ العَرَبُ

وهذا ليس مما يُنقم ، وإنما أراد أن الناس لاينقمون عليهم شيئاً ، وكقول النابغة :

ولا عَيْبَ فيهِم غَيْرَ أنَّ سُيوفَهم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ (١)

أي : ليس فيهم عيب . قال ابن عباس : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضَنْك من معاشهم ، فلما قدم عليهم ، غنموا ، وصارت لهم الأموال . فعلى هذا ، يكون الكلام عامّاً . وقال قتادة : هذا في عبد الله بن أُبيّ . وقال عروة : هو الجلاس بن سويد ، قُتل له مولى ، فأمر له رسول الله ﷺ بديته ، فاستغنى ؛ فلما نزلت (فان يتوبوا يك خيراً لهم) قال الجلاس : أنا أتوب إلى الله .

قوله تعالى : (وإن يتولَّوا) أي : يعرضوا عن الإيمان . قال ابن عباس : كما تولَّى عبد الله بن أُبيّ ، (يعذبْهم الله عذاباً أليماً في الدنيا) بالقتل ، وفي الآخرة بالنار .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من عاهد الله) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال : « ويحك ياثعلبة ، قليلٌ تؤدي شكرَهُ ، خير من كثير لاتطيقه » قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده ، لو شئتُ أن تسير معي الجبال

ـــ ٥٣٣ و « مجاز القرآن » ١/١٧٠ ، و « الأغاني » ٤/١٦٠ ، و « غريب القرآن » : ١٩٠ ، و « السمط » ٢٩٥ ، و « شواهد المغني » ٢١١ و « الخزانة » ٣/٢٦٨ .

(١) ديوانه ١١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » ١٦١ ، و « العمدة » ٢/٤٥ ، و « الصناعتين » ٤٠٨ .

ذهباً وفضة ، لسارت » فقال : والذي بعثك بالحق ، لئن دعوتَ الله أن يرزقني مالاً ، لأوتينَّ كل ذي حق حقه . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » فاتخذ غنماً ، فنمت ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحَّى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ماسواهما . ثم نَمت ، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم نمت ، فترك الجمعة . فسأل عنه رسول الله ﷺ ، فأُخبر خبره ، فقال : « ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة » وأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة) [التوبة : ٩] ، وأنزل فرائض الصدقة ؛ فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة ، وكتب لهما كتاباً بأخذان الصدقة ، وقال : « مُرّا بثعلبة ، وبفلان » رجل من بني سُليم ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ؛ فقال : ماهذا إلا جزية ، ماهذه إلا أُخت الجزية ، ما أدري ماهذا ، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ . فانطلقا ؛ فأُخبر السُلَميّ ، فاستقبلهما بخيار ماله ، فقالا : لايجب هذا عليك ؛ فقال : خذاه ، فان نفسي بذلك طيبة ؛ فأخذا منه . فلما فرغا من صدقتهما ، مرّا بثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقال : ماهذه إلا أُخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلَقا ، فأخبرا رسول الله ﷺ بما كان ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (بما كانوا يكذبون) ، وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فخرج إلى ثعلبة ، فأخبره ؛ فأتى رسولَ الله ، وسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك » ؛ فجعل يحثو التراب على رأسه . فقال : « هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني » . فرجع إلى منزله ، وقُبض رسول الله ، ولم يقبل منه شيئاً ، فلما ولي أبو بكر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى . فلما ولي عمر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى . فلما ولي عثمان ، سأله أن يقبلها ؛ فقال : لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ، فلم يقبلها ؛

وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه. روى هذا الحديث القاسم عن أبي أمامة الباهلي (١). وقال ابن عباس: مرّ ثعلبة على مجلس، فأشهدهم على نفسه: لئن آتاني الله من فضله، آتيت كل ذي حق حقه، وفعلت كذا وكذا. فآتاه الله من فضله، فأخلف ماوعد؛ فقص الله علينا شأنه.

والثاني: أن رجلاً من بني عمرو بن عوف، كان له مال بالشام، فأبطأ عنه، فجُهد له جُهداً شديداً، فحلف بالله لئن آتانا من فضله، أي: من ذلك المال، لأصّدّقن منه، ولأصِلَنّ، فأتاه ذلك المال، فلم يفعل، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس. قال ابن السائب: والرجل حاطب بن أبي بلتعة.

والثالث: أن ثعلبة، ومُعتّب بن قُشير، خرجا على ملأ، فقالا: والله لئن رزقنا الله لنصّدّقن. فلما رزقهما، بخلا به، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، ومجاهد.

والرابع: أن نبتل بن الحارث، وجَدّ بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتّب ابن قشير، قالوا: لئن آتانا الله من فضله لنصدقن. فلما آتاهم من فضله بخلوا به، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

فأما التفسير، فقوله: ﴿ومنهم﴾ يعني المنافقين ﴿من عاهد الله﴾ أي: قال: عليَّ عهدُ الله ﴿لنصّدّقنّ﴾ الأصل: لنتصدقن، فأدغمت التاء في الصاد لقربها منها.

---

(١) «الطبري» ١٤/٣٧١-٣٧٢ وخرجه الهيثمي في «المجمع» ٧/٣١-٣٢ وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: رواه الطبراني، والبيهقي في «الدلائل» و«الشعب» وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مردويه، كلهم من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، وقال: وهذا إسناد ضعيف جداً.

(ولنكوننَّ من الصالحين) أي : لنعملنَّ مايعمل أهل الصلاح في أموالهم من صلة الرحم والإنفاق في الخير . وقد روى كَهْمَس عن مَعبد بن ثابت أنه قال : إنما هو شيء نووْه في أنفسهم ، ولم يتكلموا به ؛ ألم تسمع إلى قوله : (ألم يعلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم) ؟

﴿ فَلَمَّا آتَـٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما آتاهم من فضله) أي : ماطلبوا من المال (بخلوا به) ولم يفوا بما عاهدوا (وتولَّوا وهم معرضون) عن عهدهم .

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾

قوله تعالى : (فأعقبهم) أي : صيَّر عاقبة أمرهم النفاق .

وفي الضمير في « أعقبهم » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : جازاهم الله بالنفاق ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنها ترجع إلى البخل ، فالمعنى : أعقبهم بخلُهم بما نذروا نفاقاً ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (ألم يعلموا) يعني المنافقين (أن الله يعلم سرَّهم) وهو ما في نفوسهم (ونجواهم) حديثهم بينهم .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَيَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الذين يلمزون المطوِّعين) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنه لما نزلت آية الصدقة ، جاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لَغَنِيٌّ عن صاع هذا ، فنزلت هذه الآية [١] ، قاله أبو مسعود [٢] .

والثاني : أن عبد الرحمن بن عوف جاء بأربعين أوقية من ذهب ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام ؛ فقال بعض المنافقين : والله ماجاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وإنْ كان اللهُ ورسولُه لَغنيَّين عن هذا الصاع ، قاله ابن عباس [٣] .

وفي هذا الأنصاري قولان .

أحدهما : أنه أبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك . والثاني : أنه أبو عقيل .

وفي اسم أبي عقيل ثلاثة أقوال .

أحدها : عبد الرحمن بن بِيْجَان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ ويقال : ابن بِيْحان ؛ ويقال : سِيْحَان [٤] . وقال مقاتل : هو أبو عقيل بنُ قيس .

والثاني : أن اسمه الحَبْحَاب ، قاله قتادة .

والثالث : الحُبَاب . قال قتادة : جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف ، وجاء عاصم

---

(١) « الطبري ١٤/٣٨٨ ، والبخاري ٣/٢٢٤ ، و ٨/٢٤٩ ، ومسلم ٧/١٠٥ ، و « أسباب النزول » الواحدي ١٤٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٦٣ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « المعرفة » .

(٢) في الأصل : ابن مسعود ، وكذا جاء في « الدر » وهو خطأ ، والتصويب من المراجع التي ذكرت في التعليق السابق ، وأبو مسعود : هو أبو مسعود الأنصاري البدري ، واسمه عقبة بن عمرو بن ثعلبة ، صاحب رسول الله ﷺ شهد العقبة .

(٣) « الطبري » ١٤/٣٨٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٤) انظر « فتح الباري » ٨/٢٤٩ ، فقد استوفى الحافظ ابن حجر الكلام على أبي عقيل هذا .

ابن عدي بن العَجلان بمائة وَسق من تمر . و (يلمزون) بمعنى يعيبون . و (المطوِّعين) أي : المتطوعين ، قال الفراء : أدغمت التاء في الطاء ، فصارت طاءً مشددة . والجُهد لغة أهل الحجاز ، ولغة غيرهم الجَهد . قال أبو عبيدة : الجهد ، بالفتح والضم سواء ، ومجازه : طاقتهم . وقال ابن قتيبة : الجُهد : الطاقة ؛ والجَهد : المشقة . قال المفسرون : عُني بالمطوِّعين عبدُ الرحمن ، وعاصم ، وبالذين لايجدون إلا جهدهم : أبو عقيل . وقوله : (سخر الله منهم) أي : جازاهم على فعلهم ، وقد سبق هذا المعنى .

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (استغفرْ لهم أو لاتستغفرْ لهم) سبب نزولها : أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا : يارسول الله استغفر لنا ، فنزلت هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين ، لعل الله يغفر لهم » ؛ فنزل قوله : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) [المنافقون : ٦] ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وظاهر قوله : « استغفر لهم » الأمر ، وليس كذلك ؛ إنما المعنى : إن استغفرت ، وإن لم تستغفر ، لايُغفَر لهم ، فهو كقوله : (أنفقوا طوعاً أو كرهاً) [التوبة : ٥٣] ، وقد سبق شرح هذا المعنى هناك ، هذا قول المحققين . وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على السبعين ، رجي لهم الغفران . ثم نسخت بقوله : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) .

فان قيل : كيف جاز أن يستغفر لهم ، وقد أُخبر بأنهم كفروا ؟

فالجواب : أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ، ولا يجوز أن يقال : علم كفرهم ثم استغفر .

فإن قيل : مامعنى حصر العدد بسبعين ؟

فالجواب : أن العرب تستكثر في الآحاد من سبعة ، وفي العشرات من سبعين .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم) يعني المنافقين الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . والمخلَّف : المتروك خلف مَن مضى . « بمقعدهم » أي : بقعودهم . وفي قوله : (خلافَ رسول الله) قولان .

أحدهما : أن معناه : بعد رسول الله ﷺ ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أن معناه : مخالَفَةُ رسول الله ﷺ ، وهو منصوب ، لأنه مفعول له ، فالمعنى : بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ ، قاله الزجاج . وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « خَلْفَ رسول الله » ، ومعناها : أنهم تأخَّروا عن الجهاد .

وفي قوله : (لاتنفروا في الحرِّ) قولان .

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض ، قاله ابن إسحاق ، ومقاتل .

والثاني : أنهم قالوه للمؤمنين ، ذكره الماوردي . وإنما قالوا هذا ، لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر . (قل نار جهنم أشد حراً) لمن خالف أمر الله .

وقوله : (يفقهون) معناه : يعلمون . قال ابن فارس : الفقه : العلم بالشيء . تقول : فَقِهْتُ الحديث أَفْقَهُهُ ؛ وكل علم بشيء : فقه . ثم اختص به علم الشريعة ، فقيل لكل عالم بها : فقيه . قال المصنف : وقال شيخنا علي بن عبيد الله : الفقه في إطلاق اللغة : الفهم ، وفي عرف الشريعة : عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال

المكلّفين، بنحو التحليل، والتحريم، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك. وبعضهم يختار أن يقال: الفِقْه: فَهْمُ الشيء. وبعضهم يختار أن يقال: عِلْمُ الشيء.

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى: (فليضحكوا قليلاً) لفظه لفظ الأمر، ومعناه التهديد.

وفي قلّة ضحكهم وجهان.

أحدهما: أن الضحك في الدنيا، لكثرة حزنها وهمومها، قليل، وضحكهم فيها أقل، لِما يتوجه إليهم من الوعيد.

والثاني: أنهم إنما يضحكون في الدنيا، وبقاؤها قليل. (وليبكوا كثيراً) في الآخرة. قال أبو موسى الأشعري: إنّ أهل النار ليبكون الدموع في النار، حتى لو أُجريت السفن في دموعهم لجرت، ثم إنهم ليبكون الدم بعد الدموع، فلمثل ماهم فيه فليُبكى.

قوله تعالى: (جزاءً بما كانوا يكسبون) أي: من النفاق والمعاصي.

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

قوله تعالى: (فان رجعك الله) أي: ردك من غزوة تبوك إلى المدينة (إلى طائفة) من المنافقين الذين تخلّفوا بغير عذر. وإنما قال: (إلى طائفة) لأنه ليس كل من تخلّف عن تبوك كان منافقاً. (فاستأذنوك للخروج) معك إلى الغزو،

(فقل لن تخرجوا معيَ أبداً) إلى غَزاة ،(إنكم رضيتم بالقعود) عني (أول مرة) حين لم تخرجوا إلى تبوك . وذكر الماوردي في قوله : (أول مرة) قولين .

أحدهما : أول مرة دُعيتم . والثاني : قبل استئذانكم .

فأما الخالفون ، فقال أبو عبيدة : الخالف : الذي خلف بعد شاخص ، فقعد في رحله ، وهو الذي يتخلّف عن القوم .

وفي المراد بالخالفين قولان .

أحدهما : أنهم الرجال الذين تخلّفوا لأعذار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم النساء والصبيان ، قاله الحسن ، وقتادة .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تصلِّ على أحدٍ منهم) سبب نزولها : أنه لما توفي عبد الله ابن أُبيّ ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أعطني قميصك حتى أكفنه فيه ، وصلِّ عليه ، واستغفر له . فأعطاه قميصه ؛ فقال : آذِنّي أصلي عليه ، فآذنه ؛ فلما أراد أن يصلي عليه ، جذبه عمر بن الخطاب ، وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : « أنا بين خيرتين : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) [التوبة : ٨٠] فصلى عليه ، فنزلت هذه الآية »[١] ، رواه نافع عن ابن عمر . قال قتادة : ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « ما يُغْني عنه قميصي من عذاب الله تعالى ، والله إني لأرجو أن يُسْلِمَ به ألف من قومه »[٢] . قال الزجاج : فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج

(١) « الطبري » ١٤/٤٠٦ ، والبخاري ٣/١١٠ ، و ٨/٢٥١ - ٢٥٥ ، ومسلم ١٧/١٢١ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٦٦ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » ١٤/٤١٠ ، والسيوطي في « الدر » ٢/٢٦٦ .

لمّا رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ ، وأراد الصلاة عليه . فأما قوله : « منهم » فانه يعني المنافقين . وقوله : (ولا تقم على قبره) قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ ، إذا دُفن الميت ، وقف على قبره ودعا له [1] ؛ فنهي عن ذلك في حق المنافقين . وقال ابن جرير : معناه : لاتتولّ دفنه ؛ وهو من قولك : قام فلان بأمر فلان ؛ وقد تقدم تفسيره .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (ولا تعجبك أموالهم) سبق تفسيره [التوبة : ٥٥] .

قوله تعالى : (وإذا أنزلت سورة) هذا عامّ في كل سورة . وقال مقاتل : المراد بها سورة (براءة) .

---

(١) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فانه الآن يسأل » رواه أبو داود رقم (٣٢٢١) وهو حديث صحيح ، وفيه دلالة على مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، أي : أن يثبته الله في الجواب ، وفيه دلالة على سؤال القبر ، وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة .

قوله تعالى : (أن آمنوا) أي : بأن آمنوا . وفيه ثلاثة أوجه .

أحدها : استدعوا الإيمان . والثاني : افعلوا فعل من آمن . والثالث : آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم ، فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين .

قوله تعالى : (استأذنك) أي : في التخلف (أولو الطَّول) يعني الغنى ، وهم الذين لا عذر لهم في التخلُّف . وفي « الخوالف » قولان .

أحدهما : أنهم النساء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وشمر بن عطية ، وابن زيد ، والفراء . وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون الخوالف هاهنا النساء ، ولا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل ، غير أنهم قد قالوا : فارس ، والجميع : فوارس ، وهالك [في قوم] هوالك . قال ابن الأنباري : الخوالف لا يقع إلا على النساء ، إذ العرب تجمع فاعلة : فواعل ؛ فيقولون : ضاربة ، وضوارب ، وشاتمة ، وشواتم ؛ ولا يجمعون فاعلاً : فواعل ، إلا في حرفين : فوارس ، وهوالك ؛ فيجوز أن يكون مع الخوالف : المتخلفات في المنازل . ويجوز أن يكون : مع المخالفات العاصيات . ويجوز أن يكون : مع النساء العجزة اللاتي لا مدافعة عندهن .

والقول الثاني : أن الخوالف : خساس الناس وأدنياؤهم ؛ يقال : فلان خالفة أهله : إذا كان دونهم ، ذكره ابن قتيبة ؛ فأما « طَبَع » ، فقال أبو عبيدة : معناه : ختم . و « الخيرات » جمع خَيْرة . وللمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الفاضلات من كل شيء ، قاله أبو عبيدة . والثاني : الجواري الفاضلات ، قاله المبرِّد . والثالث : غنائم الدنيا ومنافع الجهاد ، ذكره الماوردي .

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وجاء المعذِّرون) وقرأ ابن مسعود : « المتعذرون » . وقرأ ابن

عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن يعمر ، ويعقوب « المُعْذِرون » بسكون العين وتخفيف الذال . وقرأ ابن السميفع « المعاذرون » بألف . قال أبو عبيدة : المعذّرون من يعذّر وليس بجادّ ، وإنما يعرّض بما لا يفعله ، أو يُظهر غير ما في نفسه . وقال ابن قتيبة : يقال : عذَّرتُ في الأمر : إذا قصَّرتَ ، وأعذرتُ : جَدَدْتَ . وقال الزجاج : من قرأ « المعذّرون » بتشديد الذال ، فتأويله : المتذرون الذين يعتذرون ، كان لهم عذر ، أو لم يكن ، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر ، وأنشدوا :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا
ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فَقَدِ اعْتَذَرْ [1]

أي : فقد جاء بعذر . ويجوز أن يكون « المعذّرون » الذين يعذّرون ، يوهمون أن لهم عذراً ، ولا عذر لهم . ويجوز في النحو : المِعِذّرون ؛ بكسر العين ، والمُعُذّرون ؛ بضم العين ، غير أنه لم يُقرأ بهما ، لأن اللفظ بهما يثقل . ومن قرأ « المعْذرون » بتسكين العين ، فتأويله : الذين أُعذروا وجاؤوا بعذر . وقال ابن الأنباري : المعذِّرون هاهنا : المعتذرون بالعذر الصحيح . وأصل الكلمة عند أهل النحو : المعتذرون ، فحوّلت فتحة التاء إلى العين ، وأبدلت الذال من التاء ، وأدغمت في الذال التي بعدها ، فصارتا ذالاً مشددة . ويقال في كلام العرب : اعتذر : إذا جاء بعذر صحيح ، وإذا لم يأت بعذر . قال الله تعالى : (قل لا تعتذروا) فدل على فساد العذر ، وقال لبيد :

وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرَ

(١) البيت للبيد ديوانه ٢١٤ و « مجاز القرآن » ١/١٦ ، و « الطبري » ١/١١٩ ، و « الأغاني » ١٤/٩٨ ، و « مشكل القرآن » ١٩٨ ، و « رسالة الغفران » ٤٢٩ ، و « العقد الفريد » ١/٤٩ ، و « الخزانة » ٢/٢١٧ ، و « اللسان » عذر . وقوله اعتذر هنا ، بمعنى أعذر أي : بلغ أقصى الغاية في العذر .

أي : فقد جاء بعذر صحيح . وكان ابن عباس يقرأ « المعذِرون » ويقول : لعن الله المعذِّرين . يريد : لعن الله المقصّرين من المنافقين وغيرهم . والمعْذِرون : الذين يأتون بالعذر الصحيح ؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على قراءة من خفف . وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد ؟ فيه قولان .

قال المفسرون : جاء هؤلاء ليؤذَن لهم في التخلّف عن تبوك ، فأذن لهم رسول الله ﷺ ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علّة ، جرأةً على الله تعالى .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لايَجِدُونَ مَايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَاأَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاأَجِدُ مَاأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَايُنْفِقُونَ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ليس على الضعفاء) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدها : أنها نزلت في عائذ بن عمرو وغيره من أهل العذر ، قاله قتادة .

والثاني : في ابن مكتوم ، قاله الضحاك .

وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الزمنى والمشايخ الكبار ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنهم الصغار .

والثالث : المجانين ؛ سموا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماوردي . والصحيح أنهم الذين يضعفون لزَمانةٍ ، أو عمىً ، أو سِنٍّ ، أو ضَعف في الجسم. والمرضى : الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال ، و (الذين لايجدون) هم المُقِلّون ، والحرج : الضيق في القعود عن الغزو بشرط النصح لله ولرسوله ، وفيه وجهان .

أحدهما : أن المعنى : إذا برئوا من النفاق .

والثاني : إذا قاموا بحفظ الذراري والمنازل .

فان قيل بالوجه الأول ، فهو يعم جميع المذكورين . وإن قيل بالثاني ، فهو يخص المقلّين . وإنما شُرط النصح ، لأن من تخلف بقصد السعي بالفساد ، فهو مذموم ؛ ومن النصح لله : حث المسلمين على الجهاد ، والسعي في إصلاح ذات بينهم ، وسائر مايعود باستقامة الدين .

قوله تعالى : (ماعلى المحسنين من سبيل) أي : من طريق بالعقوبة ، لأن المحسن قد سد باحسانه باب العقاب .

قوله تعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت في البكّائين ، واختُلف في عددهم وأسمائهم ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هم ستة : عبد الله ابن مغفَّل ، وصخر بن سلمان ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وعُلَيَّة بن زيد الأنصاري ، وسالم بن عُمير ، وثعلبة بن عنمة [1] ، أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم ، فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » فانصرفوا باكين [2] . وقد ذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي مكان صخر بن سلمان : سلمة بن صخر ، ومكان ثعلبة بن عنمة :

(١) ضبطه الحافظ في « الاصابة » بالعين المهملة ، كما في الأصل ، وفي الطبري بالغين المعجمة .

(٢) سيرة ابن هشام ٥١٨/٢ ، بنحوه والسيوطي في « الدر » ٢٦٧/٢ .

عمرو بن عنمة . قال : وقيل منهم معقل بن يسار . وروى أبو إسحاق عن أشياخ له أن البكّائين سبعة من الأنصار : سالم بن عُمير ، وعُلَيَة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن الحُمام بن الجموح ، وعبد الله بن مغفّل . وبعض الناس يقول : بل ،عبد الله بن عمرو المزني ، وعِرباض بن سارية ، وهرميّ ابن عبد الله أخو بني واقف . وقال مجاهد : نزلت في بني مقرّن ، وهم سبعة ؛ وقد ذكرهم محمد بن سعد ، فقال : النعمان بن عمرو بن مقرن . وقال أبو خيثمة : هو النعمان بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، ومعقل بن مقرّن ، وسنان بن مقرّن ، وعقيل بن مقرّن ، وعبد الرحمن بن مقرن ، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن . وقال الحسن البصري : نزلت في أبي موسى وأصحابه .

وفي الذي طلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الدواب ، قاله ابن عباس . والثاني : الزاد ، قاله أنس بن مالك . والثالث : النعال ، قاله الحسن .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (يعتذرون إليكم) قال ابن عباس : نزلت في المنافقين ، يعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوة تبوك ، فلا تعذروهم فليس لهم عذر . فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ، فقال الله تعالى : (قل لا تعتذروا) لن نصدقكم ، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر (وسيرى الله عملكم ورسوله) إن عملتم خيراً وتبتم من

تخلّفكم (ثم تُردُّون) بعد الموت (إلى عالم الغيب والشهادة) فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية .

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (سيحلفون بالله لكم) قال مقاتل : حلف منهم بضعة وثمانون رجلاً ، منهم جَدّ بن قيس ، ومُعتِّب بن قشير .

قوله تعالى : (لتعرضوا عنهم) فيه قولان .

أحدهما : لتصفحوا عن ذنبهم .

والثاني : لأجل إعراضكم . وقد شرحنا في (المائدة : ٩٠) معنى الرجس .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (يحلفون لكم لترضَوْا عنهم) قال مقاتل : حلف عبد الله بن أُبيّ للنبي ﷺ : لا أتخلّف عنك ، ولأكونَنّ معك على عدوّك ؛ وطلب منه أن يرضى عنه ، وحلف عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعمر بن الخطاب ، وجعلوا يترضّون النبي ﷺ وأصحابه ، وكان رسول الله ﷺ قال لما قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلّموهم »[(١)] .

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

---

(١) خرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٦٨ ، من طريق ابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، عن السدي بنحوه .

قوله تعالى : (الأعراب أشد كفراً) قال ابن عباس : نزلت في أعاريب أسد وغطفان وأعراب من حول المدينة ، أخبر الله أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل المدينة ، لأنهم أقسى وأجفى من أهل الحضر .

قوله تعالى : (وأجدر ألا يعلموا) قال الزجاج : « أن » في موضع نصب ، لأن الباء محذوفة من « أن » ، المعنى : أجدر بترك العلم . تقول : جدير أن تفعل ، وجدير بأن تفعل ، كما تقول : أنت خليق بأن تفعل ، أي : هذا الفعل ميسَّر فيك ، فاذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ«أن» ، وإن أتيت بالباء ، صلح بـ « أن » وغيرها ، فتقول : أنت جدير بأن تقوم ، وجدير بالقيام . فاذا قلت : أنت جديرٌ القيامَ ، كان خطأً ، وإنما صلح مع « أن » لأن « أن » تدل على الاستقبال ، فكأنها عوض من المحذوف . فأما قوله : (حدودَ ما أنزل الله) فيعني به الحلال والحرام والفرائض . وقيل : المراد بالآية أن الأعم في العرب هذا .

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَايُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الأعراب من يتخذ ماينفق) إذا خرج في الغزو ، وقيل : مايدفعه من الصدقة (مَغْرماً) لأنه لايرجوله ثواباً . قال ابن قتيبة : المغرم : هو الغُرم والخُسر . وقال ابن فارس : الغُرم : مايلزم أداؤه ، والغرام : اللازم ، وسمي الغريم لإلحاحه . وقال غيره : الغرم : التزام مالا يلزم .

قوله تعالى : (ويتربَّص) أي : وينتظر (بكم الدوائر) أي : دوائر الزمان بالمكروه ، بالموت ، أو القتل ، أو الهزيمة . وقيل : ينتظر موت الرسول ﷺ ، وظهور المشركين .

قوله تعالى : (عليهم دائرة السوء) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بضم السين .

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «السَّوء» بفتح السين؛ وكذلك قرؤوا في سورة (الفتح : ٦)، والمعنى: عليهم يعود ماينتظرونه لك من البلاء. قال الفراء: وفتح السين من السَّوء هو وجه الكلام. فمن فتح، أراد المصدر من: سُؤْتُه سَوْءاً ومَساءَةً. ومن رفع السين، جعله اسماً، كقولك: عليهم دائرة البلاء والعذاب. ولا يجوز ضم السين في قوله: (ماكان أبوكِ امرأ سَوْءٍ) [مريم: ٢٨] ولا في قوله: (وظننتم ظن السَّوء) [الفتح: ١٢] لأنه ضدٌّ لقولك: رجُلُ صِدْق. وليس للسوء هاهنا معنى في عذاب ولا بلاء، فيضم.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَايُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى: (ومن الأعراب من يؤمن بالله) قال ابن عباس: وهم من أسلم من الأعراب، مثل جُهينة، وأسلم، وغِفار.

وفي قوله: (ويتخذ ماينفق) قولان.

أحدهما: في الجهاد. والثاني: في الصدقة. فأما القربات، فجمع قُربة، وهي: مايقرِّب العبدَ من رضى الله ومحبته. قال الزجاج: وفي القربات ثلاثة أوجه: ضم الراء، وفتحها، وإسكانها. وفي المراد بصلوات الرسول قولان.

أحدهما: استغفاره، قاله ابن عباس.

والثاني: دعاؤه، قاله قتادة، وابن قتيبة، والزجاج، وأنشد الزجاج:

عليكِ مثلُ الذي صلَّيتِ فاغتَمِضِي نَوْماً، فانَّ لِجَنْبِ المرْءِ مضطَجَعا[1]

---

(١) البيت لأعشى قيس من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي، ديوانه ١٠١ واللسان: صلى.

قال : إن شئتَ قلتَ : مثلَ الذي، ومثلُ الذي ؛ فالأول أمرٌ لها بالدعاء، كأنه قال : ادعي لي مثل الذي دعوتِ . والثاني بمعنى : عليكِ مثلُ هذا الدعاء .

قوله تعالى : (ألا إنها قُرْبَةٌ لهم) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي : « قربةٌ لهم » خفيفة . وروى ورش، وإسماعيل ابن جعفر عن نافع، وأبان، والمفضل عن عاصم : « قُرُبَةٌ لهم » بضم الراء .

وفي المشار إليها وجهان .

أحدهما : أن الهاء ترجع إلى نفقتهم وإيمانهم والثاني : إلى صلوات الرسول .

قوله تعالى : (سيدخلهم الله في رحمته) قال ابن عباس : في جنته .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (والسابقون الأوَّلون) فيهم ستة أقوال .

أحدها : أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ ، قاله أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين، وقتادة .

والثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، وهي الحديبية، قاله الشعبي .

والثالث : أنهم أهل بدر، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، حصل لهم السبق بصحبته . قال محمد بن كعب القرظي : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله : (والسابقون الأولون) .

والخامس : أنهم السابقون بالموت والشهادة ، سبقوا إلى ثواب الله تعالى ، ذكره الماوردي .

والسادس : أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : (من المهاجرين والأنصار) قرأ يعقوب : « والأنصارُ » برفع الراء .

قوله تعالى : (والذين اتَّبعوهم باحسان) من قال : إن السابقين جميع الصحابة ، جعل هؤلاء تابعي الصحابة ، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : والذين اتَّبعوهم باحسان إلى أن تقوم الساعة . ومن قال : هم المتقدمون من الصحابة ، قال : هؤلاء تبعوهم في طريقهم ، واقتدَوْا بهم في أفعالهم ، ففضِّل أولئك بالسبق ، وإن كانت الصحبة حاصلة للكل . وقال عطاء : اتباعهم إياهم باحسان : أنهم يذكرون محاسنهم ويترحَّمون عليهم .

قوله تعالى : (تجري تحتَها الأنهار) قرأ ابن كثير : « من تحتها » فزاد « من » وكسر التاء الثانية .

قوله تعالى : (رضي الله عنهم) يعم الكل . قال الزجاج : رضي الله أفعالهم ، ورضوا ماجازاهم به .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون) قال ابن عباس : مُزَينة ، وجُهَينة ، وأسلَم ، وغِفار ، وأشجع ، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون . قال مقاتل : وكانت منازلهم حول المدينة .

قوله تعالى : (ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق) قال ابن عباس : مرنوا عليه وثبتوا ، منهم عبد الله بن أُبَيّ ، وجَدّ بن قيس ، والجلاس ، ومعتِّب ،

ووَحْوَح ، وأبو عامر الراهب . وقال أبو عبيدة : عَتَوْا ومَرَنُوا عليه ، وهو من قولهم : تمرَّد فلان ، ومنه : شيطان مريد .

فان قيل : كيف قال : (ومن أهل المدينة مردوا) ، وليس يجوز في الكلام : من القوم قعدوا ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدهن : أن تكون « من » الثانية مردودة على الأولى ؛ والتقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، ثم استأنف « مردوا » .

والثاني : أن يكون في الكلام « مَنْ » مضمر ، تقديره : ومن أهل المدينة مَنْ مردوا ؛ فأُضمرت « مَنْ » ، لدلالة « مِنْ » عليها ، كقوله : (وما مِنَّا إلا له مقام معلوم) [الصافات : ١٦٤] يريد : إلا مَنْ له مقام معلوم ؛ وعلى هذا ينقطع الكلام عند قوله : « منافقون » .

والثالث : أن « مَرَدُوا » متعلق بمنافقين ، تقديره : ومِنْ أهل المدينة منافقون مَرَدُوا ، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري .

قوله تعالى : (لاتعلمهم) فيه وجهان .

أحدها : لاتعلمهم أنت حتى نُعْلِمَكَ بهم . والثاني : لاتعلم عواقبهم .

قوله تعالى : (سنعذِّبهم مرتين) فيه عشرة أقوال .

أحدها : أن العذاب الأول في الدنيا ، وهو فضيحتهم بالنفاق ، والعذاب الثاني : عذاب القبر ، قاله ابن عباس . قال : وقام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً ، فقال « يافلان اخرج فانك منافق ، ويافلان اخرج »[1] ففضحهم .

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٤١ - ٤٤٢ وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٧/٣٣ ، وقال : رواه الطبراني في « الأوسط » ، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي ، وهو ضعيف . وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه .

والثاني : أن العذاب الأول : إقامة الحدود عليهم ، والثاني : عذاب القبر ؛ وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن أحد العذابين : الزكاة التي تؤخذ منهم ، والآخر : الجهاد الذي يُؤْمَرون به ، قاله الحسن .

والرابع : الجوع ، وعذاب القبر ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال أبو مالك .

والخامس : الجوع والقتل ، رواه سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسادس : القتل والسبي ، رواه معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد . وقال ابن قتيبة : القتل والأسر .

والسابع : أنهم عُذّبوا بالجوع مرتين ، رواه خُصَيف عن مجاهد .

والثامن : أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، وفي الآخرة بالنار ، قاله ابن زيد .

والتاسع : أن الأول : عند الموت ، تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، والثاني : في القبر بمنكر ونكير ، قاله مقاتل بن سليمان .

والعاشر : أن الأول بالسيف ، والثاني عند الموت ؛ قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : (ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم) يعني عذاب جهنم .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدها : أنهم عشرة رهط تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما

دنا رجوع رسول الله ﷺ ، أوثق سبعةٌ منهم أنفسَهم بسواري المسجد . فلما رآهم رسول الله ﷺ ، قال « مَن هؤلاء » ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلّفوا عنك ، فأقسموا بالله لايطلقون أنفسهم حتى تطلقهم أنت وتعذرهم ، فقال « وأنا أقسم بالله لأطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين » فنزلت هذه الآية [(١)] ، فأرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وروى العوفي عن ابن عباس أن الذين تخلفوا كانوا ستة ، فأوثق أبو لبابة نفسه ورجلان معه ، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم فلما نزلت هذه الآية ، أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم [(٢)] . وروى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس ابن ثعلبة ، ووديعة بن خِذام الأنصاري . وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وزيد ابن أسلم : كانوا ثمانية . وقال قتادة : ذُكر لنا أنهم كانوا سبعة .

والثاني : أنها نزلت في أبي لبابة وحده . واختلفوا في ذنبه على قولين .

أحدها : أنه خان الله ورسوله باشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبح ، وهذا قول مجاهد [(٣)] ، وقد شرحناه في (الأنفال : ٢٧) .

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٤٧-٤٤٨ و « أسباب النزول » للواحدي ١٤٨ وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٧٢ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » ١٤/٤٤٨-٤٤٩ والسيوطي في « الدر » ٣/٢٧٣ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٣) « الطبري » ١٤/٤٥١ ، والسيوطي في « الدر » ٣/٢٧٢ ، ونسبه لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في « الدلائل » عن مجاهد مختصراً . وعن سعيد ابن المسيب مطولا ونسبه للبيهقي .

والثاني : أنه تخلُّفه عن تبوك [1] ، قاله الزهري . فأما الاعتراف ، فهو الاقرار بالشيء عن معرفة . والاعتراف بالذنب أدعى إلى صدق التوبة والقبول .

قوله تعالى : (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) قال ابن جرير : وُضع الواوُ مكان الباء ، والمعنى : بآخر سيء ، كما تقول : خلطت الماءَ واللبن .

وفي ذلك العمل قولان .

أحدهما : أن العمل الصالح : ماسبق من جهادهم ، والسيء : التأخر عن الجهاد ، قاله السدي .

والثاني : أن العمل الصالح : توبتهم ، والسيء : تخلُّفهم ، ذكره الفراء .

وفي قوله : « عسى » قولان .

أحدهما : أنه واجب من الله تعالى ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق ، وذلك يصد عن اللهو والإهمال .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة) قال المفسرون : لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه ، قالوا : يارسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، فقال

---

(١) « الطبري » ٤٥٢/١٤ ، وقال : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال : نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد معه ، والخروج لغزو الروم حين شخص الى تبوك ، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة ، أحدهم أبو لبابة . وقال ابن كثير ٣٨٥/٢ ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلّطين المتلوثين .

« ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً » فنزلت هذه الآية (١) .

« وفي هذه الصدقة » قولان .

أحدها : أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً ، قاله ابن زيد ، والجمهور . والثاني : الزكاة ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : (تطهرهم) وقرأ الحسن « تطهرْهم بها » بجزم الراء . قال الزجاج : يصلح أن يكون قوله « تطهرهم » نعتاً للصدقة ، كأنه قال : خذ من أموالهم صدقة مطهِّرة . والأجود أن يكون للنبي ﷺ ، المعنى : فانك تطهرهم بها فـ « تطهرْهم » بالجزم ، على جواب الأمر ، المعنى : إن تأخذ من أموالهم ، تطهرْهم . ولا يجوز في « تُزكّيهم » إلا إثبات الياء ، اتّباعاً للمصحف . قال ابن عباس : « تطهرهم » من الذنوب ، « وتزكيهم » : تصلحهم . وفي قوله : (وصلّ عليهم) قولان .

أحدها : استغفر لهم ، قاله ابن عباس . والثاني : ادع لهم ، قاله السدي .

قوله تعالى : (إن صلواتك) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم « إن صلواتك » على الجمع . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم « إن صلاتك » على التوحيد . وفي قوله : (سكنٌ لهم) خمسة أقوال .

أحدها : طمأنينة لهم أن الله قد قَبِلَ منهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : تثبيت وسكون . والثاني : رحمة لهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : قُرْبَةٌ لهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والرابع : وَقَارٌ لهم ، قاله قتادة . والخامس : تزكية لهم ، حكاه الثعلبي . قال الحسن ، وقتادة : وهؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلّفوا .

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٥٤ - ٤٥٥ .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة) قرأ الجمهور « يعلموا » بالياء . وروى عبد الوارث « تعلموا » بالتاء . وقوله : (يقبل التوبة عن عباده) قال أبو عبيدة : أي : من عَبيده ، تقول : أخذته منك ، وأخذته عنك .

قوله تعالى : (ويأخذ الصدقات) قال ابن قتيبة : أي : يقبلها . ومثله (خذ العفو) [الاعراف : ١٩٩] أي : اقبله .

قوله تعالى : (وقل اعملوا) قال ابن زيد : هذا خطاب للذين تابوا .

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وآخرون مرجَؤُن) وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي « مرجَوْن » بغير همز . والآية نزلت في كعب بن مالك ، ومُرارةَ بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر ، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري ؛ فوقف رسول الله ﷺ أمرهم ، ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزل قوله : (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا) [التوبة : ١١٨] . قال الزجاج : « وآخرون » عطف على قوله : « ومن أهل المدينة » ، فالمعنى : منهم منافقون ، ومنهم (آخرون مرجَوْن) أي : مؤخَّرون ؛ و « إما »

لوقوع أحد الشيئين ، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم ، لكنه خاطب العباد بما يعلمون ، فالمعنى : ليكن أمرهم عندكم على الخوف والرجاء .

قوله تعالى : (والله عليم حكيم) أي : عليم بما يؤول إليه حالهم ، حكيم بما يفعله بهم .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذين اتخذوا مسجداً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « والذين » بواو ، وكذلك هي في مصاحفهم . وقرأ نافع ، وابن عامر : « الذين » بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام . قال أبو علي : من قرأ بالواو ، فهو معطوف على ماقبله ، نحو قوله : (ومنهم من عاهد الله) [التوبة : ٧٥] ، (ومنهم من يلمزك) [التوبة : ٥٨] ، (ومنهم الذين يؤذون النبي) [التوبة : ٦١] ، والمعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً . ومن حذف الواو ، فعلى وجهين .

أحدهما : أن يضمر ـ ومنهم الذين اتخذوا ـ كقوله : أكفرتم ، المعنى : فيقال لهم : أكفرتم .

والثاني : أن يضمر الخبر بعدُ ، كما أُضمر في قوله : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) [الحج : ٢٥] ، المعنى : يُنتقم منهم ويعذَّبون . قال أهل التفسير : لما اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجد قُباء ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ ، فأتاهم ، فصلى فيه ؛ حسدهم إخوتهم بنو غَنْم بن عَوف ، وكانوا من منافقي الأنصار ، فقالوا : نبني مسجداً ، ونرسل إلى رسول الله فيصلي

فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ؛ وكان أبو عامر قد ترهَّب في الجاهلية وتنصَّر ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، عاداه ، فخرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن أعدُّوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً ، فاني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء ؛ وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خِذام بن خالد ومِن داره أُخرج المسجد ، ونَبْتَل بن الحارث ، وبِجاد بن عثمان ، وثعلبة بن حاطب ، ومُعتِّب بن قشير ، وعبَّاد بن حُنَيف ، ووديعة بن ثابت ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وجارية بن عامر ، وابناه يزيد [1] ومُجمِّع ؛ وكان مُجمِّع إمامهم فيه ، ثم صلحت حاله ، وبحزج جد عبد الله بن حنيف ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : « ما أردتَ بما أرى » ؟ فقال : والله ما أردت إلا الحسنى ، وهو كاذب . وقال مقاتل : الذي حلف مُجمِّع . وقيل : كانوا سبعة عشر ؛ فلما فرغوا منه ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا قد ابتنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصليَ فيه ؛ فدعى بقميصه ليلبسه ، فنزل عليه القرآن وأخبره الله خبرهم ، فدعا معن بن عدي ، ومالك بن الدُّخشُم في آخرين ، وقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرِقوه » ، وأمر به رسول الله ﷺ أن يُتخذ كُناسة تُلقى فيها الجيف [2] . ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً .

فأما التفسير ، فقال الزجاج : « الذين » في موضع رفع ، المعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً . و « ضراراً » انتصب مفعولاً له ، المعنى : اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد . فلما حذفت اللام ، أفضى الفعل فنَصب . قال المفسرون :

(١) كذا الأصل يزيد ، والذي في الطبري وسيرة ابن هشام ، وابن كثير ، و « الدر » : « زيد » .

(٢) « الطبري » ١٤/٤٦٨ ، وأورده السيوطي بنحوه في « الدر » ٣/٢٧٧ .

والضرار بمعنى المُضارّة لمسجد قباء ، (وكفراً) بالله ورسوله (وتفريقاً بين المؤمنين) لأنهم كانوا يصلّون في مسجد قباء جميعاً ، فأرادوا تفريق جماعتهم ، والإرصاد : الانتظار ، فانتظروا به مجيء أبي عامر ، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار . (وليحلفُنَّ إن أردنا) أي : ما أردنا (إلا الحسنى) أي : ما أردنا بابتنائه إلا الحسنى ؛ وفيها ثلاثة أوجه .

أحدها : طاعة الله . والثاني : الجنة . والثالث : فعل التي هي أحسن من إقامة الدين والاجتماع للصلاة . وقد ذكرنا اسم الحالف .

﴿ لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

قوله تعالى : (لا تقم فيه) أي : لا تصلِّ فيه أبداً . (لمسجد أُسِّس على التقوى) أي : بني على الطاعة ، وبناه المتقون (من أول يوم) أي : منذ أول يوم . قال الزجاج : « مِنْ » في الزمان ، والأصل : منذ ومذ ، وهو الأكثر في الاستعمال . وجائز دخول « من » لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض ، ومثله قول زهير :

لِمَنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرِ [1]

وقيل : معناه : مِن مَرّ حِجج ومِن مَرّ شهر . وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الذي فيه منبره وقبره . روى سهل بن سعد أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على

(١) ديوانه ٨٦ و « مختار الشعر الجاهلي » ٢٦٣ وروى الأصمعي : ومن دهر . قوله : من شهر ، أراد : من شهور . وأقوين : خلون . والقنة : أعلى الجبل ، أو هي الجبل الذي ليس بمنتشر .

التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فذُكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال « هو مسجدي هذا »[١] وبه قال ابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، وسعيد بن المسيب .

والثاني : أنه مسجد قباء ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وعروة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، والضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنه كل مسجد بني في المدينة ، قاله محمد بن كعب .

قوله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) سبب نزولها أن رجالاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت هذه الآية ، قاله الشعبي[٢] . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ، أتاهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذي أثنى الله به عليكم » فقالوا : إنا نستنجي بالماء[٣] . فعلى هذا ، المراد به الطهارة بالماء . وقال أبو العالية : أن يتطهروا من الذنوب .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (أفمن أسس بنيانه) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ،

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٧٩ ، وأحمد في « المسند » ٥/٣٣١ ، ومسلم ٢/١٠١٥ بنحوه وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٧/٣٤ ، وقال : رواه كلَّه أحمد ، والطبراني باختصار ، ورجالها رجال الصحيح .

(٢) « الطبري » ١٤/٤٨٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٧٨ .

(٣) السيوطي في « الدر » ٣/٢٧٨ ، بنحوه ، ونسبه للطبراني ، وأبي الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه .

والكسائي « أسس » بفتح الألف في الحرفين جميعاً وفتح النون فيهما . وقرأ نافع ، وابن عامر « أُسس » بضم الألف « بنيانُه » برفع النون . والبنيان مصدر يراد به المبني . والتأسيس : إحكام أس البناء ، وهو أصله ، والمعنى : المؤسِّس بنيانه متقياً يخاف الله ويرجو رضوانه خير ، أم المؤسس بنيانه غير متق ؟ . قال الزجاج : وشفا الشيء : حرفُه وحدُّه . والشفا مقصور ، يكتب بالألف ، ويثنى شفوان .

قوله تعالى : (جرف) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي « جُرُف » مثقّلاً . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « جُرْف » ساكنة الراء . قال أبو علي : فالضم الأصل ، والإسكان تخفيف ، ومثله : الشُّغُل والشُّغْل . قال ابن قتيبة : المعنى : على حرف جرف هائر . والجرف : مايتجرف بالسيول من الأودية . والهائر : الساقط . ومنه : تهوَّر البناء وانهار : إذا سقط . وقرأ ابن كثير ، وحمزة « هار » بفتح الهاء . وأمال الهاء نافع ، وأبو عمرو . وعن عاصم كالقراءتين .

قوله تعالى : (فانهار به) أي : بالباني (في نار جهنم) . قال الزجاج : وهذا مثل ، والمعنى : أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهوَّر بأهله فيها . وقال قتادة : ذُكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة ، فرؤي فيها الدخان . قال جابر : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان .

﴿ لَايَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لايزال بنيانهم) يعني : مسجد الضرار (الذي بَنَوْا ريبة في قلوبهم) وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : شكاً ونفاقاً ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : حسرة وندامة ، لأنهم ندموا على بنائه ، قاله ابن السائب ومقاتل .

والثالث : أن المعنى : لايزال هدم بنيانهم حزازة وغيظاً في قلوبهم ، قاله السدي ، والمبرِّد .

قوله تعالى : (إلا أن تقطَّع قلوبهم) قرأ الأكثرون : « إلا » وهو حرف استثناء . وقرأ يعقوب « إلى أن » فجعله حرف جر . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تُقَطَّع » بضم التاء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : « تَقَطَّع » بفتح التاء ثم في المعنى قولان .

أحدهما : إلا أن يموتوا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة في آخرين .

والثاني : إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ، ذكره الزجاج .

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم) سبب نزولها أن الأنصار لما بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً ، قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم » ، قالوا : فاذا

فعلنا ذلك ، فما لنا ؟ قال: « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لانقيل ولا نستقيل ، فنزلت (إن الله اشترى ...) الآية ، قاله محمد بن كعب القرظي [1] . فأما اشتراء النفس ، فبالجهاد .

وفي اشتراء الأموال وجهان . أحدهما : بالإنفاق في الجهاد . والثاني : بالصدقات . وذِكْرُ الشراء ها هنا مجاز ، لأن المشتري حقيقة هو الذي لا يملك المشترى ، فهو كقوله : (من ذا الذي يُقرض الله) [البقرة : ٢٤٥] . والمراد من الكلام أن الله أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم عن ذلك بالجنة ، فعبَّر عنه بالشراء لِما تضمن من عوض ومعوض . وكان الحسن يقول : لا والله ، إنْ في الدنيا مؤمن إلا وقد أُخذت بيعته . وقال قتادة : ثامَنَهم والله فأغلى لهم .

قوله تعالى : (فيَقتُلون ويُقتَلون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم « فيَقتُلون ويُقتَلون » فاعل ومفعول . وقرأ حمزة ، والكسائي « فيُقتَلون ويَقتُلون » مفعول وفاعل . قال أبو علي : القراءة الأولى بمعنى أنهم يَقتُلون أولاً ويُقتَلون ، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى كالأولى ، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم ؛ فان لم يقدَّر فيه التقديم ، فالمعنى : يقتُل من بقي منهم بعد قتل من قُتل ، كما أن قوله : (فما وهنوا لما أصابهم) [آل عمران: ١٤٦] ماوهن من بقي بِقَتْلِ من قُتل . ومعنى الكلام : إن الجنة عِوض عن جهادهم ، قَتَلوا أو قُتلوا . (وعداً عليه) قال الزجاج : نصب « وعداً » بالمعنى ، لأن معنى قوله (بأن لهم الجنة) : (وعداً عليه حقاً) ، قال : وقوله : (في التوراة والإنجيل) يدل على أن أهل كل ملة أُمروا بالقتال ووُعدوا عليه الجنة .

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٩٩ ، والسيوطي في « الدر » ٣/٢٨٠ .

قوله تعالى : (ومن أوفى) أي : لا أحد أوفى بما وعد (من الله) . (فاستبشروا) أي : فافرحوا بهذا البيع .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (التائبون) سبب نزولها : أنه لما نزلت التي قبلها ، قال رجل : يارسول الله ، وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . قال الزجاج : يصلح الرفع هاهنا على وجوه . أحدها : المدح ، كأنه قال : هؤلاء التائبون ، أو هم التائبون . ويجوز أن يكون على البدل ، والمعنى : يقاتل التائبون ؛ فهذا مذهب أهل اللغة ، والذي عندي أنه رفعٌ بالابتداء ، وخبره مضمر ، المعنى : التائبون ومن ذُكر معهم لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا إذا لم يقصدوا ترك الجهاد ولا العناد ، لأن بعض المسلمين يجزىء عن بعض في الجهاد .

وللمفسرين في قوله : « التائبون » قولان . أحدهما : الراجعون عن الشرك والنفاق والمعاصي . والثاني : الراجعون إلى الله في فعل ما أُمر واجتناب ماحظر .

وفي قوله : (العابدون) ثلاثة أقوال . أحدها : المطيعون لله بالعبادة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : المقيمون الصلاة ، قاله الضحاك عن ابن عباس . والثالث : الموحِّدون ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : (الحامدون) قال قتادة : يحمدون الله على كل حال .

وفي السائحين أربعة أقوال .

أحدها : الصائمون ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة في آخرين . قال الفراء : ويرى أهل النظر أن الصائم إنما سمي سائحاً تشبيهاً بالسائح ، لأن السائح لازاد معه ؛ والعرب تقول للفرس إذا كان قائماً لاعلف بين يديه : صائم ، وذلك أن له قوتين ، غدوة وعشية ، فشُبه به صيام الآدمي لتسحُّره وإفطاره . والثاني : أنهم الغزاة ، قاله عطاء . والثالث : طلاب العلم ، قاله عكرمة . والرابع : المهاجرون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (الراكعون الساجدون) يعني في الصلاة . (الآمرون بالمعروف) وهو طاعة الله . (والناهون عن المنكر) وهو معصية الله .

فان قيل : ماوجه دخول الواو في قوله : « والناهون » ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الواو إنما دخلت هاهنا لأنها الصفة الثامنة ، والعرب تعطف بالواو على السبعة ، كقوله : (وثامنهم كلبهم) [الكهف : ٢٢] وقوله في صفة الجنة : (وفتحت أبوابها) [الزمر : ٧٣] ، ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أن الواو إنما دخلت على الناهين لأن الآمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره ، فكان دخول الواو دلالة على أن الأمر بالمعروف لاينفرد دون النهي عن المنكر كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين ، والسائحون بالسياحة دون الحامدين في بعض الأحوال والأوقات .

قوله تعالى : (والحافظون لحدود الله) قال الحسن : القائمون بأمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ ، وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : « أي عم ، قل معي : لا إله إلا الله ، أحاجُّ لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فلم يزالا يكلّمانه ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : أنا على ملّة عبد المطّلب . فقال النبي ﷺ « لأستغفرن لك مالم أُنه عنك » ، فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا ...) الآية ، ونزلت (إنك لا تهدي من أحببت) [القصص:٥٦] ، أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه [١] . وقيل : إنه لما مات أبو طالب ، جعل النبي ﷺ يستغفر له ، فقال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا ، وقد استغفر ابراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ؟ فاستغفروا للمشركين ، فنزلت هذه الآية . قال أبو الحسين بن المنادي [٢] : هذا لا يصح ، إنما قال النبي ﷺ لعمه « لأستغفرن لك مالم أُنه عنك » قبل أن يموت ،

(١) « الطبري » ١٤/ ٥١٠ ، وأحمد في « المسند » ٥/٤٣٣ ، والبخاري ٣/١٧٦ - ١٧٧ ، و ٨/٢٥٨ و ٨/٣٨٩ ، ومسلم ١/٢١٣ - ٢١٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٨٢ وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) هو أحمد بن جعفر بن محمد أبو الحسين بن المنادي (٢٥٦ - ٣٣٦ هـ) عالم بالتفسير والحديث من أهل بغداد . قال ابن الجوزي : من وقف على مصنفاته علم فضله واطلاعه ، ووقف على فوائد لا توجد في غير كتبه ، جمع بين الرواية والدراية ، ولا حشو في كلامه ، آخر من روى عنه محمد بن فارس اللغوي ، من كتبه « اختلاف العدد » و « دعاء أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والعاهات » .

وهو في السياق ، فأما أن يكون استغفر له بعد الموت ، فلا ، فانقلب ذلك على الرواة ، وبقي على انقلابه .

والثاني : أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أمه آمنة ، فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم بكى ، فبكى الناس لبكائه ، ثم انصرف إليهم ، فقالوا : ما الذي أبكاك ؟ فقال : « مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها ، فنُهيت ، فبكيت ، ثم عدت فصليت ركعتين ، واستأذنت ربي أن أستغفر لها ، فزُجرت زجراً ، فأبكاني » ، ثم دعا براحلته فركبها ؛ فما سار إلا هُنَيأة ، حتى قامت الناقة لثقل الوحي ؛ فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا) والآية التي بعدها ، رواه بريدة عن رسول الله ﷺ [١] .

والثالث : أن رجلاً استغفر لأبويه ، وكانا مشركين ، فقال له علي بن أبي طالب : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أولم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكر ذلك عليّ للنبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، رواه أبو الخليل عن عليّ عليه السلام [٢] .

والرابع : أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يانبي الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا

---

(١) « الطبري » ١٤/٥١٢ مختصراً ، وأحمد في « مسنده » ٥/٣٥٩ ، ومسلم ٢/٦٧١ ، بمعناه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٨٤ عن ابن مردويه .

(٢) « الطبري » ١٤/٥١٤ ، ٥١٥ ، وأحمد في « المسند » رقم ٧٧١ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٨٢ وزاد نسبته للطيالسي ، وابن أبي شيبة ، والترمذي ، والنسائي ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » والضياء في « المختارة » .

نستغفر لهم ؟ فقال : « بلى ، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إِبراهيم لأبيه » ، فنزلت هذه الآية ، وبيَّن عذر إِبراهيم ، قاله قتادة [1] . ومعنى قوله : (من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي : من بعد مابان أنهم ماتوا كفاراً .

قوله تعالى : (إِلا عن موعدة وعدها إِياه) فيه قولان .

أحدهما : أن إِبراهيم وعد أباه الاستغفار ، وذلك قوله : (سأستغفر لك ربي) [مريم : ٤٧] ، وما كان يعلم أن الاستغفار للمشركين محظور حتى أخبره الله بذلك .

والثاني : أن أباه وعده أنه إِن استغفر له آمن ؛ فلما تبيَّن لإِبراهيم عداوة أبيه لله تعالى بموته على الكفر ، ترك الدعاء له . فعلى الأول ، تكون هاء الكناية في « إِيَّاه » عائدة على آزر ، وعلى الثاني ، تعود على إِبراهيم . وقرأ ابن السميفع ، ومعاذ القارىء ، وأبو نهيك : « وعدها أباه » بالباء .

وفي الأوَّاه ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الخاشع الدَّعَّاء المتضرع ، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي ﷺ .

والثاني : أنه الدَّعَّاء ، رواه زِرّ عن عبد الله ، وبه قال عبيد بن عمير .

والثالث : الرحيم ، رواه أبو العبيد بن العامري عن ابن مسعود ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وأبو ميسرة .

والرابع : أنه الموقن ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك .

والخامس : أنه المؤمن ، رواه العوفي ، ومجاهد ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس .

---

(١) « الطبري » ١٤/٥١٣ .

والسادس : أنه المسبِّح ، رواه أبو إسحاق عن أبي ميسرة ، وبه قال سعيد ابن المسيب ، وابن جبير .

والسابع : أنه المتأوِّه لذِكر عذاب الله ، قاله الشعبي . قال أبو عبيدة : مجاز أوّاه مجاز فَعّال من التأوّه ، ومعناه : متضرِّع شفَقاً وفرَقاً ولزوماً لطاعة ربه ، قال المُثَقِّب :

إذا ماقمتُ أرحلُها بليل تأوَّهُ آهةَ الرجل الحزينِ [1]

والثامن : أنه الفقيه ، رواه ابن جريج عن مجاهد . فأما الحليم ، فهو الصفوح عن الذنوب .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَايَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قوله تعالى : (وما كان الله ليضل قوماً . . .) الآية ، سبب نزولها : أنه لما نزلت آية الفرائض ، وجاء النسخ ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل أمر القبلة والخمر ، ومات أقوام على ذلك ، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال قوم : المعنى أنه بيَّن أنه لم يكن ليأخذهم بالاستغفار للمشركين قبل تحريمه ، فاذا حرَّمه ولم يمتنعوا عنه ، فقد ضلوا . وقال ابن الأنباري : في الآية حذف واختصار ، والتأويل : حتى

(١) البيت في « الطبري » ١٤/٥٣٤ ، و « المفضليات » ٢٩١ ، و « مجاز القرآن » ١/٢٧٠ ، و « طبقات فحول الشعراء » ٢٣١ ، و « السمط » ٥٦ ، و« القرطبي » ٨/٢٧٦ ، و « اللسان » : أوه .

يتبين لهم مايتقون ، فلا يتقونه ، فعند ذلك يستحقون الضلال ؛ فحذف ما حذف لبيان معناه ، كما تقول العرب : أمرتك بالتجارة فكسبتَ الأموال ؛ يريدون : فتجرت فكسبت .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي) قال المفسرون : تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلّف . وقال أهل المعاني : هو مفتاح كلام ، وذلك أنه لما كان سببَ توبة التائبين ، ذُكر معهم ، كقوله : (فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول) [الانفال : ٤١] .

قوله تعالى : (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) قال الزجاج : هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك ، والمراد بساعة العسرة : وقت العسرة ، لأن الساعة تقع على كل الزمان ، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ ، والقوم في ضيقة شديدة ، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه ، وكانوا في فقر ، فربما اقتسم التمرة اثنان ، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر . وقيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل مابقي على كبده . فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً ، فادع لنا . قال : « تحب

ذلك » ؟ قال : نعم . فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى قالت السماء [١] ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت العسكر [٢] .

قوله تعالى : (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) قرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « كاد يزيغ » بالياء . وقرأ الباقون بالتاء . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : تميل إلى التخلف عنه ، وهم ناس من المسلمين همّوا بذلك ، ثم لحقوه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها ، ولم تزغ عن الإيمان ، قاله الزجاج .

والثالث : أن القلوب كادت تزيغ تلفاً بالجهد والشدة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ثم تاب عليهم) كرر ذكر التوبة ، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم ، فقدم ذكر التوبة فضلاً منه ، ثم ذكر ذنبهم ، ثم أعاد ذكر التوبة .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا) وقرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، والشعبي ، وابن يعمر : « خالفوا » بألف . وقرأ معاذ القارئ ، وعكرمة ، وحميد :

---

(١) قالت السماء ، أي ، أقبلت بالسحاب .

(٢) « الطبري » ١٤/٥٤١ ـ ٥٤٢ وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٦/١٩٤ ـ ١٩٥ وقال : رواه البزار والطبراني في « الاوسط » ، ورجال البزار ثقات . وذكره السيوطي في « الدر » ٣/٢٨٦ وزاد نسبته لابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي في « الدلائل » ، والضياء في « المختارة » .

« خَلَفُوا » بفتح الخاء واللام المخففة . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو العالية : « خَلَّفوا » بفتح الخاء واللام مع تشديدها . وهؤلاء هم المرادون بقوله : (وآخرون مُرجَوْنَ) وقد تقدَّمت أسماؤهم [التوبة : ١٠٦] . وفي معنى « خُلِّفوا » قولان .

أحدهما : خُلِّفوا عن التوبة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . فيكون المعنى : خُلِّفوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك .

والثاني : خُلِّفوا عن غزوة تبوك ، قاله قتادة . وحديثهم مندرج في توبة كعب بن مالك[1] ، وقد رويتها في كتاب « الحدائق » .

قوله تعالى : (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت) أي : ضاقت مع سَعَتها ، وذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم ، وأُمروا باعتزال أزواجهم ، وكان النبي ﷺ مُعرِضاً عنهم . (وضاقت عليهم أنفسهم) بالهمِّ والغمِّ . (وظنوا) أي : أيقنوا (أن لاملجأ) أي : لاممتصَم من الله ومن عذابه إلا هو . (ثم تاب عليهم) أعاد التوبة تأكيداً ، (ليتوبوا) قال ابن عباس : ليستقيموا . وقال غيره : وفَّقهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى مايبطلها . وسئل بعضهم عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الأرضُ ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبيه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلِّفين .

---

(١) حديث كعب بن مالك رواه البخاري : ٨/٨٦ ، ومسلم : ٤/٢١٢٠ .

والثاني : أنها في أهل الكتاب . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ وكونوا مع الصادقين .

وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال .

أحدها : أنه النبي ﷺ وأصحابه ، قاله ابن عمر .

والثاني : أبو بكر وعمر ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك . وقد قرأ ابن السميفع ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : « مع الصَّادِقَيْنِ » بفتح القاف وكسر النون على التثنية .

والثالث : أنهم الثلاثة الذين خُلِّفوا ،صدقوا النبي ﷺ عن تأخُّرهم ، قاله السدي .

والرابع : أنهم المهاجرون ،لأنهم لم يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد ، قاله ابن جريج . قال أبو سليمان الدمشقي : وقيل : إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة ، فقال : يامعشر الأنصار ، إن الله يقول في كتابه : (للفقراء المهاجرين الذين أُخرِجوا) إلى قوله : (أولئك هم الصادقون) [الحشر : ٨] من هم ؟ قالت الأنصار : أنتم هم . قال : فان الله تعالى يقول : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فأمركم أن تكونوا معنا ،ولم يأمرنا أن نكون معكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء .

والخامس : أنه عامّ ، قاله قتادة . و « مع » بمعنى : « مِنْ »،وكذلك هي في قراءة ابن مسعود : « وكونوا من الصادقين » .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً

إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) قال ابن عباس : يعني : مزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار ، (أن يتخلّفوا عن رسول الله) في غزوة غزاها ، (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدَّعة ورسول الله في الحرّ والمشقة . يقال : رغبت بنفسي عن الشيء : إذا ترفّعت عنه .

قوله تعالى : (ذلك) أي : ذلك النهي عن التخلّف (بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ) وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخمصة) وهي المجاعة (ولا ينالون من عدو نيلاً) أسراً أو قتلاً أو هزيمة ، فأعلمهم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك .

قوله تعالى : (ولا ينفقون نفقة صغيرة) قال ابن عباس : تمرة فما فوقها . (ولا يقطعون وادياً) مقبلين أو مدبرين (إلا كُتب لهم) أي : أُثبت لهم أجر ذلك . (ليجزيهم الله أحسن) أي : بأحسن (ما كانوا يعملون) .

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله : اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقالت طائفة : كان في أول الأمر لا يجوز التخلّف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل ؛ ثم نسخ ذلك بقوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافةً) [التوبة : ١٢٢] ؛

وقالت طائفة : فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي ﷺ ممن لاعذر له الخروج معه لشيئين .

أحدهما : أنه من الواجب عليهم أن يَقُوه بأنفسهم .

والثاني : أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدّين كلّه ، فأُمروا بالتظاهر لئلا يقلّ المدد ، وهذا الحكم باقٍ إلى وقتنا ؛ فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد ، وجب على عامة المسلمين متابعته لما ذكرنا . فعلى هذا ، الآية محكمة . قال أبو سليمان : لكل آية وجهها ، وليس للنسخ على إحدى الآيتين طريق .

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أنه لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين في غزوة تبوك ، قال المؤمنون : والله لانتخلّف عن غزوة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سريّة أبداً . فلما أرسل السرايا بعد تبوك ، نفر المسلمون جميعاً ، وتركوا رسول الله وحده ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رسول الله ﷺ لما دعا على مضر ، أجدبت بلادهم ؛ فكانت القبيلة منهم تُقبِلُ بأسرها إلى المدينة من الجُهد ، ويظهرون الإسلام وهم كاذبون ؛ فضيّقوا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن ناساً أسلموا ، وخرجوا إلى البوادي يعلّمون قومهم ، فنزلت :

(إلا تنفروا يعذبكم) [التوبة : ٣٩] ، فقال ناس من المنافقين : هلك من لم ينفر من أهل البوادي ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة .

والرابع : أن ناساً خرجوا إلى البوادي يعلّمون الناس ويهدونهم ، ويصيبون من الحطب ماينتفعون به ؛ فقال لهم الناس : مانراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا ؛ فأقبلوا من البادية كلهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد . قال الزجاج : ولفظ الآية لفظ الخبر ، ومعناها الأمر ، كقوله : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) [التوبة:١١٣] ، والمعنى : ينبغي أن ينفر بعضهم ، ويبقى البعض . قال الفراء : ينفِر وينفُر ، بكسر الفاء وضمها ، لغتان . واختلف المفسرون في المراد بهذا النفير على قولين .

أحدهما : أنه النفير إلى العدو ، فالمعنى : ماكان لهم أن ينفروا بأجمعهم ، بل تنفر طائفة ، وتبقى مع النبي ﷺ طائفة . (ليتفقّهوا في الدين) يعني الفرقةَ القاعدين . فاذا رجعت السرايا ، وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدَّد أمر ، أعلموهم به وأنذروهم به إذا رجعوا إليهم ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس .

والثاني : أنه النفير إلى رسول الله ﷺ ، بل تنفر منهم طائفة ليتفقه هؤلاء الذين ينفرونَ ، ولينذروا قومهم المتخلّفين ، هذا قول الحسن ، وهو أشبه بظاهر الآية . فعلى القول الأول ، يكون نفير هذه الطائفة مع رسول الله ﷺ إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه . وعلى القول الثاني ، يكون نفير الطائفة إلى رسول الله لاقتباس العلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ

آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ . أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَيَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قد أُمِر بقتال الكفار على العموم، وإنما يُبتدأ بالأقرب فالأقرب . وفي المراد بمن يليهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الروم ، قاله ابن عمر . والثاني : قريظة ، والنضير ، وخيبر ، وفدك ، قاله ابن عباس . والثالث : الديلم ، قاله الحسن . والرابع : العرب ، قاله ابن زيد . والخامس : أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب ، قاله قتادة . وقال الزجاج : في هذه الآية دليل على أنه ينبغي أن يقاتِل أهل كل ثغر الذين يلونهم . قال : وقيل : كان النبي ﷺ ربما تخطَّى في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون ذلك أهيَبَ له ، فأُمر بقتال من يليه ليُستَنَّ بذلك . وفي الغلظة ثلاث لغات : غِلظة ، بكسر الغين ؛ وبها قرأ الأكثرون . وغَلظة ، بفتح الغين ، رواها جبلة عن عاصم . وغُلظة ، بضم الغين ، رواها المفضل عن عاصم . ومثلها : جِذوة وجَذوة وجُذوة ، ووِجنة وَوَجنة وُوجنة ، ورِغوة ورَغوة ورُغوة ، ورِبوة ورَبوة ورُبوة ، وقِسوة وقَسوة وقُسوة ، وإِلوة وأَلوة وأُلوة ، في اليمين . وشاة جِبْة وَجَبْة وجُبْة : قد ولّى لبنها . قال ابن عباس في قوله « غلظة » : شجاعة . وقال مجاهد : شدة .

قوله تعالى : (فنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) هذا قول المنافقين بعضهم لبعض استهزاءً بقول الله تعالى . (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) لأنهم

إذا صدّقوا بها وعملوا بما فيها ، زادتهم إيماناً . (وهم يستبشرون) أي : يفرحون بنزولها . (وأما الذين في قلوبهم مرض) أي : شك ونفاق .

وفي المراد بالرجس ثلاثة أقوال .

أحدها : الشك ، قاله ابن عباس . والثاني : الإثم ، قاله مقاتل . والثالث : الكفر ، لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أولا يرون) يعني المنافقين . وقرأ حمزة : « أولا ترون » بالتاء على الخطاب للمؤمنين . وفي معنى (يُفتَنُون) ثمانية أقوال .

أحدها : يكذبون كذبة أو كذبتين يُضِلّون بها ، قاله حذيفة بن اليمان .

والثاني : ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : يُبْتَلَوْنَ بالغزو في سبيل الله ، قاله الحسن ، وقتادة .

والرابع : يُفْتَنون بالسَّنَة والجوع ، قاله مجاهد .

والخامس : بالأوجاع والأمراض ، قاله عطية .

والسادس : يَنقضُون عهدهم مرة أو مرتين ، قاله يمان .

والسابع : يكفرون ، وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي ﷺ بما تكلّموا به إذ خَلَوْا ، علموا أنه نبي ، ثم يأتيهم الشيطان فيقول : إنما بلغه هذا عنكم ، فيشركون ، قاله مقاتل بن سليمان .

والثامن : يُفضَحون باظهار نفاقهم ، قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : (ثم لايتوبون) أي : من نفاقهم . (ولا هُمْ يذَّكَّرونَ) أي : يعتبرون ويتّعظون .

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) قال ابن عباس : كانت إذا أُنزلت سورة فيها عيب المنافقين ، وخطبهم رسول الله ﷺ وعرَّض بهم في خطبته ، شق ذلك عليهم ، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب ، يقولون : (هل يراكم من أحد) من المؤمنين إن قمتم ؟ فان لم يرهم أحد ، خرجوا من المسجد . قال الزجاج : كأنهم يقولون ذلك إيماءً لئلا يعلم بهم أحد ، (ثم انصرفوا) عن المكان ، وجائز عن العمل بما يسمعون . وقال الحسن : ثم انصرفوا على عزم التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به .

قوله تعالى : (صرف الله قلوبهم) قال ابن عباس : عن الإيمان . وقال الزجاج : أضلَّهم مجازاة على فعلهم .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفُسكم) قرأ الجمهور بضم الفاء . وقرأ ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيصن ، ومحبوب عن أبي عمرو : بفتحها . وفي المضمومة أربعة أقوال .

أحدها : من جميع العرب ، قاله ابن عباس ؛ وقال : ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولَدت رسولَ الله ﷺ .

والثاني : ممن تعرفون ، قاله قتادة .

والثالث : من نكاحٍ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قاله جعفر الصادق .

والرابع : بشر مثلكم ، فهو آكد للحجة ، لأنكم تفقهون عمَّن هو مثلكم ، قاله الزجاج . وفي المفتوحة ثلاثة أقوال .

أحدها : أفضلكم خُلُقاً . والثاني : أشرفكم نسباً . والثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل .

قوله تعالى : (عزيز عليه ماعنِتُّم) فيه قولان .

أحدهما : شديد عليه ما شقّ عليكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . قال الزجاج : شديد عليه عنتكم والعنت : لقاء الشدة .

والثاني : شديد عليه ما آثَمكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : (حريص عليكم) قال الحسن : حريص عليكم أن تؤمنوا .

قوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) قال ابن عباس : سماه باسمين من أسمائه . وقال أبو عبيدة : « رؤوف » فعول ، من الرأفة ، وهي أرقّ من الرحمة ؛ ويقال : « رؤف » ، وأنشد :

ترى للمؤمنين عليك حقاً كفعل الوالد الرؤف الرحيم [1]

وقيل : رؤوف بالمطيعين ، رحيم بالمذنبين .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فان تولَّوا) أي : أعرضوا عن الإيمان (فقل حسبيَ الله) أي : يكفيني (رب العرش العظيم) . وقرأ ابن محيصن : « العظيمُ » برفع

---

(١) البيت لجرير ديوانه : ٥٠٨ ، و « مجاز القرآن » ١٧١/١ ، و « اللسان » ، و « التاج » : رأف ، و « الخزانه » ١٦٨/٢ .

الميم . وإنما خص العرش بالذِّكر ، لأنه الأعظم ، فيدخل فيه الأصغر . قال أُبيّ بن كعب : آخر آية أُنزلت (لقد جاءكم رسول . . .) إلى آخر السُّورة [١] .

تم ـ بعون الله تبارك وتعالى ـ الجزء الثالث من « زاد المسير في علم التفسير » ويليه الجزء الرابع وأوله :

تفسير سورة (يونس)

★ ★ ★

(١) « الطبري » ١٤/٥٨٨ ـ ٥٨٩ ، والحاكم في « المستدرك » : ٢/٣٣٨ ، و « المسند » : ٥/١١٧ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان . قال الهيثمي في « المجمع » ٧/٣٦ : وهو ثقة سيء الحفظ وبقية رجاله ثقات ، ورواه أحمد في « المسند » : ٥/١٣٤ بأطول منه عن عمر ابن شقيق عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب ، ورجاله ثقات خلا عمر بن شقيق فانه مجهول .